

# مصر والشام

في عصر الأيوبيين والمماليك

تأليف  
دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور  
أستاذ تاريخ العصور الوسطى  
بجامعة القاهرة وبيروت العربية

١٩٧٢

دار النهضة العربية  
للطباعة والنشر  
بيروت ص.ب ٧٤٩



مَصْرُ وَالشَّامِ  
فِي عَصْرِ الْأَيُّوبِيِّينَ وَالْمَتَالِيكَ



# مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك

تأليف  
دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور  
أستاذ تاريخ العصور الوسطى  
بجامعة القاهرة وبيروت العربية

١٩٧٢

دار النهضة العربية  
للطباعة والنشر  
بيروت من ب. ٧٤٩



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ





## الباب الأول

### الدولة الأيوبية

## الفصل الأول

### مولد الدولة

إذا كنا قد أفضنا بعض الشيء في الكلام عن عظمة الدولة الفاطمية وهدى ما أصابته دهر من تقدم حضارى على أيام الفاطميين ، فإن هناك حقيقة يجب ألا تغيب عن أبصارنا ، هي أن منطقة الشرق الأدنى شهدت أواخر العصر الفاطمي تحولا خطيرا نتيجة لنجاح الصليبيين في الاستقرار في قلب تلك المنطقة . وقد سبق أن أشرنا إلى أن الدولة الفاطمية كانت في خريف عمرها عندما ظهر الخطر الصليبي ، وكيف أنها عجزت عن نهم طبيعة ذلك الخطر في الوقت المناسب ، بل فشلت في صد هذا الخطر وفي حماية نفسها منه .

ومعنى هذا كله أنه صار عليها أن تتنحى ، وتفسح المجال لقوة أخرى فتية تحمل حملها ، وتستطيع أن تنهض بأمانة الجهاد .

وزاد الموقف سوءاً بالنسبة للمسلمين في الشرق الأدنى في أواخر القرن الخامس الهجرى ( الحادى عشر الميلاد ) تفكك دولة السلاجقة بعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ ( ١٠٩٢م ) ، وهي الدولة التي سبق أن نفخت في العالم الإسلامى في الشرق الأدنى روحا جديدة مكنت المسلمين من الصمود في وجه الروم ، بل مهاجمتهم في عقر دارهم . وكان أكبر مظهر لانحلال سلطان السلاجقة - وخاصة في بلاد الشام والعراق - ظهور عدد

كبير من البيوت الحاكمة ، لا تجمعها رابطة إلا الاتساب إلى البيت السلجوقي الكبير ، ومن تلك البيوت ظهرت وحدات سياسية أطلق عليها اسم اتابكيات ، وعلى أصحابها اسم أتابكة ، وبعض هذه الوحدات صغيرة جداً لا تتعدى حدودها أسوار مدينة أو قلعة واحدة<sup>(١)</sup> .

ومن أبرز تلك الأتابكيات أتابكية دمشق - ومؤسسها ظهير الدين طغتكين - وقد استمرت من سنة ٤٩٨ هـ حتى ٥٤٩ هـ (١١٠٤ - ١١٥٤)<sup>(٢)</sup> أما أتابكية الموصل فمؤسسها عماد الدين زنكي ، وقد استمرت من سنة ٥٢١ هـ حتى سنة ٦٦١ هـ (١١٢٧ - ١٢٦٢ م) .

وإلى زنكي هذا ترجع البذور الأولى للجهة الإسلامية المتحدة في الشرق الأدنى ، لأنه كان يحمل تقليداً من سلطان السلاجقة بحكم حلب فضلاً عن الموصل ، ومعنى ذلك أن نفوذه امتد من شمال العراق إلى شمال الشام . وكان زنكي يتطلع إلى إتمام الجهة الإسلامية عن طريق ضم الإمارات الإسلامية المجاورة - وبخاصة أتابكية دمشق - لولا قتله المفاجيء سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦ م) بعد سنتين من استيلائه على الرها من الصليبيين<sup>(٣)</sup> .

ولسكن نور الدين محمود - ابن عماد الدين زنكي - حمل الأمانة ، واستولى على دمشق سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) ومن ثم أخذ يتطلع إلى مصر لتمتد الجهة الإسلامية المتحدة من الفرات إلى النيل<sup>(٤)</sup> .

ولم تلبث أن غدت مصر - كما سنرى بالتفصيل بعد أسطر قليلة -

---

(١) لتابك لفظ تركي معناه « مربي الملك » ، فكان آل سلجوق إذا امتاز أحد قادتهم وأرادوا تشریفه أضفوا عليه هذا اللقب إماناً في تكريمه .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ١١٦ .

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٤ .

(٤) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ١٠٧ ، الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٤٩ هـ .

ميدانا لصراع طويل بين قوات نور الدين محمود وقوات الصليبيين ، في الوقت الذي كانت الخلافة الفاطمية نفسها لا تقوى على مجرد الحركة . وهذا يتطلب منا إلقاء نظرة سريعة على موقف الصليبيين — الذين استقروا في بلاد الشام — من مصر وأرض النيل .

### مصر والحروب الصليبية:

ترتب على الحركة الصليبية التي بدأت في أواخر القرن الخامس الهجري ( الحادى عشر للميلاد ) نتائج بعيدة المدى في تاريخ الشرق والغرب جميعاً ، ويهمننا من هذه النتائج في دراستنا هذه ما يرتبط بالجانب السياسى . ذلك أن الأوضاع السياسية في البلدان الإسلامية في الشرق الأدنى تعرضت لتغيرات وتطورات سريعة منذ وصول الصليبيين إلى الشام ؛ وهذه التغيرات والتطورات إنما جاءت إلى حد كبير واعدة الخطر الصليبي . فالصليبيون أنفسهم قضوا على كثير من الأتابكيات والإمارات الصغرى التي كانت قائمة في بلاد الشام عند وصولهم إلى تلك البلاد .

على أن انتصار الصليبيين على المسلمين في الحملة الصليبية الأولى ، ونجاحهم في تأسيس إمارات في الرها وأنطاكية وطرابلس ، فضلاً عن مملكة بيت المقدس ، كان له أثره السيئ . ورد فعله العنيف في العالم الإسلامى ، الأمر الذى استثار بعض الزعماء المخلصين في المشرق الإسلامى ودفعهم إلى القيام بحركة جهاد واسعة ضد الصليبيين . ولم تلبث أن أدت حركة الجهاد في القرن السادس الهجرى ( الثانى عشر للميلاد ) إلى بروز عماد الدين زنكى ثم ابنه نور الدين محمود على مسرح التاريخ في الشرق الأدنى . وسرعان ما اتضح أن نجاح حركة الجهاد الإسلامية لا يتحقق إلا في ظل جبهة إسلامية متحدة ، توحد بين القوى الإسلامية المبعثرة بين النيل والفرات ، وتجعل من هذه القوى بنياناً مرصوماً يستطيع الصمود في وجه الخطر الصليبي . وكانت هذه الفكرة — فكرة الجبهة الإسلامية المتحدة — هى المحرك الأول الذى جعل

نور الدين محمود يتجه ببصره شطر مصر بعد أن تم له الاستيلاء على دمشق سنة ٥٤٩ هـ ( ١١٥٤ م ) وأصبح يسيطر على المدن الكبرى في الشام مثل حلب ودمشق<sup>(١)</sup> . وسنتكم فيما بعد عن تدخل نور الدين محمود في شؤون مصر ، لنوضح كيف انتهى ذلك التدخل بسقوط الخلافة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية . ولكن الذى نحب أن نؤكد الآن هو أن التطورات السياسية التى انتهت بقيام الدولة الأيوبية ، إنما جاءت نتيجة مباشرة من نتائج الحركة الصليبية .

والواقع إن الصليبيين لم يقلوا طمعاً فى ملك مصر عن نور الدين ؛ بل إن الصليبيين سعوا لإمتلاك مصر منذ الوقت الذى استقرت لهم الأمور فى بيت المقدس . من ذلك إن جودفرى دى بوايون — أول حكام دولة الصليبيين فى بيت المقدس — وضع مشروعاً للاستيلاء على مصر ولكنه توفى سنة ٤٩٤ هـ ( ١١٠٠ م ) قبل أن يبدأ فى تنفيذ مشروعه . وعندما خلفه أخوه بلدوين الأول ، خرج هذا الملك الجديد سنة ٥١٠ هـ ( ١١١٦ م ) للقيام بحملة استطلاعية ، فوصل إلى أيله على شاطئ البحر الأحمر ، ثم اتجه إلى دير القديسة كاترينا فى شبه جزيرة سيناء ، فرفض رهبان الدير أن يستضيفوه فى ديرهم خوفاً من السلطات الفاطمية فى القاهرة ، وعندئذ عاد واتجه نحو الفرما واستولى عليها ونهبها ، ثم تقدم إلى تنيس على شاطئ بحيرة المنزلة حيث مرض وتوفى بالعريش وهو فى طريق عودته سنة ٥١٢ هـ ( ١١١٨ م )<sup>(٢)</sup> .

ومنذ ذلك الوقت لم يتخل الصليبيون عن فكرة الاستيلاء على مصر ، حتى كان منتصف القرن السادس الهجرى (الثانى عشر للميلاد) عندما رأى نور الدين محمود أن الجبهة الإسلامية المتحدة لاقتدير حلقها وتكتمل

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٦٦٦ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٣٢٨ — ٣٢٩ .

إلا بالاستيلاء على مصر بالذات، الأمر الذي جعل من مصر ميداناً رئيسياً في الصراع بين نور الدين محمود والصليبيين .

وفي أوائل سنة ٥٥٧ هـ ( ١١٦٢ م ) توج عموري الأول ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية، فكان ذلك بداية مرحلة جديدة في تاريخ العلاقات بين الصليبيين ومصر . ذلك أن عموري الأول اتصف بالشجاعة والجرأة والدهاء ، وهي صفات أجمع على وصفه بها المؤرخون المعاصرون من المسلمين والمسيحيين سواء<sup>(١)</sup> . وقد أدرك عموري أن سيطرة نور الدين محمود على حاب وحماء وحمص ودمشق قد حالت دون توسع الصليبيين في شمال الشام ، وأن الطريق الطبيعي الذي بقي مفتوحاً أمام الصليبيين هو طريق مصر .

وكانت الدولة الفاطمية في ذلك الوقت تقاسم آلام المرت البطية ، بعد أن انحلت الخلافة وفقدت هيبتها واختلت أحوال مصر الداخلية . ولا أدل على انحلال الدولة الفاطمية عندئذ من نهاية كثير من الخلفاء بالقتل فضلاً عن تحكّم الوزراء العظام في شؤون الدولة والخلافة جميعاً . وقد حدث أن مات الخليفة الظافر مقتولاً سنة ٥٤٩ هـ ( ١١٥٤ م ) ، فاستبد بالأمور في مصر الوزير طلائع بن رزيق - الأرمي الأصل . وكان الخليفة الفائز - ابن الظافر - طفلاً صغيراً لا يمتلك من الخلافة إلا لقبها . وعندما توفي الفائز وهو في الحادية عشر من عمره سنة ٥٥٥ هـ ( ١١٦٠ م ) أقام طلائع في الخلافة الخليفة العاضد الذي كان هو الآخر صغيراً في السن ، مما مكن الوزير من اللام بالخلافة واستعراض المرشحين لها واستعراض الغنم ، على حد قوله<sup>(٢)</sup> . ولم يلبث أن أحس الخليفة العاضد بثقل ذلك

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٥٦٤ هـ .

Grousset: Hist. des Croisades, II, pp. 438-442.

(٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٥٥٦ هـ .

الكابوس ، فدبر مؤامرة مع الأمراء لقتل بن رزيك ونجحت المؤامرة سنة ٥٥٦ هـ ( ١١٦١ م ) ، فخلف ابن رزيك في منصب الوزارة ابنه العادل ، حتى قتله شاور حاكم الصعيد وتولى الوزارة بدله سنة ٥٥٨ هـ ( ١١٦٣ م ) . ثم كان أن استبد شاور وساءت سيرته ، فخرج عليه ضرغام واشتد التنافس بين الرجلين ، في الوقت الذي أخذ عموري الأول ملك بيت المقدس يتطلع لغزو مصر .

وقد قام عموري بغزو مصر سنة ٥٥٨ هـ ( ١١٦٣ م ) فوصل إلى بلبيس وحاصرها ، ولكن ضرغام أرغمه على الانسحاب ، في الوقت الذي كان شاور قد لجأ إلى نور الدين محمود بالشام واطمعه في الديار المصرية<sup>(١)</sup> . وكانت غزوة عموري لمصر قد أفزعت نور الدين لأنها كشفت عن نيات الصليبيين في امتلاك وادي النيل ، ولذلك رأى نور الدين أن يسرع بإرسال جيوشه إلى مصر حمايتها من السقوط في أيدي الصليبيين .

وقد أرسل نور الدين حملته الأولى إلى مصر سنة ٥٥٩ هـ ( ١١٦٤ م ) بقيادة أسد الدين شيركوه وبصحبته شاور وصلاح الدين - ابن أخي شيركوه - وكان في السابعة والعشرين من عمره . وهنا استنجد ضرغام بالصليبيين ، وتعهد لعموري الأول - مقابل مساعدته - أن يعقد معه معاهدة تصبح مصر بمقتضاها تابعة للصليبيين<sup>(٢)</sup> . ولكن مهارة شيركوه وسرعة في قطع الصحراء رغم تقدم سنه جعلته يسبق الصليبيين في الوصول إلى الدلتا ، فانتصر على جيش أرسله ضرغام ، ونجح في الوصول إلى القاهرة في بداية ما يو سنة ٥٥٩ هـ ( ١١٦٤ م ) ولم يلبث أن تخلى عن ضرغام جميع الأعوان والناس والجيش والخليفة ، فقتل أثناء محاولته الفرار وتولى شاور الوزارة<sup>(٣)</sup> .

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٤٦ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦٨٣ .

(٣) أبو شامة : كتاب الرضتين في أخبار الدولتين سنة ٥٥٩ هـ .

على أن شاور لم يرع العمود التي قطعها على نفسه لنور الدين ، فلم يكذب  
يتولى الوزارة حتى تنكر لأسد الدين شيركوه وطلب منه الخروج من مصر .  
وقد رد شيركوه على تصرفات شاور غير الودية باحتلال بلبيس والشرقية ،  
فما جعل شاور يحاكي سلفه ضرغام ، فاستنجد بالصليبيين ووعدهم عموري الأول  
بإعطائه مبلغاً كبيراً من المال مقابل مساعدته . وسرعان ما حضر عموري  
الأول على رأس جيش صليبي كبير إلى الدلتا ، وعندئذ أخذ شيركوه يقوى  
مركزه في بلبيس بعد أن تلقى مساعدات من عرب كنانة بالشرقية . وعندما  
أخذت جيوش عموري وشاور تحاصر شيركوه في بلبيس ، تم الاتفاق على  
أن يغادر شيركوه وعموري مصر . وتم ذلك فعلاً في أواخر سنة ٥٥٩ هـ  
( ١١٦٤ م ) . وربما كان عموري الأول أكثر تلهفاً على العودة إلى الشام  
بعد أن انتهز نور الدين محمود فرصة غيابه وشدده هجماته على الصليبيين .

#### عودة شيركوه إلى مصر سنة ٥٦٢ هـ ( ١١٦٧ م ) :

ولكن إذا كانت جيوش نور الدين والصليبيين قد انسحبت جميعها من  
مصر سنة ٥٥٩ هـ ( ١١٦٤ م ) إلا أن الطرفين خرجا من تلك التجربة بفكرة  
واضحة عن ثروة مصر وغناها مع ضعفها الشديد . وتتفق المراجع العربية في  
أن شيركوه لم يغادر مصر سنة ٥٥٩ هـ ( ١١٦٤ م ) إلا مكرها وأنه ما فتئ  
يذكر مصر عقب عودته إلى بلاد الشام ويرجو أن يعود إليها مرة ثانية<sup>(١)</sup> .  
والكن نور الدين محمود كان حريصاً دائماً على عدم تشتيت قواته ، في الوقت  
الذي كثرت الاشتباكات بينه وبين الصليبيين بالشام .

ولا يخفى علينا أن هناك سبب قوى ربما حرك عند نور الدين الرغبة  
في غزو مصر ، وأعنى بذلك العامل المذهب . ذلك أن الخلافة الفاطمية في

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٢ هـ ، أبو الحسن : النجوم ج ٥ ص ٢٤٨

مصر كانت مصدر أمن مصادر الفرقة في العالم الإسلامي، لأنها جعلت ولاء المسلمين في الشرق الأدنى تنقسمه خلافتان ومذهبان، إحداهما الخلافة العباسية السنية في بغداد والأخرى الخلافة الفاطمية الشيعية في القاهرة. لذلك كان من الطبيعي أن يتجه نور الدين - وهو الحاكم السني الحريص على تدعيم الجبهة الإسلامية المتحدة وجعلها تمتد من النيل إلى الفرات - إلى التفكير في القضاء على الخلافة الفاطمية في القاهرة.

وكان أن أتت الفرصة مرة أخرى لنور الدين محمود عندما أرسل إليه الخليفة العاضد الفاطمي يشكو من استبداد شاور وظلمه. ولم يكن نور الدين في حاجة إلى مزيد من التحريض ضد شاور، إذا كان في قلبه منه حزازة لسكونه غدر بأسد الدين شيركوه، واستنجد عليه بالفرنج،<sup>(١)</sup> لذلك بادرنور الدين بإرسال حملة شيركوه الثانية على مصر سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م)، وكان بصحبة شيركوه في تلك المرة أيضاً ابن أخيه صلاح الدين. ويبدو أن شيركوه عمل حساباً لاستنجد شاور بالصلبيين، فلم يشأ أن يغامر بقواته في القيام بهجوم على القاهرة، واختار أن يعبر النيل إلى الجزيرة حيث عسكر في مواجهة الفسطاط على الضفة الغربية للنيل، وعندئذ أخذ الخليفة الفاطمي يدرك أن خطر قوات نور الدين عليه وعلى خلافته لا يقل عن خطر شاور والصلبيين. وقد صح ما توقعه شيركوه، إذ استنجد شاور بعموري الأول ملك بيت المقدس الذي أسرع في نهاية سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) ليغزو مصر بجيوشه للمرة الثالثة. وعندما علم شاور بوصول حلفائه خف لاستقبالهم عند بلبس واتجه معهم حيث عسكروا على الضفة الشرقية للنيل، في حين كان شيركوه لا يزال معسكراً على الضفة الغربية. وفي هذه المرة أراد الصليبيون أن يعقدوا اتفاقه مع شاور تضمن لهم أجرهم

---

(١) أبو الحسن: النجوم ج ٥ ص ٣٤٨.



قبل أن يساعده في محاربة شيركوه ، فتعهد لهم شاور بدفع أربعمائة ألف دينار في حالة بقائهم حتى طرد شيركوه من مصر ، على أن يدفع نصف هذا المبلغ مقدماً<sup>(١)</sup> . ومن الواضح أن هذه الاتفاقية جعلت من الصليبيين حماة مصر والخلافة الفاطمية . ولذلك رحب بها الصليبيون ، وحرص عموري الأول على إعطائها صفة رسمية . فأرسل سفارة إلى الخليفة الفاطمي زارته في قصره حيث تم اعتماد الاتفاق .

ولم تلبث أن أخذت قوات عموري وشاور تستعد لعبور النيل لمهاجمة شيركوه ، بل أنهم عبروا فعلاً إلى جزيرة الروضة ، وعندئذ أدرك شيركوه حرج موقفه فأتجه إلى الصعيد حيث لحق به عموري الأول وشاور . وكان أن دارت معركة بين الطرفين قرب الأشمونين في المنيا ، وهي معركة البابين ٥٦٢ هـ ( مارس ١١٦٧ م ) التي اشترك فيها صلاح الدين ، والتي انتهت بانتصار شيركوه وارتداد عموري حيث عسكر على الضفة الشرقية للنيل قرب القسطنطينية<sup>(٢)</sup> . وكان من المحتمل أن ينجح شيركوه في امتلاك القاهرة لو اقتفى أثر عموري في الحال ، ولكنه تباطأ وآثر أن يسير على الضفة الغربية للنيل ليحتل الاسكندرية التي تلقاه أهلها طائعين ، ورحبوا به معبرين عن استيائهم من تحالف شاور مع الصليبيين<sup>(٣)</sup> .

ويبدو أن شيركوه خاف أن يحصره الصليبيون ومعه جميع قواته داخل الاسكندرية ، فترك صلاح الدين في الاسكندرية ترافقه قوة صغيرة ، في حين أتجه شيركوه نفسه إلى الصعيد وسيطر عليه . وقد حدث ما توقعه شيركوه إذ خرج عموري لحصار صلاح الدين بالاسكندرية ، فساءت حالة المدينة

(١) Schlumberger: Campagnes du Roi Amoury I, p. 116.

(٢) ابن الأثير: تاريخ الدولة الأتابكية . Rec. Hist. Cr. II, pp. 231-239.

(٣) أبو أشامة: الروضتين ص ١٤٥ ، أبو المحاسن: النجوم ج ٥ ص ٣٤٩ .

وقل الطعام بها حتى تخرج موقف صلاح الدين الذي لم يكن معه أكثر من ألف جندي. وقد أرسل صلاح الدين إلى عمه بالصعيد يشرح له سوء موقفه، ويطلب منه النجدة العاجلة، فاضطر شيركوه إلى العودة شمالاً في أواخر سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م). ويبدو أن شيركوه أدرك في تلك المرحلة حرج موقفه، فأرسل إلى الصليبيين يطلب الصلح، وتم الاتفاق - مثل المرة السابقة - على تبادل الأسرى، وعلى أن يترك الطرفان مصر لينعم بها شاور من جديد. وليس هناك من شك في أن الذي شجع عموري على قبول طلب الصلح هو إحساسه بسوء موقف الصليبيين بالشام في ذلك الوقت، تحت ضغط هجمات نور الدين محمود. ولكن إذا كان عموري قد غادر مصر فعلاً، فإنه لم يفعل ذلك إلا بعد أن حقق نوعاً من السيادة الصليبية على شاور والخلافة الفاطمية جميعاً. وأهم مظاهر هذه السيادة هي تعهد الفاطميين بدفع جزية سنوية للصليبيين قدرها مائة ألف دينار، وبقاء قوة صليبية تحمي أبواب القاهرة، فضلاً عن تعيين شحنة (مندوب) للملك الصليبي في القاهرة يكون له رأى مسموع في شؤون الحكم<sup>(١)</sup>.

#### استيلاء نور الدين على مصر :

على أنه إذا كان عموري الأول قد خرج من مصر مضطراً سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) فليس معنى ذلك أنه تخلى عن فكرة الاستيلاء عليها، لا سيما وأن تردد الصليبيين على مصر في حملات السابقة أدى إلى أن داطعوا على عورتها وطمعوا فيها، على قول المؤرخ أبي المحاسن<sup>(٢)</sup>. وقد أدرك عموري الأول أنه في حاجة إلى مساعدة قوة خارجية تمسكه من الاستيلاء على مصر، فتحالفت مع الإمبراطورية البيزنطية، وتم الاتفاق على أن تقوم

(١) ابن الأثير : تاريخ الدوله الأتابكية (Rec. Hist. Cr. II, pp. 240-246)

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٥٠ .

القوات الصليبية البيزنطية بغزو مصر . ويبدو أن الامبراطور البيزنطي كان مشغولاً في البلقان عندئذ ، فطالب إمامه بعض الوقت لينفذ اتفاقته مع عموري ضد مصر ، ولكن عموري لم يشأ الانتظار وانفرد بالهجوم على أرض النيل . أما النسب الذي جعل عموري يسرع بالهجوم ، فكان تنكر شاور لإلتزاماته للصليبيين وعدم وفائه بتعهداته ، بل إن شاور اضطر تحت ضغط الرأي العام الإسلامي إلى أن يقلب سياسته رأساً على عقب ، فاتصل بنور الدين محمود طالباً مساعدته للتخلص من الحماية الصليبية (١) .

وعندما غزا عموري مصر للمرة الرابعة سنة ٥٦٤ هـ ( ١١٦٨ م ) لمس انقلاباً كبيراً في موقف السلطات الحاكمة ، إذ قاومته بليس واضطر إلى استخدام العنف للإستيلاء عليها ، ثم تقدم مسرعاً صوب القاهرة . وكان أن لمس شاور حرج موقفه واستياء الناس من سياسته فأحرق القسطنطين في نوفمبر سنة ٥٦٤ هـ ( ١١٦٨ م ) وبدأ يعد العدة للدفاع عن القاهرة .

ولم يلبث أن أدرك عموري صعوبة الاستيلاء على مدينة كبيرة معادية مثل القاهرة ، فراجع عنها بعد أن دفع له شاور مائة ألف دينار ، واتجه الصليبيون إلى جهة سرياقوس حيث سمعوا باقتراب جيوش نور الدين محمود بقيادة شيركوه .

وكانت خطة عموري تتجه إلى مباغته جيوش شيركوه عندفاقوس وهي متعبة ، قبل أن تتمكن هذه الجيوش من الاتحاد مع القوات المصرية . ولكن هذه الخطة انهارت من أساسها عندما علم عموري أن شيركوه اخترق الصحراء إلى القاهرة حيث رحب به الأهالي والتفوا حوله لحمايتهم من الصليبيين . وهكذا لم يجد عموري في تلك المرة حليفاً يعتمد عليه في مصر ، إذ اتحد المسلمون جميعاً ضده ، فلم يبق أمامه سوى أن ينسحب فوراً عائداً إلى فلسطين في يناير سنة ١١٦٩ م ( ٥٦٤ هـ ) ومعه رجاله « خايين بما أملوه » (٢) .

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين .

(٢) ابن الأثير : الكامل سنة ٥٦٤ هـ ، تاريخ الدولة الأتابكية P. 250

أما شيركوه فقد « فقد فرح به أهل مصر » واستقبلوه استقبال البطل  
المتخلص عند وصوله إلى القاهرة. وسرعان ما استدعاه الخليفة العاضد الفاطمي  
وخلع عليه خلعة الوزارة واقبته بالمنصور، وأخذ أرباب الدولة يترددون  
عليه لقضاء حوائجهم . وكان من الطبيعي أن يحس شاور بخطر شيركوه ،  
لأسيما بعد أن رأى تأييد الخليفة العاضد له . لذلك أرسل شاور مرة أخرى  
إلى الصليبيين يستدعيهم لنجدته ويطلب منهم الحضور إلى مصر عن طريق  
دهياط<sup>(١)</sup> . بل إن شاور دبر مؤامرة للقبض على شيركوه وأمرائه وقتلهم  
جميعاً أثناء وليمة يولمها لهم . وكان شاور قد تعهد بدفع ثلث أموال البلاد  
لشيركوه، فلما أرسل له الأخير يطلب منه الوفاء بوعده، أخذ يماطل لكسب  
الوقت ، انتظاراً لوصول الصليبيين لنجدته . وأخيراً اجتمع أعيان مصر  
وقالوا لشيركوه إن « شاور سبب فساد البلاد والعباد » وطالبوا بقتله  
وإنقاذ المسلمين من شره<sup>(٢)</sup> .

وهكذا انتهى الأمر بقتل شاور وولده الكامل في يناير سنة ١١٦٩م.  
( ز ٥٦٤ هـ ) وشارك الخليفة الفاطمي نفسه في التخلص منه . أما شيركوه فقد  
دخل على رأس قواته — وبصحبته ابن أخيه صلاح الدين — القاهرة دخول  
الظافرين ، حيث أباح للناس نهب قصر شاور . على أن شيركوه لم يلبث أن  
توفي بعد شهرين ( مارس ١١٦٩ م ) خلفه في الوزارة ابن أخيه صلاح  
الدين<sup>(٣)</sup> .

(١) أبو المعامير : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٥١ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٠٠ — ٧٠١ .

(٣) ابن الأثير : الكامل سنة ٥٦٤ هـ

## ظهور صلاح الدين :

كان جيش شيركوه في مصر يضم جماعة من أكبر الأمراء النوريه الذين تطلعوا جميعاً إلى منصب الوزارة عقب وفاة شيركوه ، ولكن المراجع المعاصرة تؤكد أن الخليفة العاضد الفاطمي أصر على اختيار صلاح الدين للوزارة ، ولما تمنع ، ألزم به وأحضر إلى القصر وخلعت عليه خلع الوزارة ، وربما ظن العاضد الفاطمي أن صغر سن صلاح الدين وعدم خبرته ستجعله أداة سهلة في يد الخليفة ، يستعين به في القضاء على بقية أمراء نور الدين في مصر ، وبذلك يكون قد تخلص من نفوذ نور الدين وخطر شاور جميعاً<sup>(١)</sup> .

ولكن صلاح الدين لم يكف يتولى الوزارة حتى خيب ظن الخليفة الفاطمي ، فشرع في استمالة الناس إليه بما بذله من أموال كان شيركوه قد جمعها ، فمال الناس إليه وأحبوه ، وضعف أمر العاضد ، ثم أن صلاح الدين أخضع ممالك شيركوه وسيطر سيطرة تامة على الجند ، في الوقت الذي أمده نور الدين محمود بقوة جديدة من العسكر فيها شمس الدولة توران شاه أخو صلاح الدين . وبفضل ذلك كله تمكن صلاح الدين من القضاء على قوة الجند السودان الذين كانوا آخر سلاح اعتمد عليه الخليفة العاضد الفاطمي<sup>(٢)</sup> .

وكان البلاط الفاطمي في ذلك الوقت مركزاً لكثير من الفتن والمؤامرات ، ولا يحجم رجاله عن الاستعانة بالأعداء في سبيل تحقيق مصالح خاصة مؤقتة . من ذلك أن رئيس بلاط قصر الخليفة العاضد — وكان خصياً نوبياً اسمه مؤتمن الخلافة — استاء من صلاح الدين عندما ثقلت وطأته على أهل القصر ، فدبر مؤامرة للخلاص منه ، وحاول أن يتصل بعموري الأول والصليبيين

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٠٦ — ٧٠٧ . ٠

(٢) ابن واصل : مفرج السكروب ج ١ ص ١٧٤ ( مطبوع ) .

للحصول على معونتهم. ولكن رسالة مؤتمن الخلافة إلى عموري وقعت في يد صلاح الدين ، الذي رأى أن يستأصل الشر من جذوره ويقضى على أية محاولة للعودة إلى سياسة ضرغام وشاور ، فقتل مؤتمن الخلافة فوراً في ٢٠ أغسطس سنة ١١٦٩ م ( ٥٥٦٤ )<sup>(١)</sup> .

ثم لجأ صلاح الدين إلى ابعاد جميع الخدم (الخصيان) السودان عن قصر الخلافة الفاطمية ، الأمر الذي أثارهم ، فقاموا بثورة كبيرة في القسطنطينية بعد أن تجمعوا فبلغ عددهم خمسين ألفاً . وقد اضطر صلاح الدين لإخماد هذه الثورة إلى إشعال النار في محلاتهم التي اعتصموا فيها ، فطلبوا الأمان في أواخر أغسطس سنة ١١٦٩ م ( ٥٥٦٤ ) وانتقلوا إلى الجزيرة على الضفة الغربية للنيل . ولكن صلاح الدين أرسل إليهم أخاه توران شاه في طائفة من العسكر ، فأبادهم بالسيف ،<sup>(٢)</sup> . وكذلك فعل صلاح الدين بحرس الخليفة الأرمن ، إذ أشعل النار في ثكناتهم وقبض عليهم حتى لا يعطيهم فرصة للقيام بما قام به السودان . وبذلك قضى صلاح الدين على عناصر الخيانة ، وأدب القوى التي حاولت الوقوف في وجه آماله ومشاريعه . ولم يبق أمام صلاح الدين إلا كبار الإقطاعيين وملاك الأراضي الذين دفعهم الحرص على ممتلكاتهم وضياعهم الواسعة إلى مساندة الأرضاع القائمة ، فتخلص صلاح الدين من هؤلاء أيضاً وأحل محلهم في اقطاعاتهم جماعة من رجاله من أهل الشام .

على أنه يلاحظ أن صلاح الدين قام بأعماله السابقة في ذلك الدور بوصفه نائباً عن نور الدين محمود ، لا باسم الخليفة الفاطمي بوصفه وزيراً له . وبصارة أخرى فإن صلاح الدين استطاع حتى تلك المرحلة أن يحتفظ بعطف نور الدين وعدم إثارة مخاوفه نتيجة للخطوات السريعة الناجحة التي دعم بها

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٦٤هـ، أبو شامة: كتاب الروضتين ص ١٧٨ .

(٢) ابن واصل: فرج الكروب . ج ١ ص ١٧٦ — ١٧٧ (مطبوع) .

سلطانة في مصر . والواقع إن صلاح الدين كان لا يستطيع بأي حال أن يستغنى عن معونة سيده نور الدين في ذلك الدور المبكر من كفاحه ، لاسيما وأنه واجه صعاباً عديدة داخل مصر في الوقت الذي أخذ الصليبيون يتحفزون على الحدود الشرقية للبلاد<sup>(١)</sup> .

### الصليبيون ومهاجمة مصر :

ومن الواضح أن نجاح قوات نور الدين محمود في السيطرة على مصر آثار فزع الصليبيين بالشام بعد أن أحسوا بوقوعهم بين شقي الرحى . هذا إلى أن سيطرة قوات نور الدين على القواعد البحرية في شمال مصر — وبخاصة دمياط والاسكندرية — كان من شأنها أن تسلب الصليبيين سيادتهم البحرية على الجزء الشرقي من حوض البحر المتوسط .

وعندما فشل عموري الأول ملك بيت المقدس في الحصول على معونة سريعة من غرب أوروبا ، اتجه صوب الامبراطورية البيزنطية طالباً عقد تحالف بين القوتين لغزو مصر واقتسامها<sup>(٢)</sup> . وكان أن أعد الامبراطور البيزنطي مانويل كومنين أسطولاً كبيراً غادر الدردنيل في يوليو سنة ١١٦٩م (٥٥٦٤هـ) قاصداً قبرس ومنها إلى صور ثم عكا للاتفاق مع الصليبيين على الخطة المشتركة لغزو مصر .

وقد تم الاتفاق في هذه الخطة على غزو مصر براً وبحراً عن طريق دمياط ، فأقلع الأسطول البيزنطي صوب دمياط ، في حين زحف الصليبيون براً في أكتوبر سنة ١١٦٩م (٥٥٦٥هـ) من عسقلان إلى الفرما قاصدين دمياط ومعهم المنجنيقات والدبابات وآلات الحصار<sup>(٣)</sup> ؛ في حين

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٠٩ .

(٢) Guillaume de Tyr (R. Hist. Cr. II, p. 961). (٢)

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٨٠ (مطبوع) .

وقف الأسطول البيزنطى عاجزاً عن دخول الميناء بسبب المآصر ، وهى السلاسل الحديدية الممتدة فى الماء بعرض الميناء لتمنع دخول سفن الأعداء. وعندما علم صلاح الدين بتحركات الصليبيين ، ظن فى أول الأمر أنهم سيقصدون القاهرة عن طريق الشرقية ، كما فعل عمورى فى حملاته السابقة . لذلك أسرع صلاح الدين إلى تحصين بلبيس والقاهرة فضلاً عن الاسكندرية وغيرها من المراكز الأمامية . فلما اتجهت الحملة إلى دمياط وجد صلاح الدين نفسه فى موقف حرج ، لاسيما وأنه كان يخشى باستمرار نشوب ثورة ضده فى الداخل نتيجة للإستياء من سياسته تجاه خصيان القصر والجند السودان.

ومع ذلك ، فإن صلاح الدين ثبت للموقف وطلب النجدة العاجلة من نور الدين « فسير نور الدين العساكر إليه أرسالا يتلو بعضها بعضاً ، » (١) . وفى الوقت نفسه كان تقي الدين عمر — ابن أخى صلاح الدين — وخاله شهاب الدين ، قد استطاعا دخول دمياط ، فواصل صلاح الدين إرسال الإمدادات إليهما عن طريق النيل ، مما جعل حصار الصليبيين للمدينة غير تام . هذا إلى أن أهل دمياط المحاصرين استغلوا جريان تيار النيل من الجنوب إلى الشمال وأطلقوا على سطح الماء أوانى فخارية بها مواد مشتعلة، أنزلت أبلغ الضرر بالأسطول البيزنطى، فاضطروا إلى الابتعاد عن لسان النيل والمدينة (٢) .

ولم يلبث أن نفذ تموين الأسطول واشتد القلق بعمورى نتيجة للأخبار التى بلغته عن ازدياد هجمات نور الدين على الصليبيين بالشام . لذلك رفع عمورى الحصار عن دمياط ، وعاد معه جيوشه إلى عسقلان فى أواخر ديسمبر سنة ١١٦٩ م ( ٥٥٦٥ ) ترافقهم خيبة الأمل ، فى الوقت الذى

(١) ابن الأثير : الكامل سوادث سنة ٥٦٥ هـ .

(٢) Guillaume de Tyr (Rec. Hist. Cr. II, p. 968).



لم يستطع بحارة السفن البيزنطية التحكم فيها بسبب اشتداد الرياح، مما أدى إلى غرق كثير منها .

ولا شك في أن فشل هذه الحملة الصليبية البيزنطية أدى إلى تدعيم مركز صلاح الدين في مصر ، وجعل الخلافة الفاطمية تفقد آخر أمل تقي لها في التخلص من قبضته القوية . وكان أن أرسل الخليفة العاضد الفاطمي — عقب انسحاب الصليبيين — إلى نور الدين، يرجوه سحب جنده الأتراك من القاهرة بحجة أنهم بثوا الرعب في قلوب أهلها . ولكن نور الدين أرسل إليه يعتذر عن عدم إجابته إلى طلبه ، ويوضح له أن بقاء أولئك الجند أمر ضروري لحماية مصر من خطر الصليبيين<sup>(١)</sup> .

#### سقوط الخلافة الفاطمية :

وفي الوقت الذي شدد نور الدين محمود هجماته على الصليبيين بالشام، كما استولى على الموصل سنة ٥٦٦هـ (١١٧١م) ، كانت هناك مشكلة كبرى لها خطورتها تفاق بال نور الدين وصلاح الدين جميعاً . وأعنى بهذه المشكلة — التي تطلبت حلاً سريعاً حاسماً وضع الخلافة الفاطمية الشيعية تحت حماية قوة كبرى تدين بالمذهب السني . فنور الدين محمود كان سنياً ، وازدادت علاقته قوة بالخلافة العباسية وتقديرها له عقب استيلائه على الموصل<sup>(٢)</sup> . أما صلاح الدين في مصر فلم يكن أقل تحمساً للمذهب السني لأنه كان شافعيّاً مخلصاً، مما دفعه — منذ أن استتب له الأمور في مصر — إلى العمل على تدعيم المذهب السني في البلاد . هذا كله والخليفة الفاطمي في قصره عاجز عن مقاومة الوضع الجديد . ومع ذلك يبدو أن صلاح الدين ظل متخوفاً من

(١) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ١٨١ .

(٢) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٥٦٦ هـ .

الإقدام على الخطوة الكبرى الخاصة باسقاط الخلافة الفاطمية . كما يبدو أن مخاوف صلاح الدين لم يكن مرجعها قوة الشيعة في مصر ، بقدر ما كان التخوف من نوايا نور الدين . ذلك أن صلاح الدين أخذ يحس في ذلك الدور بتغير شعور سيده نور الدين نحوه ، وأنه بات يحسده على مكانته في مصر ، ويعمل حساباً لازدياد نفوذه في وادي النيل ، ولذلك رأى صلاح الدين أن يبقى على الخلافة الفاطمية في صورتها الشكلية ليستطيع أن يستغلها عند الحاجة ، إذا تآزم الموقف بينه وبين نور الدين<sup>(١)</sup> .

وكان أن أخذ صلاح الدين يماطل سيده نور الدين عندما طلب منه الأخير القضاء على الخلافة الفاطمية تحقيقاً للوحدة المذهبية في العالم الإسلامي . ولكن نور الدين لم يعد يحتفل بالمطالة ، فأرسل إنذاراً نهائياً في صيف سنة ١١٧١ م ( ٥٦٦ هـ ) إلى صلاح الدين يأمره بإحلال اسم الخليفة العباسي المستضيء محل اسم الخليفة الفاطمي العاضد في خطبة الجمعة ، وألزمه ذلك إلزاماً لا فسخة فيه ،<sup>(٢)</sup> .

وهكذا اضطر صلاح الدين إلى اتخاذ تلك الخطوة الخطيرة ، فتم الدعاء في أول جمعه من عام ٥٦٧ هـ ( سبتمبر ١١٧١ ) للخليفة العباسي المستضيء أمير المؤمنين ، وحدث الانقلاب في هدوء دون أن ينتطح فيه عنزان ، على قول ابن الأثير<sup>(٣)</sup> ؛ ويقال أن الخليفة العاضد الفاطمي توفي بعد ذلك الانقلاب بثلاثة أيام دون أن يسمع بزوال دولته وسقوط خلافته ، لأن صلاح الدين عندما علم بمرضه أمر بإخفاء الخبر عنه . وبعد ذلك اتخذ صلاح الدين عدة إجراءات حاسمة للقضاء على آثار الخلافة الفاطمية في مصر؛ ومن

---

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٦٧ هـ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٠٠ ( مطبوع ) .

(٣) ابن الأثير : تاريخ الدولة الاتابكية . ( Rec. Hist. Cr., Tome II, p. 287 ) .

الكامل حوادث ٥٦٧ هـ .

ذلك ما يرويه المقرئى أنه نزع المناطق الفضة التى كانت بمحاريب جوامع القاهرة والتى كانت تحمل أسماء الخلفاء الفاطميين (١) .

ولاشك فى أن سقوط الخلافة الفاطمية لم يكن مجرد انقلاب عادى ، وإنما كان حدثاً خطيراً فى تاريخ العالم الإسلامى بوجه عام وفى تاريخ مصر بوجه خاص . فمما هى دولة الفاطميين تنهار بعد قرنين من الزمان تقريباً ، لتعود للعالم الإسلامى وحدته المذهبية ، وتصبح الخلافة العباسية هى الخلافة الوحيدة التى يدين لها المسلمون بولائهم الروحى . لذلك لا عجب إذا أقيمت الاحتفالات فى بغداد تعبيراً عن شعور الفرح بذلك النصر الذى تحقق للخلافة العباسية ، بل إن الخليفة العباسى المستضىء أسرع بإرسال الخلع إلى نور الدين وصلاح الدين ، ومعها الأعلام والرايات السود ، شعار العباسيين (٢) .

---

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ق ١ ص ٤٣ ، ٤٥ .

(٢) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٥٦٧ هـ ، المقرئى : السلوك ج ١ ق ١ ص ٤٦ .

## الفصل الثاني

### صلاح الدين وتأسيس الدولة الأيوبية

الوحشة بين صلاح الدين ونور الدين :

ولم تلبث الوحشة أن دبّت بين صلاح الدين ومسيده نور الدين، عقب سقوط الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) بسبب تحديد علاقة الطرفين ببعضها ببعض. فثقت سقوط الخلافة الفاطمية كان صلاح الدين يباشر سلطانه الفعلي في مصر بوصفه وزيراً شريعياً للخليفة الفاطمي، فضلاً عن أنه كان ينفذ تعليمات نور الدين بوصفه نائباً عنه وقائداً لقواته في مصر. ولكن بسقوط الخلافة الفاطمية ووفاة الخليفة العاضد «صفا الوقت لصلاح الدين» على قول المؤرخ أبي المحاسن، وصار يخاطب باسمه على المنابر بعد الخليفة العباسي والملك العادل نور الدين محمود<sup>(١)</sup>.

ثم إن صلاح الدين لم يكتف بتوطيد نفوذه في الاسكندرية وغيرها من مدن مصر، وإنما أخذ يفكر في الاستيلاء على برقه طمعاً في ثروتها.

وهكذا صار لزاماً على صلاح الدين في ذلك الدور أن يحدد موقفه من نور الدين ويختار أحد طريقتين، فإما أن يظل على ولائه لنور الدين وفي هذه الحالة عليه أن يتقبل في أية لحظة قرار نقله وإحلال غيره محله في مصر، وإما أن يستقل عن نور الدين ويخرج عن طاعته وفي هذه الحالة من الممكن أن تسلم له مصر إذا استطاع الدفاع عن كيانه ضد هجمات نور الدين<sup>(٢)</sup>. ويروي

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٥٧ .

(٢) Grousset : Hist. des Croisades, II, p. 590.

لنا ابن الأثير مثلاً واضحاً ليتخوف صلاح الدين من نوايا نور الدين في ذلك الدور ، ويقول إن صلاح الدين خرج من مصر في أواخر سبتمبر سنة ١١٧١ م ( ٥٦٧ هـ ) - بناء على أوامر صدرت إليه من نور الدين - لمهاجمة حصن الشوبك . ولم تستطع حامية الحصن الصليبية الثبات في المقاومة ، فطلبت إعطاءها مهلة عشرة أيام للتسليم . ولكن صلاح الدين لم يلبث - وهو أمام الشوبك - أن علم بمسير نور الدين إليه لمساعدته . وعندئذ خشى صلاح الدين أن يقبض عليه نور الدين إذا رآه ، فأسرع بالانسحاب والعودة إلى مصر ، معتذراً بأن العلويين على وشك إشعال ثورة في القاهرة . مما تطلب سرعة عودته (١) .

على أن هذا السلوك لم يكن له سند قوى يبرره ، فاستاء نور الدين من مسلك نائبه في مصر ، وعظم عليه ذلك ولم يقبل عذره ، . بل إن نور الدين أخذ يستعد للزحف على مصر لتأديب صلاح الدين ، الأمر الذي أخاف الأخير فعقد اجتماعاً من أقاربه وبعض خاصته للتشاور في الأمر . وفي ذلك الاجتماع استهل الحديث بعض الشبان المتحمسين - مثل المظفر تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين - فنادوا بصد نور الدين ومقاتلته . ولكن والد صلاح الدين - وهو الشيخ نجم الدين أيوب - تدخل بلباقته ، فشتم أولئك المتهورين ، ثم نظر إلى صلاح الدين وقال : والله لو رأيت - أنا وخالك هذا - السلطان نور الدين ، لم يمكننا إلا أن نترجل له ونقبل الأرض بين يديه . ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا ! . . . وهذه البلاد أه وقد أقامك فيها نائباً عنه ، فإذا أراد عزلك فأى حاجة إلى المجيء ؟ يأمرك بكتاب مع نجات حتى تقصد خدمته ويولى البلاد من يريد ، (٢) . ثم طلب

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٧ هـ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٩ .

بحم الدين من ولده صلاح الدين أن يكتب إلى نور الدين ليعرب له عن ولائه ، ففعل ذلك وأرسل إليه هدية ثمينة من الحيوانات النادرة والجواهر والأقمشة والمصنوعات والاعطر<sup>(١)</sup> .

على أن صلاح الدين — مع ذلك — لم يتقاعس عن حماية مكاسبه التي حققها في مصر ، ولم يشأ أن يتخلى عن مطامعه، وإنما اختار أن يستعد لمعاساه أن يحدث في المستقبل . وكان أن فكر صلاح الدين وأهله في تحصيل مملكة يقصدونها ويتملكونها ، تكون عدة لهم ، إن أخرجهم نور الدين من مصر ساروا إليها وأقاموا بها<sup>(٢)</sup> . لذلك أرسل صلاح الدين أخاه شمس الدولة توران شاه في أواخر سنة ١١٧٢م (٥٦٨ هـ) لفتح النوبة حتى تصبح مأوى الأيوبيين في حالة دخول نور الدين مصر . ثم اكتشف صلاح الدين أن بلاد النوبة فقيرة و قليلة الجدوى ، فأرسل أخاه توران شاه إلى اليمن سنة ٥٧٠ هـ ( ١١٧٤ م ) حيث أخضعها وضمن تبعيتها لصلاح الدين .

بل إن ابن الأثير يبالغ فيذكر إن صلاح الدين حرص في ذلك الدور على عدم التوسع في حرب الصليبيين ليظلوا ستاراً يفصل بينه وبين نور الدين<sup>(٣)</sup>

وإذا كان صلاح الدين قد قام بغزو أملاك الصليبيين في السرك والشوبك سنة ٥٦٨ هـ (١١٧٣ م) بناء على نصيحة والده ، فإن هذه الغزوة لم تطل ، بل على العكس أدت إلى تجديد الخلاف بينه وبين نور الدين . ذلك أن صلاح الدين لم يكدي يحاصر حصن السرك ، حتى عاد وتخوف من أن يغدر به نور الدين، الذي كان هو الآخر قد اقترب من السرك فعلا . وهكذا لم يلبث صلاح الدين أن تحجج تلك المرة بمرض أبيه في مصر ، وأنه يخاف

(١) ابن واصل : مفرج السركوب ج ١ ص ٢٢٢ — ٢٢٤ .

(٢) ابن الأثير : السكامل حوادث سنة ٥٦٩ هـ ، المقرئزي : السلوك ج ١ ص ٥٢ .

(٣) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية (Rec. Hist. Cr., II, p. 293).

أن يحدث عليه حادث الموت ، فعاد فوراً إلى مصر ، دون أن ينتظر وصول سيده نور الدين<sup>(١)</sup> . وفي تلك المرة كان صبر نور الدين قد نفذ ، فصمم نهائياً على فتح مصر والقيام بعمل حاسم لتأديب صلاح الدين . ولكن بينما نور الدين يستعد للقيام بحملته على مصر ، إذ به يموت في مايو سنة ١١٧٤ م ( ٥٦٩ هـ ) وبذلك صار الميدان خالياً أمام صلاح الدين<sup>(٢)</sup> .

### المؤامرة الكبرى ضد صلاح الدين سنة ٥٦٩ هـ ( ١١٧٤ م ) :

استطاع صلاح الدين في مدى فترة قصيرة أن يتخلص من الثورة التي اعترضت سبيله وسلطانه ، ففضى على الجند السودان ، ثم خلاصه الموت من الخليفة العاضد الفاطمي وسيد نور الدين محمود . على أنه لم يكن معنى سقوط الخلافة الفاطمية من ناحية ، ووفاة نور الدين محمود من ناحية أخرى ، أن صلاح الدين قد غدا فعلاً وارث القوتين الفاطمية والنورية ، وأن الأمور استقرت له نهائياً في مصر والشام ، وإنما كان على صلاح الدين أن يواجه متاعب جمه من جانب أتباع الفاطميين في مصر ، ثم من جانب ورثة نور الدين في الشام ، حتى يستطيع أن يحقق وحدة إسلامية متينة في الشرق الأدنى تمكنه من منازلة الصليبيين .

فمن ناحية مصر ، يلاحظ أنه إذا كانت الخلافة الفاطمية قد ماتت موتاً صامتاً في ظاهر الأمر ، إلا أن المخلصين من الشيعة في مصر لم يرضوا عن ذلك الانقلاب ، فضلاً عن أنه وجد عندئذ عدد ضخم من أتباع النظام القديم ، الذين عز عليهم أن يسيطر على البلاد رجل قوى مثل صلاح الدين . ولم تلبث أن دبرت مؤامرة كبرى في القاهرة سنة ٥٦٩ هـ ( مارس -

---

(١) ابن واصل مفرج الكروب ج ١ ص ٢٣٠ وقد توفي نجم الدين أيوب فعلاً في ذي الحجة سنة ٥٦٨ هـ ولكن وفاته كانت بسبب سقوطه من فوق فرسه .  
(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٦٩ هـ .

ابريل ١٧٤م) اشتركت في حبك أطرافها جميع العناصر الناقمة على الوضع الجديد، واتخذت ستاراً شيعياً يستهدف إحياء الخلافة الفاطمية وإعادتها إلى ما كانت عليه. أما زعماء هذه المؤامرة فكانوا الشاعر عمارة بن أبو الحسن اليمني، وعبد الصمد الكاتب، والقاضي العوريس داعي دعاة الشيعة، وابن عبد القوى، فضلاً عن عدد آخر كبير من أتباع الدولة الفاطمية من الموظفين وبقايا الجند السودان وخدم القصر الفاطمي، وغيرهم<sup>(١)</sup>.

وعندما أدرك المتآمرون أنهم في ميس الحاجة إلى قوة خارجية تساعد في تنفيذ مؤامرتهم، اتصلوا بالإسماعيلية الباطنية (الحشيشية) وهي القوة الشيعية الكبرى بالشام، وطلبوا منهم القيام بقتل صلاح الدين<sup>(٢)</sup>. ولم يكتف المتآمرون بذلك وإنما اتصلوا أيضاً بالصليبيين، واتفقوا معهم على أن تقوم القوات الصليبية بغزو مصر في الوقت الذي يشعلون هم نار الثورة في القاهرة والفسطاط، وبذلك يقع صلاح الدين بين نارين<sup>(٣)</sup>. ثم أن المتآمرين اتصلوا كذلك بوليم الثاني النورماني ملك صقلية ليهاجم أسطوله بالاسكندرية في الوقت الذي يدهم الصليبيون مصر من ناحية الشرق. وهكذا دارت الاتصالات بين زعماء المؤامرة في القاهرة من ناحية وبين ملكي بيت المقدس وصقلية من ناحية أخرى ووضعت جميع الترتيبات بحيث «لم يبق إلا رحيل الفرنج، على قول ابن الأثير<sup>(٤)</sup>».

وقبل أن يبدأ التنفيذ، أرسل عموري الأول رسولاً إلى القاهرة يحمل في ظاهر الأمر تحيات الملك الصليبي لصلاح الدين، ولكنه أتى في الحقيقة ليرسم الترتيبات النهائية مع المتآمرين. أما وليم الثاني ملك صقلية فقد استجاب

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥٣ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٤٩ .

(٣) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 311.

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٥٦٩ هـ



للدعوة، وأعد أسطولا ضخما من ستائة سفينة تحمل ما يقرب من ثلاثين ألف رجل<sup>(١)</sup>. وقد اختار المتآمرون فرصة غياب توران شاه في اليمن موعداً لتنفيذ مؤامرتهم، حتى لا يحل محل أخيه في حالة مقتله، بل بلغ بثقة المتآمرين في نجاح مؤامرتهم أنهم عينوا أعضاء الجهاز الحكومي الجديد «وعينوا الخليفة والوزير وتقاسموا الدور والأمالك» بحيث لم يبق إلا التنفيذ<sup>(٢)</sup>.

ولكن الخيانة لم تلبث أن انكشفت وأحبطت المؤامرة قبل أن تولد. ذلك أن المتآمرين أشركوا معهم في سرهم الفقيه الواعظ زين الدين علي ابن نجا الذي قام بإطلاع صلاح الدين على جميع حلقات المؤامرة أولاً فأول. وفي الوقت نفسه وصل المبعوث الذي أرسله عموري الأول إلى القاهرة محملاً بالهدايا وعبارات الود لصلاح الدين، فانكشف أمره بعد قليل. أما صلاح الدين فلم يكذباً أكد من حقيقة المؤامرة حتى قبض على المتآمرين فوراً وصلب زعماءهم الشاعر عمارة اليمني وعبد الصمد الكاتب والعوريس القاضي في أبريل سنة ١١٧٤ م (٥٦٩ هـ)، في حين اختفى آخر الأمراء الفاطميين وهو ابن الخليفة العاضد<sup>(٣)</sup>.

ثم أن صلاح الدين وجه جهوده بسرعة نحو إخماد ثورة أخرى قامت في أسوان على حدود النوبة، أشعلها أحد قادة الفاطميين — واسمة كرز الدولة — الذي جمع حوله من أسوان بعض العناصر من الشيعة وغيرهم، وأوهمهم «أنه يملك البلاد ويعيد الدولة العبيدية (الفاطمية) المصرية، ثم زحف بهم على قوص. ولكن الحملة التي أرسلها صلاح الدين بقيادة أخيه

(١) بهاء الدين بن شداد: النوادر السلطانية ص ٨٠.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب ج ١ ص ٢٤٤.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ حوادث سنة ٥٦٩ هـ.

العادل سيف الدين استطاعت أن تقضى على أولئك الجند السودان قضاءً  
مبرماً في أوائل سبتمبر سنة ١١٧٤ م (٥٧٠ هـ) (١)

أما عموري الأول ملك بيت المقدس ، فلم يكذب يعلم بإنسكشاف سر  
المؤامرة في القاهرة ونشل خطته الموضوع لغزو مصر حتى توفي مقهوراً  
في يوليو سنة ١١٧٤ م (٥٦٩ هـ) في بيت المقدس . ولم يلبث أن وصل  
أسطول صقلية في ٢٨ يوليو من العام نفسه إلى الاسكندرية ليجد كل شيء  
قد انتهى ، وأن فشل المؤامرة من ناحية و وفاة عموري الأول من ناحية  
أخرى جعلت غزو مصر غير ذي موضوع . ومع ذلك فإن رجال الحملة  
النورمانية حاولوا اقتحام الاسكندرية ، ولكن المسلمين صمدوا لهم وأحرقوا  
بعضاً من سفنهم ، في الوقت الذي قدم صلاح الدين مسرعاً ومعه جيشه  
فهاجم النورمان ، وأغرق بعض سفنهم ، وأنزل بهم الهزيمة ؛ وبذلك اضطر  
النورمان إلى الإنسحاب يجرّون أذيال الفشل والخيبة (٢) .

### صلاح الدين وتأمين الوحدة الإسلامية :

جاءت وفاة نور الدين محمود في منتصف مايو سنة ١١٧٤ م (٥٦٩ هـ)  
خسارة كبرى للمسلمين ، لأن مشكلة تقسيم دولته الواسعة بين ورثته  
هددت الوحدة الإسلامية التي أجهده نور الدين نفسه في بنائها . وكان  
الوريث الأول لنور الدين في حلب ودمشق هو ابنه الملك الصالح اسماعيل ،  
الذي لم يتجاوز عمره عند وفاة أبيه الحادية عشرة . ولكن الملك الصالح  
اسماعيل هذا كان له ابن عم هو سيف الدين غازي الثاني أتابك الموصل  
الذي فرح بوفاة عمه نور الدين ، وأسرع إلى احتلال بعض المواقع بالجزيرة  
مثل نصيبين والخابور وحران والرها وغيرها (٣) .

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية والحاسن اليرسفية ص ٧٩ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٣١ ، ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٧٠ هـ

(٣) ابن الأثير : الكامل : حوادث سنة ٥٦٩ هـ .

ثم أن المنازعات لم تقتصر على ما كان هناك بين ورثة نور الدين وبقايا البيت الزنكي في الشام ، وإنما امتدت إلى أمراءه ، فدب الخلاف بين أقوى اثنين من أمراء نور الدين ، وهما شمس الدين علي بن الداية وشمس الدين محمد المعروف بابن المقدم . وكان سبب هذا الخلاف الوصاية على الملك الصالح اسماعيل ، فاحتل ابن الداية قلعة حلب بوصفها المركز الأول للدولة النورية ، في حين تحفظ ابن المقدم على شخص الملك الصالح اسماعيل في دمشق .

ولا شك في أن هذه الخلافات هددت مركز المسلمين تهديداً خطيراً في الشرق الأدنى ، في الوقت الذي كان الصليبيون يتوعدون ويتحفزون . وهنا ظهر صوت ينادى بتحكيم صلاح الدين والالتفاف حوله ، بوصفه أقوى أمراء الدولة النورية والمتحكم في ملك مصر بمواردها وثروتها وقوتها . ذلك أن القاضي كمال الدين الشهرزوري أشار على الأمير ابن المقدم وعلى بقية أمراء نور الدين بالرجوع إلى رأى صلاح الدين والافتقار له ، فهو أقوى منا لا نفراده بملك ديار مصر ، ولكن الأمراء الطامعين خشوا بأس صلاح الدين وخافوا أن يؤدي تدخله إلى أن يعصف بهم جميعاً ويضيف الشام إلى ملك مصر (١) .

أما صلاح الدين فقد صار لا سلطان لأحد عليه في مصر ، وكان من الممكن أن يتدخل في شئون الشام عقب وفاة نور الدين مباشرة ، لولا وصول الأسطول النورمانى إلى الاسكندرية مما أخره بعض الوقت . لذلك اكتفى صلاح الدين بأن أرسل إلى الشام يعلن حقه في الوصاية على الصالح اسماعيل بن نور الدين وأملاكه . والواقع أن صلاح الدين كان يجد سندا قوياً للتدخل بحجة حماية وحدة المسلمين ، في الوقت الذي شرع الصليبيون

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣ (مطبوع) .

فعلا في مهاجمة المدن والمعقل الإسلامية في الشام . ذلك أنه لم تسكد تمضى على وفاة نور الدين محمود مدة قصيرة ، حتى شرع عموري الأول في مهاجمة بانياس وحاول الاستيلاء عليها ، واسكن المدينة صمدت للحصار أسبوعين . وبدلا من أن يحاول الأمير ابن المقدم محاربة الصليبيين فإنه «راسلهم ولاطفهم» وعرض عليهم ترك بانياس مقابل مبلغ كبير من المال واطلاق سراح أمرى الصليبيين في دمشق ، ثم مخالفة الصليبيين ضد صلاح الدين وأطاعه المقبلة<sup>(١)</sup> .

وعندما علم صلاح الدين بذلك الاتفاق «استصغر أهل الشام وعلم ضعفهم» وأدرك أن الاتفاق والصلح مع الصليبيين موجهان ضده ، فأرسل إلى الملك الصالح اسماعيل ورجاله «يقبح ما فعلوه»<sup>(٢)</sup> . ولم يطل الأمر حتى أدت الخلافات بين أمراء الدولة النورية إلى استنجد بعضهم بصلاح الدين ، فجاءت هذه الدعوة بداية مرحلة جديدة في تاريخ الحروب الصليبية .

ذلك أن صلاح الدين خرج من مصر على رأس جيش من سبعمائة فارس ، بعد أن استخلف على مصر أخاه الملك العادل ، فوصل دمشق في أواخر نوفمبر سنة ١١٧٤ م (٥٧٠هـ) ، دون أن يصطدم — لحسن حظه — بالصليبيين أثناء الطريق . وهنا تؤكد أن صلاح الدين عندما خرج إلى الشام عندئذ لم يستهدف مجرد تحقيق أطباع ومكاسب شخصية ، وإنما كان حريصاً على أن يسعى لتحقيق الوحدة الإسلامية ، فأعلنها في صراحة «إنا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم وألف كلبهم»<sup>(٣)</sup> . وقد استقبل صلاح الدين في دمشق استقبالا طيباً ، وفتح له ابن المقدم أبواب المدينة وسلمها إياه .

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٣١ — ٢٣٣ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٨ (مطبوع) .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٨ (مطبوع) .

ولعل أهم ما يسترعى نظرنا في ذلك الدور من تاريخ صلاح الدين ، أنه حرص على التظاهر بالولاء للصلاح إسماعيل بن نور الدين ؛ فقال : « أنا مملوك الصالح وما جئت إلا لأنصره وأخدمه »<sup>(١)</sup> . وتحت هذا الستار — ستار الولاء للصلاح إسماعيل ورد أملاكه التي أخذت منه في الجزيرة إليه — أخذ صلاح الدين ينفذ سياسته الخاصة بتدعيم الجبهة الإسلامية المتحدة وإعادتها إلى سابق عهدها ، حتى تمتد من الفرات إلى النيل .

وبعد أن استمال صلاح الدين قلوب الدماشقة بتوزيع الأموال والهبات . غادر دمشق متجهاً شمالاً ضد كمشتكين الذي استبد بالأمور في حلب (٢) . وقد بدأ صلاح الدين بالاستيلاء على حمص في ديسمبر سنة ١١٧٤م (٥٧٠م) ثم على مدينة حماه في أواخر الشهر نفسه .

أما حلب فقاومت صلاح الدين ورفضت الاستسلام ، بل إن أصحاب السلطان فيها أسرعوا إلى الاستعانة بالمشيشية والصلبيين . ولم يلبث سنان مقدم الباطنية أن أرسل إلى معسكر صلاح الدين جماعة من الفدائيين لقتله ، وأوشك هؤلاء على النجاح في مهمتهم لولا انكشاف أمرهم . ولما فشل الباطنية في قتل صلاح الدين ، أرسل الحلبيون إلى ريموند الثالث أمير طرابلس الصليبي يطلبون منه المساعدة ، ويعدونه بدفع الثمن إذا هو نجح في تخليص حلب من حصار صلاح الدين . ويضيف ابن الأثير أن أمراء حلب طلبوا من أمير طرابلس الصليبي أن يهاجم بعض المراكز التي بيد صلاح الدين حتى يضطر إلى رفع الحصار عن حلب (٣) .

وكان ريموند الثالث أمير طرابلس — والوصي على عرش مملكة

(١) ابن الأثير : الكامل سنة ٥٧٠ هـ .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٧٢ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ٢٤٠ ، ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٧٠ هـ .

بيت المقدس عندئذ - يدرك تماماً أهمية تحالف الصليبيين مع حلب ، كما أدرك خطورة قيام وحدة بين القاهرة ودمشق وحلب . لذلك أسرع ريموند الثالث إلى نجدة حلب ، والقيام بدور حامى الصالح اسماعيل بن نور الدين ، لا حباً له وخدمة لأمراء حلب - كما يقول المؤرخ الصليبي ولیم الصورى - وإنما لیسد الطريق فى وجه صلاح الدين ويحول دون قيام وحدة إسلامية فى الشرق الأدنى (١) .

ويبدو أن ريموند الثالث حاول أولاً الالتجاء إلى الوسائل السياسية ، ففتح باب المفاوضات مع صلاح الدين حول مسألة حلب ، ولوح له بأن الفرنج اتحدوا وصاروا يداً واحدة . ولكن صلاح الدين لم يخش ذلك التهديد ، وأرسل بعض قواته للإغارة على إمارة أنطاكية (٢) . وأخيراً لم يجد ريموند وسيلة لصرف صلاح الدين عن حلب سوى مهاجمة حمص التى كان صلاح الدين قد استولى عليها منذ أمد قريب . وإذا كان صلاح الدين قد اضطر إلى ترك حلب مؤقتاً فى أوائل فبراير سنة ١١٧٥م (٥٧٠هـ) لنجدة حمص ، فإنه عاد من جديد ليصطدم بالزنكيين الذين جمعوا قوات الموصل وحلب ضد صلاح الدين . وفى الموقعة التى دارت بين الطرفين عند قرون حماه فى أواخر أبريل سنة ١١٧٥م (٥٧٠هـ) انتصر صلاح الدين على الزنكيين ، ثم أتبع انتصاره بدخول حلب ، حيث أعلن عزل الصالح اسماعيل ، واتخذ لقب « ملك مصر والشام » . ولم يلبث الخليفة العباسى أن أقر الوضع الجديد ؛ وأرسل إلى صلاح الدين الخلع التى وصلتته من حماه (٣) .

ولم يكن منتظراً أن يقبل الزنكيون ذلك الوضع فى سهولة ، فقام سيف

---

(١) Guillaume de Tyr (Rec. Hist. Cr., p. 1014).

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٣٩ .

(٣) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٥٨١ هـ .

الدين غازي صاحب الموصل بحركة تعبئة ضخمة ضد صلاح الدين ، واستعان من جديد بالصلبيين ، وعلى رأسهم ريموند الثالث صاحب طرابلس والوصي على عرش مملكة بيت المقدس . وفي الموقعة التي دارت عند تل السلطان - على الطريق بين حماه وحلب - في أبريل سنة ١١٧٦ م ( ٥٧١ هـ ) حلت الهزيمة بالزنكيين وحلفائهم وقتل منهم كثيرون ، واستولى صلاح الدين على غنائم ضخمة (١) . وبعد ذلك ركز صلاح الدين جهوده في الاستيلاء على بعض القلاع الواقعة شرقي حلب ليقطع الصلة بينها وبين الموصل ، حتى تم الصلح مرة أخرى بينه وبين الحلبيين ، فانصرف عن حلب في صيف سنة ١١٧٦ م ( ٥٧١ هـ ) .

أما الباطنية ، فلم يكونوا أقل من الصليبيين هلعاً بسبب انتصارات صلاح الدين وتوحيد بلاد الشام الإسلامية تحت سيادته . ولم يلبث أن حاول الباطنية اغتيال صلاح الدين مرة أخرى أثناء حصاره عزاز في صيف سنة ١١٧٦ م ( ٥٧٢ هـ ) ولكن محاولتهم باءت مثل سابقتها بالفشل . وكان لابد لصلاح الدين من أن يشار لنفسه من تلك الجماعة الهدامة ، فلم يكف يفرغ من الصلح مع الحلبيين حتى اتجه لحصار قلعة الباطنية في مصياف وقتل كثيراً منهم ، ولم يتركهم إلا بعد أن شفّع فيهم شهاب الدين الخارمي خال صلاح الدين (٢) .

وهكذا تحالفت قوى الزنكيين والباطنية والصلبيين جميعاً ضد صلاح الدين في ذلك الدور ليحولوا دون تحقيق الوحدة الإسلامية ، بين العراق والشام ومصر ، وهي الوحدة التي كانت تنذر دائماً بالقضاء على الخلفاء الثلاثة . ويلاحظ في ذلك الدور من أدوار تاريخ صلاح الدين أن جهوده

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٦٠ .

(٢) ابن واصل : مغرغ الكروب ج ١ ص ٤٧ .

كانت موزعة بين ثلاث جبهات ، فهو يعمل ضد دعاة الانفصال من الزنكيين في شمال الشام والعراق ، ويحاول أن يحقق وحدة قوية تمتد من النيل إلى الفرات لمواجهة الخطر الصليبي . وهو في الوقت نفسه مضطر إلى الدخول في مناوشات وحروب محلية ضد الصليبيين إما لإرهابهم أو لصد عدوانهم ، لا سيما وأن الانفصاليين في شمال الشام والعراق أعتمتهم مصالحهم الشخصية عن رؤية الخطر الحقيقي الذي يهدد الوطن العربي في الشرق الأدنى ، فلم يحجموا عن الاستعانة بالصليبيين ضد صلاح الدين . وأخيراً فقد كان على صلاح الدين ألا يغفل عن تحصين مصر والعمل على حمايتها بعد أن أثبتت التجارب أن الصليبيين أشد طمعاً في مصر منهم في الشام والعراق ، وأنهم يحسبون حساباً كبيراً لاستيلاء صلاح الدين على مصر بالذات (١) .

ولعل هذا هو السبب في أننا عند دراستنا لتاريخ صلاح الدين في ذلك الدور نجده لا يكاد يحارب الانفصاليين عند حلب حتى يعقد معهم الصلح ويتجه لصد خطر الصليبيين ، ولا يكاد يدخل مع الصليبيين في حرب حتى يقبل عروضهم للهدنة ويسرع إلى مصر ، ولا يكاد يقيم بعض الوقت في مصر يشرف على تحصينها حتى يبادر بالعودة إلى الشام . . . وستؤجل كلامنا عن جهود صلاح الدين في تحصين مصر من ناحية وفي محاربة الصليبيين من ناحية أخرى ، لنحرص على وحدة الموضوع ونوضح كيف كللت جهوده في سبيل توحيد العالم الإسلامي في الشرق الأدنى بالإنجاح .

اضطر صلاح الدين إلى عقد الصلح مع الحلبيين سنة ١١٧٦م (٥٥٧١) كما رأينا ، ولكنه ظل في قرارة نفسه يؤمن بأن أي عمل حربي وأوسع ضد الصليبيين يجب أن يسبقه ضم حلب والموصل وتوحيد الجبهة الإسلامية في الشرق الأدنى . وإذا كان صلاح الدين قد شغل بعض الوقت بأمر الصليبيين

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٥٠ .



وأمر مصر ، فإنه لم ينس الموصل وحلب ، فخرج لحصار الموصل سنة ١١٨٢م ( ٥٧٨ هـ ) ، ولكنه « ألح في القتال فلم ينل غرضاً ، لأن عز الدين مسعود صاحب الموصل ( ١١٧٦ - ١١٩٢ م = ٥٧٢ - ٥٨٩ هـ ) كان قد أعد عدته للحصار وحشد داخل مدينته عدداً ضخماً من الرجال وكميات وافرة من الطعام والسلاح<sup>(١)</sup> .

ويبدو أن صلاح الدين أخذ يشعر بالخرج لفشله في الإستيلاء على الموصل ، ولذلك حاول أن يدعم مركزه بطلب التأييد من الخليفة العباسي الناصر لدين الله ، وأرسل رسالة إلى الخليفة يتهم فيها أتاك الموصل بالتحالف مع الصليبيين . على أن أتاك الموصل لم يهتز لجميع تلك المناورات ، بل لجأ إلى الاستعانة ببعض القوى الإسلامية المجاورة ، مثل صاحب أذربيجان وصاحب خلاط وغيرهما . أما الخليفة العباسي فقد اكتفى بأن يسعى للوساطة بين صلاح الدين والزنكيين<sup>(٢)</sup> . ولكن المؤرخ أبا شامة يؤكد أن الزنكيين حالفوا الصليبيين عندئذ وطلبوا منهم مهاجمة دمشق لطرد صلاح الدين منها ، الأمر الذي يفسر اشتداد غارات الصليبيين على أعمال دمشق وحووران في تلك الفترة . ولم تلبث هذه الهجمات الصليبية أن أثرت في تحويل نظر صلاح الدين عن الموصل ، فعاد إلى شمال الشام في صيف سنة ١١٨٣م ( ٥٧٨ - ٥٧٩ هـ )<sup>(٣)</sup> .

وإذا كان صلاح الدين قد عاد من الجزيرة ليباشر نشاطه في شمال الشام فإنه بدأ بحصار حلب . وهنا نجد أن عماد الدين زنكي الثاني أتاك حلب ( ١١٨٢ - ١١٨٣ م = ٥٧٨ - ٥٧٩ هـ ) لم يكن له ما لأخيه عز الدين أتاك الموصل من شجاعة ودهاء ، فلم يكف صلاح الدين يحاصر مدينته حتى ارتبك ورفض

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١١٩ ( مطبوع )

(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٧٨ هـ .

(٣) المرجع السابق .

أن يستنجد بالصليبيين أو حتى بأخيه عز الدين . وإذا كان الحلبيون انفسهم قد أظهروا مقاومة عنيفة في ذلك الوقت ، إلا أن حاكمهم عماد الدين أخذ يفكر في الفرار ، وأرسل إلى صلاح الدين سراً يعرض عليه تنازله عن حلب مقابل إعطائه بلدة سنجار ، فوافق صلاح الدين على ذلك وزاده الخابور ونصيبين والرقه وسروج؛ وتمت الصفقة في يونيو ١١٨٣م (٥٧٩هـ)<sup>(١)</sup>.

ولاشك في أن استيلاء صلاح الدين على حلب وتوابعها كان نصراً كبيراً لفكرة الجبهة الإسلامية المتحدة ، كما كان ضربة كبرى أحس بها الصليبيون ، وأعترف بها مؤرخوهم<sup>(٢)</sup>.

وإذا كان صلاح الدين قد شغل عقب الاستيلاء على حلب بأمر الصليبيين فإنه لم ينس الموصل ، فعاد إلى حصارها للمرة الثانية ١١٨٥ م (٥٨١ هـ) . ثم ترك صلاح الدين حصار الموصل مؤقتاً ليستولى على ميفارقين . ويقال إن المواصلة الهزوا فرصة مرض صلاح الدين في تلك السنة ، فسعوا إليه في الصلح ، وتم الصلح فعلا بين صلاح الدين وعز الدين مسعود صاحب الموصل في مارس سنة ١١٨٦ م (٥٨٢ هـ) . وبمقتضى ذلك الصلح رضى صاحب الموصل أن يكون تابعاً لصلاح الدين وأن يخطب باسمه على المنابر ويضرب السكة باسمه<sup>(٣)</sup>.

وبذلك تحققت الوحدة الإسلامية الكبرى من الفرات إلى النيل ، ولم يبق إلا أن يوجه صلاح الدين جهوده نحو تحصين مصر من ناحية ، وإنزال ضربة بالصليبيين من ناحية أخرى .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٤٢ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٩٨ .

(٢) Guillaume de Tyr, p. 1114.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٧٢ (مطبوع) .

## صلاح الدين وتحصين مصر :

لم ينس صلاح الدين مطلقاً مطامع الصليبيين في مصر ، وظل متخوفاً طوال الفترة التي قضاها في توحيد الجبهة الإسلامية من أن يقوم الصليبيون بحملة كبرى لغزو مصر ، من طراز حملات عموري الأول ملك بيت المقدس السابق<sup>(١)</sup> . والواقع أن صلاح الدين لم يكن مبالغاً في مخاوفه ، إذ يثبت التاريخ أن ثمة اتصالات قوية دارت سنة ١١٧٧ م (٥٧٣ هـ) بين الصليبيين والبيزنطيين للقيام بمحاولة جديدة لغزو مصر<sup>(٢)</sup> . لذلك كان لابد لصلاح الدين من أن يتخذ الأهمية ويضع نظاماً قوياً لتحصين مصر حتى يمكن مواجهة أية محاولة يقوم بها الصليبيون لغزوها .

والواقع إن تفكير صلاح الدين في تحصين مصر إنما يرجع إلى أيام وزارته ، أي قبل سقوط الخلافة الفاطمية . من ذلك إن صلاح الدين شرع سنة ١١٧١ م (٥٦٧ هـ) في ترميم سور القاهرة وإصلاح ما فيه من عطب بعد أن دُهدم أكثره وصار طريقاً لا يرد داخلاً ولا خارجاً<sup>(٣)</sup> . على أنه يلاحظ إن صلاح الدين كان في ذلك الوقت ضعيف النفوذ ، فهو وزير للخليفة الفاطمي ، وتابع لنور الدين محمود ؛ هذا إلى أنه كان في ذلك الوقت أيضاً محدود المسؤولية قليل التجربة بحرب الصليبيين . لذلك لم يكن منتظراً من صلاح الدين في تلك المرحلة أن يقوم بأكثر مما تمكنه مسؤولياته وإمكانياته ، فاكتفى بترميم سور القاهرة القديم .

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الناصر صلاح الدين (أعلام العرب ٤١) ص ١٣٥ .

(٢) Guillaume de Tyr, p. 1033.

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ١٩٢ [ طبعة النيل ] .

واسكن وضع صلاح الدين لم يلبث أن تغير بعد وفاة الخليفة الفاطمي ثم وفاة نور الدين محمود؛ إذ غدا صلاح الدين سيد البلاد ورجلها الأول المسئول عن سلامتها والدفاع عنها. هذا إلى أن الفترة التي قضاها صلاح الدين في الشام يوحد قوى المسلمين ويحارب الصليبيين أكتسبته خبرة واسعة في سياسية الشرق الأدنى في ذلك الوقت. ولاشك في أن صلاح الدين شاهد في بلاد الشام عندئذ مدنا محصنة، وحصونا مسورة، وأسوارا عالية محكمة البناء، فأخذ فكرة واضحة عن أساليب الحصار والدفاع والحرب، وعن أهمية الحصون والقلاع والاستحكامات في حماية المدن. وهكذا عاد صلاح الدين من الشام إلى مصر سنة ١١٧٦م (٧٢٠هـ) ثم سنة ١١٨١م (٥٧٧هـ) ليقوم في كل مرة بسلسلة من النحسينات القوية لحماية عاصمة مصر وثغورها ومراكزها الحيوية ضد أي هجوم منتظر من جانب الصليبيين.

وقد روى المؤرخ أبو شامة - على لسان العماد الأصفهاني - أن صلاح الدين لما ملك مصر رأى أن مصر (الفسطاط) والقاهرة لسكل واحدة منهما سور لا يمنعها، فقال إن أفردت كل واحدة بسور احتاجت إلى جند مفرد يحميها، وإني أرى أن أدير عليهما سورا واحداً من الشاطيء إلى الشاطيء، وأمر ببناء قلعة في الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم<sup>(١)</sup>. وهكذا قرر صلاح الدين بناء سور ضخيم يحيط بالقاهرة والفسطاط والعسكر والقطائع، ويحمي عاصمة البلاد وأهلها من أي هجوم خارجي، كما قرر بناء قلعة ضخمة على جبل المقطم تكون مركزاً للحكم، وملاذاً يحتوى به إذا هددته ثورة داخلية من جانب أتباع الفاطميين، أو خطر خارجي من جانب الصليبيين.

وسرعان ما أخذ صلاح الدين في تنفيذ مشروعه، فجلبت بعض الأحجار اللازمة للبناء من منطقة أهرام الجيزة، وساعد في العمل عدد كبير من

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج ١ ص ٢٦٨.

أمرى الصليبيين<sup>(١)</sup> أما عن القلعة فقد أحسن صلاح الدين اختيار موقعها بحيث تشرف على القاهرة ومصر إشرافاً تاماً ، وتستطيع حمايتها أن تقوم بعملياتين مزدوجتين ، هما ضبط الأهالي وإخماد أية فتنة داخلية ، ثم صد أى هجوم خارجي تتعرض له القاهرة<sup>(٢)</sup> . والمعروف أن عمارة القلعة لم تتم إلا في عهد الكامل الأيوبي سنة ٧١٢ هـ (١٣٠٤م) ، فهو الذى شيد أول ما بنى فيها من قصور كما شيد أبراجها الرئيسية ، ثم اتخذها منزلاً له ومقاماً للحكم . ومنذ ذلك الوقت والقلعة تقوم بوظيفة القصر السلطاني الذى عاش فيه بقية سلاطين الأيوبيين ثم المماليك ثم الولاة العثمانيون حتى زمن الخديو إسماعيل .

أما سور القاهرة فقد استخدمت فيه أيضاً الأحجار الضخمة ، وروعى فى السور أن يكون محصناً بأبراج منيعة بعضها من طبقة واحدة والبعض الآخر من طبقتين ، ويتكون البرج من قبة ونصف دائرى يؤدى إلى ستار الحائط بمنازل تستخدم لرمى العدو المهاجم بالسهم منها ، أو إلقاء المواد السكاوية والزيت المغلى<sup>(٣)</sup> .

على أن جهود صلاح الدين فى تحصين مصر لم تقف عند حد القاهرة ، وإنما امتدت إلى مختلف الثغور والموانى المصرية ، لاسيما بعد أن تكررت اعتداءات السفن الصليبية على تنيس ودمياط وغيرهما من الموانى . من ذلك ما يرويه أبو شامة من خروج صلاح الدين سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٧م) إلى دمياط وبصحبه واداه الأفضل على والعزير عثمان ، فتفقد تحصينات الميناء ، ثم رحل إلى الاسكندرية حيث تفقد سورها الدائر وفحص الزيادات التى كان قد أمر بإنشائها غداة استيلائه على الحكم . كذلك تفقد صلاح الدين الأسطول

(١) زكي محمد حسن : فنون الإسلام ص ٦٦ .

(٢) نظير حسان سعداوى : التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين ص ٩٢ .

(٣) للوقوف على تفاصيل القلعة والسور ارجع إلى : نظير حسان سعداوى التاريخ الحربى

المصرى ص ١٠٣ - ١٠٨ . وسنشير إلى بعض التفاصيل فى نهاية هذا الباب عند الكلام عن الفنون .

بالأسكندرية وأمر بعمارتها وتجديد سفنه ، وما انصرف حتى أمر بإتمام الثغر  
وتعمير الأسطول ،<sup>(١)</sup> .

وبينما صلاح الدين منصرف في السنوات التالية إلى تدعيم الوحدة  
الإسلامية بالشام ومحاربة الصليبيين ، كان العمل مستمراً في التحصينات التي  
أمر بها صلاح الدين سواء في القاهرة أو الاسكندرية . وقد حدث سنة  
١١٨١ م ( ٥٧٧ هـ ) أن أغار الصليبيون على تنيس — شرقي بحيرة المنزلة  
— فخشي صلاح الدين أن يكون المقصود بتلك الغارة سبر غور المسلمين  
تمهيداً لغزو مصر من ناحية البحر ، وأمر بالعناية بتحصين دمياط وتنيس  
و رتبت المقابلة على البرجين بدمياط ، و جهزت خمسمائة دينار لعمارة سورها  
والنظر في السلسلة التي بين البرجين . وعمل تقدير برسم ما يحتاج إليه سور  
تنيس وإعادته كما كان في القديم . كذلك أمر صلاح الدين في العام نفسه  
ببناء برج بالسويس يسمي عشرين فارساً ، ورتبت فيه الفرسان ،<sup>(٢)</sup> .

وهكذا عنى صلاح الدين عناية فائقة بتحصين عاصمة مصر وموانئها  
و ثغورها حتى يأمن عادية الصليبيين . وإذا كان صلاح الدين قد اهتم ذلك  
الاهتمام ببناء القلاع والأبراج وتحصين المدن والثغور في مصر ، فمن الواضح  
أن يكون اهتمامه بذلك الأمر في بلاد الشام عظيماً ، فأكثر من بناء الحصون  
في المواقع الاستراتيجية ، وحرص على تحصين القلاع لتسكون مراكز عملياته  
ضد الصليبيين .

(١) أبو شامة : كتاب ازوضتين ج ١ ص ٢٦٨ — ٢٦٩ .

(٢) المقرئزي : السلوك ج ١ ص ٧٢ — ٧٤ .

## الفصل الثالث

### صلاح الدين والصلبيون

فكرة الجهاد على عصر صلاح الدين :

ولد صلاح الدين وشب في بلاد الشام في عصر ازدهرت حركة الجهاد الديني ضد الصليبيين . ذلك أن عماد الدين زنكي ومن بعده نور الدين محمود أكسبا هذه الحركة طابعاً عملياً واضحاً ، لأنها بدءاً من النقطة التي كان ينبغي أن يبدأ منها المسلمون منذ ظهور الخطر الصليبي في أفق الشرق الأدنى ، وهي توحيد الجهود وجمع الشمل وإقامة وحدة إسلامية تضم — على الأقل — البلدان العربية التي كانت أكثر تعرضاً للخطر الصليبي من غيرها ، وهي الشام ومصر والعراق . وإذا كان صلاح الدين قد نشأ في منطقة هي بمثابة الميدان الأول للصراع بين المسلمين والصلبيين ، وشب في عصر شهد اشتداد حركة الجهاد ، وترعرع بين أناس لا حديث لهم إلا عن الجهاد والدفاع عن الوطن والعقيدة ، والتضحية بالنفس والنفيس في سبيل الاحتفاظ بكيانهم ضد دخلاء معتدين ؛ فلا غرابة أن نجد بعد هذا صلاح الدين وقد برز في صورة أعظم شخصية شهدها الوطن العربي في عصر الحروب الصليبية . ذلك أن صلاح الدين لم يكتف باعتماد فكرة الجهاد ، وإنما أصر إصراراً عظيماً على تنفيذها ، وقضى حياته حتى آخر رفق فيه يذود عن المسلمين وبلادهم . وفي ذلك يقول ابن شداد ، ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيماً ، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ، ولا نظر إلا في آله ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه ، (١) .

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٤ .

ويتضح لنا عند دراسة الدور الأول من أدوار حياة صلاح الدين أن القدر والحظ ساعدها إلى حد كبير ، إذ تهيأت له فرصة المجيء إلى مصر وهو الميدان البكر الذي استطاع صلاح الدين أن يعمل فيه ويظهر مواهبه على مسرحه . ثم تهيأ له سبيل الظهور بوفاته عمه شيركوه ووفاته الخليفة العاضد الفاطمي وفشل المحاولات التي بذلت لإحياء الخلافة الفاطمية . وأخيراً توفي نور الدين محمود صاحب الحق الشرعي في حكم البلاد وفي السيادة على صلاح الدين وجيوشه . وجاءت وفاته في الوقت الذي كان يتأهب للخروج إلى مصر لتأديب صلاح الدين . ولا ندري ماذا كان الموقف إذا لم يحدد القدر نهاية أجل نور الدين في ذلك الوقت بالذات ؛ واسكن كل ما نستطيع أن نقوله هو أنه لو أن العمر أمهل نور الدين حتى أتى إلى مصر فإن تاريخ صلاح الدين كان سينتهي عند تلك المرحلة . ذلك أنه كان من الصعب على رجل واحد من رجال صلاح الدين - بل كان من الصعب على صلاح الدين نفسه - أن يرفع سيفه في وجه نور الدين محمود ، سيدهم الشرعي وولي نعمتهم ؛ إذ أحسوا جميعاً بأنهم بما يليك نور الدين وعبيده ، كما اعترف بذلك نجم الدين أيوب والد صلاح الدين<sup>(١)</sup> .

ولذلك نستطيع أن نقرر أنه إذا كان مجيء صلاح الدين إلى مصر يمثل نقطة التحول الأولى في حياة ذلك البطل ، فإن وفاة نور الدين محمود في مايو سنة ١١٧٤م (٥٦٩هـ) كانت نقطة التحول الكبرى في حياة صلاح الدين ، بل كان ذلك الحدث بداية مرحلة جديدة في تاريخه ، هي مرحلة البطولة التي خلدت اسمه في التاريخ . ذلك أن وفاة نور الدين تركت المسرح العربي في الشرق الأدنى وليس عليه شخصية كبرى من طراز عماد الدين زنكي أو نور الدين محمود ، وبذلك برز صلاح الدين على المسرح ليبدأ عماد الدين زنكي ونور الدين محمود جميعاً في صبره على الجهاد ومقدرته على انتقاء خير الوسائل لتحقيق أغراضه .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٢٢ « مطبوع » .



## الدور التمهيدى فى الحرب بين صلاح الدين والصلبيين :

وأول ما يسترعى نظرنا فى حروب صلاح الدين ضد الصليبيين هو أن تلك الحروب مرت بدورين كبيرين : الدور الأول الذى امتد من سنة ١١٧٤ - ١١٨٦ م ( ٥٧٠ - ٥٨٢ هـ ) ، ولم يكن صلاح الدين فى هذا الدور متفرغاً لحرب الصليبيين وإنما وجه جل جهوده نحو توحيد الجبهة الإسلامية وإدخال القوى الإسلامية الصغيرة المبعثرة فى الشام وشمال العراق تحت سيادته ، لىتمكن من مواجهة الصليبيين فيما بعد ، ومن خلفه جبهة قوية متحدة تشد أزره . وإذا كان صلاح الدين قد اشتبك مع الصليبيين فى حروب فى ذلك الدور ، فإن هذه الحروب كان يغلب عليها الطابع الدفاعى إما لحماية أملاك المسلمين وأراضيتهم وإما ليحول بين الصليبيين ومساعدة بعض القوى الإسلامية الانفصالية التى أعمتها شهوة الحكم عن رؤية الخطر الخارجى ، فاستعانت بالصلبيين ضد صلاح الدين . وأما الدور الثانى من أدوار الحرب الصلاحية ضد الصليبيين فيمتد من سنة ١١٨٦ حتى سنة ١١٩٢ م ( ٥٨٢ - ٥٨٨ هـ ) وفيه كان صلاح الدين قد فرغ من توحيد الجبهة الإسلامية من الفرات إلى النيل ، فانصرف بكل طاقاته إلى فكرة الجهاد ، حتى حقق الانتصارات الضخمة التى خلدت ذكره فى التاريخ .

ويبدأ الدور الأول التمهيدى كما ذكرنا بسنة ١١٧٤ م ( ٥٧٠ هـ ) ، ولكن ليس معنى ذلك أن صلاح الدين لم يكن له عهد بمجاربة الصليبيين قبل ذلك التاريخ . حقيقة أن المصادر لا تمدنا بشيء ذى قيمة عن اشتراك صلاح الدين فى مساهمة حياته - قبل مجيئه - لأول مرة إلى مصر سنة ١١٦٤ م ( ٥٥٩ هـ ) - فى حرب الصليبيين ، ولكن صلاح الدين الذى شب على مسرح الحروب الصليبية فى بلاد الشام ، وقضى فترة هامة من حياته الأولى فى بلاط نور الدين بدمشق ، شاهد بلاشك صورة طبيعية حية لمجتمع مضطرب بنار الحماسة للدفاع عن الوطن والعقيدة وحماية نفسه من عدو خطير أتى من أقصى

الغرب ليعتدى على قوم آمنين في ديارهم ويسلبهم جزءاً عزيزاً من بلادهم .  
وبوصول صلاح الدين - صحبة عمه شيركوه - إلى مصر لأول مرة  
سنة ١١٦٤م (٥٥٩هـ) بدأت صفحة جديدة في تاريخ علاقته بالصلبيين ، لأن  
الحملة الثالثة التي أرسلها نور الدين محمود إلى مصر سنة ١١٦٤ ، ١١٦٧ ،  
١١٦٨ ( ٥٥٩هـ ، ٥٦٢هـ ، ٥٦٤هـ ) والتي شارك فيها صلاح الدين ، إنما  
كانت في حقيقة أمرها موجهة ضد الصليبيين الذين دخلوا مصر في ذلك  
الوقت وحاولوا امتلاكها . وتعتبر المعارك التي دارت بين المسلمين  
والصليبيين في أرض مصر عندئذ المحك الأول بين صلاح الدين والصلبيين ،  
إذ حدث فيها الاحتكاك المباشر بين الطرفين لأول مرة ، فقام صلاح  
الدين بدور بارز في موقعة البابين في أبريل سنة ١١٦٧م ( ٥٦٢هـ ) ، ثم  
تعرض صلاح الدين لحصار الصليبيين في الاسكندرية بعد ذلك ، مما أكسبه  
خبرة بأساليب الصليبيين وحرصهم .

ثم كانت الفوضى التي أصابت دولة نور الدين محمود بعد وفاته -  
كما سبق أن ذكرنا - الأمر الذي ترتب عليه قيام بعض الأطراف المتنازعة  
في الشام بدعوة صلاح الدين لتسلم دمشق سنة ١١٧٤م ( ٥٧٠هـ ) . وقد  
خشى الصليبيون عاقبة جهود صلاح الدين في الشام لتوحيد القوى الإسلامية ،  
فتدخل ريموند الثالث أمير طرابلس والوصي على مملكة بيت المقدس للحيولة  
دون استيلاء صلاح الدين على حلب ، وفعلاً نجح مؤقتاً سنة ٥٧٠هـ  
( فبراير ١١٧٥م ) في صرف صلاح الدين عن قصده . وعلى الرغم من أن  
ريموند قام بدوره في مهارة في التظاهر بحماية الزنكيين من أطماع صلاح الدين  
إلا أن الأخير أظهر ثباتاً عجبياً ، فظل يحارب الزنكيين حيثما ويدافع الصليبيون  
أحياناً ، مع حرصه الشديد في ذلك الدور على عدم توسيع دائرة الحرب  
ضد الصليبيين حتى لا يحارب في جهتين في وقت واحد . وربما احتدت الحرب  
بين صلاح الدين والصلبيين في ذلك الدور كما حدث بين سنتي ١١٧٧م ،  
١١٨٠م ( ٥٧٣هـ ، ٥٧٦هـ ) ولسكنها مع ذلك لم تتخذ صورة الحرب الشاملة .  
ثم إن الصليبيين أنفسهم كانوا يعانون اضطراباً كبيراً في أحوالهم الداخلية

عندئذ ، إذ كان بلدوين الرابع ملك بيت المقدس مريضاً بالجذام ، ومشكاة العرش ووراثته تثير كثيراً من المنافسات بين أمراء الصليبيين ، فضلاً عن اختلال أحوال إمارة أنطاكية في الشمال . وهكذا حتى استولى صلاح الدين على حلب سنة ١١٨٣ م ( ٥٧٩ هـ ) ، ثم دخلت الموصل تحت طاعة صلاح الدين في مارس سنة ١١٨٦ م ( ٥٨١ هـ ) ، وعندئذ أصبح في وسع صلاح الدين أن « ينصرف بملكته إلى الفرنج » .

### صلاح الدين وملكته بيت المقدس :

والواقع أن هجمات صلاح الدين على ملكته بيت المقدس أخذت تشتد فعلاً بعد استيلائه على حلب سنة ١١٨٣ م ( ٥٧٩ هـ ) . وفي ذلك الوقت كانت ملكته الصليبيين قد بلغت درجة شديدة من الضعف بعد أن ساءت أحوال ملكها المريض ووضع عرش المملكة تحت وصاية جاي لوز جنان وهو أمير ضعيف اتصف بالتردد وسوء التدبير<sup>(١)</sup> . وقد استولى صلاح الدين على بعض المعاقل الصليبية في تلك السنة ، ثم حاول أن يستدرج خصومه للدخول معه في معركة فاصلة في فلسطين ، ولكن الصليبيين « لم يخرجوا إلى المصاف خوفاً من المسلمين »<sup>(٢)</sup> .

على أن صلاح الدين لم يلبث أن فكر في اتخاذ خطوة حاسمة ضد الصليبيين نتيجة لاستفزاز الأمير أرناط الصليبي صاحب حصن الكرك . ولم يكن أرناط من طراز الفرسان الذين مجدهم العصور الوسطى، لحرصهم على التمسك بمبادئ الشرف ، وإنما اشتهر بحبه للصلب والنهب والاعتداء على الأبرياء المسلمين<sup>(٣)</sup> . لذلك فإنه لم يكتف بقطع طرق القوافل بين مصر والشام

(١) Guillaume de Tyr, p. 1116.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب . ج ٢ ص ١٥٠ - ١٥١ .

(٣) King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 111.

والحجاز ، وإنما لجأ إلى تهديد الحرمين في الحجاز . وقد بدأ أرناط مشروعه الغريب سنة ١١٨٢ ( ٥٧٨ هـ ) بالاستيلاء على أيلة ، وهي الميناء الهام على رأس خليج العقبة . ثم لجأ أرناط إلى بناء عدة سفن حملت أجزاؤها مفككة إلى خليج العقبة حيث ركبت ، وشحنها بالمقاتلين ، واتجه على رأسها لمهاجمة الموانئ الإسلامية في البحر الأحمر (١) . ولم يكتف أرناط بالعدوان على الموانئ المصرية مثل عيذاب ، بل نقل نشاطه إلى شاطئ الحجاز ، حتى أن المقرئى يذكر أن الصليبيين أضحووا على مسيرة يوم واحد من المدينة المنورة (٢) .

ومن الواضح أن العدوان على الحرمين أمر لا يمكن أن يغفره أو يسكت عنه المسلمون ، فأسرع العادل - أخو صلاح الدين - إلى إرسال أسطول قوى في البحر الأحمر نجح في تدمير السفن الصليبية وأسر كثير من رجالها ، في حين فر أرناط نفسه بصعوبة . أما صلاح الدين فقد رد على عدوان أرناط بحصار حصن الكرك في أواخر سنة ١١٨٣ م ثم سنة ١١٨٤ م ( ٥٧٩ هـ - ٥٨٠ هـ ) وإن كان لم يستطع الاستيلاء عليه لقوة تحصينه (٣) .

ويبدو أن صلاح الدين كان مشغولاً حينئذ بتنظيم الأوضاع الداخلية في دولته وإحلال أبنائه محل إخوته وأبناء عمومته في حكم أجزاء دولته الكبيرة ، فاكتمل بعقد هدنة مع الصليبيين مدتها أربع سنوات تبدأ بسنة ٥٨٠ هـ ( ١١٨٥ م ) (٤) . وكانت هذه الهدنة عظيمة الأهمية للطرفين إذ أتاحت لصلاح الدين فرصة لتنظيم دولته ، وفي الوقت نفسه أتاحت للصليبيين فرصة ذهبية لتصفية كثير من المشاكل الداخلية التي نشبت في دولتهم بعد وفاة بلدوين الرابع في مارس سنة ١١٨٥ م . ولكن أرناط لم يشأ - بحماقته

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٧٨ هـ .

(٢) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٧٩ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٥٦ .

(٤)

المعهودة - أن يترك الصليبيين ينعمون بتلك الفرصة ، فتعجل في إثارة الحرب مع صلاح الدين ، وهي الحرب التي جاءت كارثة على الصليبيين جميعاً .

### موقعة حطين :

انتهى الصراع الداخلي الذي نشب بين الصليبيين بعضهم وبعض - عقب وفاة بلدوين الرابع - باختيار جاي لوز جنان ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية . وفي الوقت الذي آل أمر المملكة الصليبية إلى ذلك الملك الضعيف ، كان أرناط قابعا في حصن الكرك جنوبي البحر الميت ، وهو الحصن الذي كان يتحكم بموقعه الفذ في طرق المواصلات بين مصر والشام والحجاز . ولكن أرناط كان دلا يستطيع أن يحيا هادئاً دون أن ينهب ويسرق<sup>(١)</sup>؛ ولذلك لم يلبث أن انقض فجأة على قافلة كبيرة للمسلمين كانت متجهة في أواخر سنة ١١٨٦ م وأوائل سنة ١١٨٧ م ( ٥٨٢ هـ ) من القاهرة إلى دمشق . ويبدو أن الثروة الضخمة التي كانت تحملها القافلة أسالت لعاب أرناط ، فنصب لها كميناً واستولى على كل ماتحملة من ثروة وبضائع ، وأسر رجالها في حصن الكرك حيث دسامهم الشد والشد<sup>(٢)</sup> .

وكان كل ما فعله صلاح الدين عندئذ هو أنه أرسل إلى أرناط مهديداً ، طالباً منه رد الأسرى والغنائم . ولكن أرناط أبى ذلك ، ورفض رجاء جاي لوز جنان نفسه عندما أمره برد الأسرى والغنائم إلى صلاح الدين . وهكذا لم يبق أمام صلاح الدين إلا الحرب ، فقام بحركة تعبئة شاملة لجميع قوى المسلمين ومواردهم البشرية والمادية ، استعداداً لحركة جهاد كبرى لم تنته

Grousset : Hist. des Croisades, II, p. 116.

(١)

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٥ .

إلا في نهاية القرن الثالث عشر بالقضاء على آخر البقايا الصليبية بالشام .

وقد اختار صلاح الدين أن يقيم في تلك المرحلة بدمشق ، ومن ذلك المركز أخذ ينظم تحركات قواته من مصر وحلب والجزيرة وديار بكر . وعندما اكتملت استعداداته ، خرج صلاح الدين من دمشق في منتصف مارس سنة ١١٨٧ م ( ٥٥٨٣ ) فقصده السرك أولاد ونازلها وقطع أشجارها ، ثم قصد الشوبك وفعل بها مثل ذلك ، ثم اتجه بعد ذلك إلى بانياس — قرب طبرية — لمراقبة الموقف<sup>(١)</sup> .

وفي ذلك الوقت جمع الملك جاي لوز جنان جيوشه في القاهرة ، فدارت المعركة الأولى بين المسلمين والصليبيين قرب صفورية في مايو سنة ١١٨٧ م ( ٥٥٨٣ ) ، وفيها سقط معظم الجيش الصليبي بين قتلى وأسرى . ويبدو أن هذه الكارثة التي حلت بالصليبيين جعلت ريموند الثالث يفتيق إلى رشده ، فنقض تحالفه مع صلاح الدين ، واجتمعت الجيوش الصليبية في صفورية استعداداً للانتقام .

وقد رد صلاح الدين على ذلك بمهاجمة طبرية — التي كانت للصليبيين — فآقتحمت جيوشه المدينة في يوليو سنة ١١٨٧ م ( ٥٥٨٣ ) وأحرقها ؛ وإن لم يستطع المسلمون الاستيلاء على قلعتها<sup>(٢)</sup> .

ويؤكد المؤرخ أبو شامة أن صلاح الدين استهدف من مهاجمة طبرية أن يجبر الصليبيين على ترك مواقعهم عند صفورية ، فيتمكن من إنزال الهزيمة بهم بعد أن يعتريهم التعب لطول الطريق وحرارة الجو .

وفعلا نجحت خطة صلاح الدين ، فتحرك الصليبيون للدفاع عن طبرية ،

---

(١) المقریزی : السلوك ج ١ ص ٩٣ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٦ .

وساروا في شهر يوليو سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) في ظروف قاسية ، بسبب حرارة الجو وقلة الماء ومشقة الطريق<sup>(١)</sup> . وعندما علم صلاح الدين بزحف الصليبيين تجاهه سر سروراً كبيراً وقال « جاء مانريد »<sup>(٢)</sup> .

وأخيراً وصل الصليبيون إلى قرون حطين - وهي هضبة مرتفعة على سفح جبل طبرية - وهم في حالة سيئة من الإنهاك والعطش ، في الوقت الذي كان المسلمون مدخرين قوتهم ، ينعمون بالماء العذب والظل المديد . وفي ٤ يوليو دارت موقعة حطين الشهيرة بين صلاح الدين والصليبيين ، فأحاط المسلمون بخصومهم ، ولم يجد الصليبيون مخرجاً سوى التراجع نحو قمة الجبل « القتل والأسر يعملان في فرسانهم » حتى قتل معظمهم وانهارت قوة من نجا ، فاستسلموا للمسلمين<sup>(٣)</sup> .

وكان من جملة الأسرى الملك جاي لوز جنان. وأرناط صاحب حصن الكرك ، ومقدم الداوية ، فسيقوا جميعاً إلى صلاح الدين في خيمته حيث أحسن استقبالهم ، ماعدا أرناط الذي قتله صلاح الدين وفاء لقسم له<sup>(٤)</sup> .

### استيلاء صلاح الدين على ساحل الشام وبيت المقدس :

تعتبر موقعة حطين دون شك نقطة تحول خطيرة في تاريخ الحروب الصليبية ، لأن الصليبيين لم يفيقوا مطلقاً من تلك الضربة التي أودت بزهرة فرسانهم. ولم يكن منتظراً من مملكة بيت المقدس بعد فناء جيشها وأسر ملكها أن تستطيع الصمود والمقاومة ، الأمر الذي مكن صلاح الدين من تحقيق مكاسب ضخمة عاجلة على حساب الصليبيين. وهنا نلاحظ أن صلاح الدين

(١) King: The Knights Hospitallers, pp. 125-126.

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٦ .

(٣) عماد الدين الكاتب : الفتح القسي ص ٢٣ . ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٥٨٣ هـ .

(٤) ابن واصل : مفتح الكروب ج ٢ ص ١٩٤ .

تحلى في ذلك الدور من أدوار حروبه ضد الصليبيين بصفات التسامح والمروءة والشهامة والبعد عن التطرف، وهي السياسية التي كثيراً ما سببت الأضرار بمصالح المسلمين، وجعلت بعض المؤرخين المسلمين - مثل ابن الأثير - ينقدون صلاح الدين نقداً مراً لتساهله مع خصومه تساهلاً يفوق الحدود<sup>(١)</sup>.

وكان المفروض أن يتجه صلاح الدين بعد حطين صوب بيت المقدس ليستولى عليها في سهولة، بعد أن غدت المملكة الصليبية دون جيش يدافع عن عاصمتها؛ ولكنه آثر أن يتجه أولاً إلى الموانئ الساحلية ليحرم الصليبيين من أية معونة تأتي إليهم من غرب أوروبا عن طريق البحر، وبعد ذلك يسهل عليه انتزاع المدن والقلاع الداخلية من الصليبيين.

هذا بالإضافة إلى أن استيلاء صلاح الدين على موانئ فلسطين من شأنه أن يهيأ له اتصالاً بحرياً سريعاً وسهلاً بين شطري دولته، الشام ومصر<sup>(٢)</sup>.

وهكذا استولى صلاح الدين على عكا في سهولة، إذ استسلمت له المدينة بمجرد رؤية الجيش الإسلامي في ٨ يوليو سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ). ويبدو أن السياسة الرحيمة التي اتبعها صلاح الدين مع أهل عكا، ساعدته في الاستيلاء على كثير من المدن الساحلية والداخلية فيما بعد، فأرسل جيوشه للاستيلاء على المعقل القريبة، حتى تم للمسلمين الاستيلاء على الناصرة وقيسارية وحيفا وصفوريه، وغيرها من المواقع القريبة من عكا<sup>(٣)</sup>. هذا في الوقت الذي زحف العادل أخو صلاح الدين من مصر واستولى على يافا، في حين سقط حصن تبنين، وصر فند، وصيداً في أيدي المسلمين، في أواخر يوليو سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ). كذلك استولى صلاح الدين على بيروت وجبيل وعسقلان التي

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨١١ وما بعدها.

(٢) Stevenson: The Crusaders in the East, p. 249.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٠٢



أيدت مقاومة عنيفة . وهنا يلاحظ أن صلاح الدين كان يترك الحرية لأهالي معظم هذه المدن التي استولى عليها في أن يبقوا أو يرحلوا ، فأثر معظمهم الرحيل إلى صور ، حيث اجتمع كل أفرنجي بقي في الساحل ،<sup>(١)</sup> .

وهذا الخطأ من صلاح الدين ترتب عليه تجمع جميع عناصر المقاومة الصليبية في مدينة صور ، الأمر الذي أدى إلى استحالة استيلاء صلاح الدين عليها من ناحية ، وإلى اتخاذها مركزاً لإحياء مملكة بيت المقدس فيما بعد من ناحية أخرى .

وعندما أدرك صلاح الدين أن أمر صور غداً صعباً ، آثر أن يتجه إلى داخلية فلسطين ليستولى على بيت المقدس . وكان أهل بيت المقدس قد استفادوا من الفرصة التي أتاحتها لهم إتجاه صلاح الدين إلى الساحل بعد حطين ، وحصنوا مدينتهم ، فرفضوا أن يستجيبوا لنداء صلاح الدين ويسلموا المدينة له مقابل تأمينهم<sup>(٢)</sup> . ويقال أن صلاح الدين عندما رأى عناد الصليبيين في بيت المقدس ، أقسم على أن يستولى على المدينة بحمد السيف ، فبدأ هجومه على المدينة من الجهة الشمالية في ٢٠ سبتمبر سنة ١١٨٧م ( ٥٨٣ ) ، وعندئذ أدرك الصليبيون استحالة المقاومة ، فطلبوا الأمان<sup>(٣)</sup> . ويبدو أن صلاح الدين تمتنع عن إجابة الصليبيين إلى طلبهم تلك المرة بعد أن رفضوا عروضه السابقة ، حتى وافق أخيراً على أن يسمح لهم بالخروج سالمين مقابل فداء معين عن كل رجل أو امرأة أو طفل . وهكذا دخل صلاح الدين بيت المقدس يوم الجمعة ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧م ( ٥٨٣ ) . وشاءت الظروف أن يوافق دخوله ذكرى ليلة الأسراء والمعراج ، فاحتفل المسلمون بهذه المناسبة الدينية في بيت المقدس

(١) أبو شامة : النوادر السلطانية ص ١٢٦ .

(٢) Grousset: Hist. des Croisades, II, p. 809.

(٣) Runciman: A Hist. of the Crusades, II, p. 464.

وأحسنوا معاملة الصليبيين ، مما جعل كثيراً من المؤرخين الأوربيين يشيدون بتسامح صلاح الدين ، وبالفرق بين معاملته للمسيحيين ومعاملة الصليبيين للمسلمين . عندما استولوا على بيت المقدس سنة ١٠٩٧م ( ٥٤٩١هـ )<sup>(١)</sup> .

### صلاح الدين وغزو شمال الشام :

وبعد أن أتم صلاح الدين غزو فلسطين ، لم يبق أمامه إلا البقايا الصليبية في شمال الشام ، مثل صور وطرابلس وأنطاكية ، فضلاً عن الحصون الداخلية ، مثل حصن الأكراد وحصن المرقب . أما صور فقد فشلت جميع جهود صلاح الدين في الاستيلاء عليها بعد أن تجمعت فيها البقايا الصليبية التي تركها صلاح الدين تخرج آمنة من المدن التي استولى عليها . لذلك لم يجد صلاح الدين بدا من ترك صور وتوجيه جهوده ضد طرابلس وأنطاكية .

وقد بدأ صلاح الدين هجماته على إمارة طرابلس بالاستيلاء على بعض القلاع الصليبية الهامة في إقليم الجليل ، مثل قلعة هونين ، كما حاصر صفد وحصن كوكب ، وإن كانت هاتان القلعتان قد أظهرتا مقاومة عنيفة بحيث لم يستطع صلاح الدين الاستيلاء عليهما إلا في أواخر سنة ١١٨٨ وأوائل سنة ١١٨٩م ( ٥٨٤هـ )<sup>(٢)</sup> . وفي تلك الأثناء استولى صلاح الدين على بانباس في أقصى الشمال من إمارة طرابلس ، ثم أوغل في إمارة أنطاكية واستولى على جبلة في يوليو ١١٨٨ ( ٥٨٤هـ ) . وبعد أن استولى صلاح الدين على اللاذقية - أكبر موانئ إمارة أنطاكية - في أواخر يوليو سنة ١١٨٨م ( ٥٨٤هـ ) ، هاجم حصن صهيون واستولى عليه بعد قليل . وبذلك أخذت معازل إمارة أنطاكية تتساقط في يد صلاح الدين معقلاً بعد آخر بحيث لم يبق لتلك الإمارة سوى ثلاث حصون ، هي القصير وبغراس ودر بساك<sup>(٣)</sup> . وحتى هذه الحصون

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨٢٤ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٢٠ ، ١٣٥ .

(٣) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٨٤ هـ ، أبو شامة ، الروضتين ص ١٣٦-١٣٧ .

لم يلبث أن ستولى عليها صلاح الدين في أواخر سنة ١١٨٨ م (٥٥٨٤)،  
وبذلك أصبحت إمارتا انطاكية وطرابلس مقصوصتي الجناح، على قول  
المؤرخ أبي شامة.

### صلاح الدين والحملة الصليبية الثالثة :

بدأ صلاح الدين هجومه الكبير الشامل على الصليبيين سنة ١١٨٧ م  
(٥٥٨٣)، ولم تكدمر ثلاث سنوات على ذلك الهجوم حتى انكسرت  
الممتلكات الصليبية في بلاد الشام، فلم يبق من مملكة بيت المقدس إلا صور،  
ومن إمارة طرابلس إلا عاصمتها مدينة طرابلس وقلعة انطارطوس وحصن  
الأكراد، ومن إمارة انطاكية إلا عاصمتها مدينة أنطاكية وحصن المرقب،  
هذا كله عدا بعض المواقع الثانوية الضئيلة الأهمية (١).

ولاشك في أن المصائب التي حلت بالصليبيين في المشرق على يد صلاح الدين  
كان لها صداها ورد فعلها العنيف في الغرب الأوربي، فارتفع صوت البابوية  
ينادي ملوك أوروبا وأمرائها بالقيام بحملة صليبية كبرى، تسترد بيت المقدس  
من المسلمين، وتتأرمحل بالصليبيين في الشام على يد صلاح الدين. ولم يلبث  
أن استجاب لهذه الدعوة ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وفيليب أغسطس  
ملك فرنسا وفردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا.

وقد اختار فردريك بربروسا أن يأتي إلى الشام عن طريق البر وآسيا  
الصغرى، في حين سلك زميلاه ملكا فرنسا وإنجلترا طريق البحر. وبدون  
الحملة الألمانية بزعامة فردريك بربروسا تعرضت في طريقها لمصاعب جمّة  
من جانب الدولة البيزنطية ثم السلاجقة، حتى انتهى الأمر بغرق الإمبراطور

---

Grousset: Hist. des Croisades, II, pp. 834-835.

(١)

فردريك بربروسا نفسه في أحد أنهار آسيا الصغرى وتشتت حملته سنة ١١٩٠م (٥٨٦هـ)<sup>(١)</sup>.

وفي الوقت الذي جمعت البقايا الصليبية فلولها في الشام وأخذت تشدد الهجوم على عكا لاستردادها من المسلمين، وصل فيلب أوغسطس على رأس الحملة الفرنسية إلى الشام في إبريل سنة ١١٩١م (٥٨٧هـ) ليشجع الصليبيين ويثبت فيهم روحاً جديدة، ويحيي فيهم الأمل. ولم يضع فيلب أوغسطس الوقت، وإنما تزعم على الفور معركة عكا، حتى وصل ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا إلى الشام في ٨ يونيو، فزاد الصليبيون قوة، في حين ساء موقف الحامية الإسلامية المحصورة داخل عكا. ولم تفلح الهجمات القوية التي شنّها صلاح الدين على جيوش الصليبيين لإنقاذ عكا، فاضطرت حاميتها إلى التسليم في يولييه سنة ١١٩١م (٥٨٧هـ)<sup>(٢)</sup>.

وإذا كان الخلاف بين فيلب أوغسطس وريتشارد قلب الأسد قد دفع فيلب إلى الاعتذار بالمرض والإبحار إلى الغرب في أوائل أغسطس سنة ١١٩١، فإن ريتشارد اختار أن يبقى بعض الوقت في الشام ليحاول أن يصفى الحساب بين صلاح الدين والصليبيين. وتعتبر الحروب التي دارت في الشام بين ريتشارد قلب الأسد وصلاح الدين سنة ١١٩١ - ١١٩٢م (٥٨٧ - ٥٨٨هـ) من أهم حلقات الحروب الصليبية إطلاقاً، وأكثرها متعة للباحث. ذلك أن ريتشارد جمع بين الشجاعة والتهور، فتزعم القوى الصليبية بالشام للقيام بحركة كبرى يسترد بها بيت المقدس ويعيدها إلى سابق عهدها<sup>(٣)</sup>. وكان أن بدأ ريتشارد بمحاولة لاسترداد شاطئ فلسطين - من عكا

---

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٧٦هـ. Runciman: op. cit., III, p. 15.  
(٢) ابن واصل: مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٥٩ - ٣٦٠، ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٢٧٦.  
(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨٧١ وما بعدها.

إلى عسقلان ، فاستولى الصليبيون على حيفا ثم على قيسارية في نهاية أغسطس .  
سنة ١١٩١ م ( ٥٨٧ هـ ) ومنها اتجهوا صوب أرسوف .

على أن صلاح الدين لم يترك الصليبيين يواصلون زحفهم في سهولة، وإنما أخذ في مطاردتهم، وتحمل في هذه المطاردة كثيراً من التضحيات، حتى كانت موقعة أرسوف بين الطرفين في أوائل سبتمبر سنة ١١٩١ م ( ٥٨٧ هـ ) .  
وفي هذه الموقعة أحاط المسلمون بالصليبيين ، وأوشك صلاح الدين أن يقضى عليهم كما حدث في حطين ، لولا ثبات ريتشارد الذي أعاد تنظيم رجاله في سرعة، واستطاع أن يحول المعركة إلى صالح الصليبيين<sup>(١)</sup> .

ومع أن الصليبيين انتصروا في أرسوف، إلا أن صلاح الدين ظل محتفظاً بالسيطرة على داخلية فلسطين ، وبخاصة بيت المقدس . وكان أن حاول ريتشارد الزحف على بيت المقدس ، ولكنه لم ينجح في الاستيلاء عليها بسبب يقظة صلاح الدين والاستعدادات القوية التي اتخذها للدفاع عن المدينة<sup>(٢)</sup> .

وأخيراً أدرك ريتشارد أن مشا كل الصليبيين الداخلية كثيرة ومعقدة ، وأن مركز صلاح الدين قوى ومتين ، وأن الأحوال في غرب أوروبا تستدعي سرعة عودته إلى بلاده ؛ ولذلك كلفه لجأ ريتشارد إلى فتح باب المفاوضات مع صلاح الدين . وقد طالت هذه المفاوضات بين الطرفين ومرت بأدوار متعددة ، حتى أدت في النهاية إلى صياح الرملة في ٢ سبتمبر سنة ١١٩٢ م ( ٥٨٨ هـ ) وهو الصلح الذي نص على أن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور إلى يافا بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف ، وما عدا ذلك — بما فيه بيت المقدس ذاتها — تظل بأيدي المسلمين<sup>(٣)</sup> .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ١٠٥ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٧٥ .

(٣) ابن شداد : النودر السلطانية ص ٣٦٣ ، عماد الدين السكاتب : الفتح القيسى ص ٣٤٢

وبعد عقد الصلح ركب ريتشارد البحر عائداً إلى بلاده في أوائل أكتوبر  
سنة ١١٩٢ م (٥٨٨ هـ) . ولم يابث صلاح الدين نفسه أن توفي في أوائل  
مارس سنة ١١٩٣ م (٥٨٩ هـ) في دمشق بعد مرض قصير .  
ولاشك في أن وفاة صلاح الدين المبكرة جاءت خسارة كبرى للعالم  
الإسلامي بوجه عام ومصر والشام بوجه خاص . ويكفي أنه — باعتـاف  
جمهرة المؤرخين المسلمين والأوربيين — كان أعظم شخصية شهدها عصر  
الحروب الصليبية ، مما دفعهم جميعاً إلى الترحم عليه والإشادة بقوته وعدله  
ونسأحه (١) .

---

(١) ابن شداد : النوادر ص ٤١٠ ، Runciman : op. cit., III, pp. 11-18.

## الفصل الرابع

### الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين

#### انقسام البيت الأيوبي :

ترك صلاح الدين خلفه دولة مترامية الأطراف ، وفراغاً ضخماً لم يستطع أحد من أبنائه السبعة عشر ، أو إخوته ، أو أبناء إخوته أن يملأه . ولا أقل من أن نلقى نظرة سريعة على أحوال الدولة الأيوبية عند وفاة صلاح الدين ، لتدرك مدى الخطر الذي كان يهددها ويهدد وحدة المسلمين في الشرق الأدنى عندئذ . على أنه قبل أن نتكلم عن التوزيع الإداري في الدولة الأيوبية عند وفاة صلاح الدين يصح أن نشير إلى ملاحظة ، هي أن صلاح الدين اعتمد في الدور الأول من تاريخه على إخوته وأبناء عمومته في توطيد سلطانه، واختصهم بالمناصب الكبرى والولايات الرئيسية في دولته؛ ولكنه لم يلبث بعد ذلك أن بدل سياسته، فجعل لأبنائه المكانة الأولى، ووزع عليهم حكم الأجزاء الرئيسية ، ثم استبقى لأخوته وأقاربه المناصب الثانوية. وسواء كان الدافع لصلاح الدين إلى ذلك عاطفة الأبوة الطبيعية التي جعلته يفضل أبناءه على أخوته ، أم كان الدافع تخوفه من أطماع أقاربه وازدياد نفوذ إخوته ، فالمهم هو أننا نجد الدولة الأيوبية عند وفاة صلاح الدين وقد تقاسم حكم أجزائها عدد كبير من بني أيوب ، فاستأثر أبناء صلاح الدين بالأجزاء المختارة وأخذ بقية الأقارب الأجزاء الأقل أهمية .

وكان أكبر أبناء صلاح الدين هو الملك الأفضل نور الدين علي ، فاحتفظ ( ١١٩٣-١١٩٦م - ٥٨٩-٥٩٢هـ ) بدمشق والساحل وبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وهونين وتبنين إلى الداروم

قرب حدود مصر . أما الابن الثاني لصلاح الدين وهو الملك العزيز عثمان فكان بمصر وقت وفاة أبيه، فأحتفظ بها ( ١١٩٣ - ١١٩٨ م = ٥٨٩ - ٥٩٥ هـ ) ، في حين أخذ الابن الثالث لصلاح الدين - وهو الملك الظاهر غازي - حلب وشمال الشام ( ١١٩٣ - ١٢١٥ م ، ٥٨٩ - ٦١٣ هـ ) . أما الملك العادل سيف الدين أبو بكر - أخو صلاح الدين - فقد أخذ السكرك والأردن ، فضلا عن الجزيرة وديار بكر ، وكلها إقطاعات ثانوية متفرقة منحه إياها صلاح الدين ، ولا تتناسب مع أهمية العادل التي ستزداد ظهوراً مع مضي الوقت<sup>(١)</sup> . أما بقية أبناء صلاح الدين وإخوته وأقاربه ، فكانت لهم إقطاعات ثانوية صغيرة ؛ مثل الظافر خضر ابن صلاح الدين الذي أخذ بصرى وهوران ، والأجد بهرام شاه ابن أخي صلاح الدين الذي أخذ بعلبك ، والمجاهد شيركوه الثاني ( الصغير ) ابن محمد بن شيركوه الكبير عم صلاح الدين وقد أخذ حمص ، والمنصور الأول محمد ابن تقي الدين عمر وقد أخذ حماه ، في حين أخذ سيف الإسلام طغتكين - وهو الأخ الرابع لصلاح الدين - اليمن وجزيرة العرب<sup>(٢)</sup> .

فإذا أضفنا إلى ذلك كله تحفز أبناء البيوت القديمة الحاكمة في الجزيرة ، مثل البيت الزنكي ممثلاً في عز الدين مسعود الأول ابن مودود أتابك الموصل ( ١١٨٠ - ١١٩٣ م ، ٥٧٦ - ٥٨٩ هـ ) وأخيه عماد الدين زنكي الثاني ابن مودود أتابك سنجان ( ١١٧٠ - ١١٩٧ م ، ٥٦٦ - ٥٩٤ هـ ) ، والبيت الأرتقي ممثلاً في قطب الدين سقمان الثاني صاحب كيفا وآمد ، وعماد الدين أبو بكر صاحب خر تبرت ، فضلاً عن بني سكرمان في خلاط ، أدر كنا حقيقة الموقف في العالم الإسلامي في الشرق الأدنى عند وفاة صلاح الدين<sup>(٣)</sup> .

(١) ابن واصل : مفرج السكروب ج ٢ ص ٣٧٨ - ٣٧٩ « مطبوع » .

(٢) عماد الدين السكاتب : الفتح القمى ص ٣٦٤ .

(٣) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٨٩ هـ .



## النزاع بين أبناء البيت الأيوبي :

ولم تلبث أن نشبت حرب الوراثة بين أبناء البيت الأيوبي. ذلك أن صلاح الدين أوصى لابنه الأفضل - صاحب دمشق - بالسلطنة من بعده ، على أن تكون له السلطنة العليا في بقية أنحاء الدولة الأيوبية. ولكن الأفضل لم يكن بالشخص الذي يصلح لتلك المهمة لضعفه وسوء سيرته ، حتى وصفه المؤرخون بأنه «أقبل على اللعب ليله ونهاره وتظاهر بلذاته»<sup>(١)</sup>. وزاد من كراهية الناس له أنه نبذ أمراء والده ومستشاريه ، ووضع كل ثقته في وزير جديد هو ضياء الدين ابن الأثير ، أخى المؤرخ الشهير. ولم يلبث وزراء صلاح الدين وأمرأؤه المستبعدون أن فروا إلى بلاط الملك العزيز عثمان بمصر ، واستعدوه على أخيه الأفضل ، فخرج العزيز من مصر في صيف سنة ١١٩٤ م ( ٥٩٠ هـ ) قاصداً الشام ، وشرع في محاصرة الأفضل في دمشق ، الأمر الذي جعل الأفضل بدوره يستنجد بعمه العادل<sup>(٢)</sup>.

وهكذا أتاحت الفرصة للعادل - وهو الرجل الطموح الذي كان يرجو أن يخلف أخاه صلاح الدين - فأخذ يتدخل ، عليه يحقق أطاعه الخاصة. وقد وصف ابن واصل الملك العادل بأنه كان «ذامكراً شديداً وخديعة ، صبوراً ذا أناة وتؤده»<sup>(٣)</sup> ، فلم يشأ أن يتعجل الحوادث عقب وفاة أخيه صلاح الدين ، وأخذ يتصرف بأناة ريثما تتضح الأمور. وكان أن استجاب العادل لنداء الأفضل ، فالتقى بالملك الظاهر صاحب حلب والمنصور محمد صاحب حماه ، وأمد الدين شيركوه صاحب حمص ، والأجد صاحب بعلبك. واتفق هؤلاء جميعاً على منع العزيز من الاستيلاء على دمشق «علماً منهم

(١) المقرئى : السلوك حوادث سنة ٥٩٠ هـ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ١٢٠ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٩٠ هـ .

(٣) ابن واصل : مفرج السكروب ج ٣ ص ٢٧١ « مطبوع » .

أن العزيز إن ملكها أخذ بلادهم ، . وعندئذ أدرك العزيز أن لا قدرة له على مقاومة أولئك الأمراء جميعاً ، فانصرف عائداً إلى مصر بعد أن اجتمع بعمه العادل في صحراء الميزة ، فطيب العادل نفسه وأعطاه إحدى بناته ليتزوجها<sup>(١)</sup> .

أما التسوية التي على أساسها انصرف العزيز ، والتي تمت في يوليو سنة ١١٩٤ م (٥٩٠هـ) ، فقد قضت بأن يحتفظ الأفضل بدمشق وطبرية وأعمال الغور ، في حين يأخذ العزيز بيت المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين ، ويأخذ الظاهر جبلة واللاذقية ، وذلك علاوة على ما بأيديهما فعلاً<sup>(٢)</sup> .

وهكذا أخذ العادل يبدو في صورة الشخصية الكبرى الحريصة على وحدة البيت الأيوبي ، والمحافظة على كيان المسلمين أمام الأخطار الخارجية<sup>(٣)</sup> .

على أن الأفضل لم يلبث أن تمادى في لذاته ولهوه « فتشاغل عن أمور الناس بإدمان الشراب ، في الوقت الذي عاد العزيز عثمان إلى مطامعه ، فخرج من مصر قاصداً دمشق . وكان أن عاد الأفضل إلى طلب النجدة من عمه العادل ، فحرض العادل أمراء العزيز على تركه ، وعندئذ وجد العزيز نفسه وحيداً فاضطر إلى العودة إلى مصر . وسرعان ما تم الاتفاق بين الأمراء على أن يأخذ الأفضل مصر ويترك دمشق للعادل ، فجمع الأفضل والعادل جيوشهما واستوليا على بيت المقدس ، ثم شرعا يزحفان على العزيز في مصر

---

(١) المقرئى : السلوك حوادث سنة ٥٩٠ هـ .

(٢) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٥٩١ هـ .

(٣) يروى ابو المحاسن أن العادل عندما التقى بالعزيز عثمان قرب دمشق قال له :

« لا تخرب البيت وتدخل عليه الآفة ، والعدو وراءنا من كل جانب . . . إرجع إلى مصر واحفظ عهد أبيك » ( النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٢١ ) .

حتى وصلا إلى بلبيس وحاصراها . وليس أدل على مهارة العادل في ذلك الدور من أنه عاد نخشي أن يأخذ الأفضل مصر ولا يعطيه دمشق ، فأرسل العادل سرآ إلى العزيز يطلب منه الثبات ويتعهد له بالانسحاب من بلبيس<sup>(١)</sup> . وهكذا عاد الأفضل إلى دمشق في حين جعل العادل من نفسه حكما بين أبناء صلاح الدين بما يمكنه من أن يفرض كلمته عليهم جميعاً .

على أن الأفضل عاد في تلك المرة إلى دمشق ليترك جميع شئون الحكم في يد وزيره ضياء الدين ابن الأثير الذي اختلت به الأحوال غاية الاختلال وكثير شاكوه ، فضج الناس من سوء الحكم وأعلنوا سخطهم على الأفضل وابن الأثير جميعاً<sup>(٢)</sup> .

وهنا وجد العادل أن الأمور قد نضجت لعزل الأفضل ، فذهب إلى العزيز في مصر ، وعقد معه اتفاقية لتحقيق ذلك الغرض ، ثم خرج الإثنين - العادل والعزيز - من مصر في يونية سنة ١١٩٦ م ( ٥٩٢ هـ ) قاصدين دمشق ، فما صدمهم عن البلد صاد ولا ردهم راد<sup>(٣)</sup> .

ولم تلبث أن سقطت دمشق في أيديهما في أوائل يوليه ، وعندئذ حل العادل محل الأفضل في حكم دمشق وأواسط الشام ، في حين أخذ العزيز لقب السلطنة، وبقيت له مصر وبيت المقدس ؛ على أن يذكرا اسمه في الخطبة وينقش على السكة . أما الأفضل فقد تركت له مدينة صرخد في إقليم حوران شرقي بصرى، ليقيم فيها نسبياً منسيا<sup>(٤)</sup> .

---

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٩١ هـ .

(٢) المقرئ : السلوك ج ١ ص ١٢٩ . سنة ٥٩٢ هـ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ٦١ ( مطبوع ) .

(٤) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ١١٦ .

## مصر في عهد العزيز عثمان :

حكم العزيز عثمان مصر قرابة خمس سنوات ( ١١٩٣ - ١١٩٨ م = ٥٨٩ - ٥٩٥ هـ ) وكان قبل ذلك يحكم مصر باسم أبيه صلاح الدين . وفي ذلك يقول المؤرخ أبو المحاسن عن العزيز عثمان أنه «ولى سلطنته مصر في حياة والده صورة ، ثم تسلطن بعد وفاته استقـالاً ، بإتفاق الأمراء وأعيان الدولة بديار مصر (١) ، .

ويلاحظ أن العزيز عثمان ولد بالقاهرة ، وهو لذلك يمثل أول حاكم من بني أيوب يولد بمصر ويتولى حكمها . وقد أشارت المراجع باستقامة العزيز عثمان واستقامة حكمه وعدله في الرعية ، حتى وصفه ابن خلدان بأنه « كان ملكاً مباركاً كثير الخير واسع السكـرم محسناً إلى الناس ، .

وعلى الرغم من أن مصر ظلت في ذلك العهد - كما كانت في أيام صلاح الدين - قلب الدولة الأيوبية ، إلا أن أحوالها الاقتصادية تأثرت إلى حد كبير بسبب انخفاض فيضان النيل سنة ١١٩٤ م ( ٥٩١ - ٥٩٢ هـ ) وما ترتب على ذلك من نقص الغلال وانتشار الوباء ، فهلكت المواشى ، وكثر الزحام في الأسواق على الخبز لقلته ، وكثرت الطرحي من الأموات على الطرقات ، وزادت عدتهم بمصر والقاهرة في كل يوم عن مائتي نفس ، وبقي بمصر من لم يوجد من يكفنه وأكثرهم يموت جوعاً . « (٢) ويبدو أن انشغال العزيز عثمان بالانزاع مع أخيه الأفضل في ذلك الدور بالذات لم يساعد على سرعة وضع حد لتلك الضائقة التي أثرت تأثيراً خطيراً في أحوال البلاد .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ١٢٠ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ١٣٠ .

## العادل وتوحيد الدولة الأيوبية :

وإذا كانت الظروف التي أملت بالبيت الأيوبي بعد وفاة صلاح الدين قد ساعدت على إبراز أهمية العادل بوصفه كبير الأيوبيين وزعيمهم ، فإن هذه المكانة كانت تلقى مسئولية كبيرة على كاهل العادل، فيما يختص بالدفاع عن مصالح المسلمين ضد أى عدوان من جانب الصليبيين . وفعلا نهض العادل بمسئوليته تجاه العدوان الصليبي على خير وجه ، فعندما وفد بعض الصليبيين الألمان إلى الشام سنة ١١٩٧م ( ٥٥٩٣هـ ) وهاجموا المسلمين — وبخاصة قرب الساحل — أسرع العادل إلى جمع القوى الإسلامية، وأنزل الهزيمة بالصليبيين عند تل العجول قرب غزة، ثم أسرع بالاستيلاء على يافا في سبتمبر سنة ١١٩٧م ( ٥٥٩٣هـ )<sup>(١)</sup>. وقد رد الصليبيون على ذلك بالاستيلاء على بيروت في أكتوبر، ثم فكروا في الزحف على بيت المقدس ، ولكن العادل طلب معونة العزيز عثمان من مصر، فحضر إليه في أوائل سنة ١١٩٨م ( ٥٥٩٤هـ )، وتمكن المسلمون من الصمود في وجه الصليبيين الذين انصرفوا فاشلين<sup>(٢)</sup> .

ولم يكد يتم الصلح بين المسلمين والصليبيين في أوائل يولية سنة ١١٩٨م ( ٥٥٩٤هـ ) حتى مرت الدولة الأيوبية بعدة تطورات انتهت بتوحيدها مرة أخرى تحت زعامة العادل . ذلك أن العزيز عثمان سلطان مصر توفي في أواخر نوفمبر سنة ١١٩٨م ( ٥٥٩٥هـ ) وكان ابنه الأكبر ناصر الدين محمد — الملقب بالملك المنصور — في العاشرة من عمره، فأرسل نحر الدين جهاركس — صاحب النفوذ في مصر — إلى العادل يستدعيه لحكم البلاد . ولكن المماليك الأسيديّة والصلاحية في مصر خشوا بأس العادل، فأستدعوا الملك الأفضل

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٢٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٧٤ — ٧٥ .

(٢) أبو شامة : المختصر في تاريخ البشر ، حوادث سنة ٥٩٤ هـ .

من حوران وسلبوه مقاليد الأمور في مصر في يناير ١١٩٩ م ( ٥٩٥ هـ )  
وكان العادل عندئذ يحاصر ماردن في ديار بكر ؛ فاتفق الملك الأفضل  
في مصر مع الملك الظاهر صاحب حلب للقضاء على سيادة عمهما الملك العادل  
وأخذ دمشق منه (١) .

وعندما علم العادل بمؤامرة أبناء أخيه ضده ، عاد مسرعا إلى دمشق ، فوصلها  
في ٨ يونيو سنة ١١٩٩ م ( ٥٩٥ هـ ) وأخذ يعد المدينة بسرعة للدفاع . ولم  
تمض مدة طويلة حتى وصل الأفضل على رأس العسكر المصرى والظاهر على  
رأس العسكر الحلبى ، وحاصرا المدينة طوال ستة أشهر ، ولكن دون أن  
أن يقوما بهجوم عام جاد . على أن طول مدة الحصار أدت بكثير من أمراء  
الأفضل والظاهر إلى تركها والانضمام إلى العادل ، في الوقت الذى استغل  
العادل سوء تدبير الأخوين وأخذ يبذر بذور الخلاف بينهما ، حتى انتهى الأمر  
في أواخر ديسمبر سنة ١١٩٩ م ( ٥٩٦ هـ ) بعودة الأفضل إلى مصر والظاهر  
إلى حلب (٢) . وهنا لم يشأ العادل أن يترك الأفضل يعود في سلام إلى القاهرة  
وإنما تبعه إلى مصر ، وأنزل به الهزيمة قرب بلبيس . ولم يلبث أن استسلم  
الأفضل وطلب أن يسمح له بالعودة إلى إقطاعه المتواضع في حوران ، على  
أن تكون مصر للعادل ( فبراير ١٢٠٠ م = ٥٩٦ هـ ) (٣) .

على أن الظاهر والأفضل لم يلبثا أن اتفقا في العام التالى مرة أخرى ،  
وزحفا على دمشق ليحاصراها من جديد ، وعندئذ أسرع العادل من مصر  
ليبذر بذور الخلاف بين الأخوين ، فعاد الظاهر إلى حلب واعترف بسيادة

---

(١) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٥٩٥ هـ ؛ أبو المحاسن ، النجوم ج ٦ ص ١٤٧ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٣٦ .

(٣) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٥٩٦ هـ .

عمه . أما الأفضل فقد اختار عمه العادل أن يعاقبه ، فلم يعطه تلك المرة سوى سميساط<sup>(١)</sup> .

وهكذا صار العادل سلطان البلاد جميعها ، وبيده ملك مصر وبيت المقدس ودمشق ، فضلا عن أملاكه في الجزيرة . وإذا كان العادل قد نجح في توحيد الدولة الأيوبية من جديد ، فإن ذلك تطلب منه إعادة تنظيم دولته ، واستعان في ذلك بالتنظيم بأبنائه ، فأصاب ابنه الكامل محمد في حكم مصر ، وجعل المعظم عيسى في دمشق ، وأعطى الأشرف موسى حران ، والأوحد ميافارقين . واحتفظ العادل لنفسه بالإشراف التام على جميع تلك الأنحاء ووصار يتنقل في ممالك أولاده ، والعمدة في كل الممالك عليه<sup>(٢)</sup> .

وبذلك تم توحيد الجبهة الإسلامية مرة أخرى في وجه الصليبيين ، وقام على رأس هذه الجبهة رجل يعتبر من أقوى رجال عصره ؛ هو السلطان العادل أخو صلاح الدين .

### السلطان العادل والصليبيون :

نظر الصليبيون والغرب الأوربي إلى جهود العادل الأيوبي في توحيد الجبهة الإسلامية بعين القلق ، وأخذوا يدركون أهمية مصر بوصفها القاعدة الكبرى التي اعتمد عليها الأيوبيون في نشاطهم الداخلي والخارجي لذلك ظهرت الدعوة في الغرب الأوربي في أوائل القرن الثالث عشر لإرسال حملة كبيرة ضد مصر ، وهي الحملة التي عرفت في تاريخ الحروب الصليبية باسم الحملة الرابعة ، والتي انحرفت إلى القسطنطينية ولم تصل إلى مصر أو الشام .

(١) المقرئزي : السلوك ، حوادث سنة ٥٩٨ هـ ( ج ١ ص ١٥٩ ) .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٢٧ .

وفي تلك الأثناء ظل الملك عمورى الثانى لوزجنان حريصا على عدم خرق الصلح الذى عقد مع المسلمين سنة ١١٩٨ م ( ٥٥٩٤ ) ، فعمل دائما على عدم استفزاز العادل حتى تاتى الحملة الصليبية المنتظرة إلى الشرق . من ذلك أن ثلاثمائة فارس من الفلمنكيين وصلوا فى نهاية سنة ١٢٠٢ م ( ٥٥٩٩ ) إلى عكا ، وطلبوا من الملك عمورى الثانى البدء فوراً بالزحف ضد المسلمين ، ولكن عمورى رد عليهم بأن الحماصة وحدها لا تكفى ، وأنه من الأفضل عدم خرق الهدنة مع المسلمين حتى يضمن الصليبيون قوة فعالة تحقق لهم النجاح فى حروبهم ضد المسلمين <sup>(١)</sup> .

على أنه ليس معنى حرص عمورى الثانى على احترام الصلح مع المسلمين أنه ارتضى العدوان على الصليبيين ، إذ الواقع أن سياسته اتجهت إلى عدم المبادرة بالعدوان مع التأهب دائما للدفاع عن كيان الصليبيين ومصالحهم . من ذلك أن أميراً مسلماً امتلك قلعة فى إقليم صيدا ودأب على تسليح بعض السفن للقيام بإغارات عدوانية على ممتلكات الصليبيين وسفنهم . ولم تفلح الشكاوى التى بعث بها عمورى إلى الملك العادل لوقف نشاط ذلك الأمير ، وعندئذ عزم عمورى على رد العدوان بالمثل ، فتربص اسطوله لقافلة من السفن الإسلامية - تبلغ عشرين سفينة - قادمة من مصر إلى موانئ الشام ، واستولى على ما فيها من بضائع قدرت بنحو ستين ألف دينار ، ورجال بلغوا المائتين <sup>(٢)</sup> . وبعد ذلك شرع عمورى فى القيام بإغارة على إقليم الجليل ، فأوغل الصليبيون حتى كفر كسنا - على الطريق بين عكا وطبرية - واعتدوا على أرواح المسلمين وأملاكهم <sup>(٣)</sup> . ولكن العادل خرج إليهم ، فأوقف

---

(١) Stevenson: The Crusaders in the East, p. 296.

(٢) Grousset: Hist. des Croisades, III, p. 180.

(٣) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٦٠٠ هـ .



الصلبيون زحفهم واختاروا أن يترشوا حتى تصل الحملة الصليبية المزعومة.  
ولم تلبث أن جاءت الاخبار بانحراف الحملة الصليبية واتجاهها إلى  
القسطنطينية ، مما ساعد على إبرام الصلح بين الصليبيين والمسلمين في سبتمبر  
سنة ١٢٠٤ م (٦٠١ هـ) .

وهنا نلاحظ على العادل أنه كان متسامحا إلى أقصى حدود التسامح، وأنه  
حرص دائما على عدم العدوان ، بل كان يعمد أحيانا إلى السكوت عن  
عدوان الصليبيين رغبة منه في عدم إشعال نار العداوة بينهم وبين المسلمين .  
ذلك أن الصليبيين - وبخاصة الاستبارية في حصن الأكراد - دأبوا منذ  
سنة ١٢٠٦ م (٦٠٣ هـ) على الإغارة على مدينة حمص ، في الوقت الذي  
استولى قراصنة قبرس سنة ١٢٠٧ م (٦٠٤ هـ) على عدة سفن دمن أسطول  
مصر ،<sup>(١)</sup> . ومع ذلك كله فقد اكتفى العادل بانذار ملك الصليبيين ، وقنع برد  
أسرى المسلمين . ومن الواضح أن سياسة العادل وتسامحه كانت لا تتفق بأى  
حال وروح العصر وحماسة المسلمين ، الأمر الذي جعل المسلمين يعقدون  
الاجتماعات في جامع دمشق ، حتى أن امرأة قطعت شعرها وبعثت به إلى  
العادل وقالت له : اجعله قيذا لفرسك في سبيل الله ،<sup>(٢)</sup> .

وإذا كان هذا الشعور قد دفع العادل إلى القيام ببعض الأعمال الحربية  
ضد الصليبيين سنة ١٢٠٧ م (٦٠٤ هـ) في منطقة طرابلس ، فإنه لم يلبث أن  
اصطلح معهم بعد قليل .

---

(١) ابن الاثير : الكامل ؛ سنة ٤٠٤:٦٠٠ - سعيد عاشور: قبرس والحروب الصليبية ص ٣٩ .  
(٢) ذيل الروضتين . (Rec. Hist. Cr., Tome 4, pp. 156-158).

## الفصل الخامس

### السلطان الكامل والحملة الصليبية الخامسة على مصر

#### تطاع الصليبيين إلى مصر :

أدرك الصليبيون منذ بداية استقرارهم بالشام أهمية مصر لهم ولشاريعهم في الشرق الأدنى، فأخذوا يتطلعون إليها منذ أواخر القرن الحادى عشر للميلاد (الخامس الهجرى) ، وقام جودفرى دى بوايون بمحاولة الأولى الاستكشافية فى أرض مصر سنة ١٠٩٩ م (٤٩٣ هـ) ثم أعقبه أخوه بلدوين — أول ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية — فغزا مصر فعلا سنة ١١١٦ م (٥٠٩ هـ) .

وقد سبق أن أشرنا إلى التنافس بين شاور وضرغام فى أواخر الدولة الفاطمية ، وكيف أدى ذلك التنافس إلى تدخل الصليبيين فى شئون مصر وقيام ملكهم عمورى الأول بحملات أربع على مصر ، ( ١١٦١ — ١١٦٩ م = ٥٥٦ — ٥٦٤ هـ) . وإذا كان الصليبيون قد فشلوا فى أخذ مصر ، فإن فشلهم كان حافزاً لهم على الإحساس بمدى الخطر الذى يهددهم بعد أن غدا نور الدين — ومن بعده صلاح الدين — يسيطران على الشام ومصر جميعاً ويحصران الممتلكات الصليبية بين فكي الكاشة الإسلامية .

ولا يخفى علينا كذلك أن مصر كانت المركز الذى استمد منه صلاح الدين قوته وموارده ، والتي اعتمد عليها فى جهوده الحربية التى انتهت بالإطاحة بالصليبيين فى موقعة حطين ، ثم الاستيلاء على بيت المقدس وغيرها من مدنها ومعابدهم فى بلاد الشام . لذلك لا عجب إذا أفاق الغرب الأوروبى فى أوائل القرن الثالث عشر أمام حقيقة كبرى ، هى أن مفتاح بيت المقدس موجود فى مصر ، وأنه إذا أراد الصليبيون أن ينعموا بحياة آمنة فى بلاد الشام فعليهم أن يسيطروا على مصر أولاً .

وكان المفروض أن تتجه الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤ م (٦٠٠ هـ) ضد مصر بالذات ، ولكن مطامع البندقية وجهت الحملة ضد القسطنطينية حيث أسقط الصليبيون الامبراطورية البيزنطية وأقاموا امبراطورية لاتينية. وإزاء هذا الفشل الذي منيت به الحملة الصليبية الرابعة ، قام البابا انوسنت الثالث ومن بعده البابا هونوريوس الثالث بالدعوة لحملة جديدة ، هي الحملة الصليبية الخامسة .

### حنادى برين ومهاجمة مصر :

وسرعان ما أخذت جموع الصليبيين تفد من الغرب إلى بلاد الشام تلبية لدعوة البابوية ، في الوقت الذي آمن حنادى برين ملك مملكة بيت المقدس في عكا بفكرة مهاجمة مصر . وكانت فكرة حنادى برين تستهدف غزو مصر عن طريق الاسكندرية أو دمياط ، وأيده في هذه الفكرة جمهرة الصليبيين ببلاد الشام ، وعلى رأسهم الداوية والاسبتارية ، فضلا عن الصليبيين في قبرس (١) .

وعندما اكتملت استعدادات الصليبيين في بلاد الشام ، ترك الملك حنادى برين حامية قوية في عكا للدفاع عنها ضد أي هجوم إسلامي منتظر ، ثم خرج الأسطول الصليبي قاصداً دمياط في أواخر مايو سنة ١٢١٨ م (٦١٥ هـ) . ولم يفت الصليبيون عندئذ أن يتصلوا بنجاشي الحبشة المسيحي ليتعاون معهم في حرب الإسلام والمسلمين عن طريق غزو الحجاز وهدم الكعبة (٢) .

على أنه يلاحظ أن الصليبيين ارتكبوا خطأ كبراً سنة ١٢١٨ م

---

(١) Brehier : L'Eglise et l'Orient, pp. 191-192.

(٢) Coulbeaux : Hist. d'Abyssinie, pp. 256-266.

(٦١٥ هـ) بغزوهم مصر عن طريق دمياط والنيل . وكان المفروض أن يستفيد الصليبيون عندئذ من تجارب عموري الأول التي أثبتت أن الوصول إلى القاهرة أمر سهل عن طريق الصحراء الشرقية . ولكن ربما كان عذر حنادى برين هو أن عموري كانت له قاعدة حربية كبرى في جنوب فلسطين — هي مدينة عسقلان — استطاع أن يعتمد عليها في غزو مصر عن طريق الشرق ، أما حنادى برين فلم يجد للصليبيين أية قاعدة على الحدود يمكنهم الارتكاز عليها في محاولتهم . وهكذا اختار الصليبيون النزول بدمياط لأن دمياط أقرب الموانئ المصرية للصليبيين بالشام فحسب ، بل لأن فرع دمياط يمثل أيضاً طريقاً طيباً ووسيلة سهلة للمواصلات تربط الصليبيين بقواعدهم في الشام . ونسى الصليبيون مدى ما يمكن أن يتعرضوا له في غزوهم مصر عن طريق النيل من عقبات طبيعية تتمثل في السدود والترع والقنوات مما يجعل وصولهم إلى القاهرة عن هذا الطريق أمراً متعذراً بل مستحيلاً<sup>(١)</sup> .

وعندما وصلت السفن الصليبية إلى مصب فرع دمياط، نصب الصليبيون معسكرهم على الضفة الغربية للنيل المواجهة لمدينة دمياط . وقد وجد الصليبيون المدينة محصنة تحصيناً قوياً . إذ كانت تمتد بعرض مجرى النيل عند مصبه مآصر، وهي سلاسل ضخمة من الحديد تحول دون دخول المراكب العادية من البحر إلى النيل<sup>(٢)</sup> . هذا بالإضافة إلى برج الساسلة ، وهو بمثابة حصن بناه المسلمون وسط مجرى النهر لحماية دمياط ودفع أي عدوان يقع عليها<sup>(٣)</sup> .

ولما علم الملك الكامل — الذي كان ينوب عن أبيه السلطان العادل في حكم مصر — بنزول الصليبيين في مواجهة دمياط ، أسرع على رأس جنده ونصب معسكره جنوبي دمياط عند منزلة العادلية ، ليكون على اتصال

(١) King : The Knights Hospitallers in the Holy land, p. 190.

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ١٨٨ سنة ٦١٥ هـ .

(٣) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٦١٤ هـ .

بالمدينة من ناحية ويمنع الصليبيين من العبور إليها من ناحية أخرى . هذا في الوقت الذي استدعى السلطان العادل ابنه الملك الأشرف وفسار في عسكره إلى حمص ودخل بلاد الفرنج ليشغلهم عن محاصرة دمياط ، (١) .

ولم يلبث أن أدرك الصليبيون عظم الخطأ الذي وقعوا فيه برسوهم على الضفة الغربية للنيل بدلا من الضفة الشرقية القائمة عليها دمياط ذاتها ، مما أثار أمامهم مشكلة صعبة هي كيفية عبور النيل . هذا بالإضافة إلى أنهم أضاعوا كثيراً من الوقت عقب نزولهم على شاطئ مصر ، مما أعطى المسلمين فرصة طيبة للاستعداد .

وهكذا قضى الصليبيون ثلاثة أشهر كاملة يهاجمون برج السلسلة ، حتى تمكنوا أخيراً - في أغسطس ١٢١٨ م (٥٦١٥) - من الاستيلاء على البرج ، وقطع المآصر التي كانت تعترض مدخل النهر (٢) . ولا شك في أن سقوط برج السلسلة في قبضة الصليبيين وتحطيم تلك المآصر التي تحمي مدخل النيل جاء خسارة كبرى ، إذ اعتبر المعاصرون ذلك البرج وقفل الديار المصرية، (٣) .

ويقال إن السلطان العادل عندما سمع بذلك الخبر لم يحتمله فرض مرض الموت ، ولم يلبث أن توفي في نهاية أغسطس سنة ١٢١٨ م (٥٦١٥) .

#### أبناء العادل ومدافعة الصليبيين :

أدرك أبناء العادل في مصر والشام أن الخطر الذي يهددهم ويهدد

(١) ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ج ٢ ورقة ٢٣٩ « مخطوط » .

(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٦١٤ هـ .

(٣) أبوشامة : ذيل الروضتين . (Rec. Hist. Cr. Or. 5, p. 161).

المسلمين عظيمًا ، وأنه لو ثبت الصليبيون قدمهم في مصر ، فلن يبقى للمسلمين مقام في مصر والشام ، لذلك بذلوا كل ما في وسعهم لطرده الصليبيين من مصر من ناحية ، وللضغط عليهم في الشام لإجبارهم على سحب قواتهم من الشام من ناحية أخرى .

ولكى يسد الكامل مجرى النيل في وجه الصليبيين، حاول إقامة جسر عظيم بعرض المجرى . ولكن الصليبيين قطعوا مجرى ذلك الجسر ، وعندئذ استحضر الكامل عدة مرآكب كبيرة وأغرقها في النيل ليعوق تقدم السفن الصليبية في النهر<sup>(١)</sup> . وفي تلك المرة أيضاً تحايل الصليبيون على تفادي تلك العقبة، فحفروا خليجا هناك كان النيل يجري فيه قديما ، وأجروا فيه الماء إلى البحر، وبذلك استطاعت السفن الصليبية أن تدخل في النهر حتى موضع مقابل لمنزلة العادلية حيث كان العادل<sup>(٢)</sup> .

ولم تكف أخبار هذه الانتصارات التي أحرزها الصليبيون أمام دمياط تصل إلى الشام ، حتى تشجع إخوانهم وهاجموا بعض المراكز الإسلامية قرب عكا . ولكن المسلمين تصدوا للصليبيين وأنزلوا بهم خسائر جسيمة ، كما خرج الملك المعظم عيسى من دمشق واقتحم قيسارية وهدمها ، في الوقت الذي أغار الأبن الثالث للسلطان العادل — وهو الأشرف موسى — على إمارة طرابلس<sup>(٣)</sup> . ومع ذلك فإنه يبدو أن المعظم كان متخوفا من نتيجة الحرب مع الصليبيين في مصر ، فهدم سنة ١٢١٩ م (٦١٦ هـ) عدة حصون قوية في الشام حتى لا يستفيد الصليبيون منها إذا استولوا عليها ، بل أنه هدم أبراج مدينته بيت المقدس وأسوارها حتى لا يحصل الصليبيون منها على أية

(١) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٦١٤ هـ .

(٢) المقرئزي : السلوك ج ١ ص ١٩٥ .

(٣) ذيل الروضتين . (Rec. Hist. Cr. Or. 5, p. 166).

فائدة ، الأمر الذى أثار موجة من الذعر والأسى بين صفوف المسلمين فى المدينة (١) .

### سقوط دمياط :

وعلى الرغم من أن الموقف فى تلك المرحلة كان يدل على تفوق الصليبيين ، إلا أن حنادى برين بدأ يواجه مشاكل عديدة فى مصر عقب استيلائه على برج السلسلة . ذلك أن كثيرا من الصليبيين ظنوا أن مهمتهم انتهت بسقوط ذلك البرج وأنهم أوفوا بقسمهم الصليبي فانسحبوا عائدين إلى بلادهم. وهكذا صار على حنادى برين أن ينتظر وصول إمدادات جديدة ، وهى الامدادات التى وصلت من أوروبا فعلا فى سنة ١٢١٨ م ( ٦١٥ هـ) . على أنه يلاحظ أنه جاء على رأس هذه الامدادات مندوب عن البابا هو الكاردينال بلاجيوس الذى تزعم الحملة . ولا شك فى أن ظهور زعيم جديد للصليبيين فى مصر أضعف مركز حنادى برين ، فضلا على أن ذلك الإزدواج فى القيادة أنزل أبلغ الضرر بالحملة الصليبية الخامسة ومستقبلها ، كما سيلي فيما بعد (٢) .

أما عن الجبهة الإسلامية ، فيلاحظ أن العادل توفى فى نهاية أغسطس سنة ١٢١٨ م ( ٦١٥ هـ) وترك لأبنائه تركة ثقيلة ، إذا كان على ابنه الكامل - الذى خلف أباه فى مصر - طرد الصليبيين من الأرض المصرية ؛ كما كان على ابنه المعظم - الذى خلف العادل فى دمشق - حراسة جبهة الشام ، والضغط على الصليبيين لإجبارهم على ترك مصر ، فضلا عن مساعدة أخيه الكامل .

وقد حاول الكامل القيام بهجوم على معسكر الصليبيين فى أوائل أكتوبر سنة ١٢١٨ م ( ٦١٥ هـ) فعبر النيل وباغتهم بالهجوم ، ولكنهم صدوا له

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٧٠ .  
(٢) Grousset : Hist. des Croisades, III, p. 211.

بل تغلبوا عليه ، وعندئذ انسحب الكامل . وأراد الصليبيون أن يشتهزوا  
الفرصة للعبور على الضفة دمياط ولكنهم فشلوا في ذلك (١) . وزاد من موقف  
الكامل سوءاً أن البدو أتوا من سيناء والشرقية ليستفيدوا من حالة الفوضى  
التي نجمت عن الغزو الصليبي ، فأغاروا على القرى ونهبوها ، وبالغوا في  
الإفساد فكانوا أشد على المسلمين من الفرنج ، (٢) . ثم ضاعف من خطورة  
الموقف أن أحد قواد الكامل — وهو ابن المشطوب — دبر مؤامرة كبرى  
لعزل الكامل وإحلال أخيه الأصغر الفائز ابن العادل محله في الحكم (٣) .

ولم يسع الكامل أمام هذه الأخطار سوى أن يستنجد بأخيه المعظم .  
وقبل أن يصل المعظم إلى مصر خشي الكامل على نفسه من المتآمرين ، فهرب  
من معسكره في العادلية ليلاً ، وترتب على ذلك فرار الجند من بعده . فلما  
أصبح الصباح وجد الصليبيون المعسكر الإسلامي أمامهم خاويًا ، فعبروا في  
سهولة إلى الضفة الشرقية للنهر وآمنين بغير منازع ولا مانع ، وغنموا كل ما في  
معسكر المسلمين من عدد وسلاح ومؤونة (٤) .

وهكذا ساء الموقف في مصر ، لولا وصول المعظم في الوقت المناسب ؛  
فأعاد الثقة إلى أخيه الكامل ، وتخلص من ابن المشطوب ، وأعاد تنظيم الجيش  
الإسلامي الذي رابط عند فارسكور جنوبي العادلية . وبفضل هذه الإجراءات  
الجديدة تمكنت دمياط من الصمود تسعة أشهر أخرى قاومت فيها المحاولات  
التي بذها الصليبيون للاستيلاء عليها . وتذكر بعض المراجع الصليبية أن  
الكامل والمعظم أرسلوا في طلب المعونة من جميع أنحاء العالم الإسلامي ،

(١) سعيد عبدالفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٧٩ .

(٢) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٦١٤ هـ .

(٣) المقويزي : السلوك ج ١ ص ١٩٥ — ١٩٦ .

(٤) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٦١٤ هـ .



وأنهما أوضعا لبقية الحسكام المسلمين خطورة استيلاء الصليبيين على مصر  
« فإنهم متى ماكوها لا يمتنع عليهم شيء من الممالك بعدها<sup>(١)</sup> » .

وعندما علم السكامل بوصول بجداث قوية للصليبيين من قبرس وغرب  
أوربا ، أرسل إليهم بعرض سخى ، هو استعدادة لآحياه مملكة بيت المقدس  
القديمة وإعادتها إلى ما كانت عليه قبل حطين سنة ١١٨٧ م ( ٥٨٣ هـ )  
باستثناء حصن السكرك الذى يبقى بيد المسلمين ؛ على أن يجلو الصليبيون عن  
مصر . وقد قبل هذا العرض حنادى برين وأمرام مملكته والصليبيون الفرنسيون .  
ولكن المندوب البابوى بلاجيوس رفض الموافقة عليه ، وشاركه رؤية  
الاستتارية والداوية ، الذين ظنوا أن امتلاك مصر بات أمراً سهلاً<sup>(٢)</sup> . وثمة  
خطأ آخر وقع فيه بلاجيوس زعيم الحملة وشيخته من فرسان الداوية  
والاستتارية ، هو إصرارهم على توجيه هجماتهم ضد معسكر السكامل والمعظم  
في فارسكور ، بدلا من الاكتفاء بحصار دمياط ، مما عرضهم للهزيمة والفرار .  
ولم تلبث أن وصلت بجداث قوية للصليبيين في سبتمبر سنة ١٢١٩ م ( ٦١٦ هـ ) ،  
فشددوا هجماتهم على دمياط التى إزدادت حالتها سوءا ، فاضطرت إلى التسليم  
في نوفمبر سنة ١٢١٩ م ( ٦١٦ هـ )<sup>(٣)</sup> .

وكان أن أتى الصليبيون كثيرا من أعمال السفك والعدوان في دمياط ،  
كما أنهم أرادوا اتخاذ دمياط مركزا منيعا دائما لهم ، « فبالغوا في عمارتها  
وتحصينها ، أما عن المسلمين فكانت خسارتهم بضياح دمياط عظيمة ، ضاعف  
منها ظهور خطر المغول في الجناح الشرقى للعالم الإسلامى ، عندما استولى  
جنسكزخان على خوارزم وبلاد ما وراء النهر ومعظم فارس ، وسقطت بخارى

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٩٥ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٧٦ .

(٣) ابن الاثير : السكامل حوادث سنة ٦١٤ هـ .

فعلا فى يده سنة ١٢٢٠ م (٦١٧ هـ) (١) .

### الصلبيون والزحف على القاهرة :

ومع أن الظروف كلها كانت فى صالح الصليبيين عقب سقوط دمياط ، إلا أن الإنقسامات التى تعرض لها الصليبيون والأخطاء التى وقعوا فيها، أنزلت بهم كثير أمن الأضرار وتسببت فى فشلهم النهائى . ذلك أن حنادى برين لم يستطع أن يتعاون مع المندوب البابوى بلاجيوس ، فانسحب الملك الصليبي عائدا إلى عكا فى أواخر مارس ١٢٢٠ م ( ٦١٧ هـ ) ، تاركا بلاجيوس يضيع على الصليبيين بقية ذلك العام والنصف الأول من عام ١٢٢١ م (٦١٧ - ٦١٨ هـ) فى حالة ركود تام . ولم يكن ذلك إلا فى أواخر يونية سنة ١٢٢١ م (٦١٨ هـ) عندما قرر بلاجيوس الزحف على القاهرة ، فأرسل إلى حنادى برين فى عكا يرجوه العودة ومساعدة الصليبيين فى فتح مصر . وكان أن خشى حنادى برين أن يتهم بعدم التعاون ، فحضر إلى دمياط فى أوائل يوليو فى الوقت الذى شرع الصليبيون فعلا فى الزحف جنوبا بمحاذاة النيل (٢) .

وفى تلك المرحلة الخطيرة فعل الأيوبيون كل ما أمكنهم لانقاذ البلاد ، فجمعوا الناس وأقاموا خطأ دفاعياً إلى قبالة طابحا ، حيث شيد السكامل منزلة على الضفة الشرقية للنيل أطلق عليها اسم المنصورة (٣) . وفى أواخر يوليو سنة ١١٢١ م (٦١٨ هـ) اجتمع الأخوة الثلاثة - السكامل والمعظم والأشرف - فى المنصورة، ومعهم جيوشهم استعداداً للمعركة مع الصليبيين.

(١) D'ohsson : Hist. des Mongols, I, pp. 216-330.

(٢) Archer : The Crusades, p. 318.

(٣) المقرئى : السلوك ح ١ ص ٢٠١ .

على أنه ينبغي الإشارة إلى أن الكامل ظل طوال تلك الأثناء يكرر عرضه على الصليبيين بالجللاء عن مصر مقابل أحياء مملكة بيت المقدس الصليبية . وفي كل مرة يشنط الصليبيون في طلباتهم ، بل أخذوا يواصلون زحفهم وسط ميثاق كبير تحيط به المياه من ثلاث جهات ، هي بحيرة المنزلة شرقاً وفرع دمياط غرباً والبحر الصغير جنوباً .

على أن السفن الإسلامية حرصت على أن تتخذ مكانها في النيل لتسد الطريق في وجه السفن الصليبية وتحول دون اتصال الصليبيين بقاعدتهم أثناء زحفهم<sup>(١)</sup> . وكان أن وصل الصليبيون إلى نقطة تفرع البحر الصغير ( بحر أشمون ) من فرع دمياط ، وهي المنطقة التي تمثل رأس ميثاق يحيط به الماء من ثلاث جهات ، فقطع المسلمون السدود والنهر مليء بماء الفيضان ، فلم يشعر الصليبيون إلا بالأرض التي هم عليها قد غرقت بحيث لم يبق لهم سوى ممر ضيق يمكنهم من العودة عن طريقه إلى دمياط<sup>(٢)</sup> .

#### فشل الصليبيين وجملاؤهم عن دمياط :

ولم يلبث أن تنبه الصليبيون إلى خطورة موقفهم ، فأرادوا الارتداد بسرعة نحو دمياط ، ولكن السلطان الكامل كان قد أنزل عند شرمساح — شمالي شربين — ألفي فارس ليقطعوا على الصليبيين خط الرجعة . وهكذا تجمد موقف الصليبيين وأحاطت بهم المياه من كل جانب ، فلا هم يستطيعون القتال في الوحل ولا هم يستطيعون العودة إلى قواعدهم ، ولم يبق لهم إلا طلب الصلح من السلطان الكامل في أواخر أغسطس سنة ١٢٢١م ( ٦١٨ هـ ) . ومن الملاحظ أن موقف الصليبيين كان عندئذ جد خطير ، لأنه لو صبر الكامل

(١) أبو المحاسن : النجوم ح ٦ ص ٢٤١ .

(٢) المقرئزي : السلوك ح ١ ص ٢٠٧ .

يومين « لأخذ برقابهم »<sup>(١)</sup> ، ولذلك عارض المعظم والأشرف في إجابة الصليبيين إلى طلبهم . ولكن الكامل - الذي اشتهر بتسامحه - رأى السماح للصليبيين بالخروج من مصر ، لأنه كان يخشى وصول حملة صليبية من الغرب . على أن الكامل اشترط على الصليبيين أن يعثوا إليه برهائن من ملوكهم يقعون لديه حتى يسلموا دمياط ، فوافق الصليبيون على ذلك وأرسلوا إلى الكامل عشرين من كبارهم على رأسهم حنادى برين والمندوب البابوى بلاجيوس ، في حين أرسل إليهم الكامل مقابل ذلك ابنه الصالح نجم الدين أيوب ومعه جماعة من خواصه<sup>(٢)</sup> .

وأخيراً تم جلاء الصليبيين عن دمياط في ٧ سبتمبر سنة ١٢٢١م (٦١٨هـ) فدخلها الملك الكامل في اليوم التالي . وكان أن أبحر الصليبيون الغربيون إلى أوروبا في حين عاد حنادى برين ورجاله إلى الشام بعد أن عقد هدنة مع الأيوبيين لمدة ثمان سنوات (١٢٢١ - ١٢٢٩م = ٦١٨ - ٦٢٦هـ) .

وهكذا انتهى أمر الحملة الصليبية الخامسة بالفشل بعد أن كان منتظراً لها النجاح ، وأضاع الصليبيون من أيديهم فرصة إحياء مملكة بيت المقدس واسترداد مدينة القدس ذاتها مقابل الجلاء عن دمياط ، فاضطروا في النهاية إلى الجلاء عن دمياط بلا مقابل<sup>(٣)</sup> .

---

(١) أبو شامة : ذيل الروضتين سنة ٦١٨ هـ ، أبو المحاسن : النجوم ح ٦ ص ٢٤٤ .

(٢) المقرئى : السلوك ح ١ ص ٢٠٨ .

(٣) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٦١٤ .

## الفصل السادس

### السلطان الكامل والامبراطور فردريك الثانى

#### الخلاف بين أبناء العادل :

أظهر أبناء العادل الثلاثة - الكامل والمعظم والأشرف - تضامنا قويا بعد وفاة أبيهم ، وإلى ذلك التضامن يرجع الفضل فى التغلب على الحملة الصليبية الخامسة . على أن هذا التحالف لم يلبث أن انفرط عقده فى نهاية سنة ١٢٢٣ م وبداية ١٢٢٤ م ( ٦٢٠ - ٦٢١ هـ ) نتيجة لأطماع المعظم عيسى وجشعه<sup>(١)</sup> ذلك أن المعظم عيسى أراد أن يتوسع ويضيف إلى أملاكه ، ولكنه بدلا من أن يتوسع على حساب الصليبيين ، لجأ إلى العدوان على ممتلكات إخوته وأقاربه . من ذلك أنه هاجم حماه واستولى على بعض أعمالها - مثل المعرة وسلمية - وكانت حماه وأعمالها لابن عمه الناصر صلاح الدين قلع أرسلان ، فغضب الأشرف والكامل لذلك ، وأرسل الكامل إلى أخيه المعظم يطلب منه الرحيل عن حماه « فتركها وهو حنق »<sup>(٢)</sup> . ويبدو أن هذا الحدث كان فاتحة الخلاف بين المعظم من ناحية وأخوية الكامل والأشرف من ناحية أخرى .

والواقع إن الأيوبيين كانوا أحوج إلى الاتحاد فى ذلك الوقت منهم فى أى وقت مضى ، نتيجة لظهور خطر جديد هددهم ، هو خطر الخوارزمية . وقد ظهر ذلك الخطر الجديد نتيجة مباشرة لحركة التوسع المغولى ، بعد أن دمر جنكز خان دولة الأتراك الخوارزمية سنة ١٢٢٠ - ١٢٢١ م ( ٦١٧ -

Wiet : L'Egypte Arabe, pp. 350-351.

(١)

(٢) المقرئى : السلوك ح ١ ص ٢١٤ .

٦١٨ هـ) . ويقال إن السلطان جلال الدين منكبرتي اضطر عندئذ إلى الفرار إلى الهند ، حتى إذا ما علم بعودة جنكز خان إلى قراقورم في جوف آسيا ، رجع جلال الدين إلى فارس حيث التف حوله الأتراك الخوارزمية من جديد ، وأقام دولته مرة أخرى متخذاً أصفهان عاصمة له . وبدلاً من أن يعمل جلال الدين في ذلك الدور على حماية العالم الإسلامي من خطر المغول الوثنيين ، قام — وهو الحاكم المسلم — بمهاجمة الخليفة العباسي في العراق ، وطارد جيوشه حتى قرب بغداد سنة ١٢٢٥ م ( ٦٢٢ هـ) . وبعد ذلك اتجه جلال الدين لمهاجمة إقليم جورجيا على مقربة من أملاك الملك الأشرف بن العادل الأيوبي ، الأمر الذي جعل الأشرف يهرع إلى دمشق طالباً معونة أخيه المعظم (١) .

ومن الواضح أن الأشرف كان أكثر إحساساً بخطر الخوارزمية بحكم متاخمة بلاده — في الجزيرة وخراسان — لهم . والسكن المعظم لم يأبه للخطر الخارجي ، وكان كل ما يعنيه هو تحقيق أطباعه على حساب أهل بيته ، فانتهر فرصة مجيء الأشرف إليه وقبض عليه ، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن تعهد له بمساعدته في الاستيلاء على حمص وحماه ، ثم في مهاجمة أخيهما الثالث الكامل في مصر . وقد تعهد الأشرف بكل ذلك ، والسكن ما كاد يفلت من يد المعظم ، حتى أكد تحالفه مع أخيه الكامل وأخبره بكل ما حدث (٢) .

على أن وجه الخطورة في النزاع الذي قام عندئذ بين أبناء العادل ، هو أن الفريقين المتنازعين استعانوا بقوى خارجية ، فاستنجد الملك المعظم

---

(١) العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٦٢٤ ، المقریزی : الملوك ح ١ ص ٢١٥ ،

D'ohsson : Hist. des Mongols, III, pp. 5-19.

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر حوادث سنة ٦٢٣ العيني : عقد الجمان

حوادث سنة ٦٢٤ هـ .

بالخوارزمية في حين استنجد الملك الكامل بالامبراطور فردريك الثاني  
إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة في غرب أوروبا . وهكذا لم يلبث أن  
حاصر السلطان جلال الدين الخوارزمي خلاط - عاصمة الأشرف - في  
يونيه ١٢٢٦ م ( ٦٢٣ هـ ) كما أرسل جلال الدين إلى المعظم « خلعها لبسها  
وشق بها دمشق وقطع الخطبة للملك الكامل ، (١) . فاستعد الكامل للزحف  
على الشام ، مما أندر باشتعال الحرب في العالم الإسلامي في سبتمبر سنة  
١٢٢٧ م ( ٦٢٤ هـ ) .

### الكامل وفردريك الثاني :

عندما وجد السلطان الكامل نفسه في حاجة إلى معونة خارجية لمواجهة  
أطماع أخيه المعظم وحلفائه من الخوارزمية ، أرسل مبعوثاً خاصاً - هو  
شيخ الشيوخ الأمير نجر الدين يوسف - إلى الإمبراطور فردريك الثاني  
إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، يدعوهُ أن يحضر لمساعدته في الشام ،  
وتعهد له مقابل ذلك أن « يعطيه بيت المقدس وجميع فتوح صلاح الدين  
بالساحل ، (٢) . وسرعان ما وصل رسول الكامل إلى الإمبراطور فردريك  
الثاني بصقلية ، فأحسن الإمبراطور استقبال الرسول ، ورد على السلطان  
بسفارة مماثلة تحمل « هدية سنوية وتحف عربية ، فتلقى الكامل بدوره هدية  
الإمبراطور بالسرور البالغ ، وأكرمه إكراماً زائداً ، كما اهتم بإعداد  
هدية فاخرة للإمبراطور . وفي طريق عودة السفارة الإمبراطورية إلى  
الغرب مرت بدمشق لتطلب من المعظم تسليم بيت المقدس للإمبراطور  
ولكن المعظم أساء استقبال رسول الإمبراطور ، وأغاظ له ، وقال : قل  
لصاحبك ما أنا مثل الغير ، وماله عندي سوى السيف ، (٣) .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

(٢) العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٦٢٤ هـ ، المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٢١ - ٢٢٣ .

(٣) العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٦٢٤ هـ .

والواقع إن استنجد السلطان الكامل لم يكن الدافع الوحيد الذى حرك فردريك الثانى للذهاب إلى الشام ، وإنما كانت البابوية تضغط عليه ضغطاً شديداً للقيام بحملة صليبية جديدة تصلح الوضع الذى نجم عن فشل الحملة الصليبية الخامسة. والمعروف أن ذلك العصر يعرف فى التاريخ الأوروبى باسم عصر البابوية والإمبراطورية ، نظراً لما احتدم من خلاف ومناشب من حروب بين السلطتين الدينية والعلمانية فى غرب أوروبا . ويبدو أن الإمبراطور فردريك الثانى كان متخوفاً من تنفيذ وعده الصليبي حتى لا يترك البابا حراً طليق اليد فى العدوان على مصالح الإمبراطورية أثناء غيابه . ولذلك أخذ فردريك الثانى يماطل البابوية ويؤجل مشروعه الصليبي ، حتى أصدر البابا جريجورى التاسع قرار الحرمان ضد الإمبراطور فى أواخر سبتمبر سنة ١٢٢٧ م ( ٦٢٤ هـ )<sup>(١)</sup>.

وكان هجوم البابوية على فردريك الثانى عنيفا فى تلك المرة فلم يحتمل الإمبراطور الهجوم وقرر القيام بحملته الصليبية ، فغادر الغرب فى يونيه ١٢٢٨ م ( ٦٢٥ هـ ) قاصداً بلاد الشام . ويجمع جميع المؤرخين على أن هذه الحملة الصليبية المعروفة باسم السادسة كانت أغرب حملة فى تاريخ الحروب الصليبية قاطبة . فإذا كانت الحملات الصليبية الأخرى قد حظيت بعطف البابوية وتمتعت ببركتها فإن حملة فردريك الثانى جاءت ملعونة من البابا وعلى رأسها إمبراطور محروم من الكنيسة وعطفها . وإذا كانت بقية الحملات الصليبية قد حرصت على أن تجيش الجيوش وتجمع الآلاف من المقاتلين والكثير من السلاح لقتال المسلمين فى الشرق ، فإن فردريك حضر إلى الشام وليس معه سوى خمسمائة فارس . وأخيراً فإنه إذا كانت الحملات الصليبية قد خرجت من غرب أوروبا وهى تطفح بروح العداء ضد

Kantorowicz : Fredrick the Second, p. 111.

(١)



المسلمين والكرامية الشديدة لهم ، فإن حملة فردريك الثاني أتى على رأسها امبراطور نشأ في بيئة كانت مركزاً لحضارة إسلامية زاهرة ؛ فشب ذلك الإمبراطور في جزيرة صقلية محباً للمسلمين وحضارتهم مما جعل حملته تمتاز بمسحة فريدة من التسامح القوي الواضح (١) .

وتدل جميع الشواهد على أن فردريك الثاني أتى إلى الشام ليفرض لا ليحارب ، حتى علق أحد المؤرخين على ذلك بأن فردريك بدأ عندما غادر أوروبا وكأنه يزعم القيام بنزهة جميلة يزور فيها سلطان مصر (٢) . ولم يكن في سياسة فردريك هذه شيء غريب بالنسبة له ، لأنه اعتمد على وعود السلطان الكامل ، وهي الوعود التي نصت على تسليم الإمبراطور بيت المقدس مقابل قيام الأخير « بشغل سر أخيه المعظم » (٣) .

وهنا نلاحظ أن فردريك الثاني لم يعتمد على وعود الكامل وحده ، وإنما يبدو أنه قام قبل مغادرته الغرب باتصالات واسعة مع غير الكامل من أمراء البيت الأيوبي بالشام ، بقصد إعداد الجو للحصول على بيت المقدس دون عناء . وخير شاهد على ذلك تلك الرسالة التي أوردتها القلقشندي ، وهي عبارة عن خطاب أرسله الملك الجواد - أحد أمراء بني أيوب بالشام - إلى الإمبراطور فردريك الثاني ، رداً على رساله كان فردريك قد بعث بها إلى ذلك الملك الأيوبي . وتهمنا الفقرة الأخيرة من رسالة الملك الجواد الأيوبي ، والتي يقول فيها « وأما ما ذكره المقام العالي السلطاني الكامل الناصري ... من أنه لا فرق بين المملكتين (٤) » ، فهذا هو المتفق في صدق عهده ونخالص

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الإمبراطور فردريك الثاني والشرق العربي ، بحث نشر في مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية - مجلد ١١ سنة ١٩٦٣ .  
(٢) Grousset : Hist. des Croisades, III, p. 281.

(٣) المقرئزي : السلوك ح ١ ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

(٤) كانت كنية السلطان الكامل هي « الملك الكامل ناصر الدين أبو المعالي محمد »

وده... (١) ونخرج من هذه الرسالة بنتيجتين هامتين : أولاً أن مراسلات فردريك الثاني قبل قيامه بحملته الصليبية لم تقتصر على الكامل وحده ، وإنما امتدت إلى غيره من ملوك بني أيوب . والثانية هي أن تلك المراسلات حفلت بروح الود والأخاء حتى أن الكامل أرسل إلى فردريك يخبره بعدم وجود فرق بين المملكتين .

### فردريك الثاني في الشام :

على أن فردريك الثاني لم يكد يصل إلى عكا في سبتمبر سنة ١٢٢٨ م (٦٢٥ هـ) حتى وجد الموقف في بلاد الشام غير ما كان ينتظر . ذلك أن البابا — للمرة الأولى والأخيرة في تاريخ البابوية والحروب الصليبية — أخذ يرسل الرسل سرا إلى ملوك بني أيوب بوجه عام — والسلاطان الكامل بوجه خاص — محرضاً إياهم على عدم تسليم بيت المقدس للإمبراطور . ولا عجب في ذلك الموقف الذي اتخذته البابوية ، إذ كانت المعركة بينها وبين الإمبراطورية في الغرب أهم في نظرها من المعركة بين المسلمين والصليبيين في الشام (٢) .

ثم إنه إذا كان فردريك الثاني قد أتى إلى الشام بعد أن وضع كل آماله في وعود السلاطان الكامل بتسليم بيت المقدس له ، فإن هذا الأمل انهار فجأة فتغير سياسة الكامل . ذلك أن المعظم صاحب دمشق — الذي كانت أطماعه هي السبب في استنجد الكامل بفردريك — كان قد توفي في أواخر سنة ١٢٢٧ م (٦٢٤ هـ) تاركاً ابنه الناصر داود ليخلفه . وكان الناصر داود هذا شاباً صغيراً في العشرين من عمره ، عديم الخبرة محباً للهو ، مما مكن

(١) القلقشندي : صيغ الأعيان : ح ٧ ص ١١٧ — ١١٨ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٤٠٢ — ٤٠٣ .

الكامل والأشرف من اقتسام أملاك أخيهما المعظم ، وإعطاء الناصر داود الكرك والشوبك وغيرهما من الجهات الثانوية<sup>(١)</sup>. وما دام الوضع قد استقر بين أبناء البيت الأيوبي على ذلك ، فإن السلطان الكامل لم يعد في حاجة إلى معونة الإمبراطور فردريك .

ويصور لنا المؤرخون العرب حيرة السلطان الكامل في ذلك الوقت ، لأن فردريك الثاني لم يحضر إلى الشام إلا بناءً على طلب السلطان . وفي ذلك يقول ابن واصل والمقريزي « تحمير الملك الكامل ولم يمكنه دفعه ولا محاربتة ، لما كان تقدم بينهما من الاتفاق ، فراسله ولاطفه<sup>(٢)</sup> ، . ويبدو أن الكامل أحس بأنه ليس من مصلحته ولا مصلحة البيت الأيوبي أن يصطدم بالصلبيين بالشام في تلك المرحلة التي تعرض الوطن العربي في الشرق الأدنى لتهديد الخوارزمية ومن وراءهم المغول؛ وهذا هو السر في ملاطفته للإمبراطور. ولم ينس الكامل في الوقت نفسه أن أي تساهل مع الصليبيين أو تفريط في حقوق المسلمين سيثير ضده الرأي العام في البلدان الإسلامية ، وبخاصة دمشق التي كانت أكثر إحساساً بخطر الصليبيين من غيرها<sup>(٣)</sup> .

ومهما يكن من أمر فإن موقف فردريك الثاني ساء في الشرق ، ولم ينس أنه خرج من بلاده محروماً من الكنيسة مغضوباً عليه من البابوية ، وأنه اعتمد على وعود الكامل له بإعطائه بيت المقدس ، لإصلاح مركزه في الغرب الأوربي . ولو كان الإمبراطور يعلم أن الكامل سينسكث بوعده لما خرج إلى الشرق أصلاً ، أو لكان استعد استعداداً جدياً لحرب المسلمين وجلب جيشاً كبيراً معه عند خروجه إلى الشرق .

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٢٢٦ ، ابن الأثير : حوادث سنة ٦٢٥ هـ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٢٥٢ « مخطوط » ، المقريزي : السلوك

ج ١ ص ٢٢٩ .

Grousset : op. cit., III, p. 300.

(٣)

وهكذا لم يبق أمام فردريك الثاني سوى سلاح واحد ، هو سلاح  
المفاوضة والإستعطاف واستخدام كافة وسائل الدبلوماسية للوصول إلى غرضه  
والعودة إلى الغرب الأوربي مرفوع الرأس . لذلك أمرع فردريك الثاني  
إلى إرسال سفارة من رسولين إلى السلطان الكامل تحمل له هدايا  
نفيسة من منسوجات حريرية ، وأواني ذهبية وفضية ، مطالباً إياه بتسليم  
وعده وتسليم بيت المقدس . غير أن السلطان الكامل تنكر لوعوده وأعلنها في صراحة  
أنه كان سيعطي بيت المقدس للإمبراطور ثمناً للمساعدة التي ينتظرها منه ،  
أما وقد تبدلت الظروف ولم يعد السلطان في حاجة إلى تلك المساعدة فإنه  
لا يستطيع التفريط في بيت المقدس<sup>(١)</sup> . ولم تفلح جهود الأمير نجر الدين  
يوسف مندوب السلطان في الوصول إلى حل بين الطرفين ، فساء موقف  
فردريك الثاني لا سيما بعد أن جاءته أخبار من الغرب بأن البابا استغل فرصة  
غيابه واعتدى على ممتلكاته . ولعل هذه الأخبار في حد ذاتها كانت كافية لدفع  
فردريك الثاني إلى التذلل للسلطان الكامل ، حتى حكى عنه أنه كان يبكي  
بكاء مرا في مراحل المفاوضات<sup>(٢)</sup> . ولا أدل على ذلك من رسالة أرسلها  
الإمبراطور فردريك إلى السلطان الكامل أثناء المفاوضات يقول فيها  
« أنا مملوكك وعتيقك وليس لي عما تأمره خروج . وأنت تعلم أني أكبر ملوك  
البحر . وقد علم البابا والملوك باهتمامي وطلوعي ، فإن رجعت خائياً انكسرت  
حرمتي بينهم ! وهذا القدس فهي أصل اعتقادهم وضجرهم . . . فإن رأى  
السلطان أن ينعم على بقبضة البلد والزبارة فيكون صدقة منه ، ويرتفع رأسي  
بين ملوك البحر . . . »<sup>(٣)</sup> .

(١) سعيد عيد الفتح عاشور : الإمبراطور فردريك الثاني والشرق العربي ص ٢٠٦ .  
(٢) Kantorowicz : Fredrick the Second, p. 185.  
(٣) المكتبة الصقلية ج ٢ ص ١٤ ( ذيل الباب الثاني والسبعين من كتاب الوافي بالوفيات )

## إستيلاء الصليبيين على بيت المقدس :

ولم تلبث هذه الإستعطافات أن أفلحت مع السلطان الكامل - وهو الرجل المتسامح الطيب القلب - فوافق على إعطاء فردريك بيت المقدس لقمة سائغة دون حرب أو قتال. ويبدو أن ما قام به الإمبراطور فردريك أثناء المفاوضات من تحصين يافا جاء بمثابة مظاهرة عسكرية جعلت الكامل يخشى تحالف فردريك مع بقية القوى الصليبية بالشام للقيام بعمل حربي مشترك ضد المسلمين .

وقد فسر المقریزی هذا الشعور بقوله إن الكامل «خاف من غائلته عجزاً عن مقاومته» (١). ولا شك في أن المغامرة في حرب ضد الصليبيين كانت تعنى بالنسبة للكامل عندئذ وقوعه بين ثلاثة أعداء ، هم : ابن أخيه الناصر داود من ناحية ، والصليبيين من ناحية ثانية ، ثم الخوارزمية الذين استنجد بهم الناصر داود من ناحية ثالثة .

وفي ضوء هذه الحقائق جميعاً وافق الكامل - تحت تأثير الأمير نجر الدين بوسف - على عقد اتفاقية يافا مع الإمبراطور فردريك الثاني في فبراير سنة ١٢٢٩م (٥٦٢٦هـ) . وبمقتضى هذه الإتفاقية تقرر الصلح بين الطرفين لمدة عشر سنوات ، على أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبيت لحم والناصرية وتبنين وصيدا . وبخصوص بيت المقدس اشترط المسلمون أن تبقى المدينة على ما هي عليه ، فلا يحدد سورها ، وأن يكون الحرم بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى بأيدي المسلمين ، وتقام فيه شعائر الإسلام (٢) .

على أن تسليم بيت المقدس للصليبيين بتلك السهولة أثار موجة عامة من

(١) المقریزی : السلوك ج ١ ص ٢٣٠ هـ .

(٢) العيني : عقد الجمان حردات سنة ٦٢٦ هـ .

السنخط والآسى فى العالم الإسلامى فاستعظم المسلمون ذلك واكبروه، ووجدوا له من الوهن والتألم ما لم يمكن وصفه<sup>(١)</sup> . كذلك يفصل المقريزى مدى الآسى الذى جعل بالمسلمين لتفريط السكامل فى بيت المقدس فىقول . « فاشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل . . . وعظم على أهل الإسلام هذا البلاء واشتد الإنكار على الملك السكامل وكثرت الشناعات عليه فى سائر الأقطار »<sup>(٢)</sup> .

وسرعان ما أحس السكامل أنه « تورط مع ملك الفرنج ، على قول المقريزى ، فحاول أن يهون من أمر تسليم بيت المقدس للصليبيين ، وبرر مسلكه بأعذار لم يقبلها معاصروه . بل أن الإمبراطور فردريك الثانى نفسه أحس بما سببته تلك الإتفاقية من خروج للسلطان « فاعتذر الأمير نجر الدين بأنه لولا يخاف انكسار جاهه ما كلف السلطان شيئاً من ذلك »<sup>(٣)</sup> .

وهكذا استولى الصليبيون على بيت المقدس بسهولة تامة ، وهى المدينة التى أجهد صلاح الدين نفسه فى فتحها ، ودخلها فردريك الثانى فى ١٩ مارس سنة ١٢٢٩ م ( ٦٢٧ هـ ) ليتوج نفسه امبراطوراً فى كنيسة القيامة ، ثم عاد إلى عكا ، ومنها انصرف بعد قليل إلى غرب أوروبا<sup>(٤)</sup> .

### جمود الأيوبيين تجاه الصليبيين بالشام :

مر الصليبيون عقب عودة الامبراطور فردريك الثانى إلى غرب أوروبا بدور طويل من أدوار الضعف والإنحلال ، بسبب ما نشأ بينهم وبين بعض من خلافات ومنازعات . ولا أدل على ضعف الأيوبيين أيضاً فى تلك الفترة

(١) ابن الأثير : السكامل سنة ٦٢٦ هـ

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٣١ هـ .

(٣) المربع السابق ص ٢٣٠ .

(٤) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 314 .

— أى فى الربع الثانى من القرن الثالث عشر — من جمودهم أمام الصليبيين وعدم محاولتهم استغلال الظروف السيئة التى تعرض لها الصليبيون عندئذ . وكان المفروض أن يحاول المسلمون استعادة بيت المقدس من الصليبيين ، لاسيما وأن هذه المدينة بقيت غير محصنة ومهدمة الأسوار دون جيش قوى للصليبيين فيها<sup>(١)</sup> .

وربما كان السبب فى حرص الأيوبيين على عدم إثارة حرب مع الصليبيين بالشام فى تلك الفترة ، هو تخوفهم من الخوارزمية وسلطانهم جلال الدين منكبرى . ذلك أن الخوارزمية لم يكتفوا بتهديد الخلافة العباسية فى بغداد ، بل دأبوا على محاكاة المغول فى تدميرهم البلاد التى يجتاحونها أو يسلكونها ، حتى لو كانت هذه البلاد إسلامية . ولم يكن الكامل والأشرف مبالغين فى مخاوفهما من الخوارزمية ، إذ نجح جلال الدين فى الاستيلاء على خلاط فى أبريل سنة ١٢٣٠ م ( ٥٦٢٧ هـ ) بعد حصار ستة أشهر ، وعندئذ دخل الخوارزمية المدينة ليجتدوا على الأهالى اعتداءً وحشياً . وكان من جملة الأسرى زوجة الملك الأشرف الأيوبي نفسه ، فانتهمك السلطان جلال الدين عرضها فى الليلة نفسها التى استولى فيها على المدينة<sup>(٢)</sup> .

وقد أفزعت همجية الخوارزمية حكام المسلمين فى البلدان المجاورة ، فتناسوا ما بينهم من خصومات للقضاء على ذلك الخطر ، وتحالف الأيوبيون مع عدوهم السابق علاء الدين كيقباد الأول سلطان سلاجقة الروم ضد جلال الدين الخوارزمى . وكان أن تم اجتماع قوات الأيوبيين تحت زعامة الملك الأشرف بقوات السلاجقة تحت قيادة كيقباد فى سيواس ، ومنها زحف الحلفاء على خلاط . وفى المعركة التى دارت بين الفريقين قرب

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٢٧

(٢) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر حوادث سنة ٦٢٨ هـ .

أرزنجان في أغسطس سنة ١٢٣٠م (٥٦٢٧هـ) حلت الهزيمة ساحقة بالخوارزمية، وفر سلطانهم إلى أذربيجان بعد أن قتل كثير من رجاله<sup>(١)</sup>.

وبذلك استرد الأشرف خلاط، وتم الصلح بعد قليل مع جلال الدين. ولم يلبث أن قتل جلال الدين بيد بعض الأكراد سنة ١٢٣١م (٥٦٢٩هـ) وعندئذ تمزقت دولته، وهامت جموع الخوارزمية في كثير من بلاد الشرق الأدنى يعرضون خدماتهم على من يرغب في شرائها من حكام المسلمين<sup>(٢)</sup>.

ومع ذلك، فإن الأيوبيين في مصر والشام ظلوا لا يأمنون على أنفسهم أو بلادهم، لأن الخطر الذي هددهم عندئذ لم يكن خطر الخوارزمية فحسب، وإنما كان من وراء هؤلاء المغول بجحافلهم وعنهم. ولم يلبث المغول أن استولوا على ممتلكات الخوارزمية، وبذلك أصبحت الخطوة التالية أمامهم هي غزو العراق وممتلكات الأيوبيين في الجزيرة وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى<sup>(٣)</sup>.

وكان المفروض أمام ذلك الخطر أن يتحالف الأيوبيون مع سلاجقة آسيا الصغرى لصد المغول، مثلما تحالفوا من قبل ضد جلال الدين الخوارزمي. ولكن علاء الدين كيقباد الأول سلطان سلاجقة الروم (١٢١٩ - ١٢٣٧م = ٦١٦ - ٥٦٣٤هـ) أراد أن يستغل الموقف الناجم عن مقتل جلال الدين لمنازعة الأيوبيين ملكية خلاط والرها وحران<sup>(٤)</sup>. وعندما أدرك السلطان الكامل حقيقة نوايا السلاجقة، جمع حوله القوى الأيوبية في الشام وزحف لمنازلة السلاجقة في الأناضول سنة ١٢٣٤م (٥٦٣١هـ). على أن ملوك بني

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٢٧٣ .

(٢) المقرئزي : السلوك ج ١ ص ٢٤١ .

(٣) D'ohsson : Hist. des Mongols, III, p. 62.

(٤) المقرئزي : السلوك ج ١ ص ١٤٧ .



أيوب بالشام عادوا وخافوا عاقبة ازدياد نفوذ السلطان الكامل ، وخشوا  
إن هو نجح في السيطرة على سلاجقة الروم أن يسهل عليه القضاء عليهم جميعاً .  
لذلك تآمروا على السلطان الكامل ، وأرسلوا في الخفاء إلى علاء الدين  
سلطان سلاجقة الروم يخبرونه بوقوفهم إلى جانبه ضد الكامل . وهكذا  
انتهى الموقف بعودة الكامل من حيث أتى ، في حين احتل السلاجقة حران  
والرها سنة ١٢٣٥ م (٦٣٢ هـ) <sup>(١)</sup> .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٤٩ .

## الفصل السابع

### الصالح نجم الدين أيوب ولويس التاسع

#### نهاية السلطان الكامل وقيام الصالح أيوب :

لم يقف الانقسام في صفوف المسلمين في الربع الثاني من القرن الثالث عشر للميلاد ( السابع الهجري ) على ما حدث من عداة بين سلاجقة الروم والأيوبيين ؛ بل إن البيت الأيوبي نفسه لم يلبث أن انقسم على نفسه ، فانشق الملك الأشرف صاحب دمشق على أخيه الأكبر السلطان الكامل صاحب مصر ، وبدأ يدبر ثورة شاملة ضده مستعيناً في ذلك بأسد الدين شيركوه صاحب حمص وضييفة خاتون الوصية على حلب<sup>(١)</sup>. على أن الظروف شاءت أن يموت الملك الأشرف في أواخر أغسطس سنة ١٢٢٧ م (٥٦٣٥) قبل أن تشتعل نار الحرب الأهلية فعلا بين أبناء البيت الأيوبي<sup>(٢)</sup>.

وكان الأشرف قد أوصى قبل وفاته بأن يخلفه في ملك دمشق أخوه الملك الصالح اسماعيل صاحب بصرى . ولم يكف الصالح يتسلم زمام الأمور في دمشق حتى أعاد تكوين الحلف الأيوبي ضد الكامل ، فاتصل بالمجاهد شيركوه صاحب حمص والمظفر صاحب حماه وضييفة خاتون في حلب ليكونوا جميعاً يداً واحدة ضد الكامل . وقد استجاب جميع ملوك الأيوبيين بالشام لدعوة الصالح اسماعيل ، ماعدا المظفر صاحب حماه والناصر داود صاحب الأردن والكرك . ولما سكن السلطان الكامل أسرع بالحضور من

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٥٤ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٣٠٠ .

مصر، وقضى على تلك الحركة، وحاصر دمشق وقطع الماء عنها، حتى استولى عليها في أوائل سنة ١٢٣٨م (٥٦٣٥هـ). ولم يلبث أن انتهى الأمر بعزل الصالح من دمشق وإعطائه إقطاعاً صغيراً في بعلبك والبقاع<sup>(١)</sup>.

على أن السلطان الكامل نفسه توفي بعد قليل - في مارس سنة ١٢٣٨م (٥٦٣٥هـ) - وقد أجمع المؤرخون على مدحه، فوصفه أبو الفدا بأنه كان ملكاً جليلاً مهيباً حازماً حسن التدبير<sup>(٢)</sup>، كما أثنى بقية المؤرخين على عدله وتسامحه وحبه للعلم وعنايته بالأمن. ولا شك في أن وفاة الكامل أيوب جاءت تديراً بتفكك الدولة الأيوبية وانهارها. حقيقة أن العادل الصغير (الثاني) ابن الكامل خلفه في ملكه وصارت له السلطة، أي السلطة العليا في الدولة الأيوبية، ولكن الأوضاع في الشام نفسها اضطرت بعد أن دخل المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص في حرب ضد المظفر تقي الدين الثاني صاحب حماه، في حين استولى الملك الصالح نجم الدين أيوب - ابن الكامل - على دمشق سنة ١٢٣٩م (٥٦٣٦هـ)، مما أوقعه في نزاع مع أخيه السلطان العادل الصغير<sup>(٣)</sup>. وفي ذلك النزاع استعان كل واحد من الأخوين المتنازعين بأنصار من أبناء البيت الأيوبي نفسه، فاعتمد العادل الثاني (الصغير) على شيركوه صاحب حمص، واعتمد الصالح أيوب على المظفر تقي الدين صاحب حماه. هذا بالإضافة إلى أن كل فريق منهما استعان بجموع من الخوارج الذين تفرقوا في آسيا الصغرى والشام بعد مقتل سلاطنتهم جلال الدين منكبرتي.

ثم حدث في نهاية سنة ١٢٣٩م (٥٦٣٧هـ) أن استطاع الصالح اسماعيل - عم العادل الثاني والصالح أيوب - أن يسترد دمشق التي كان أخوه السلطان

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

(٢) أبو الفدا : المختصر حوادث سنة ٦٣٥ هـ .

(٣) المقرئى : السلوك حوادث سنة ٦٣٥ هـ ، ٦٣٦ هـ .

السكامل قد طرده منها ، وأن يطرد بدوره الصالح أيوب منها<sup>(١)</sup> . وقد ظل الصالح اسماعيل يحكم دمشق خمس سنوات ( ١٢٤٠ - ١٢٤٥ م = ٦٣٧ - ٥٦٤٣ ) ، في حين وقع الصالح أيوب في قبضة الناصر داود صاحب الأردن والكرك ، حتى أطلق الأخير سراح الأول واتفق معه على القيام بحملة على مصر للإستيلاء عليها من السلطان العادل الثاني<sup>(٢)</sup> . وكان كبار أمراء العادل الثاني قد استاءوا منه في ذلك الوقت لتعجبه عنهم واشتغاله باللهو عن مصالح الدولة ، فقبضوا عليه في نهاية مايو سنة ١٢٤٠ م ( ٥٦٣٧ ) وعزلوه ، واستدعوا بدله الصالح نجم الدين أيوب - ابن السكامل - الذي دخل القاهرة ليصبح سلطاناً على مصر ( ١٢٤٠ م - ١٢٤٩ ، ٦٣٧ ، ٥٦٤٧ )<sup>(٣)</sup> .

### الأيوبيون والصليبيون :

وقعت بلاد الشام في حالة شديدة من الفوضى بسبب النزاع الذي اشتد بين الصالح أيوب وبين عمه الصالح اسماعيل صاحب دمشق ، وشارك في ذلك النزاع بقية أفراد البيت الأيوبي في الشام - مثل ملوك حمص وحماه والأردن . وزاد من تلك الفوضى أنها جاءت في الوقت الذي تعرضت بلاد الشام لغزو جموع من الخوارزمية من ناحية وتهديد المغول من ناحية ثانية ، ثم وصول حملة صليبية جديدة من ناحية ثالثة .

ذلك أنه لم يكف ينتهي الصلح الذي عقده السلطان السكامل مع الإمبراطور فردريك الثاني سنة ١٢٣٩ م ( ٥٦٣٦ ) حتى دعت البابوية لحملة صليبية جديدة وصلت إلى الشام في أول سبتمبر سنة ١٢٣٩ م ( ٥٦٣٧ ) وعلى رأسها ثيوت الرابع . ويؤخذ على هذه الحملة أن زعماءها افتقروا تماماً إلى المرونة السياسية

(١) أبو الفدا : المختصر حوادث سنة ٦٣٦ هـ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣١٠ .

(٣) المقرئبي : السلوك ج ١ ص ٢٩٥ .

التي ميزت ريتشارد قلب الأسد وفردريك الثاني ، فلم يحاول ثيوت الرابع أمير شامبني استغلال المنازعات العنيفة الناشئة بين ملوك البيت الأيوبي عندئذ ، واتبع سياسة جامدة أدت إلى فشل حملته في نهاية الامر<sup>(١)</sup> .

وكانت بيت المقدس لا تزال بأيدي الصليبيين منذ أن استردها فردريك الثاني ، ولكن الناصر داود أسرع عندما علم بنزول الصليبيين في عكا سنة ١٢٣٩ م (٦٣٧ هـ) - بإحتلالها ، بدعوى أن الصليبيين عمروا المدينة وحصنوها وبذلك نقضوا شروط الصلح مع المسلمين<sup>(٢)</sup> . وكان استيلاء المسلمين على بيت المقدس عندئذ صدمة للصليبيين الذين أخذوا يتدبرون أمرهم ، حتى استقر رأيهم أخيراً على أن يتجهوا إلى عسقلان لهدم تحصيناتها والاستيلاء عليها وبعد ذلك يقصدون دمشق بوصفها مركز الحركة الإسلامية في بلاد الشام<sup>(٣)</sup> .

وعندما اتجه الصليبيون من عكا إلى عسقلان ، بادر العادل الثاني - الذي كان لا يزال سلطان مصر قبل عزله - إلى إرسال جيش أنزل هزيمة بالصليبيين قرب غزة في ١٣ نوفمبر سنة ١٢٣٩ م (٦٣٧ هـ) وسبق كثير من أسراهم إلى القاهرة<sup>(٤)</sup> .

ثم كان أن تمت في صيف سنة ١٢٤٠ م (٦٣٧ هـ) المؤامرة التي انتهت بعزل العادل الثاني من حكم مصر وقيام الصالح نجم الدين أيوب بدله في السلطنة كما سبق أن أشرنا ، وعندئذ استأن الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق ، لاسيما وأن الصالح أيوب أراد أن يرضى حليفه الناصر داود

---

(١) Grousset : op. cit., III, p. 374.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٣٤ .

(٣) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 317.

(٤) أبو شامة : ذيل الروضتين (Rec. Hist. Cr. v, p. 139)

صاحب الكرك فوعده بمساعدته في الحصول على دمشق من الصالح اسماعيل (١) وهكذا لم يجد الصالح اسماعيل قوة تساعدته سوى الصليبيين ، فمد يده إليهم ، وطلب منهم مخالفته ضد الصالح أيوب في مصر والناصر داود في الأردن . وفي مقابل ذلك كله تعهد الصالح اسماعيل بإعطاء الصليبيين بيت المقدس وإعادة مملكة الصليبيين إلى ما كانت عليه قديماً ، بما فيها الأردن . ولكي يبرهن صاحب دمشق على صدق نيته تجاه الصليبيين ، بادر فوراً بتسليمهم القدس وطبرية وعسقلان ، فضلاً عن عدد آخر من قلاع الشام التي كانت بأيدي المسلمين (٢) .

وسرعان ما ثار الرأي العام الإسلامي في مصر والشام على الصالح اسماعيل — مثلما ثار من قبل على السلطان الكامل ، حتى أن حاميات بعض القلاع رفضت إطاعة الأوامر الصادرة إليها من الصالح اسماعيل ، فأتى هو بنفسه ليؤدب تلك الحاميات ويسلم الحصون للصليبيين . أما الصليبيون فقد أسرعوا إلى تسلم بيت المقدس وحصنوا قلعتي طبرية وعسقلان ، ثم رابطوا بعد ذلك بين يافا وعسقلان استعداداً للخطوة التالية . وهنا وعدهم الصالح اسماعيل « بأنه إذا ملك مصر أعطاهم بعضها » ، فسأل لعابهم لذلك ، واتجهوا صوب غزة عازمين على غزو مصر (٣) .

وتؤكد المراجع التاريخية أن الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق والملك المنصور إبراهيم الأيوبي صاحب حمص ، (٤) حضرا على رأس جيوشهما لمعاونة الصليبيين في مهمة غزو مصر (١) . ولكن القوات الشامية

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٢٢ .

(٢) المقرئزي : السلوك ج ١ ص ٣٠٣ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٢٢٢ .

(٤) خلف المنصور إبراهيم أباه المجاهد شيركوه الثاني في حكم حمص ١٢٤٠ ، وظل يحكمها

حتى سنة ١٢٤٦ م ( انظر زامباور : معجم الأنساب ص ١٥٣ ) .

(٥) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٣٢٣ .

التابعة للصالح إسماعيل والمنصور إبراهيم لم تقبل فكرة طعن أخوانهم المصريين ، فلم تكذب تصل هذه القوات إلى غزة حتى انضمت إلى جانب الجيش المصرى ليشارك الجميع فى مهاجمة الصليبيين . وهكذا حلت الهزيمة بالصليبيين ، فقتل منهم عدد ضخم وسيق الأسرى إلى القاهرة ، فى حين انسحب الباقون إلى عسقلان حيث عقدوا الصلح مع الصالح نجم الدين سلطان مصر سنة ١٢٤٠ م ( ٦٣٨ هـ )<sup>(١)</sup> . وإذا كانت هذه الحملة الفرنسية لم تستطع البقاء فى بلاد الشام بعد ذلك وغادرت عكا عائدة إلى الغرب فى سبتمبر سنة ١٢٤٠ م ( ٦٣٨ هـ ) فإن حملة أخرى جديدة وصلت إلى عكا فى الشهر التالى بقيادة ريتشارد دى كورونول ، أخى ملك إنجلترا . على أنه يبدو أن هذه الحملة كانت صغيرة فلم تستطع القيام بعمل حربي هام فى الشرق الأدنى ، عدا تحصين عسقلان ليتخذها الصليبيون قاعدة لصد أى هجوم من جانب مصر .<sup>(٢)</sup> وبعد أن أتم ريتشارد تحصين عسقلان فى مارس سنة ١٢٤١ م ( ٦٣٨ هـ ) ، أجاب الصالح أيوب إلى طلبه الخاص باحترام الصلح المعقود بينه وبين ثبوت الرابع . وبمقتضى ذلك الصلح اعترف الصالح أيوب للصليبيين بملكية الحصون التى أخذوها فى فلسطين ، فضلا عن بيت المقدس . ولم يلبث أن قفل ريتشارد دى كورونول راجعا إلى بلاده فى مايو سنة ١٢٤١ م ( ٦٣٨ هـ ) تاركا خلفه الصليبيين ببلاد الشام يتخبطون فى حروب أهلية طويلة بينهم وبين بعض.<sup>(٣)</sup>

### الخوارزمية واسترداد بيت المقدس :

ولم يلبث النزاع أن دب مرة أخرى بين الصالح أيوب فى مصر وعمه الصالح إسماعيل فى دمشق ، وساند الأخير الناصر داود فى الأردن . وكان

(١) Eracles, 418-420.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٣٩ — ١٠٤٠ .

(٣) Grousset : op. cit., III, pp. 394, 303-304.

أن لجأ ملكا دمشق والأردن إلى طلب مساعدة الفرنجة ، وعرضا عليهم مقابل تلك المساعدة أن يوافقا على أن تكون سيطرة الصليبيين على بيت المقدس تامة ، بمعنى أن يستولى الصليبيون على الحرم الشريف بما فيه من المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، وهي المواضع التي ظلت - ولو اسمياً - في حوزة المسلمين وتحت إشرافهم منذ استيلاء الصليبيين على بيت المقدس بمقتضى اتفاقية يافا سنة ١٢٢٩ م ( ٦٢٧ هـ )<sup>(١)</sup> وفي ذلك الوقت نفسه عرض السلطان الصالح أيوب على الصليبيين مخالفته ضد ملك دمشق والأردن ، مقابل الثمن نفسه الذي عرضه هذان الملكان على الصليبيين . وهكذا يكون الملوك الأيوبيون الثلاثة - الصالح أيوب والصالح إسماعيل والناصر داود - قد أقروا في تلك السنة ١٢٤٣ - ١٢٤٤ ( ٦٤١ هـ ) مبدأ استيلاء الصليبيين على الحرم الشريف . ويروي المؤرخ جمال الدين بن واصل أنه مر ببيت المقدس عندئذ ، فرأيت الرهبان على الصخرة وعليها قناني الخبز ، ورأيت الجرس في المسجد الأقصى ، وأبطل الأذان بالحرم . . .<sup>(٢)</sup>

أما الصليبيون ، فيبدو أنهم اتبعوا سياسة ذات وجهين مع ملك دمشق وسلطان مصر ، وذلك حتى يحتفظوا بالملكاسب التي حققوها دون عناء . على أن الصليبيين كانوا لا يستطيعون المضي طويلاً في تلك السياسة ، ولم يلبثوا أن أحسوا بأنه لا بد لهم من الوقوف في صف أحد الجانبين المتنازعين ومجاهرة الطرف الآخر بالعداء . وكان أن انتصرت سياسة الداوية الخاصة بمهاجمة مصر ، فاختر الصليبيون الوقوف في جانب الصالح إسماعيل صاحب دمشق لأنه أقرب إليهم ، فضلاً عن أن التحالف معه يعني كسب الناصر داود صاحب الأردن والمنصور إبراهيم ملك حمص<sup>(٣)</sup> ولم يلبث هؤلاء الملوك الأيوبيون الثلاثة أن قرروا غزو مصر بمساعدة

(١) المقرئبي : السلوك ج ١ ص ٣١٥ .

(٢) العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٦٤١ هـ ، أبو المدا حوادث سنة ٦٤١ هـ .

(٣) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 322.



الصلبيين ، فجمعوا قواتهم عند غزة ، ووعدوا الصليبيين وعودا كثيرة لمشاركتهم في الهجوم على مصر .

أما الصالح أيوب سلطان مصر فلم يجد قوة أمامه يمكنها أن تسعفه إسعافا سريعا سوى الخوارزمية ، فطلب معونتهم ، الأمر الذي ترتب عليه تحول الموقف بالشام تحولا سريعا في صالحه (١) . ذلك أن دعوة الصالح أيوب لم تسكد تصل إلى الخوارزمية حتى فرحوا بتلك الفرصة التي أتاحت لهم منفذا لدخول بلاد الشام ، فاندفع منهم عشرة آلاف في طريق دمشق ، ولما وجدوا هذه المدينة قوية التحصين استولوا على طبرية ثم على نابلس ومنها قصدوا بيت المقدس (٢) .

وكانت بيت المقدس عندئذ أشبه بمدينة مفتوحة ضعيفة التحصين ، ليس فيها ملك أو زعيم صليبي يدافع عنها ، فاستنجد من فيها من الصليبيين بأمير انطاكية وطرابلس وبملك قبرس . ولما كان أحد من هؤلاء الأطراف لم يلب النداء ، إذا كان الصليبيون في الشام وقبرس في شغل بمشاكلهم الخاصة في حين لم يجرؤ حلفاء الصليبيين من أمراء المسلمين - في دمشق وحمص - على التدخل ومنع الخوارزمية المسلمين من الاستيلاء على بيت المقدس من الصليبيين ، وإلا تعرضوا لنقمة الرأي العام في العالم الإسلامي (٣) .

وهكذا اقتحم الخوارزمية بيت المقدس في ١١ يوليو سنة ١٢٤٤ م (٥٦٤٢ هـ) واستولوا عليها في سهولة، وعندئذ طلب من في المدينة من الصليبيين وساطة الناصر داود لتأمين خروجهم . فتوسط لهم وخرج ستة آلاف منهم قاصدين يافا في شهر أغسطس. على أن الخوارزمية لم يتركوهم ينصرفوا

(١) أبو الفدا : المختصر حوادث سنة ٦٤٢ هـ .

(٢) المقرئزي : السلوك ج ١ ص ٣١٦ .

(٣) Grousset : op. cit., III, p. 412.

آمنين وإنما اعتدوا عليهم في الطريق، كما اعتدوا على كنيسة القيامة وغيرها من المشاهد المسيحية في بيت المقدس. (١) وكانت هذه آخر مرة يستولى فيها المسلمون على بيت المقدس في عصر الحروب الصليبية إذ لم يقدر لجيش مسيحي أن يدخلها بعد ذلك أبدا حتى الحرب العالمية الأولى.

### الصالح أيوب وتوحيد الدولة الأيوبية:

وبعد أن استعاد الخوارزمية بيت المقدس من الصليبيين اتجهوا نحو غزة للإجتياح بالعسكر المصري الذي أرسله السلطان الصالح أيوب لمخالفتهم (أكتوبر ١٢٤٤ م = ٦٤٢ هـ). وفي ذلك الوقت كانت قوات الحلف الشامي الصليبي قد اتجهت من عكا نحو غزة، ومع الجيوش الصليبية كان المنصور إبراهيم صاحب حمص وصحبه قوات دمشق، فضلا عن نجدة وصلت إليهم من الناصر داود صاحب الكرك. (٢) وفي موقعة غزة التي دارت في ١٧ أكتوبر سنة ١٢٤٤ م (٦٤٢ هـ) بين الخوارزمية وجيوش الصالح أيوب من ناحية، والصليبيين وجيوش حمص ودمشق والأردن من ناحية أخرى، حلت الهزيمة ساحقة بالصليبيين، ومن انضم إليهم من منافق المسلمين، حتى قدرت خسائر الصليبيين بثلاثين ألف قتيل وثمانمائة أسير. (٣)

ولاشك في أن هذه كانت أعظم كارثة حلت بالصليبيين منذ موقعة حطين سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ)، حتى أطلق المؤرخون عليها اسم «حطين الثانية» (٤) وكان الخوارزمية يأملون بعد ذلك أن يكافأهم الصالح أيوب بالسماح لهم بالاستقرار في مصر؛ ولكن يبدو أنه خشى ما يترتب على دخولهم

(١) العيني: عقد الجمان حوادث سنة ٦٤٢ هـ.

(٢) أبو المحاسن: النجوم ج ٦ ص ٢٢٣.

(٣) أبو شامة: ذيل الروضتين (Rec. Hist. Cr. Tome 5, p. 193)

المقرئزي: السلوك ج ١ ص ٣١٧.

(٤) Grousset: op. cit., III, p. 415.

مصر من ضرر بالبلاد والعباد ، فلم يسمح لهم إلا بالاستقرار في الشام على حساب الصليبيين . ولم تلبث جموع الخوارزمية أن أخذت تغير على ممتلكات الصليبيين وضياعهم حتى وصلت إلى مشارف عكا . أما الجيش المصري ، فقد انفصل عن الخوارزمية بعد موقعة غزة واتجه لعقاب صاحبي السكرك ودمشق لتحالفهما مع الصليبيين . وقد نجح الجيش المصري في أخذ القدس والخليل وبيت جبريل والأغوار من الناصر داود صاحب السكرك ، وبذلك لم يبق له سوى مراكز قليلة الأهمية مثل السكرك وعجلون<sup>(١)</sup> . أما دمشق فإنها لم تستطع مقاومة الحملة التي أرسلها ضدها الصالح أيوب فاستسلمت في أكتوبر سنة ١٢٤٥ م (٦٤٣ هـ) وعوض الصالح اسماعيل عنها ببعليك وبصرى وأعمالها<sup>(٢)</sup> .

على أن الخوارزمية لم يلبث أن اشتد استيائهم من الصالح أيوب لأنهم ظنوا أنه سيجزل لهم العطاء بعد أن ساعدوه في التغلب على خصومه وفي تملك بلاد الشام ، فخاب ظنهم . بل لقد حدث بعد استيلاء الصالح أيوب على دمشق أن منع الخوارزمية من دخولها وأقطعهم الساحل ، فتغيرت نياتهم وانفقوا على الخروج عن طاعة السلطان<sup>(٣)</sup> .

وكان أن ثار الخوارزمية بالشام واتصلوا بالأمير ركن الدين بيبرس قائد قوات الصالح أيوب — وكانت أمه خوارزمية — وحسنوا له الانضمام إليهم في ثورتهم ضد السلطان ففعل ذلك<sup>(٤)</sup> .

كذلك اتهمز الناصر داود صاحب السكرك والصالح اسماعيل طرديد دمشق

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣١٨ .

(٢) أبو شامة : ذيل الروضتين (Rec. Hist. Cr. Tome V, p. 193)

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٢٢ .

(٤) أبو المعاسن : النجوم ج ٦ ص ٣٢٥ .

الفرصة للانتقام من الصالح أيوب ، فانضموا إلى الثوار ، وزحفوا جميعاً على دمشق وحاصروها . وهنا أظهر الصالح أيوب صبراً ومهارة، فلبجاً إلى أعمال الحيلة والتدبير ، وبدأ باستمالة الحلبيين فضلاً عن المنصور ابراهيم صاحب حمص ، وتحايل حتى استحضر الأمير ركن الدين بيبرس إلى مصر حيث قبض عليه وأعدمه . وبفضل هذه الإجراءات تمكن الصالح أيوب من إنزال الهزيمة بالخورزمية بين بعابك وحمص ، فتبدد شملهم ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك<sup>(١)</sup> .

وبعد القضاء على الخوارزمية ، اتجه الصالح أيوب نحو الصليبيين . فتمكنت جيوشه في ١٧ يونيو سنة ١٢٤٧م ( ٦٤٥ هـ ) من الاستيلاء على قلعة طبرية من الصليبيين ، ثم استولت على عسقلان في أكتوبر من العام نفسه ، وبذلك انحسرت حدود الصليبيين إلى أبواب يافا<sup>(٢)</sup> .

وهكذا استعادت الدولة الأيوبية وحدتها ، وأصبح السلطان الصالح أيوب يمتلك القاهرة ودمشق وبيت المقدس ، فأقام في دمشق من نوفمبر سنة ١٢٤٨ حتى أبريل سنة ١٢٤٩ ( ٦٤٦ - ٦٤٧ هـ ) بحيث وفد إليه ملك حماه المنصور الثاني والأشرف ملك حمص، وغيرهما من ملوك البيت الأيوبي بالشام لتقديم فروض الولاء والطاعة . كذلك زار الصالح أيوب بيت المقدس بعد أن عادت إلى أحضان الدولة الإسلامية، فقوى تحصيناتها ودعمها وحضر إليه فيها كثير من ملوك الشام ليعبروا عن ولائهم<sup>(٣)</sup> .

#### الحملة الصليبية السابعة على مصر :

أحدث استيلاء المسلمين على بيت المقدس سنة ١٢٤٤م ( ٦٤٢ هـ ) رد

(١) المقریزی : السلوك ج ١ ص ٣٢٤ .

(٢) العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٦٤٥ هـ .

(٣) أبو شامة : ذيل الروضتين (Rec. Hist. Cr. Tome 5, p. 194)

فعل عنيف في الغرب الأوربي ، فقامت البابوية - كعادتها عقب كل كارثة تحل بالصليبيين في الشرق - بالدعوة لحملة صليبية جديدة . وكانت ظروف الغرب الأوربي عندئذ تحول دون أن يلبي كثير من ملوك أوروبا وأمراتها تلك الدعوة ، فلم يستجب لها إلا لويس التاسع ملك فرنسا ، وهو الرجل الذي اشتهر بتقواه وورعه ، حتى لقب بالقديس .

وفي الوقت الذي أخذ لويس التاسع ملك فرنسا يواصل استعداداته لحملة الصليبية ، إذا بأخبار الحملة تتسرب إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب . ذلك أن الإمبراطور فردريك الثاني - الذي ظل مصادقاً للسلطان الكامل ومن بعده ابنه الصالح أيوب - أرسل سراً إلى السلطان الصالح يخبره بأن ملك فرنسا عازم على المسير إلى أرض مصر وأخذها .<sup>(١)</sup> وكان السلطان الصالح أيوب مريضاً في دمشق عندما بلغته تلك الأخبار ، فحمل إلى مصر ونزل عند اشموم طناح ليكون على مقربة من ميدان العمليات الحربية .

أما لويس التاسع فقد وصل على رأس حملته إلى جزيرة قبرس في سبتمبر سنة ١٢٤٨م ( ٥٦٤٦هـ ) حيث قضى الصليبيون بضعة أشهر حصلوا فيها على مزيد من المساعدات ومواد التموين ، حتى استقر الرأي أخيراً على مهاجمة دمياط ، فأبحرت الحملة إليها في مايو سنة ١٢٤٩م ( ٥٦٤٧هـ )<sup>(٢)</sup> .

وهنا نلاحظ ملاحظتين : الأولى أن فكرة الاستيلاء على مصر بوصفها مفتاح بيت المقدس كانت لا تزال مهيمنة على عقول الصليبيين في الشرق والغرب جميعاً .

---

(١) المقرئزي : المواعظ والاعتبار ح ١ ص ٢١٩ ( بولاق ) ، ابن الجوزي : مرآة الزمان ( المكتبة الصقلية ح ٣ ص ٥١٧ ) .  
(٤) Joinville : 51, 62, 82.

والثانية أن لويس التاسع أراد أن يمهّد لهجومه بنوع من حرب الأعداب ، فاتبع أسلوب المغول الخاص بإرسال رسائل مليئة بعبارات التهديد والوعيد والمبالغة إلى حاكم البلد الذي ينوون غزوه ليستقط في يده ويستسلم دون مقاومة . من ذلك أن لويس التاسع لم يكذب يصل إلى دمياط في أوائل يوفية سنة ١٢٤٩م حتى أرسل رسالة عنيفة إلى السلطان الصالح يشرح له سوء موقف المسلمين في الأندلس ويطلب منه التسليم فوراً ، وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت في طاعى تملأ السهل والجبل ، وعدددهم كعدد الحصى وهم مرسلون إليك بأسياف القضا<sup>(١)</sup> . ووصلت رسالة لويس إلى الصالح أيوب وهو مريض ، فاغرو رقت عيناه بالدموع ورد على لويس ليندد بغزوره ويذكره بما فعله المسلمون بالصليبيين ، وينذره بأنه سيندم حيث لا ينفج الندم<sup>(٢)</sup> .

والواقع أن التحذير الذى أرسله الأمبراطور فردريك الثانى أفاد الصالح أيوب ، فأسرع إلى تحصين دمياط بعد أن أثبتت التجارب اختيار الصليبيين لها نقطة ارتكاز للاستيلاء على مصر . وكان أن عهد السلطان الصالح إلى الأمير نجر الدين يوسف - صديق الأمبراطور فردريك القديم - بالوقوف على رأس قوة على البر الغربى لفرع دمياط لمنع الصليبيين من النزول على ذلك البر<sup>(٣)</sup> . أما دمياط ذاتها فقد شحنت بآلات عظيمة وذخائر وافرة . وجعل فيها بنى كنانة وهم مشهورون بالشجاعة<sup>(٤)</sup> .

---

(١) سعيد عهد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٥٨ - ١٠٥٩ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٣٤ - ٣٣٥ .

(٣) المقرئى نهاية الارب ج ٢٧ ورقة ٩٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٣٥٥ - ٣٥٦ (مخطوط) .

(٤) أبو الفدا : المختصر سنة ٦٤٧ هـ .

وعندما وجد لويس التاسع أن دمياط قوية التحصين بحيث يتعذر عليه النزول على برها ، قرر النزول على الضفة الغربية للنيل المواجهة لدمياط . وعلى الرغم من أن قوات الأمير نجر الدين تصدت للصليبيين وقاومتهم ، إلا أنها لم تنجح في مهمتها واستطاع الصليبيون النزول على الشاطئ ، مما جعل الأمير نجر الدين ومعظم رجاله يفرون ليلا إلى الضفة الشرقية حيث توجد دمياط (١) . ولم يلبث أن استولى الرعب على أهل دمياط، فتركوا مدينتهم بما فيها هاربين، بعد أن أشعلوا النار في سوقها؛ بل إن عرب كنانة الذين عهد إليهم الصالح أيوب بالدفاع عن المدينة ولوا الأدبار وتركوا أبواب دمياط مفتوحة ، وفاتهم عند فرارهم أن يقطعوا الجسر الذي يربط دمياط بالضفة الغربية التي عليها الصليبيون (٢) .

وهكذا صارت دمياط مدينة مفتوحة خالية من وسائل الدفاع ، فتملكها الفرنج بغير قتال ، في ٦ يونيو سنة ١٢٤٩م (٦٤٧هـ) ويروي المقرئ أن الصليبيين عندما رأوا أبواب دمياط مفتوحة ولا أحد يحميها شكوا أن يكون في الأمر خدعة ، واسكنهم لم يلبثوا أن أدركوا الحقيقة ، فدخلوا المدينة بغير كلفة ، واستولوا على ما فيها من مؤن وآلات وأسلحة وأموال « صفوا عفوا » (٣) .

على أن الصليبيين لم يحاولوا في حملتهم هذه سنة ١٢٤٩م (٦٤٧هـ) . أن يستفيدوا من الأخطاء التي وقعت فيها الحملة الصليبية الخامسة سنة ١٢١٩م (٦١٦هـ) . ذلك أنه كان من المفروض أن يبادر لويس التاسع بالزحف إلى داخلية البلاد لمحاولة القضاء على الجيش الأيوبي ، واسكن الصليبيين

(١) المقرئ : السلوك ج ١ ص ٣٣٥ .

(٢) أبو القدا : المختصر حوادث سنة ٦٤٧ هـ .

(٣) المقرئ : السلوك ج ١ ص ٣٣٦ .

أضاعوا الوقت في دمياط خمسة أشهر كاملة ( يونيو - نوفمبر ١٢٤٩م = ٥٦٤٧هـ ) وربما أراد لويس بذلك أن ينظر انحسار فيضان النيل الذي كان سبباً في فشل حملة حنادى برين على مصر قبل ذلك بثلاثين سنة<sup>(١)</sup> . ومهما تكن الأعذار التي حاول بعض المؤرخين انتحالها لتبرير تباطؤ لويس التاسع في دمياط ، فالمهم أن ذلك التباطؤ أعطى السلطان الصالح أيوب فرصة طيبة للاستعداد وإعادة تنظيم جيشه .

وكان الصالح أيوب قد عاقب أمراء بني كنانة عقاباً شديداً لفرارهم من دمياط ، كما وبخ الأمير نجر الدين ورجاله لعدم ثباتهم أمام الصليبيين ، واسكن المارض اشتد على الصالح أيوب ، فحمل إلى قلعة المنصورة حيث استمر - وهو على فراش الموت - في تنظيم شؤون الدفاع<sup>(٢)</sup> . ثم إن المسلمين انتهزوا فرصة انتقال الجيش الصليبي مرة أخرى إلى الضفة الغربية للنيل ، وأخذوا يشنون عليه الغارات المتوالية حتى أسروا كثيراً من الصليبيين وأرسلوهم إلى القاهرة<sup>(٣)</sup> .

وأخيراً وصلت الإمدادات إلى لويس التاسع صحبة أخيه في أكتوبر سنة ١٢٤٩م (٥٦٤٧هـ) ، فقرر الصليبيون الزحف على القاهرة . ولم يكد لويس التاسع يشرع في الحركة على رأس جيشه ، حتى توفي السلطان الصالح نجم الدين أيوب في ٢٣ نوفمبر ١٢٤٩م ( ١٥ شعبان ٥٦٤٧هـ ) .

ولا شك في أن وفاة الصالح أيوب في تلك الظروف الحرجة جاءت خسارة كبرى لعدم وجود من يحل محله بسرعة في حكم البلاد وفي مواجهة خطر الغزو الصليبي .

(١) Runciman : op. cit., III, p. 263.

(٢) العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٦٤٧ هـ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٣٧ .



## موقعة المنصورة :

كان للصالح أيوب ابن واحد اسمه توران شاه ، وهو شاب مستهتر عديم الخبرة ، كان عند وفاة أبيه ينوب عنه في حصن كيفا وديار بكر . (١) وإلى أن يأتي توران شاه إلى مصر ، قامت زوج أبيه - شجر الدر أرملة الصالح أيوب - بدور بارز حفظه لها التاريخ ، فأخفت خبر موت زوجها ، وأرسلت إلى توران شاه استعدادية على عجل من كيفا ، في الوقت الذي استمرت الاستعدادات للدفاع عن البلاد تسير في مجراها الطبيعي . (٢)

ولسكن حدث على الرغم من كل هذه الاحتياطات أن تسرب خبر وفاة السلطان ، لا إلى المصريين فحسب ، بل إلى الصليبيين أيضاً . لذلك رأى لويس التاسع أن يسرع بالهجوم ليستفيد من تلك الظروف السيئة التي أمست فيها البلاد ، وليتمكن من إنزال ضربته بالمسلمين قبل وصول توران شاه (٣)

وعندما تحرك الجيش الصليبي من دمياط في ٢٠ نوفمبر سنة ١٢٤٩ م (٦٤٧ هـ) ، اختار لويس طريق الدلتا الكثير الترع والقنوات ، فسار الصليبيون على الضفة الشرقية لفرع دمياط بحذاء النيل جنوباً في المنطقة التي أطلق عليها الصليبيون اسم « جزيرة دمياط » ، وهي عبارة عن مثلث تحده من الشمال الشرقي بحيرة المنزلة ، ومن الغرب فرع دمياط ، ومن الجنوب الشرقي فرع أشموم طناح المعروف اليوم باسم البحر الصغير . وفي أثناء زحف الصليبيون جنوباً تعرضوا لهجمات كثيرة ، حتى وصلوا في النهاية عند نقطة تفرع بحر أشموم من فرع دمياط ، وهي النقطة التي تمثل رأس المثلث ، وعندئذ وجدوا أن النيل يفصل بينهم وبين المنصورة . ولم يلبث أن استطاع الصليبيون عبور بحر أشموم عن طريق مخاضة قريبة اسمها مخاضة

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٣٦٤ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٣٦٢ - ٣٦٣ (مخطوط)

(٣) العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٦٤٧ هـ

سلمون، في الوقت الذي قتل الأمير نجر الدين قائد الجيش الأيوبي، مما جعل موقف المسلمين يتحرج حتى « كادت تكون الهزيمة بالسكينة » (١) .

ولم ينقذ الموقف عندئذ سوى حماقة الصليبيين . ذلك أن فريقاً منهم تسرع في شن هجوم على المسلمين في المنصورة ، دون أن يستمع إلى أوامر الملك الخاصة بالتريث والانتظار . (٢) وهكذا اندفع فرسان الصليبيين داخل المنصورة ، وأوغلوا في طرقاتها ، في الوقت الذي وجد المسلمون قوة جديدة في المماليك البحرية وزعيمهم بيبرس البندقداري الصالحى . والواقع إن الموقف كان خطيراً ، حتى أطلق المؤرخ ابن واصل على ذلك اليوم يوم « الكبسة » . (٣) ولكن المماليك البحرية أنقذوا الموقف ، فانقضوا على الصليبيين في دروب المنصورة وأوسعوهم قتلاً ، حتى انتهت المعركة بهزيمة الصليبيين ، وفرارهم منهزمين . (٤) وكان عدد ضحايا الصليبيين في المنصورة بضعة آلاف ، مما جعل أحد المؤرخين الأوربيين يعتبرها « مقبرة الجيش الصليبي ، في حين وصفها المقرئى بأنها كانت « أول ابتداء النصر على الفرنج » . (٥)

ويبدو أن موقعة المنصورة أعادت الثقة إلى نفوس المسلمين فاشتدت هجماتهم بعد ذلك على الصليبيين ، في الوقت الذي تمالك لويس التاسع شجاعته وأخذ يعيد تنظيم صفوف جيشه بسرعة بعد أن قلت المؤن وتناقص عدد الفرسان بسبب كثرة ضحاياهم في المنصورة ، هذا كله فضلاً عن انتشار الأمراض والحيات في معسكر الصليبيين لتزيد الطين بلة . (٦)

(١) ابن واصل : مغرر الكروب ج ٢ ورقة ٣٦٦ ( منخطوط ) .

(٢) Matthieu Paris, VII, pp. 14-11 & Joinville, pp. 118-119.

(٣) ابن واصل : مغرر الكروب ج ١ ص ٣٥٩ ( منخطوط ) .

(٤) العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٦٤٧ هـ .

(٥) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٥١ ؛ Grousset : op. cit., III, p. 465

(٦) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٧٤

## توران شاه والصلبيون :

وفي تلك المرحلة وصل المعظم توران شاه إلى المنصورة في نهاية فبراير سنة ١٢٥٠ م ( ٦٤٧ هـ ) بعد أن أعلن سلطانا في دمشق أثناء طريقه إلى القاهرة . وقد أدى وصول السلطان الجديد إلى ارتفاع الروح المعنوية عند المصريين ، « وتيمن الناس بطلعته » .<sup>(١)</sup> ، وعندئذ أدرك لويس استحالة الزحف على القاهرة ، وبدأ يفكر جديا في العودة إلى دمياط ليستغل هذه المدينة الكبيرة في مساومة المسلمين . على أن انسحاب الصليبيين إلى دمياط لم يكن عندئذ بالمهمة السهلة ، وهذا هو السر في تردد لويس في اتخاذ تلك الخطوة حتى الخامس من شهر أبريل .

وفي تلك الأثناء ازداد موقف الصليبيين سوءا بسبب انقطاع المواصلات بينهم وبين دمياط ، مما هددهم بالجوع وفرض عليهم أن يتدبروا مصيرهم بسرعة . فحتى ذلك الوقت كانت الغلبة في النيل — بين دمياط والمنصورة — للسفن الصليبية التي نجحت في إمداد الصليبيين بكل ما احتاجوا إليه من إمدادات وقوة . ولكن السلطان توران شاه بنى عدة سفن وحملت أجزاءها على الجمال إلى شمالي المعسكر الصليبي حيث ركبت وأزلت في الماء وشحنت بالمقاتلين . ولم تلبث هذه السفن الإسلامية أن انقضت على المراكب الصليبية ، وأخذتها أخذا ويلا ، وبذلك قطعت الطريق على السفن الصليبية وحالت دون اتصال الصليبيين بقاعدتهم في دمياط .<sup>(٢)</sup> وتفيض المراجع العربية المعاصرة بأخبار المعارك النيلية التي نشبت عندئذ بين السفن الإسلامية والسفن الصليبية ، وكيف أن هذه المعارك انتهت كلها بالاستيلاء على عشرات من السفن الصليبية وبضعة آلاف من رجالهم ، فضلا عن كميات ضخمة من المؤن والعدد .<sup>(٣)</sup>

(١) المقرئزي : السلوك ج ١ ص ٣٥١ — ٣٥٣ ، أبو المعاسن : النجوم ج ٦ ص ٣٤٦ .

(٢) المقرئزي : السلوك ج ١ ص ٣٥٣ .

(٣) عن تفاصيل هذه المعارك انظر ( العيني ) عقد الجمان حوادث سنة ٦٤٧ هـ ، وابن واصل .

، مفرج السكروب ج ٢ ورقة ٣٧١ ، المقرئزي : السلوك ج ١ ص ٣٥٤ .

ومن الواضح أن هذه الصعاب التي أحاطت بلويس التاسع جعلته - قبل أن يشرع في التراجع إلى دمياط - يحاول فتح باب المفاوضات مع المسلمين ، على أساس ترك دمياط مقابل إعادة بيت المقدس إلى الصليبيين . وقد أراد لويس بهذا العرض أن يضرب عصفورين بحجر فيسترد بيت المقدس في الوقت الذي يضمن لجيشه انسحاباً آمناً وخروجاً سليماً من مصر . ولكن عرض لويس التاسع جاء بعد فوات الاوان ، ولو أنه تقدم بطلبه هذا قبل عدة أشهر لسكان من الممكن أن يتقبله المسلمون ، أما وقد قدم لويس عرضه السلبى بعد أن ساء موقفه وحلت بجيشه هزيمة المنصورة ، فإن توران شاه كان لايسعه سوى أن يرفض طلب الملك الفرنسى (١) .

وفي ٥ أبريل سنة ١٢٥٠م (٥٦٤٨هـ) بدأ الصليبيون يتراجعون نحو دمياط بحذاء الضفة الشرقية للنيل ، في حين حمل المرضى والجرحى في السفن . والواقع إن العملية لم تكن انسحاباً بالمعنى المعروف في الحروب ، وإنما هي عملية هروب إلى دمياط ، كما أن أسماها ابن واصل (٢) ولم يترك المسلمون الصليبيين يتراجعون في سهولة ، وإنما تعقبوهم وأنزلوا بهم كثيراً من الخسائر ومع ذلك فقد أظهر لويس التاسع كثيراً من الكفاية في تنظيم رجاله ، حتى وصل الصليبيون إلى شرمساح ، عند منتصف الطريق بين المنصورة ودمياط . ولم تسكد مقدمة الجيش الصليبي تصل إلى فارسكور ، حتى غلب المرض على لويس التاسع ومعظم رجال جيشه ، في الوقت الذي دأحدق المسلمون بهم يتخطفونهم طول الليل قتلاً وأسراً ، (٣) . وعندما أدرك المسلمون سوء موقف الصليبيين ، اختاروا أن يشنوا عليهم هجوماً عاماً عند فارسكور . وكان المرض قد اشتد بلويس التاسع فلم يعد يقوى على القتال ، وقاده أحد

(١) Grousset : op. cit., III, p. 419.

(٢) ابن واصل : مفرج الكرب ج ٢ ورقة ٣٦٩ (مخطوط)

(٣) العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٦٤٨ هـ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٣٦٤ .

رجالہ لیستریج فی منیة ابي عبد الله، وهي إحدى قرى شرمساح . وفي موقعة فارسكور حلت الهزيمة ساحقة بالصلبيين ، ووقع الجيش الصليبي بأجمعه تقريباً بين أسرى وقتلى ، وكان من جملة الأسرى لويس التاسع نفسه الذي سيق مكبلاً بالأغلال إلى المنصورة حيث سجن في دار ابن لقمان<sup>(١)</sup> .

### نهاية الدولة الأيوبية :

ولم يهتم المسلمون كثيراً - وهم في نشوة نصرهم - بأمر دمياط، إذا باتوا يعتقدون أن استردادها صار أمراً مفروضاً منه ، ولذلك ركزوا طلباتهم في الحصول على الممتلكات الصليبية بالشام . وهنا أجاب لويس بأنه لا سلطان له على الصليبيين وممتلكاتهم بالشام ، ورفض أن يعترف المسلمين بأي حق في الممتلكات الصليبية بالشام . وكان أن اغتاز توران شاه لموقف الملك لويس ، فصمم على غزو الشام وطالب بمبلغ ضخم من المال مقابل فداء الجيش الفرنسي، على أن يكون تسليم دمياط ثمناً لفداء الملك الفرنسي نفسه<sup>(٢)</sup> .

وقد وافق لويس على هذه الشروط وأبرمت معاهدة بينه وبين توران شاه تقضى بأن يستمر الصلح لمدة عشر سنوات وأقسم الطرفان على احترام شروط الصلح<sup>(٣)</sup> .

على أن توران شاه لم يلبث أن قتل في المحرم سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠م) قبل أن يتم تنفيذ الاتفاقية السابقة مع الصليبيين . ولعل أهم ما ترتب على مقتل توران شاه من تطور خطير في تاريخ مصر والشرق الأدنى . هو سقوط دولة الأيوبيين وقيام دولة المماليك في حكم مصر والشام، على النحو الذي سنراه في الباب التالي .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٥٦ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٣٦٧ .

(٢) Grousset : op. cit., III, p. 484.

(٣) جوزيف نسيم يوسف : لويس التاسع ص ٦١ .

## الفصل الثامن

### احوال مصر والشام في العصر الأيوبي

#### الحياة الدينية :

كان أهم ما اتصفته به الحياة الدينية في العصر الأيوبي هو القضاء على آثار المذهب الشيعي وتدعيم المذهب السني في أنحاء البلاد . والمعروف أن المذهب الشيعي كان قد وجد له سندا قويا في البويهيين بالشرق وفي العبديين أو الفاطميين في الغرب . ولكن السلاجقة الذين حلوا محل البويهيين في السيطرة على الخلافة العباسية حاربوا التشيع في المشرق ، ولجأ الوزير السلجوقي نظام الملك في تدعيم المذهب السني إلى إنشاء المدارس ، وأشهرها المدرسة النظامية في بغداد . ومن المعروف أن عماد الدين زنكي ونور الدين محمود كانا من أتباع السلاجقة ، وكانا يدينان بالمذهب السني ، لذلك لم تسكد تم لنور الدين محمود السيطرة على مصر حتى تعجل صلاح الدين في القضاء على الخلافة الفاطمية ، والدعوة على منابر المساجد للخليفة العباسي السني في بغداد .

وقد حذا صلاح الدين في مصر حذو نور الدين في الشام في القضاء على المذهب الشيعي ، فالتجأ إلى العنف والقتل ، كما لجأ إلى أساليب السياسة وإنشاء المدارس . ولم يستسلم الشيعة في مصر لتلك السياسة ، لأنهم أدركوا أن الأمر بالنسبة لهم يعني الحياة أو الموت ، فقاموا بالثورات وأشهرها ثورة عمارة اليميني ، كما سبق أن ذكرنا . وإذا كانت بقايا المذهب الشيعي قد ظلت قائمة في مصر إلى عصر المماليك وما بعد عصر المماليك ، فإن هذه البقايا صارت ضعيفة لا تقوى على الظهور إلا لتختفي بعد قليل .

وثمة ظاهرة دينية أخذت تزداد وضوحاً في العصر الأيوبي ، هي ظاهرة التصوف والاكتثار من بناء منازل للصوفية عرفت باسم الخانقاوات. ويفهم مما كتبه المقرئزي أن صلاح الدين انشأ أول خانقاه بمصر وهي خانقاه سعيد السعداء ( ٥٦٩ هـ = ١١٧٣ م ) وولى عليها شيخاً عرف بشيخ الشيوخ ، ووقف عليها الأوقاف للانفاق على من فيها من الفقراء (الصوفية) ، كما خصص لهم في كل يوم طعاماً ولحماً وخبزاً وبنى لهم حماماً بجوارهم .<sup>(١)</sup> كذلك أمدنا المقرئزي بصورة عن حياة أولئك الصوفية ، فقال إن الناس اعتادوا أن يأتوا يوم الجمعة لمشاهدة صوفية خانقاه سعيد السعداء عندما يتوجهون من دارهم إلى جامع الحاكم لصلاة الجمعة ، فكانوا يخرجون إلى الجامع في موكب جميل يؤدون فريضة الصلاة في موضع أعد لهم ويدعون للسلطان صلاح الدين ، ثم يعودون بنظام إلى الخانقاه .

ولا يخفى علينا أن التصوف ليس مجرد ظاهرة دينية ، وإنما كان أيضاً ظاهرة اجتماعية خطيرة . ولم يلبث أن وفد على مصر في العصرين الأيوبي والمماليكي كثير من زعماء المتصوفة ومشايخهم — وبخاصة من المغرب — الذين أشاعوا بمصر حياة الزهد والتقشف مما ترك أثراً خطيراً في المجتمع المصري .

### الحياة العلمية والفكرية :

اشتهر سلاطين الأيوبيين بحبهم للعلم والعلماء ، فكان صلاح الدين يجمع حوله رجال العلم ويحضر مجالسهم ليستمع إليهم ويشاركهم في أبحاثهم<sup>(٢)</sup> . أما العزيز عثمان الذي خلف أباه صلاح الدين في السلطنة فقد قال عنه

---

(١) المقرئزي : المواعظ والاعتبار ج ٤ ص ٢٧٣ .  
(٢) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج ٤ ص ٣٢٩ .

ابن خلسكان أنه د سمع الحديث من الحافظ السلفي والفقير أبي طاهر بن عوف الزهري ، وسمع بمصر من العلامة أبي محمد بن برى النحوى وغيرهم،<sup>(١)</sup> ومثل ذلك يقال عن بقية سلاطين بنى أيوب، وبخاصة السلطان الكامل الذى قال عنه المقرئى د وكان يحب أهل العلم ويؤثر مجالستهم وعنده شغف بسماع الحديث النبوى . . . وكان يناظر العلماء وعنده مسائل غريبة من فقه ونحو يمتحن بها ، فمن أجاب عنها قدمه وحظى عنده . وكانت بيته عنده بالقلعة جماعة من أهل العلم . . . فينصب لهم أسرة ينامون عليها بجانب سريريه ليسامروه . . . ،<sup>(٢)</sup> .

لذلك لا عجب إذا اشتهر من بنى أيوب أنفسهم أعلام فى مختلف ضروب المعرفة ، منهم المؤرخ الشهير أبو الفداء ، وهو اسماعيل بن على عماد الدين صاحب حماه ، المتوفى سنة ٧٣٢ هـ ( ١٣٣١ م ) وهو صاحب كتاب « المختصر فى أخبار البشر » . ومنهم بهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبك المتوفى سنة ٦٢٨ هـ ( ١٢٣١ م ) وكان شاعراً أديباً . والملك الناصر بن الملك المعظم عيسى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ ( ١٢٥٨ م ) وكان مشغولاً بتحصيل الكتب النفيسة ويحيز الأدباء . والملك المؤيد الأيوبى صاحب اليمن المتوفى سنة ٧٢١ هـ ( ١٣٢١ م ) وكان من أهل العلم واشتملت خزائنه على مائة ألف مجلد . والملك المعظم عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق المتوفى سنة ٦٢٤ هـ ( ١٢٢٧ م ) وكان راغباً فى الأدب وأهله حتى شرط لكل من يحفظ المفصل للبخارى مائة دينار وخلعه . . .<sup>(٣)</sup> .

كذلك ظهر تقدير سلاطين بنى أيوب للعلم فى عنايتهم بالمكتبات ،

(١) ابن خلسكان : رفيات الأعيان ج ١ ص ٣١٥ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٥٨ .

(٣) جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٣ ص ١٠ .



وأهمها المكتبة التي عني بها السلطان الكامل بالقلعة ، وكانت في الأصل تؤلف مكتبة القاضي الفاضل ثم آلت إلى ابنه الأشرف أحمد، حتى أمر السلطان الكامل بوضع اليد عليها ونقلها إلى القلعة لتصبح نواة مكتبة كبرى ضمت ثمانية وستين ألف مجلد ، وقد تم نقلها إلى القلعة سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٩م) .

وإذا كانت هذه هي رغبة سلاطين بني أيوب في العلم ، فإننا لانعجب لكثرة ما أسسوه من مدارس درست فيها العلوم الدينية وغير الدينية ، وصارت مراكز حياة علمية نشطة في ذلك العصر .

والواقع أن الأيوبيين عندما أدخلوا نظام المدارس في مصر لم يكونوا محبتيين وإنما كانوا محاكين لما شاهدوه وسمعوا به في الدولة العباسية ، قبل حضورهم إلى مصر . ذلك أنه من أبرز سمات الحياة العلمية في العصر العباسي الثاني ظاهرة انتشار المدارس ، وخاصة بعد أن أسس نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي المدرسة السلجوقية في بغداد<sup>(١)</sup> . ولم تلبث الحركة المدرسية أن انطلقت في الإسلام منذ سنة ٤٥٩هـ (١٠٦٧م) ، إذ صارت المدرسة مكانا للدرس والتحصيل فضلا عن كونها قلعة لنشر المذاهب السنية ، وشن الحرب على الشيعة ومحاربة التشيع<sup>(٢)</sup> . وكان من الطبيعي أن يحاكي الأتابكة في العراق والشام ساداتهم سلاطين السلجوقية في إنشاء المدارس ، ومن ذلك على سبيل المثال المدرسة الأتابكية التي أنشأها سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي بالموصل قرب منتصف القرن الخامس للهجرة ( الثاني عشر للميلاد ) ، ومدرسة الجامع النوري التي أنشأها نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي في جامع الموصل<sup>(٣)</sup> . وهكذا كان طبيعياً أن يحاكي صلاح الدين سيده نور الدين في إنشاء المدارس .

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٩٦ .

(٢) حسين أمين : تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص ٢٢٢ .

(٣) أبو تمامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٦٥ ، المعري : منية الأدباء ص ٢٠٥ .

ومها يقال من أن صلاح الدين إنما قصد بإنشاء المدارس محاربة المذهب الشيعي ونشر تعاليم المذهب السني ، فإن التوسع في إنشاء المدارس في حد ذاته جاء مظهرآ قوياً لرقى الحياة الفكرية في عصر الأيوبيين . وقد بدأ صلاح الدين بإنشاء مدرستين في حياة الخليفة العاضد الفاطمي ، إذ يروى ابن الأثير أنه كانت بمصر دار تسمى دار المعونة يحبس فيها من يراد حبسه ، فهدمها صلاح الدين وبنها مدرسة للشافعية سنة ٥٦٦هـ<sup>(١)</sup> . وقد عرفت هذه المدرسة باسم الناصرية . أما المدرسة الثانية فكانت للمالكية ، وقد عرفت باسم المدرسة القمحية نسبة إلى القمح الذي كانت تحصل عليه من الوقف الذي وقفه عليها صلاح الدين<sup>(٢)</sup> . ولم تلبث أن سقطت الخلافة الفاطمية ، فأنشأ صلاح الدين ثلاث مدارس أخرى ، وبذلك صار عدد المدارس التي بناها بالقاهرة خمس ، بخلاف ما أقامه من من مدارس في دمشق والقدس .

وقد حاكى سلاطين الأيوبيين — ومن بعدهم سلاطين المماليك — صلاح الدين في بناء المدارس . ولا يخفى علينا أن المدارس كانت تدرس فيها العلوم الدينية ، لذلك قصد السلاطين بتأسيسها التقرب إلى الله وكسب الثواب . ومن أهم هذه المدارس المدرسة السكاملية التي أنشأها السلطان السكامل سنة ٦٢١هـ ( ١٢٢٤م ) والمدرسة الصالحية التي بناها الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٣٩هـ ( ١٢٤١م )<sup>(٣)</sup> . وكانت هذه المدرسة الأخيرة أول مدرسة تجمع بين مذاهب السنة الأربعة .

وكانت المدارس في ذلك العصر أشبه بجامعات ، فهي معاهد للتعليم العالي ، ولكل مدرسة مذهبها الذي تتبعه ، وإن كان بعضها يشمل أربع كليات

(١) ابن الأثير : السكامل حوادث سنة ٥٦٦ هـ .

(٢) المقرئزي المواعظ ج ٤ ص ١٩٣ .

(٣) أحمد شلبي : تاريخ التربية الإسلامية ص ١٠٢ — ١٠٣ .

للمذاهب الأربعة . وإذا كان المفروض في المدرسة أن تكون مركزاً للعلوم الدينية من فقه وحديث وتفسير وغيرها ؛ فإن الوضع لم يلبث أن تطور حتى غدت المدارس مراكز لتدريس النحو والفلسفة والعلوم الطبيعية فضلاً عن العلوم الدينية .

وكان يقوم بالتدريس في المدرسة مدرس أو أكثر يختار من مشايخ علماء عصره ، وأوسعهم علماً ، وأبعدهم صيتاً لأنه على أساس مكانته وشهرته تتوقف سمعة المدرسة وأهميتها . ويساعد المدرس عادة معيد ، وظيفته أن يعيد على الطلبة ما ألقاه عليهم المدرس ، فهو أكبر منهم درجة ، ويجلس معهم ليستمع إلى ما يعطيه المدرس ، وبعد ذلك يرجع إليه الطلاب لشرح ما قد يكون قد صعب عليهم فهمه . ومنذ العهد الأيوبي أصبح منصب المعيد موقفاً ، وقل إن خلت منه مدرسة من المدارس التي أنشئت في ذلك العصر ، فقد عين صلاح الدين معيدين بالمدرسة الناصرية كما عين الصالح نجم الدين أيوب معيدين اثنين لكل واحد من المدرسين الأربعة في مدرسته<sup>(١)</sup> . واعتمد التدريس عادة في ذلك العصر على الإلقاء والتلقين والإملاء ، وربما دارت مناقشات علمية بين المدرس وطلابه .

والمعروف أن المدارس ومعاهد التعليم العالي لا بد لها من مكتبات ضخمة . يرجع إليها المدرسون والطلاب ، ويعتمدون عليها في التحصيل والاستزادة . لذلك عنى الأيوبيون عناية كبيرة بالمكتبات ، فنسمع عن نور الدين محمود أنه خصص لمدرسته في دمشق كتباً كثيرة ليرجع إليها طلاب العلم<sup>(٢)</sup> .

وكان من الطبيعي أن يتبع الأيوبيون سياسة نور الدين في العناية

---

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٥٧ ، المقرئزي : المواعظ ص ٣٧٤ ، ٤٠٠ ، أحمد شاذلي تاريخ التربية الإسلامية ص ٢١٥ .  
(٢) النعيمي : المدارس فيها في دمشق من مدارس ج ١ ص ٦٠٨ .

بالمكتبات مثلما اقتفوا أثره في بناء المدارس<sup>(١)</sup> . هذا مع ملاحظة أن المكتبات في ذلك العصر لم تكن قاصرة على المدارس فحسب ، بل وجدت بالجوامع مكتبات كبيرة ، فضلا عن المكتبات الخاصة .

وكان لكل مكتبة عدد من الموظفين يقومون بتنظيم الكتب ورعايتها والمحافظة عليها ، فضلا عن خدمة المترددين على المكتبة من طلاب العلم ، وأهم هؤلاء الموظفين الخازن (الأمين) والنساخ ، والمجلدون ، والمناولون .

وبالإضافة إلى المدارس التي كانت تمثل نوعا من التعليم العالي الجامعي ، وجدت في العصر الأيوبي كتابات لتعليم الصغار القراءة والكتابة وتحفيظهم القرآن . وقد أنشأ صلاح الدين عدداً من هذه الكتابات لتعليم أبناء الفقراء والأيتام خاصة ، مما جعل الرحالة ابن جبير يعتبر ذلك من مآثره الكريمة المعربة عن اعتناؤه بأمر المسلمين عامة ،<sup>(٢)</sup> .

ولما كانت المنشآت التعليمية السابقة من مدارس وكتاتيب في حاجة إلى ميزانيات ثابتة تضمن للمعلمين والمتعلمين فيها مستوى كريم من العيش يجعلهم ينصرفون إلى طلب العلم بنفوس راضية مطمئنة ؛ فقد لجأ سلاطين الأيوبيين إلى تدعيم مدارسهم بالأوقاف الغنية التي أوقفوها عليها . ولم تكن جميع هذه الأوقاف أراضى زراعية ، وإنما يروى المقرئ أن صلاح الدين وقف على مدرسته الصلاحية التي بناها بجوار مقام الإمام الشافعي حماما بجوارها ، وفرناً وحوانيت ، فضلا عن الجزيرة التي كانت تسمى جزيرة الفيل بالنيل خارج القاهرة<sup>(٣)</sup> . أما المدرسة القمحية التي أنشأها صلاح الدين للدسكية فقد سبق أن ذكرنا أنها سميت كذلك نسبة إلى القمح الذي كانت

(١) أحمد شلبي : تاريخ التربية الإسلامية ص ١٣٠ وما بعدها .

(٢) رحلة ابن جبير ( طبعة بيروت ) . ص ٢٧ .

(٣) المقرئ : المواعظ والاعتبار ج ٤ ص ١٢٥ .

تغله الأوقاف التي أوقفها صلاح الدين بالفيوم على تلك المدرسة . أما المكاتب فكانت تخصص لها أيضاً أوقاف الإنفاق على مؤديها وتلاميذها ، كما كانت تجري عليهم الجراية الكافية لهم<sup>(١)</sup> .

ومن الواضح أن المستوى المعيشي لمدرسي المدرسة وطلابها توقف على قيمة الوقف الموقوف عليها ومقدار ما يغله ذلك الوقف . ولما كانت هذه القيمة غير ثابتة ، إذ أن إنتاج الأرض يرتبط بحالة الفيضان وما قد يكون من آفات تصيب النبات ، فإن رجال العلم في تلك العصور لم يكونوا على حال دائم من البسطة وسعة العيش . هذا إلى أن الأوقاف الموقوفة على المدارس لم تكن ثابتة ، وإنما تعرضت أحياناً للزيادة . من ذلك أن الملك السعيد بركة — ابن الظاهر بيبرس — أضاف إلى الأوقاف التي أوقفها الصالح نجم الدين أيوب على المدرسة الصالحية<sup>(٢)</sup> .

وقد نشطت الحياة الأدبية في عصر الأيوبيين ، وإن كانت الأحداث التي ألمت بالعالم الإسلامي في الشرق الأدنى — وخاصة ما أصاب المسلمين على أيدي الصليبيين — قد صبغت الأدب صبغة خاصة ، فكسدت سوق الشعر وأتجهت القرائح إلى الأدعية ومدح النبي (ص) وكذلك المعاني الصوفية<sup>(٣)</sup> . ومن أشهر شعراء مصر في العصر الأيوبي ابن سناء الملك المصري المتوفى سنة ٦٠٨ هـ ( ١٢١١ م ) ، وقد استكثر من الموشحات وأجاد فيها<sup>(٤)</sup> ؛ وكان الدين ابن النبية المصري المتوفى سنة ٦١٩ هـ ( ١٢٢٢ م ) ، وابن شمس الخلالة المتوفى سنة ٦٣٢ هـ ( ١٢٣٥ م )<sup>(٥)</sup> ، وعمر بن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢ هـ ( ١٢٣٥ م ) وقد اتصف شعره بمسحة واضحة من التصوف ، وجمال الدين

(١) رحلة ابن جبیر ( بيروت ) ص ٢٧ .

(٢) أحمد أحمد بدوي : الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ص ٤٩ .

(٣) جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ١٢ — ١٣ .

(٤) ياقوت : معجم الأدباء ج ١٩ ص ٢٥٦ .

(٥) الشيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٣٧ .

بن مطروح المتوفى سنة ٦٤٩ هـ ( ١٢٥١ م ) ، وبهاء الدين زهير المتوفى سنة ٦٥٦ هـ ( ١٢٥٨ م )<sup>(١)</sup> .

أما النثر في ذلك العصر فاتصف باتقان الصناعة اللفظية ، والتفنن في البديع والجناس والسجع ، والمبالغة في التعميق ، كما يبدو ذلك بوضوح في كتابة عماد الدين الأصفهاني وخاصة كتابه الفتح القسي الذي أرخ فيه لإستبلاء صلاح الدين على بيت المقدس . ومن أعلام النثر في ذلك العصر القاضي الفاضل المتوفى سنة ٥٩٦ هـ ( ١٢٠٠ م ) ، وكان وزير صلاح الدين ، وكتب عدداً ضخماً من الرسائل<sup>(٢)</sup> .

وشهد العصر الأيوبي كذلك نشاطاً في علوم اللغة ، وخاصة النحو والصرف . واشتهر من علماء اللغة عندئذ أبو محمد بن برى المتوفى سنة ٥٨١ هـ ( ١١٨٥ م ) ، وأبو الفتح البلطي المتوفى سنة ٥٩٦ هـ ( ١٢٠٠ م ) وابن عبد المعطى الزواوي المتوفى سنة ٦٢٨ هـ ( ١٢٣١ م ) وابن الحاجب المتوفى سنة ٦٤٦ هـ ( ١٢٤٨ م )<sup>(٣)</sup> .

أما عن التاريخ فقد شهد نشاطاً كبيراً في العصر الأيوبي ، فاتجه بعض المؤرخين نحو كتابة موسوعات في تاريخ الدولة الإسلامية ، واتجه آخرون نحو شرح تراجم العظماء وتدوين مآثرهم ، في حين عنى القسم الأكبر من المؤرخين بذكر أحداث الصراع بين المسلمين والصليبيين . ومن مؤرخي ذلك العصر أبو علي الجواني المصري المتوفى سنة ٥٨٨ هـ ( ١١٦٣ م ) وله شجرة رسول الله في النسب النبوي ، والملك المعظم عيسى الأيوبي المتوفى

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٩٤ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٤٢ .

(٣) جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ٥٥ — ٥٦ .

سنة ٦٣٩ هـ ( ١٢٤١ م ) ، وبهاء الدين ابن شداد صاحب سيرة صلاح الدين المعروفة بالأنوار السلطانية وقد توفي سنة ٦٣٢ هـ ( ١٢٣٥ م ) وشهاب الدين أبو شامة المتوفى سنة ٦٦٥ هـ ( ١٢٦٧ م ) صاحب كتاب الروضتين ، وابن ظافر الأزدي صاحب كتاب الدول المنقطعة وقد توفي سنة ٦١٣ هـ ( ١٢١٦ م ) ، وجمال الدين القفطي المتوفى سنة ٦٤٦ هـ ( ١٢٤٨ م ) صاحب أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، هذا بالإضافة إلى أبي صالح الأرمي وابن عساكر الدمشقي وغيرهما كثيرون .

### الزراعة والإقطاع :

اعتمدت مصر في حياتها الاقتصادية - طوال تاريخها - على الزراعة بوجه خاص، فبالزراعة اشتغلت غالبية أهلها وعلى الإنتاج الزراعي عاش معظم سكانها . والمعروف أن مصر لم تستخدم الري الدائم لأول مرة إلا في القرن التاسع عشر للهيلاد ، ولذلك اعتمدت الزراعة في العصور الوسطى ومن جملتها العصر الأيوبي على ري الحياض ، بمعنى تقسيم الأراضي الزراعية إلى حياض كبيرة تغمر بمياه الفيضان مدة كافية ، ثم تصرف تلك المياه لتبذر البذور . وقد أدى اتباع هذه الطريقة إلى جعل البلاد والعباد تحت رحمة الفيضان ، فإذا جاء مستوى الفيضان طبيعياً تمكن الناس من زراعة الأرض في اطمئنان ، وظهر المحصول طبيعياً في مقداره وأثمانه . أما إذا جاء الفيضان منخفضاً فمعنى ذلك ضعف المحصول وارتفاع أسعار الغلال ، مما يترتب عليه حدوث المجاعات وانتشار الأوبئة في البلاد .

وعلى ذلك يمكن أن نفسر ما حدث بمصر في تلك العصور من أزمات اقتصادية في ضوء انخفاض الفيضان . ومن أمثلة ذلك ما حدث سنة ٥٩٧ هـ ( ١٢٠١ م ) في عهد السلطان العادل الأيوبي ، إذ يروى أبو المحاسن أنه كان هبوط النيل . . واشتد الغلاء والوباء بمصر ، فهرب الناس إلى المغرب .

والحجاز واليمن والشام، وتفرقوا وتمزقوا كل ممزق<sup>(١)</sup>. ثم يسرد أبو المحاسن نصا عن الوضع في مصر أثناء تلك الأزمات، وكيف كان الناس يأكلون لحوم أبنائهم بدافع الجوع، فيذبح الرجل ولده وتساعد أمه على طبخه وشبهه<sup>(٢)</sup> ومما يكن في هذه الأوصاف من مبالغات فإنها تدل على سوء أحوال البلاد وأهلها، وما كانت تمر به من ظروف اقتصادية عصبية عند انخفاض الفيضان.

ولا ينتظر في مثل هذه الأوضاع أن يحيا الفلاح حياة آمنة مستقرة، طالما كان تحت رحمة الطبيعة من ناحية وتحت رحمة الحكام من ناحية أخرى. وإذا كانت الطبيعة تشدد قبضتها على الفلاح حيناً وترحمه أحياناً، فإن الحكام كانوا لا يرحمونه في الغالب، فأثقلوا عليه الالتزامات والرسوم، ولم يتهاونوا في جمع المفروض عليه من ضرائب وأموال. ومن الضرائب التي فرضت على الفلاحين في ذلك العصر الخراج وشد الأعباس فضلا عن الزكاة<sup>(٣)</sup>.

ومن الثابت في تطور النظم الإقطاعية في الشرق والغرب في العصور الوسطى أن الإقطاع اتخذ طابعا حربياً في بعض الدول التي غلب عليها الجو الحربي. ذلك أن الحكام والملوك كانوا يجنون أنفسهم في حاجة إلى محاربيين وفرسان مزودين بالسلاح والخيول، مما يتطلب أموالاً ونفقات لا تتحملها مواردهم، فيعمدون إلى توزيع الأراضي في صورة إقطاعات على الأمراء والأجناد مقابل ما يؤدونه من خدمة عسكرية للحكام. وهذا المبدأ الذي يفسر المؤرخون في ضوءه تطور النظام الإقطاعي في الغرب الأوربي منذ أيام شارل مارتل، ينطبق أيضاً على النظم الإقتصادية التي عرفت على أيام السلاجقة والأيوبيين. وهكذا عرفت مصر زمن الأيوبيين الإقطاع الحربي الذي كان معروفاً عند السلاجقة. ولم يكن هذا الإقطاع

(١) أبو المحاسن: النجوم ج ٦ ص ١٧٣ .

(٢) ابن ماتي: قوانين الدراوين ص ٣٠٨ - ٣١٥ .



وراثيا، إنما صار المقطع أن يتمتع بالأرض المقطعة له طالما يؤدي الخدمة العسكرية المتفق عليها في شروط عقد الإقطاع .

ولم يكد صلاح الدين يوطد أقدامه في مصر حتى أعاد النظر في توزيع الإقطاع، فقام سنة ٥٧٧ هـ ثم سنة ٥٨١ هـ ( ١١٨١ م ، ١١٨٥ م ) بإقطاع البلاد والتوقيع بها على الأجناد،<sup>(١)</sup> . وعندما عزم صلاح الدين على تقسيم دولته بين أبنائه وأهل بيته ، جعل ذلك التقسيم على أسس إقطاعية ؛ وكذلك حرص من بعده أخوه السلطان العادل على أن يكون أولاده دون غيرهم هم أصحاب الإقطاعات الكبرى في مصر<sup>(٢)</sup> .

وهكذا حتى نهاية العصر الأيوبي، فنجد أن النظام الإقطاعي قد استقر في مصر، فأقطع الصالح نجم الدين أيوب أهل بيته إقطاعات وافرة كما اختص الخوارزمية بإقطاعات واسعة مقابل ما قدموه من خدمات حربية . ولم يذس الصالح أيوب بمالكة الأتراك الذين ساندوه وناصروه فمنحهم الإقطاعات الوافرة<sup>(٣)</sup> .

وكان على المقطعين أن يؤديوا خدمات إقطاعية ، منها ما هو مالي مثل ضرائب الزكاة والجوالى وغيرها، ومنها ما هو على شكل خدمات مدنية مثل رعاية شئون الأمن في الإقطاع والعناية بالزراعة وصيانة الجسور . هذا كله فضلا عن الواجبات الحربية - التي هي الأساس في فكرة الإقطاع - فكان على المقطع أن يقتنى العدد المقرر عليه من الجند ويخصص جزءاً من إقطاعه لكل منهم أو يمنح كل جندي مرتباً معيناً يناسبه<sup>(٤)</sup> .

وكان من المنتظر أن يؤدي انتشار النظام الإقطاعي إلى سوء

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٦٢ .

(٢) حسنين محمد ربيع : النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين ص ٢٩ - ٣٠ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ص ٣٢٢ ، ٣٥٨ ، المقرئى نهاية الأرب ج ٢٧ ص ٩٠ .

(٤) حسنين محمد ربيع : النظم المالية ص ٣٤ .

خال الفلاحين ، لأنه جعلهم أشبه شئ ، بهيبد الأرض ، كما جعلهم تحت رحمة طبقة جديدة هي طبقة كبار الأمراء الإقطاعيين .

ولكن النظم التي وضعتها الدولة الأيوبية حرصت على أن تحمي الفلاحين من عسف السادة الإقطاعيين ، فكان التوقيع الخاص بالإقطاع في ذلك العصر يأمر المقطع بضرورة الأمر بالمعروف ، واتباع العدل ، والمحافظة على الإقطاع وعماره وحسن إدارته ، والإهتمام بالقضاء وعدم أخذ الرشوة من الناس ، وحسن الجوار مع زملائه من المقطعين المجاورين له . . . (١) ويبدو أن القيود التي وضعتها الدولة الأيوبية على السادة الإقطاعيين ، وخاصة ما يتعلق بتحديد الإيجارات والجبايات التي يدفعها الفلاح لسيده الإقطاعي ، حمت الفلاح من العسف من ناحية كما حدت من نفوذ وثروة السادة الإقطاعيين من ناحية أخرى (٢) .

ولا أدل على عناية الأيوبيين بشئون الزراعة وأهميتها لحياة مصر وشعبها من عنايتهم الفائقة بعمارة القناطر والجسور ، حتى أن صلاح الدين عهد إلى الأمير قراقوش الأسدي بذلك (٣) . وكانت الجسور في ذلك العصر على نوعين : جسور سلطانية تستفيد منها سائر البلاد ولذا تعهدت الحكومة بإقامتها والإنفاق عليها ؛ وجسور خاصة بجهة معينة ويعود نفعها على تلك الجهة لا غير ، ولذا اختص أهالي تلك الجهة من الفلاحين والمقطعين بإقامتها والإنفاق عليها (٤) .

#### الصناعة والتجارة :

وإلى جانب الزراعة ازدهرت في مصر عدة صناعات أهمها صناعة

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ج ١١ ص ٣٣ — ٣٤ ، ج ١٣ ص ١٤٤ — ١٤٨ .

(٢) Roliak : The Ayybid Feudalism, p. 430.

(٣) المقریزی : المواعظ والاعتبار ص ١٥١ .

(٤) المقریزی : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٠١ .

النسيج التي اشتهر بها المصريون طوال العصور الوسطى . وهناك أنواع معينة من المنسوجات المصرية أحرزت شهرة عالمية وبخاصة في غرب أوروبا في تلك العصور مثل قماش الفستيان Fustian الذي نسب إلى الفسطاط ، ومن أهم مراكز صناعة المنسوجات في مصر في ذلك العصر تنيس ودمياط والبهنسا وأخميم ، وفيها جميعا صنعت أنحف المنسوجات الحريرية والسكتانية والقطنية والصوفية . وبالإضافة إلى صناعة المنسوجات ، اشتهرت مصر باستخراج الزيوت من بذور السمسم والسكتان وغيرهما ، واستخدمت بعض هذه الزيوت في صناعة الصابون ، وهي الصناعة التي اشتهرت بها فقط . هذا عدا صناعات أخرى عديدة ازدهرت في مصر ، مثل صناعة السكر من القصب ، إذ كانت مصر تلتج عندئذ كميات ضخمة من السكر يستهلك بعضها داخل البلاد ويصدر الباقي إلى الخارج . وقد اتبعت الحكومة الأيوبية سياسة الاحتكار في عصر قصب السكر ، فحتمت على المشتغلين بهذه الصناعة عصر القصب في معاصرها العديدة المنتشرة في كافة أنحاء البلاد<sup>(١)</sup> .

كذلك فرضت على الصناع والإنتاج الصناعي بعض الضرائب مثل الرسوم المفروضة على منتجات دار الطراز ، وما يحصل برسم أجرة الصناع الذين يعملون في خزائن السلاح<sup>(٢)</sup> .

أما التجارة فقد نشطت في الجانب الخارجي على عصر الدولة الأيوبية . ذلك أن قيام نور الدين بتوحيد مصر والشام تحت حكمه ترتب عليه ازدياد نشاط التبادل التجاري بين الجانبين . حقيقة إن سيطرة الصليبيين على حصن الكرك والشوبك بالأردن ، مكنتهم في أول الأمر من اعتراض طريق

(١) المقرئى : المخطط ج ١ ص ١٠٢

(٢) ابن ممتى : قوانين الدواوين ص ٢٠٥

القوافل المتنقلة بين مصر والشام والحجاز ، ولكن نور الدين محمود ، ومن بعده صلاح الدين ، لم يسكتا عن ذلك التهديد حتى انتهى الأمر باستيلاء المسلمين على حصن الشوبك والكرك جميعا ، وتأمين طرق القوافل في تلك المنطقة الهامة التي تعتبر حلقة الوصل بين البلدان العربية .

وثمة ملاحظة أخرى هامة ، هي أن كثيرا من الناس يظنون أن الحرب كانت مستمرة ، وأن العداء ظل مستحكما بين المسلمين والصليبيين في الشام طوال عصر الحروب الصليبية . ولكن الحقيقة - كما سبق أن رأينا - أن الحروب الصليبية كانت تشتعل حينما وتخمدها نارها أحيانا . وفي الفترات التي كان يتوقف فيها القتال حدثت اتصالات حضارية ومعاملات اقتصادية على جانب خطير من الأهمية بين المسلمين والصليبيين . وقد ذكر ابن جبير في رحلته أنه « من أعجب ما يحدث به في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الأفرنج وسببهم يدخل إلى بلاد المسلمين ، ثم شرح ابن جبير كيف أنه غادر دمشق في قافلة إسلامية للتجار متجهة إلى مدينة عكا الصليبية ؛ حتى وصلت القافلة عكا عن طريق بانياس . فلما وصلت القافلة الإسلامية إلى عكا « وهي قاعدة مدن الأفرنج بالشام ، نزلت في خان معد خصيصا لنزول القوافل الإسلامية<sup>(١)</sup> .

ثم إنه من المعروف أيضا أن الحروب الصليبية أدت إلى ازدياد النشاط التجاري بين الشرق والغرب ، وأن القوى الإيطالية - مثل بيزا والبندقية وجنوا - رأت في تلك الحروب فرصة لتدعيم نشاطها التجاري مع البلدان العربية . لذلك ازدادت تجارة مصر الخارجية منذ العصر الأيوبي بالذات ، وقصد التجار الإيطاليون ثغرى دمياط والإسكندرية لشراء الكثير من حاصلات الشرق . وقد عبر صلاح الدين عن ذلك في إحدى رسائله فقال

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٧١ - ٢٧٦ (طبعة بيروت)

« ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبيازنة ( البياشقة ) والجنوية كل هؤلاء تارة يكونون غزاة لا تطاق ضراوة ضرهم ولا تطفأ شرارة شرهم ، وتارة يكونون سفارا يحتكمون على الإسلام في الاموال المجلوبة وتقتصر عنهم يد الحكام المرهوبة . وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده ، ويتقرب إلينا . بأهداء طرائف أعماله . . . » (١) .

ولم تفلح المراسيم التي أصدرتها البابوية لمنع التجار الأوربيين من التعامل التجاري مع المسلمين في الشرق الأدنى ، إذ أدى حرص المدن الإيطالية التجارية على مواصلة نشاطها التجاري إلى سعيها لتجديد المعاهدات الاقتصادية مع السلطان العادل بعد وفاة صلاح الدين . كذلك أدت سياسة التسامح التي اتبعتها العادل والسكامل إلى اتجاه كثير من التجار الأوربيين بسفنهم نحو شواطئ مصر . ولم تلبث الإسكندرية — بصفة خاصة — أن شهدت نشاطا تجاريا واسعا نتيجة الامتيازات التي منحها سلاطين الأيوبيين لتجار المدن الإيطالية ، حتى أن وجد بميناء الإسكندرية في شتاء سنة ١١٨٧ — ١١٨٨ م ( ٥٨٣ هـ ) سبع وثلاثون سفينة إيطالية تجارية ، وهذا عدد ضخم بالنسبة لفصل الشتاء بالذات (٢) .

أما عن التجارة الداخلية فكانت لا تقل نشاطا في العصر الأيوبي ، حتى أن الرحالة ابن جبير وصف مدن مصر في ذلك العصر — مثل منفوط وأبي تيج وغيرها — بأن « فيها الأسواق وسائر ما يحتاج إليه من المرافق » (٣) . وتشهد كتب الحسبة من ذلك العصر على مدى النشاط التجاري الداخلي في العصر الأيوبي ، وعلى ما كان هناك من إشراف دقيق على الأسواق والباعة (٤) .

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٤٣ ( طبعة النيل )

(٢) Heyd : Hist. du Commerce, Tome 2, pp. 391-399.

(٣) رحلة ابن جبير ص ٣٥

(٤) عبد الرحمن الشيزري : كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة

## الحياة الاجتماعية :

جاءت الدولة الأيوبية من الناحية الزمنية بين دولتين اتصفتا بالبذخ وامتازت الحياة الاجتماعية فيهما بالإمراف والمبالغة في إحياء الحفلات ، هما الدولة الفاطمية والدولة المماليكية . ولكن دولة الأيوبيين أحاطت بنشأتها ظروف غير الظروف التي أحاطت بالدولة السابقة لها أو الدولة اللاحقة بها ، إذ ولدت الدولة الأيوبية في وقت كان الصليبيون بالشام أشد ما يكونون قوة وعنفاً ، حتى هدد خطرهم بابتلاع البلدان العربية ليس في الشام فحسب ، بل أيضاً في مصر والحجاز . لذلك لم تكن هناك فرصة أمام الأيوبيين ليحيوا حياة اجتماعية مترفة ، إذ غلبت فكرة الحرب على السلاطين ، وتغلبت عقيدة الجهاد على أحاسيس الناس ومشاعرهم ، مما لم يترك مجالاً للتوسع في الاحتفالات وحياة الترف . وإذا توافر الوقت أحياناً في العصر الأيوبي لحياة الترف ، فإن المال لم يتوافر عندئذ لأن حراسة القوافل وتحصين المدن والقلاع وإعداد الجيوش وبناء السفن والأساطيل وصناعة العدد والآلات الحربية ، كل ذلك كان كفيلاً بأن يستنفذ كل درهم في خزائنة سلاطين بني أيوب . وحسبنا أن أول ما فكر فيه المعز لدين الله الفاطمي عند وصوله إلى مصر كان تعمير القاهرة والعناية بأسواقها ومنشآتها ، ورعاية الحفلات الدينية والمبالغة في إحيائها ، في حين كان أول ما اهتم به صلاح الدين الأيوبي في الدور الأول من أدوار سلطته هو بناء قلعة الجبل وبناء سور القاهرة ، وتحصين الثغور .

وقد وصف ابن شداد صلاح الدين الأيوبي وصفاً يصور روح العصر فقال عنه أن دحيه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيماً ، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ، ولا نظر إلا في آله ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه . لقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسائر بلاده ،

وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة . .

ويبيننا نقرأ عن خلفاء الفاطميين وعن سلاطين المماليك أن كلا منهم مات وترك في خزائنه أكوام المال وعديد التحف ، إذا بكتب التاريخ المعاصرة تروى أن صلاح الدين مات ولم يترك في خزائنه سوى سبعة وأربعين درهما من الفضة وجراما واحداً من الذهب . . لقد استنفذ الجهاد كل دينار في خزائنه<sup>(١)</sup> .

وليس معنى ذلك أن الحياة الاجتماعية في مصر على زمن الأيوبيين صارت مجدبة كل الجذب ، خشنة كل الخشونة ، إذ أن الأيوبيين — بوصفهم مسلمين — حافظوا على إحياء الأعياد الدينية ، بل وغير الدينية ، ولكن في غير إسراف وبدون تهتك .

فالمقريزي عندما يشير إلى بعض الاحتفالات في العصر الأيوبي لا يتعرض لألوان الإباحية والمنكرات التي انتقدتها في مرارة عند كلامه عن الاحتفالات في العصرين الفاطمي والمماليكي<sup>(٢)</sup> . ذلك أن الأيوبيين اقتصدوا في الحفلات وألغوا بعض ما ارتبط منها بأعياد الشيعة ، في حين حوروا البعض الآخر بما يتفق وتحول البلاد من المذهب الشيعي إلى المذهب السني . من ذلك مثلاً أن عاشر المحرم — وهو يوم عاشوراء — كان يوم حزن عند الفاطميين تغلق فيه الأسواق ، فجعله الأيوبيون يوم فرح يوسعون فيه على عيالهم ويصنعون فيه الحلوى ويطبخون الحبوب<sup>(٣)</sup> . وهكذا شهدت مصر في العصر الأيوبي اهتماماً باحياء الأعياد والحفلات ، ولكن مع مراعاة الاقتصاد ، فنسمع عن الأسطة السلطانية في العصر الأيوبي ونسمع

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الناصر صلاح الدين ، ص ٢٨٥ وما بعدها

(٢) المقريزي : السلوك ج ١ ص ١٣٦ ، ج ٤ ص ٩٦٣

(٣) عبد العلي حمزة : الحركة الفكرية في مصر ص ٥٩

أن أول من ركب بشعار السلطنة في مصر كان السلطان صلاح الدين الأيوبي ، ولكننا لا نسمع عن الإسراف والمبالغة اللتين اتصفت بهما الحفلات والمواكب الفاطمية والمماليكية .

ومع ذلك فإننا نقرأ عن بعض خلفاء صلاح الدين أنهم أسرفوا أحياناً في إقامة بعض الأسمطة وإحياء بعض الحفلات . ومن ذلك ما اشتهر به السلطان العزيز عثمان من مد الأسمطة الكبرى لأعيان دولته وموظفيها بين حين وآخر<sup>(١)</sup> . أما السلطان الكامل فقد أقام سماطاً سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧م) بمناسبة ختان ابنه العادل الصغير ، وانفق في ذلك السماط أموالاً باهظة<sup>(٢)</sup> . وتكرر ذلك في عهد السلطان العادل الصغير الذي أقام سماطاً في الميدان الأسود تحت القلعة ، ذبح لأجله ألف رأس من الغنم فضلاً عن البقر والجاموس والإبل والحيل<sup>(٣)</sup> . ولكن هذا الإسراف لم يكن الطابع الغالب على الدولة الأيوبية ، وبخاصة الشطر الأول من تاريخها .

ويفهم مما ذكره عبد اللطيف البغدادي — الذي زار القاهرة في العصر الأيوبي — أن المجتمع بلغ درجة كبيرة من الرقي في ذلك العصر ، فوصف البغدادي حمامات القاهرة ، وقال أنه لم يشاهد في البلاد التي زارها أتقن منها صنعة وإحكاماً ، لما امتازت به من أرض مكسوة بالرخام الجميل ، وأحواض واسعة يجرى فيها الماء الساخن والبارد ، ومقاصير بأبواب للمستحمين<sup>(٤)</sup> .

كذلك أفاض ابن جبير في وصف عناية السلطان صلاح الدين بالأغراب الذين يقدون إلى الاسكندرية وغيرها من مدن مصر لطلب العلم ، فأمر

(١) المقرئزي : السلوك ، ج ١ ص ٤٧

(٢) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ ورقة ٢٩

(٣) المرجع السابق ورقة ٦٣ ، المقرئزي : السلوك ج ١ ص ٢٨٩ — ٢٩٠

(٤) البغدادي : كتاب الإفادة والاعتبار ص ٢١٣



السلطان «بتعيين حمايات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك ، ونصب لهم  
مارستانا لعلاج من مرض منهم ، ووكّل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم ...» .

أما أبناء السبيل من المغاربة فكانت تصرف لهم جرايات من الخبز  
وغيره أثناء مرورهم بمصر في طريقهم إلى الحج<sup>(١)</sup> .

ولم تكن مدن الصعيد أقل رقياً في مستواها عن مدن الوجه البحري  
والقاهرة، إذ ذكر ابن جبير عن بعض مدن الصعيد — مثل قنا وقفت —  
أنها كانت ممتازة «حسناً ونظافة بنيان واتقان وصنع» . كذلك امتدح  
ابن جبير تحشم نساء الصعيد «وصون نساء أهلها والتزامهن البيوت ، فلا تظهر  
في زقاق من أزقتها المرأة البتة»<sup>(٢)</sup> .

### الإدارة ونظم الحكم :

صار صلاح الدين بعد زوال الخلافة الفاطمية و وفاة نورالدين هو سيد  
البلاد وحاكمها الأوحده .

ومن الثابت تاريخياً أن صلاح الدين لم يتخذ لقب «سلطان» رسمياً ، وإن  
كان بعض المؤرخين قد أضفوا عليه هذا اللقب الذي تمسك به خلفاؤه من  
الأيوبيين والمماليك الذين تعاقبوا في حكم مصر . ولما كان صلاح الدين  
كثير التغيب عن مصر بسبب اشتغاله بأمر الجهاد في الشام ، فإنه صار عليه  
أن يترك شخصاً يعتمد عليه في حكم مصر وإدارة شئونها أثناء غيابه . لذلك  
استحدث صلاح الدين وظيفة نائب السلطنة ، وهو الشخص الذي ينوب  
عن السلطان أثناء غيابه وقد استمرت هذه الوظيفة قائمة بعد ذلك في عصرى  
الأيوبيين والمماليك .

(١) رحلة ابن جبير ص ١٥ — ١٦

(٢) رحلة ابن جبير ص ٤٠

ومن الواضح أن إنشاء وظيفة نائب السلطان في العصر الأيوبي أضعف من أهمية الوزير . فالوزارة التي كان لها شأن كبير في العصر الفاطمي ، حتى أصبح للخلفاء الفاطميين نوعين من الوزارة ، وزارة تفويض ووزارة تنفيذ ، إذا بهذه الوظيفة تنحط في العصرين الأيوبي والمماليكي بعد أن استحوذ نائب السلطنة على ما كان للوزير من سلطات . وقد أصبح الوزير في العصر الأيوبي « وزير تنفيذ » لا غير . وإذا كان صلاح الدين قد اعتمد على وزيره القاضي الفاضل ووثق فيه وعمد إليه بكثير من الأمور ، فإننا نسمع أن بعض خلفاء صلاح الدين استغنوا أحياناً عن وظيفة الوزير . من ذلك أن السلطان العادل الأول أو السكبير استوزر الصاحب صفي الدين بن شكر ، ولكنه لم يلبث أن تغير عليه فأقاله من الوزارة وترك المنصب خالياً دون أن يعين فيه وزيراً حتى مات (١) .

وكذلك فعل السلطان الكامل بن العادل ، إذ أعاد ابن شكر إلى الوزارة فلما بغى ابن شكر « وأحدث حوادث كثيرة وحصل مالا جما » عزله الكامل وأحاط بجميع موجوده . . . ولم يستوزر بعد ابن شكر أحد ، (٢) .

وبالإضافة إلى وظيفة الوزارة وجدت وظائف أخرى سامية في الدولة الأيوبية ، بعضها يختص بالبلاط والبعض الآخر يختص بالدواوين . فمن وظائف البلاط وظيفة الحاجب الذي يقوم بإدخال الناس على السلطان ، ووظيفة الاستادار الذي ينظر في إدارة البيوت السلطانية ، ووظيفة الدوادار الذي يقوم بإبلاغ الرسائل ورفع القصص إلى السلطان والحصول على توقيعهم على المراسيم والمناشير السلطانية ، ووظيفة ناظر الخاص المكلف برعاية شئون السلطان المالية . . .

---

(١) المقرئى : المواعظ ج ٣ ص ٢٦٣

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٠٥ ، ٢٢٠

أما عن الدواوين والوظائف الإدارية فقد حدثنا عنها بأسهاب ابن عماتي  
المصرى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩م) وكان نصرانياً وأسلم ، وتولى نظارة  
الدواوين المصرية . وقد ألف كتاباً شهيراً اسمه قوانين الدواوين ، يتناول  
نظام حكومة مصر وقوانينها في عصر الدولة الأيوبية . ويفهم منه أنه كان  
بمصر عدد كبير من الدواوين مثل ديوان الإنشاء ، وديوان بيت المال ،  
و ديوان الجيش . ولكل ديوان من هذه الدواوين ناظر أى رئيس ، وميزانية  
خاصة ، وعدد من الموظفين يتبعون الناظر وينفذون أوامره . وكان ابن عماتي  
صاحب كتاب قوانين الدواوين ناظراً ل ديوان بيت المال فى أوائل العصر  
الأيوبى (١) .

هذا بالإضافة إلى عدد آخر من الوظائف بعضها ذو صبغة إدارية مثل  
والى القاهرة ، والبعض الآخر ذو صبغة دينية مثل قاضى القضاة والمحاسب .  
وجدير بالذكر أن صلاح الدين كان شافعى المذهب ، ولذا حرص على  
أن يكون قاضى القضاة شافعياً ؛ وظل الشافعية يتمتعون بذلك التكريم حتى  
أوائل دولة المماليك عندما عين السلطان الظاهر بيبرس قاضياً للقضاة من  
كل مذهب فأصبح عددهم أربعة يمثلون المذاهب السنية الأربعة .

#### المالية العامة :

أدى انتقال النظم المالية فى الدولة الأيوبية من الإقتصاد النقدى إلى  
الإقتصاد الإقطاعى إلى ضعف ثم زوال ديوان المال ، ليحل محله ديوان  
جديد اختص بالنظر فى جميع شئون المالية من إيرادات ومصروفات ، لذا  
سمى ديوان النظر (٢) .

(١) ابن عماتي : قوانين الدواوين — القاهرة ١٩٤٣

(٢) حسنين محمد ربيع : النظم المالية فى مصر ، ص ٤٠

أما عن الإيرادات فقد تنوعت مواردها ، ومعظمها كان قديماً وجده صلاح الدين الأيوبي بمصر ، فأبقاه على حاله . ومن الواضح أن المورد الأول لإيرادات الدولة الأيوبية كان الإقطاع الحربي ، وهذا يرتبط بالخراج لأنه كان على المزارع أن يدفع الضريبة السنوية المفروضة على الأرض التي يقوم بفلاحتها ، ليقوم المقطع باستقطاع النسبة المطلوب منه دفعها لخزينة الدولة . وقد أدخل صلاح الدين ما يسمى بالبدل في جميع الخراج ، بمعنى أن يؤدي الخراج عينا فيدفع الفلاح كميات من الشعير أو الفول أو الحمص بدلا من القمح مثلا ، وحددت نسبة البدل بحيث يؤدي المزارع أردبين شعير بدلا من أردب واحد قمح أو يؤدي أردب ونصف فول بدلا من أردب القمح وهكذا<sup>(١)</sup> . وارتبط بالمال الخراجي أيضاً الخراج والمعادن . أما الخراج فيقصد به أشجار السنط التي وجدت بكثرة في بعض أنحاء البلاد مثل الهندسا والأشموين وأخميم وقوص ، وكانت هذه الغابات تعتبر ملكا للسلطان ويدفع أهالي تلك الجهات رسوماً مقابل انتفاعهم بأخشابها<sup>(٢)</sup> . وأما المعادن فأهمها الذهب والزمرد والنظرون والشب وقد احتكرها السلطان فلا تباع إلا في المتجر السلطاني بالاسكندرية ولا يجوز لأحد الرعايا المتاجرة فيها<sup>(٣)</sup> .

وبالإضافة إلى الخراج وجدت ضرائب أخرى عديدة غدت إيرادات الدولة ، منها الجوالي وهي الضريبة المفروضة على أهل الذمة — أي اليهود والنصارى القادرين على حمل السلاح . وقد بلغ المتحصل من هذه الضريبة سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) مائة وثلاثين ألف دينار<sup>(٤)</sup> . ومنها أموال المواريث الحشرية وهم الذين يموتون دون وريث ، ومنها متحصلات ديوان الأحباس

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٥٤ — ٤٥٥

(٢) النابلسي : لمع القوانين المصفيه في دواوين الديار المصرية ، ص ٤٨

(٣) ابن بياتي : قوانين الدواوين ، ٨١ ، ٣٢٨ ، ٣٣٤

(٤) المقرئزي : المواظب ج ١ ص ١٧

الخاصة والعامّة أى الأوقاف، وهى على أنواع كثيرة مثل الدور والحوانيت والطواحين والأراضى التى وقفها المسلمون فى عصور سابقة . ومنها الأموال الهلالية وهى الإيجارات الشهرية المتحصلة من الجهات السكنية الخاصة بالسلطين الأيوبيين ومن قبلهم من خلفاء الفاطميين ، ومنها متحصل دار الضرب وهى الرسوم التى تجبها الدولة من أصحاب الأموال الذين يرغبون سك مالديهم من ذهب أو فضة فى صورة عملة رسمية<sup>(١)</sup> . هذا كله بالإضافة إلى المكوس وهى الضرائب التجارية . ذلك أن صلاح الدين ألغى معظم المكوس الفاطمية سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م) وكان لا يزال نائباً عن نور الدين فى مصر ، وبلغ عددها ٨٨ مكسا جملة حصيلتها مائة ألف دينار فى السنة . ثم أعاد صلاح الدين بعضها مثل مكس تجار السكر وهى الضريبة المفروضة على التوابل الواردة إلى البلاد ، ومكس الخمس وهى الضريبة المفروضة على ما يجلبه التجار الأوربيون والمسيحيون من بضائع . . .

أما أبواب المصروفات فكانت عديدة ، تشهد عليها أسماء بعض الدواوين التى اختلفت بالمصروفات . ومن هذه الدواوين ديوان الخصاص السلطانى ، ويقوم بالإنفاق على شئون الدور السلطانية ، بعد جمع الإيرادات الخاصة بالسلطان ، ومن هذا الديوان كان ينفق على المطبخ السلطانى والأسمطة والخيول السلطانية والمواكب السلطانية فى الأعياد وغيرها ، فضلاً عن الهدايا والمنح والهبات التى كانت تخرج باسم السلطان . أما ديوان الجيش فكان مركز توزيع الاقطاعات ، ومنه يتم الإنفاق على الجند وشئون التعبئة والأسلحة والمؤن والحاميات والحصون والتحصينات والمواقع والمدن العسكرية - مثل العادلية والمنصورية والصالحية - أما ديوان الأسطول فكان ينفق على دور الصناعة ، وكذلك قام ديوان الأحباس بالإنفاق على المؤسسات الخيرية كالتكاثرات والمؤسسات والمدارس ونحوها<sup>(٢)</sup> .

(١) ابن ممتى : قوانين الدواوين ص ٣٣٢ - ٣٣٣

(٢) حسنين محمد ربيع : النظم المالية ص ٥٨ وما بعدها

وقد واجهت البلاد في بداية الدولة الأيوبية ضائقة مالية بسبب هروب الذهب منها نتيجة لعدم استقرار الأوضاع في أواخر العصر الفاطمي . ولكن صلاح الدين واجه الموقف في حزم بسك عملة ذهبية جديدة كاملة العيار حازت ثقة المتعاملين<sup>(١)</sup> على أنه يبدو أن أعباء الحرب الطويلة التي شنها صلاح الدين ضد الصليبيين أُلجأته سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٨ م) إلى ضرب درهم نصفه من الفضة ونصفه من النحاس، فضاق الناس بهذه الدراهم الرديئة؛ مما جعل السلطان الكامل يصدر فلوساً نحاسية . وبالجملة فقد ظلت أحوال النقود مضطربة أيام الأيوبيين مما أثر تأثيراً سيئاً في النشاط الاقتصادي داخل البلاد<sup>(٢)</sup> .

### الجيش والبحرية :

سبق أن أشرنا إلى أن الدولة الأيوبية جاءت وليدة أحداث الحروب الصليبية ، وثمره مشروع الجبهة الإسلامية المتحدة . وكانت الدولة الأيوبية هي التي عاصرت أشد مراحل الحروب الصليبية ضراوة وعنفاً ، لذلك من الطبيعي أن يكون الاهتمام بالجيش في أيام تلك الدولة فائقاً لأنه الأداة الكبرى للجهاد . وقد أقيم سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) — أي في الوقت الذي كان صلاح الدين نائباً في مصر عن سيده نور الدين محمود — عرضاً عسكرياً في القاهرة شهده رسل البيزنطيين والصليبيين ، فحضر ذلك العرض ١٤ ألف فارس كل منهم مزود بمتاعه من الخيل ونحوها ، واصل منهم غلام يحمل سلاح الحرب ، هذا عدا الجنود المشاه والعربان الملاحقين بالجيش<sup>(٣)</sup> . ولما كان الفارس الواحد من الطواشية يتقاضى مرتباً يتراوح بين ٧٠٠ ،

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٥ .

(٢)

De Bolland: Evolution Monetaire de l'Egypte Medievale, p. 450.

(٣) المقرئى : المواعظ والاعتبار، ج ١ ص ٧٦ .

١٢٠٠ دينار ، فإن معنى هذا أن الاحتفاظ بذلك الجيش من شأنه أن يتقل كاهل صلاح الدين. لذلك لجأ صلاح الدين إلى تعميم نظام الإقطاع الحربي، بمعنى أن ينهض أمراء الأجناد بما يوزع عليهم من أقطاعات بالإنفاق على كتابهم التي تدخل ضمن الجيش العام زمن الحرب .

ويبدو أن صلاح الدين أعاد تنظيم الجيش الأيوبي عدة مرات ، ففي سنة ٥٧٧ هـ ( ١١٨١ م ) بلغت عدة الجيش الأيوبي في مصر ٨٢٤٠ فارساً منهم ١١١ أميراً و ٦٩٧٦ فارساً من الطواشية و ١١٥٣ قر اغلامية أي جندياً عادياً . ووصلت النفقة على هؤلاء ٦٠٠.٣٦٧٠ دينار<sup>(١)</sup> . على أن الجيش الأيوبي لم يظل على حال واحد من الكثرة العددية والنفقات طوال العصر الأيوبي ، فانخفض ذلك كله بعد انتهاء مرحلة الجهاد الصلاحي ضد الصليبيين وعقد صلاح الرملة ٥٨٧ هـ ( ١١٩١ م ) ، ثم ازداد الجيش وارتفعت نفقاته أيام السلطان الكامل عندما هددت مصر الحملة الصليبية الخامسة .

وبالإضافة إلى الجيش الدائم ، ضم جيش صلاح الدين فرقاً مساعدة من التركان والأكراد والعرب ، وهؤلاء كانوا بمثابة جنود غير نظاميين ، يعملون مقابل ما يتقاضونه من أجور ، وإن كانوا لم يقلوا - في حالات كثيرة - عن الجنود النظاميين حماسة ورغبة في الجهاد<sup>(٢)</sup> .

أما عن تنظيم الجيش فكان ينقسم إلى أطلاب ، كل طلب يتكون من عدد يتراوح بين ٧٠ ، ٢٠٠ جندياً . وعلى رأس كل طلب أمير (أى ضابط) وعند المسير إلى القتال توزع الأسلحة والزرود والنفقات على الجنود ، على أن يستحضر كل جندي ما يلزمه من كميات المؤن . ويذكر العماد الكاتب أنه عندما خرج مع السلطان صلاح الدين من مصر لمحاربة الصليبيين بالشام سنة

(١) المرجع السابق ، السلوك ، ج ١ ص ٧٥ .

(٢) وأبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٦

٥٧٣ هـ ( ١١٧٧ م ) نودي بأن يأخذ العساكر معهم مؤونة تكفيهم عشرة أيام ، حيث أنه كان من غير المتوقع أن يحصلوا على مؤون في أرض العدو . فأقيم لذلك سوق للعساكر ، وأقبل الجند على شراء ما يلزمهم بعد أن أعطاهم أمرؤهم رواتب الإقامات الإقطاعية المعتادة (١) .

هذا عن الجيش ، أما الأسطول المصرى ، فكان في حالة سيئة عند قيام الدولة الأيوبية ، بسبب الخلل الذى أصاب جميع أجهزة الدولة في أواخر العصر الفاطمى من ناحية ، فضلا عن فقدان جزيرتى قبرس وكريت ، وكانتا بمثابة القواعد الأمامية للأساطيل الإسلامية في شرق حوض البحر المتوسط وخاصة في حلبة الصراع بين المسلمين والروم . ثم كان وصول الصليبيين إلى الشام في أواخر القرن الحادى عشر للميلاد واستيلاؤهم على معظم الموانئ الكبرى في بلاد الشام، في وقت كانت وحدة النضال تجعل مصر والشام متممين لبعضهما البعض . وقد لمس صلاح الدين بنفسه في الدور الأول من حياته بمصر ، كيف أدى ضعف الأسطول المصرى إلى تمكين عمورى الأول ملك بيت المقدس من القيام بهجماتة الجريئة التى أوصلته إلى قلب البلاد ، في الوقت الذى اعتمد الصليبيون على القوى البحرية المسيحية في حوض البحر المتوسط — مثل الدولة البيزنطية والنورمان بصقلية — في طعن صلاح الدين في الدور الأول من تاريخه بمصر .

لذلك أخذ صلاح الدين يهتم بالأسطول اهتماما بالغاً ، فعهد إلى ديوان الأسطول بالإشراف والإنفاق عليه ، وخصص لذلك الديوان موارد هامة ، منها متحصلات إقليم الفيوم وإيراد ديوان الزكاة فضلا عن حصيلة النظرون (٢) . وقام ديوان الأسطول بالإنفاق على المشتغلين بالأسطول ،

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٧١ .

(٢) حسنين محمد ربيع : النظم المالية ، ص ٧١ .



فضلا عن النفقة على دور الصناعة - حيث كانت تصنع السفن ، وهي ثلاث في مصر والاسكندرية ودمياط<sup>(١)</sup> .

وبفضل هذه الإمكانيات ، غدا الأسطول الصلاحي منذ سنة ٥٧٥ هـ (١١٧٩ م) قوة ضاربة قوامها ثمانون قطعة ، منها ستون من الشواني وهي المراكب الضخمة المزودة بالأبراج والقلاع التي تحمل الواحدة منها ١٥٠ رجلا وتصلح في حالات الهجوم والدفاع<sup>(٢)</sup> ، وعشرون طراة وهي سفن سريعة الحركة تحمل الخيل ، ومنفعة المسلمين بها أشهر من أن تذكر<sup>(٣)</sup> ، وقسم صلاح الدين هذا الأسطول إلى قسمين ، الأول يتألف من ثلاثين سفينة مهمتها حماية شواطئ مصر والدفاع عنها ، والثاني يتألف من ثلاثين سفينة مهمتها مهاجمة الصليبيين وموانئهم بالشام<sup>(٤)</sup> .

ولم يلبث أن قام هذا الأسطول بهجومه على أتم وجهه ، فأقلق بال الصليبيين بالشام ، وهاجم موانئهم الكبرى مثل عكا ، وقطع الطريق على السفن التي تحمل لهم الإمدادات من الغرب . وعندما أقدم أرناط صاحب حصن الكرك الصليبي على إنزال أسطول في البحر الأحمر - قرب أيله - سنة ٥٧٨ هـ (١١٧٠ م) وشرع في مهاجمة الموانئ المصرية - مثل عيذاب - في طريقه لغزو الحجاز ، أصدر صلاح الدين أوامره إلى أخيه العادل بمصر فأعد أسطولا قويا في البحر الأحمر . وكانت السفن تصنع في دار الصناعة بمصر وتحمل أجزاءها مفككة على ظهور الجمال إلى شاطئ البحر الأحمر حيث يتم تجميعها وتركيبها . وخرج ذلك الأسطول تحت قيادة الحاجب حسام

(١) ابن ممتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠ .

(٢) سعاد ماهر : البحرية في مصر الإسلامية ص ٣٥٢ .

(٣) ابن ممتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٣٩ .

(٤) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٣ ، أبو نامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٢ .

الدين لؤاؤ — متولى الأسطول بديار مصر عندئذ — و فظفر بمراكب الفرنج فخرقها وأسر من فيها،<sup>(١)</sup> وهكذا أثبت الأسطول المصرى وجوده فى البحرين المتوسط والأحمر. وازداد دور هذا الأسطول بروزا فى الأحداث التى أعقبت موقعة حطين سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ)، إذ قام الأسطول بدور فعال فى مساعدة صلاح الدين فى الإستيلاء على بعض الموانى المهمة بالشام مثل عكا.

على أنه يبدو أن مهمة خلفاء صلاح الدين فترت عن الإهتمام بالأسطول، فضعف شأنه وأثره. وفى ذلك يقول المقرئى « فلما مات السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إستمر الحال فى الأسطول قليلا ثم قل الإهتمام به، وصار لا ينكر فى أمره إلا عند الحاجة إليه، فإذا دعت الضرورة إلى تجهيزه طلب له الرجال وقبض عليهم من الطرقات، وقيدوا فى السلاسل نهاراً، وسجنوا فى الليل حتى لا يهربوا. ولا يصرف لهم إلا شئ قليل من الخبز ونحوه، وربما أقاموا الأيام بغير شئ كما يفعل بالأسرى من العدو، فصارت خدمة الأسطول عاراً يسب به الرجال، وإذا قيل لرجل فى مصر يا أسطولى غضب غضباً شديداً، بعدما كان خدام الأسطول يقال لهم المجاهدون فى سبيل الله والغزاة فى أعداء الله ويتبرك الناس بدعائهم<sup>(٢)</sup> ».

ولم يكن ذلك إلا فى أواخر الدولة الأيوبية بعد أن دهمت مصر حملتان صليبيتان — الحملة الخامسة سنة ١٢١٩ م (٦١٦ هـ) والحملة السابعة سنة ١٢٤٩ م (٦٤٦ هـ) عندما أدرك سلاطين بنى أيوب أهمية الأسطول فى حماية البلاد. وظهر ذلك فى الوصية الشهيرة التى كتبها الصالح نجم الدين أيوب لابنه تورانشاه التى جاء فيها « فالأسطول أحد جناحى الإسلام، فينبغى

(١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٨٨.

(٢) المقرئى: المواعظ ج ٢ ص ١٩٤.

أن يكونوا شباعا ، ورجال الأسطول إذا أطلق لهم كل شهر عشرين درهما مستمرة راتبه ، جاءوا من كل نبع عميق . . . ، (١) .

### الفنون :

واصل التطور الفني تقدمه في العصر الأيوبي ، على الرغم مما أحاط بتلك الدولة من ظروف حربية جمعاتها توجه طاقتها الكبرى نحو حماية الوطن الإسلامي في الشرق الأدنى من الخطر الصليبي . ففي فن العمارة ازدهر في العصر الأيوبي عنصران من عناصر العمارة الإسلامية ، أولهما المدارس التي شيدت لنشر المذهب السني ومحاربة المذهب الشيعي ؛ وثانيهما تطور بناء الأسوار والاستحكامات والقلاع بتأثير ما عرفه المسلمون عند الصليبيين بالشام (٢) .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن صلاح الدين عند بداية دولته في مصر كان يخشى خطرا داخليا من جانب شيعة الفاطميين وخطرا خارجيا من جانب الصليبيين . لذلك أمر صلاح الدين سنة ٥٧٢ هـ ( ١١٧٦ م ) ببناء سور يحيط بالقاهرة ومصر ( القطائع والعسكر والفسطاط ) . ويرجع الفضل إلى البحاث علي بك بهجت في الكشف عن جزء من هذا السور ، ثم واصل التنقيب بعده الأستاذ حسن الهواري حتى تم كشف جزء من السور يبلغ طوله ٨٤١٠٣٠ مترا . وقد أشرف على بناء هذا السور أبو سعيد قراقوش عبد الله الأسدي الملقب بهاء الدين - وهو مشيد القلعة أيضا - وكان هذا السور هو ثالث الأسوار التي أحاطت بالقاهرة إلى عهد صلاح الدين ، وقد بنى الأول جوهر الصقلي وبنى الثاني بدر الجمالي . وكان هذان السوران من الأسوار التي بنى من اللبن ، في حين كان السور الثالث الذي بناه صلاح الدين من الحجارة (٣)

(١) النويري : نهاية الارب ج ٢٨ ورقة ٩٢

(٢) زكي محمد حسن : فنون الإسلام ص ٦٨ - ٦٩

(٣) عبد الرحمن زكي : قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة ، ص ٩٧ وما بعدها

أما قلعة الجبل فتقع على أحد المرتفعات المتصلة بجبل المقطم ، وهي تتألف من مساحتين من الأرض مستقلتين ، الشمالية تقترب من شكل المستطيل ولها أبراج بارزة ، ويفصلها عن الجنوبية جدار سميك ذو أبراج ، وفي وسط الجدار باب القلعة الذي يعرف الآن باسم الباب الجواني . والجزء الشمالي من القلعة كان الحصن نفسه ، أما الجزء الجنوبي فكان يضم الملحقات والقصور السلطانية وما يتبعها من اسطبلات وغيرها . ويغلب على الظن أن الجزء الشمالي تم تشييده على أيام صلاح الدين نفسه ، في حين أن الجزء الجنوبي الذي يشمل الملحقات تم على عهد السلطان الكامل الأيوبي<sup>(١)</sup> . وقد سار العمل في بناء قلعة الجبل بهمة كبيرة تشهد على مهارة قراقوش وحزمه ، وجلبت أحجار البناء من منطقة أهرام الجيزة . ويقال إنه عمل في القلعة والسور آلاف من أسرى الصليبيين . وفي الجهة الجنوبية من القلعة نحت قراقوش بئرا في الصخر أطلق عليه اسم بئر يوسف ، نسبة إلى صلاح الدين يوسف وعرف هذا البئر باسم الخبزون ، ويتألف من طابقين عمق الأول خمسين متراً والآخر أربعين ، واسكل طابق منها ساقية لرفع المياه بواسطة الدواب . وقيل أن ماء البئر كان عذبا في أول الأمر حتى أراد قراقوش توسيعها فاتصلت بعين مالحة أنسدت ماء البئر ، الأمر الذي جعل القلعة بعد ذلك تعتمد على النيل في إمدادها بالماء<sup>(٢)</sup> .

وثمة قلاع أخرى بناها صلاح الدين في مختلف أنحاء البلاد ، أهمها قلعة سيناء قرب عين صدر وقلعة فرعون في جزيرة فرعون في خليج العقبة والغرض منهما منع الخطر الصابي من الإمتداد إلى البحر الأحمر ، وخاصة بعد أن قام أرناط صاحب الكرك بحملته الشهيرة التي استهدفت الحجاز سنة ١١٨٢ م (٥٧٨ هـ) .

(١) نغدير حسان سمداري : التاريخ الحربى المصرى ص ١٠١ — ١٠٢

(٢) القلعة شندى : صبيح الاعشى ج ٣ ص ٣٣٠ — ٣٣٢

هذا عن العماير الحربية في العصر الأيوبي ، أما عن العماير المدنية ، فأم ما بقي منها اليوم قبة الإمام الشافعي التي أنشأها سنة ٦٠٨ هـ ( ١٢١١ م ) السلطان الكامل ، وتمتاز بما فيها من نقوش وزخارف ، مع ملاحظة أن كثيرا من الأمراء قام بتجديدها في العصور التالية . ومن مدارس العصر الأيوبي توجد المدرسة الصالحية التي أنشأها الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٠ هـ ( ١٢٤٢ م ) وقد تعرضت للخراب على مر العصور ، فلم يبق منها اليوم إلا مدخلها وواجهة غنية بالنقوش والكتابات التاريخية<sup>(١)</sup> .

أما عن فن الجفر ، فقد احتفظ الحفر على الخشب في العصر الأيوبي بالأساليب الفنية التي كانت متبعة في العصر الفاطمي ، غير أن الزخارف النباتية أصبحت أكثر إتقانا ، كما حل خط النسخ محل الخط الكوفي . ومن بدائع أمثلة الحفر على الخشب الأيوبي تابوت الأميرة العادلة بضح الإمام الشافعي ، في حين أن تابوت هذا الإمام نفسه يعتبر أعظم المنتجات الخشبية في العصر الأيوبي<sup>(٢)</sup> . ويتألف غطاء التابوت وجوانبه من حشوات ذات زخارف نباتية دقيقة مجمعة في أطباق نجمية وأشكال مسدسة . والتابوت غني بالنقوش المكتوبة بخط النسخ والخط الكوفي ، منها نقش باسم النجار الذي صنعه وهو عبيد النجار المعروف بابن معالي ، وتاريخ صناعته وهو سنة ٥٧٤ هـ ( ١١٧٨ م ) . ومن أعظم التحف الخشبية كذلك التابوت الذي نقل من المشهد الحسيني بالقاهرة إلى دار الآثار العربية ، وهو مصنوع من خشب الساج الهندي وتنقسم جوانبه إلى مناطق مستطيلة تحبسها إطارات عليها كتابات بخط النسخ الأيوبي وبالخط الكوفي . وجميع هذه الكتابات عبارة عن آيات من

(١) زكي محمد حسن : فنون الإسلام ؛ ش ٧٠

(٢) ديمانند : العنون الإسلامية ، ص ١٢٢

القرآن الكريم . وكذلك يوجد في دار الآثار العربية ثلاثة جوانب من تابوت خشبي جميل خاص بالأمير حصن بن ثعلب المتوفى سنة ٦١٣ هـ (١٢١٦ م) في حين أن الجانب الرابع من هذا التابوت محفوظ بمتحف فكتوريا وألبرت بلندن (١) .

أما النحت في الحجر والجص فقد ظلت الأساليب الفاطمية فيه سائدة في العصر الأيوبي . ومن أبداع أمثلة الحفر في الجص في العصر الأيوبي الجزء الأسفل من المنارة الأيوبية فوق الباب الأخضر بالمشهد الحسيني بالقاهرة (٢) أما النحت في الحجر فمن أمثلته في العصر الأيوبي واجهة تربة أبي منصور اسماعيل ، وفيها كتابة بالنسخ على أرضية نباتية وإفريز من زخارف هندسية ونباتية .

أما الحفر على العاج زمن الأيوبيين ، فقد ظلت متبعة فيه أساليب الفاطميين ، وإن كانت الزخرفة اقتصرت على الأشكال النباتية والهندسية . ولم تصلنا أمثلة كثيرة من تحف عاجية ترجع إلى ذلك العصر .

وأما عن صناعة الخزف فقد أخذت تضمحل في مصر منذ نهاية القرن السادس الهجري ، وإن كانت قد ازدهرت بعد ذلك في الشام في القرنين التاليين . وقد جرى الخرافون المصريون والسوريون في العصر الأيوبي على استخدام الأشكال الزخرفية والأساليب الفنية التي عرفها العصر الفاطمي ، ويتضح ذلك في الأواني المدهونة بطلاء واحد تقليدا للخزف الصيني . هذا في حين أخذ يختفي الخزف ذي البريق المعدني من مصر (٣) .

---

(١) زكي محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية ص ١٢٣ — ١٢٥ ، فنون الإسلام ص ٤٦٤ .

(٢) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الاثرية ج ١ ص ٨٥

(٣) ديمانند : الفنون الإسلامية ص ٢١٨

وعلى العكس ازدهرت صناعة الزجاج في العصر الأيوبي ، حتى أن الباحثين يتخذون نهاية القرن الثاني عشر للميلاد بداية العصر الذهبي لهذه الصناعة في العالم الإسلامي . وبلغت هذه الصناعة أجل صورها في تزيين التحف بالزخارف المذهبة والمموهة بالمينا . هذا مع ملاحظة أن فضل التقدم بهذه الصناعة في ذلك العصر إنما يرجع إلى الصناع السوريين - وخاصة في حلب ودمشق - وإن كانت مصر قد ساهمت بنصيب وافر في إنتاج الزجاج المطلي ، مثلما ساهمت العراق وإيران<sup>(١)</sup> .

أما عن التحف المعدنية ، فالمعروف أن كثيراً من أرباب هذه الصناعة هاجروا من الموصل إلى مصر والشام في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) . وقد اشتغل هؤلاء الفنانون للأمراء الأيوبيين في دمشق وحلب والقاهرة ، ونقلوا معهم الأساليب الفنية ، التي ألفوها في بلاد الجزيرة<sup>(٢)</sup> . ومن القطع المعدنية التي ترجع إلى الأيوبيين بعض أواني ذات موضوعات زخرفية مسيحية تحمل أسماء بعض سلاطين بني أيوب ، الأمر الذي يرجع إلى تسامح هؤلاء السلاطين . ويوجد في متحف اللوفر إناءان من النحاس المكفت بالفضة قوام زخرفتهما رسوم آدمية وحيوانية ونباتية ، وعليهما كتابة تحمل اسم السلطان الملك الناصر يوسف .

أما في المنسوجات فقد ورث العصر الأيوبي عن العصر الفاطمي أساليب صناعة الأقمشة ذات الزخارف المنسوجة ، وإن كانت أقمشة العصر الأيوبي أكثر بساطة من أقمشة العصر الفاطمي . كذلك يلاحظ أن نسيج الكتان أخذ يضمحل منذ عصر الأيوبيين لئزداد العناية بنسيج الحرير ،

(١) المرجع السابق ص ٢٣٨

(٢) زكي محمد حسن : فنون الإسلام ص ٥٤٩ - ٥٥٠

وهناك مجموعة مطرزة بألوان متعددة ومصنوعة بخرزة متتابعة وعليها  
كنايات نسخية وكوفية ، ويمكن إرجاع هذه المجموعة إلى القرن  
الثاني عشر للميلاد<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

وبعد ، فإنه يتضح من العرض السريع السابق أن عجلة الفن لم تتوقف  
في عصر الأيوبيين ، وأن صليل السيوف في ذلك العصر لم يوقف تيار التقدم  
الحضارى . وفي الوقت الذي كان بنو أيوب يخوضون أضخم معركة  
للجهاد دخلها المسلمون منذ قيام دولتهم الكبرى في القرن السابع الميلاد ،  
إذا بالمدارس تفتح ، والمسكتبات تنشأ ، والحصون والقلاع تبنى ، والصناعات  
والحرف والفنون تواصل تقدمها في إقامة أعظم بناء حضارى شهده  
العصور الوسطى ، وهو بناء الحضارة الإسلامية .

---

(١) ديمانند : الفنون الإسلامية ، ص ٣٥٧



## الباب الثاني

### دولة المماليك

### الفصل الاول

#### قيام دولة المماليك البحرية

رأينا في الباب السابق كيف انقسمت الدولة الايوبية على نفسها عقب وفاة صلاح الدين الايوبي سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) فصارت مصر ودمشق وحاب والسكر وبصرى وبعابك وحمص وحمّاه . . . وغيرها ، مراکز لامارات يحكمها بعض أبناء البيت الايوبي الذين تناقبوا بالملوك . كذلك رأينا كيف دب الشقاق بين ملوك بني أيوب ، وأدى النزاع إلى قيام حروب فيما بينهم وبين بعض ؛ فضلا عن المنازعات التي ظلت قائمة بين ملوك بني أيوب من ناحية وأبناء البيوت القديمة التي ظلت تحكم أجزاء من الوطن الإسلامي في الشرق الأدنى من ناحية أخرى ، مثل أبناء البيت الزنكي في الموصل وسنجار وكيفا وآمد وخرتبرت ، فضلا عن بني سكيان في خلاط<sup>(١)</sup>

وفي وسط تلك الفوضى الضاربة التي عمت العلاقات بين حكام المسلمين في الشرق الأدنى - وخاصة في مصر والشام - حرص كل حاكم أو ملك على تسكين عصبية لنفسه يعتمد عليها في الاحتفاظ بإمارته أو في صد عدوان جيرانه . ولم يجد أمراء المسلمين في ذلك العصر - سواء كانوا أيوبيين أو غير

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام : ص ٣ .

أيوبيين - وسيلة لتحقيق هدفهم إلا عن طريق الإكثار من شراء المماليك - أو الرقيق الأبيض - فاشترى منهم أعداداً كبيرة وعينوا بتدريبهم وتنشأتهم ليكونوا لهم عدة وسنداً . وهكذا شهدت السنوات الأخيرة من القرن السادس الهجرى والنصف الأول من القرن السابع ( القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد ) إزدياد نفوذ المماليك فى مختلف الإمارات والدول الإسلامية فى الشرق الأدنى ، ومنها مصر . وسرعان ما غدا لاولئك المماليك كلمة مسموعة فى الاحداث والخلافات التى تعرضت لها المنطقة مما يدل على ازدياد سطوتهم . من ذلك ما ترويه المراجع من أنه عندما توفى الملك العزيز عثمان سلطان مصر سنة ١١٩٨ م ( ٥٥٩٥ هـ ) وتطلع العادل أخو صلاح الدين للإستيلاء على مصر ، خشى المماليك الأسدية والصالحية فى مصر سطوة العادل ، فتدخلوا فوراً ، واستدعوا الملك الافضل من حوران وسلبوه مقاليد الامور فى مصر فى يناير سنة ١١٩٩ م ( ٥٥٩٥ هـ )<sup>(١)</sup> .

ومرة أخرى نسمع أن المماليك هم الذين دبروا مؤامرة لعزل العادل الثانى وإحلال الصالح نجم الدين أيوب محله فى السلطنة سنة ١٢٣٩ م ( ٦٣٧ هـ )<sup>(٢)</sup> .

والواقع إن السلطان الصالح نجم الدين أيوب هو صاحب الفضل فى تكوين فرقة جديدة من المماليك قدر لها أن تنهض بدور خطير فى التاريخ ، هى فرقة المماليك البحرية . ويبدو أن الصالح نجم الدين أيوب أحس بفضل المماليك عليه فى الوصول إلى دست السلطنة من ناحية ، كما أحس بحاجته إلى جيش قوى من المماليك يساعده ، بعد أن لمس غدر الطوائف الأخرى من الجند المرتزقة من ناحية أخرى ؛ فدفعه كل ذلك إلى تكوين تلك الفرقة

---

(١) المقرئى : السلوك ح ١ ص ١٤٦ - ١٤٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٩٥ .

الجديدة . وفي ذلك يقول ابن ابيك عن الصالح نجم الدين أيوب أنه اشترى من المماليك الترك ما لم يشتر أحد من المماليك مثله من قبله حتى عاد أكثر جيشه بماليك ، وذلك لكثرة ما جرب من غدر الأكراد والخوارزمية وغيرهم من الجيوش ، (١) .

أما عن السبب في تسمية هذه الفرقة بالبحرية فالمرجح أن ذلك يرجع إلى اختيار الصالح نجم الدين أيوب جزيرة الروضة في بحر النيل مركزاً لهم . وكان معظم هؤلاء المماليك من الأتراك ، مجلوبين من بلاد القفجاق — شمالى البحر الأسود — ومن بلاد القوقاز قرب بحر قزوين . وقد أجمع المؤرخون على أن الأتراك القفجاق امتازوا عن غيرهم من طوائف الترك بحسن الطلعة وجمال الشكل وقوة البأس ، فضلاً عن الشجاعة النادرة . وبفضل هذه الصفات من جهة ، والظروف الخارجية والداخلية التي أحاطت بمصر في أواخر العصر الأيوبي من جهة أخرى ، تمكن المماليك من الاستئثار بحكم مصر ، كما سنفصل فيما بعد . ولم يلبث أن توصل البحرية بالذات إلى السلطنة ، وظلوا يحكمون مصر نحو قرن وثلاث (٦٤٨ — ٥٧٨٤ = ١٢٥٠ - ١٣٨١ م) استطاعوا فيها مواجهة المشاكل العديدة التي واجهت المسلمين في مصر والشام عندئذ ، سواء كانت هذه المشاكل خارجية من جانب الصليبيين والمغول ، أو داخلية في صورة مؤامرات أو أزمات اقتصادية . وعندما دالت دولة المماليك البحرية حلت محلها دولة أخرى من المماليك أيضاً ، هم المماليك الجراكسة أو البرجية (٥٧٨٤ — ٥٩٢٢ = ١٣٨٢ — ١٥١٧ م) وبذلك تكون مصر قد استمرت تحت حكم سلاطين المماليك أكثر من قرنين ونصف قرن ، أي حتى غزا السلطان سليم العثماني البلاد .

وسنرى أنه طوال تلك المدة ، ظل المماليك يمثلون أرسقراطية حاكمة

(١) ابن ابيك: كنز الدرر وجامع الغرر ، ج ٧ ورقم ٣٠٠ .

بوصفهم الجهاز الحربى الذى استأثر بحكم البلاد والدفاع عنها . وإذا كان المماليك البحرية الأوائل معظمهم من الأتراك القفجاق ، فإنه ليس معنى ذلك أن جميع المماليك فى مصر والشام طوال ذلك العصر كانوا ينتمون إلى ذلك العصر وحده . ذلك أنه بدأت تصل إلى مصر منذ عهد بيبرس دفعات من المماليك من أصل مغولى ، وهؤلاء ارتقوا بسرعة فى وظائف الدولة حتى أن السلطان كتبغا نفسه ( ٦٩٤ - ٦٩٦ هـ = ١٢٩٤ - ١٢٩٦ م ) كان مغولى الأصل . وفى ضوء هذه الظاهرة يمكننا أن نفسر انتشار بعض العادات المغولية فى مصر على عصر سلاطين المماليك مثل أكل لحوم الخيل فى الحفلات والمناسبات وصناعة بعض أنواع الخمر من لبن الخيل بالذات .

وعندما وجد تجار الرقيق أن سلاطين المماليك وأمرأهم فى مصر يقدرون بضاعتهم ويدفعون فيها الأموال الطائلة ، نشطوا فى جلب المماليك ، وأسهم فى هذه التجارة أيضاً بعض التجار الأوربيين - وخاصة المدن الإيطالية - الذين نافسوا التجار الشرقيين فى جلب المماليك إلى مصر . وهكذا نجد أصول المماليك فى مصر وقد أخذت تنوع تنوعاً واضحاً منذ القرن الثامن الهجرى أى الرابع عشر للميلاد ، إذ وجد منهم الأتراك والشراكسة والمغول والصقالبة واليونانيين والأسبان والألمان ... وغيرهم . وقد أنتسب هؤلاء المماليك غالباً إلى أساتذتهم أى ساداتهم الذين اشتروهم بالمال من التجار ، وأشرفوا على تربيتهم . فالمماليك الظاهرية بيبرس نسبة إلى السلطان الظاهر بيبرس ، والمماليك الأشرفية خليل نسبة إلى السلطان الأشرف خليل وهكذا . وأحياناً نسب المملوك إلى تاجره الذى جلبه كالمماليك العثمانية ، أو إلى قيمته التى اشترى بها إذا كانت كبيرة تستحق الفخر لما لها من دلالة على عظم المواهب والصفات المتوفرة فى ذلك المملوك ، مثل قلاون الألفى الذى اشترى بألف دينار .

هذه كلمة عامة موجزة عن أصل المماليك الذين حكموا مصر فى فترة من

أهم فترات تاريخها في العصور الوسطى ، وبقى أن نعرف كيف تمكن هؤلاء المماليك من أن يحلوا محل سادتهم الأيوبيين في حكم مصر .

مقتل توران شاه وقيام شجر الدر في الحكم .

الواقع إن انتصار المماليك البحرية على الصليبيين في المنصورة ثم في فارسكور ( ٦٤٧ هـ = ١٢٥٠ م ) أدى إلى ازدياد قوة شوكتهم لإحساسهم بأنهم أصحاب فضل في إنقاذ مصر من خطر ضخم . وكان ذلك في الوقت الذي وصل إلى مصر تورانشاه ابن الصالح نجم الدين أيوب وصاحب الحق الشرعي في حكم البلاد ، كما ذكرنا في الباب السابق . ومن الواضح أن المعظم توران شاه كان سلطاناً جديداً يريد أن يحس بسطوته وخطورة منصبه ، ويباشر سلطانه على أوسع نطاق . لذلك وجد توران شاه في المماليك البحرية حجرة عثرة تبتعض سلطانه المطلق ، مما أدى إلى سوء العلاقات بين الطرفين من أول الأمر .

وخير ما يوضح لنا رغبة السلطان المعظم توران شاه في ذلك الدور الأول من حكمه في الاستئثار بالنفوذ والسلطان ، ما يرويّه المقرئ من أنه لم يكفد يطمئن إلى هزيمة الصليبيين في المنصورة وفارسكور حتى أخذ في إبعاد رجال الدولة ، فتخلص من كل من خشى منافستهم له من أبناء بيته ، ومنهم الملك المغنيك عمر الأيوبي الذي أخرجه توران شاه من قلعة الجبل إلى الشوبك حيث اعتقل . وكذلك أخرج الملك السعيد نجر الدين حسن الأيوبي من مصر إلى دمشق حيث اعتقل أيضاً . أما كبار موظفي الدولة الذين اعتمد عليهم أبوه — مثل الأمير حسام الدين نائب السلطنة — فقد عزلهم أيضاً وأحل محلهم غيرهم<sup>(١)</sup> بل إن توران شاه لم يحفظ الجبل

(١) المقرئ : السلوك ج ١ ص ٣٥٨ .

لزوج أبيه شجر الدر ، التي حفظت له عرشه وملكه بعد وفاة أبيه ، فأرسل إليها - وكانت قد خرجت إلى بيت المقدس - يتهددها ويطالبها بمال أبيه . وكان أن تخوفت شجر الدر من نوايا توران شاه ، لما بد منه من الهوج والخف ، فكاتبت المماليك البحرية بما فعلته في حقه من تمهيد الدولة وضبط الأمور حتى حضر وتسلم المملكة ، وما جازاها به من التهديد والمطالبة بما ليس عندها (١) .

ولم يكن المماليك في مصر في حاجة إلى مزيد من التحريض ضد توران شاه . وتروى المراجع أن الفارس أقطاي الذي أرسلته شجر الدر لاستدعاء توران شاه من حصن كيفا ، كان قد حصل من توران شاه - عقب البشارة - على وعد منه بأن يؤمره ، ولكن توران شاه عاد فتنكر وامتنع عن الوفاء بوعدده ، فتنكر له أقطاي وكتم الشر ، فحرك كتاب شجر الدر منه ساكناً ، ثم إن المماليك اشتد استياؤهم من توران شاه عندما وجدوا أنه احتجب عنهم ، وانصرف إلى الفساد وعيث بهم وبخطايا أبيه . وأخيراً أدرك البحرية سوء ما يضمره لهم توران شاه من سوء عندما رأوه وهو سكران بالليل يجمع الشموع بين يديه ويضرب رؤوسها بالسيف واحدة بعد أخرى حتى تقطع ويقول « هكذا أفعل بالبحرية » ، ويسمى كل واحد من زعماء البحرية باسمه (٢) .

وهكذا لم يبق أمام البحرية إلا أن يقتلوا توران شاه قبل أن يقتلهم هو ، فاستقر رأيهم على تنفيذ خطتهم عند نزوله في فارسكور . ولم يكديمد السباط عقب وصول المعظم توران شاه إلى فارسكور ويجلس السلطان على عادته ، حتى تقدم إليه واحد من البحرية - هو بيبرس البندقداري - وضربه بالسيف فأطار أصابع يده ، وعندئذ أسرع توران شاه بالفرار

(١) نفس المرجع السابق والصفحة .

(٢) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ١٨٠؛ المقرئزي: السلوك ج ١ ص ٣٥٨-٣٥٩ .

إلى برج خشبي قد نصب له في فارشكور ، وهو يصيح « من جرحني ، فقالوا له « الحشيشية ، ولكنه قال « لا والله إلا البحرية ! والله لا أبقيت منهم بقية » . وهنا رأى البحرية أن يسرعوا في العمل فقال بعضهم لبعض ، « تموه وإلا أبادكم ، فبادروه بالهجوم على البرج . ولكن توران شاه احتفى بأعلى البرج وأغلق بابه ، والدم يسيل من يده ، فأضرم البحرية النار في البرج ، حتى اضطر توران شاه إلى الفرار منه وألقى نفسه في ماء النيل والبحرية تلاحقه بالنشاب ، حتى غرق ، فمات جريحا حريقا غريقا . (١) .

وبقتل توران شاه ٦٤٨ هـ ( ١٢٥٠ م ) انقرضت دولة بني أيوب من أرض مصر ، بعد أن حكموا البلاد إحدى وثمانين سنة . (٢) .

### سلطنة شجر الدر :

يبدو أن قتلة توران شاه وجدوا أن الأمور ليست مهيأة بعد لأن يتولى أحدهم منصب السلطنة ، فأجمعوا على تولية شجر الدر ذلك المنصب . ولا شك في أن شجر الدر تعتبر من ناحية الأصل والنشأة أقرب إلى المماليك ولذلك يعزبها المقرئى . أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك ، (٣) وقد أجمع المؤرخون على أن شجر الدر كانت « خيرة دينه ربسة عظيمة في النفوس » .

واسكن قيام امرأة في حكم المسلمين « لم يقع قبلها ولا بعدها » . وقد أحست شجر الدر نفسها بما لوضعها من حرج فكانت لا توقع باسمها على المناشير ، وإنما جعل توقيعها « والدة خليل » . كذلك نقش اسمها على السكة (النقود) في صيغته المستعصمية الصالحية ، ماسكة المسلمين ، والدة الملك المنصور خليل . أما الخطباء في المساجد ، فكانوا يقولون في الدعاء لها « واحفظ اللهم الجهة

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٧١ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٦١ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٦١ .

الصالحية ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، أم خليل المستعصمية صاحبة الملك الصالح ، . ويفهم من هذا كله أن شجر الدر تخرجت - أن تذكر اسمها صراحة في المناسبات الرسمية ، فضلا عن أنها أرادت أن تضفي على حكمها صبغة شرعية ، فهي حينما تتمسح بالخلافة العباسية وتمسك بلقب « المستعصمية » إشارة إلى صلتها بالخليفة العباسي المستعصم<sup>(١)</sup> ، وأحيانا تتمسك بلقب « أم خليل صاحبة الملك الصالح » إشارة إلى صلتها بالبيت الأيوبي والملك الصالح نجم الدين أيوب بوجه خاص .

### جلاء الفرنسيين عن دمياط :

وكانت أولى المشاكل التي واجهت السلطنة شجر الدر هي أنها قامت في السلطنة ، والفرنسيون مازالوا في البلاد . حقيقة إن لويس التاسع كان أسيرا في المنصورة ، ولكن دمياط نفسها ظلت قاعدة بحرية في قبضة الفرنسيين . وما دام الأمر كذلك فإن خطر الصليبيين على مصر بأجمعها مازال باقيا ، لأن الفرصة قائمة أمام الغرب الأوربي لإنزال حملة جديدة في دمياط . لذلك كان على شجر الدر أن تفكر في وسيلة لاسترداد دمياط أولا قبل القيام بأية خطوة أخرى في الداخل أو الخارج .

وكان أن ندى الأمير حسام الدين محمد لمفاوضة لويس التاسع ، فحرت مفاوضات طويلة<sup>(٢)</sup> . وبعد « محاورات ومراجعات » ، ثم الإتفاق على أن يطلق المسلمون سراح لويس التاسع مقابل ثمانمائة ألف دينار يدفع نصفها مقدما ، وأن يجلو الصليبيون عن دمياط . وبعد أن تم الإتفاق أرسل لويس

---

(١) كانت شجر الدر جارية للخليفة المستعصم العباسي قبل أن يشتريها الملك الصالح نجم الدين أيوب . (Lane-Poole : A hist. of Egypt, p. 526)

(٢) ابن واصل : مفرج السكروب ج ٢ ورقة ٣٧٣ .



التاسع إلى الصليبيين بدمياط يأمرهم بتسليم المدينة للمسلمين ، ولكنهم تمنعوا كثيرا حتى وافقوا أخيراً على ذلك . وفي الوقت نفسه قامت زوجة لويس - وكانت بدمياط - بجمع نصف الفدية المنفق عليها ، فأفرج عن زوجها . أما بقية الأمرى - وعددهم أكثر من إثني عشر ألف أسير - فقد ظلوا في الأسر لحين دفع باقى الفداء المطلوب منه (١) .

### موقف بنى أيوب من السلطنة المماليكية :

ذكرنا أن مقتل توران شاه وقيام شجرة الدر فى الحكم يعنيان نهاية حكم الأيوبيين وبداية حكم المماليك فى مصر . وقد جرت العادة أن يكون لسلطان مصر منذ أيام صلاح الدين هيمنة على بقية الملوك والأمراء فى بلاد الشام . ولذلك بادرت شجرة الدر عقب سلطنتها إلى إرسال الخطيب أصيل الدين محمد لاستحلاف أمراء الشام على الولاء للسلطنة الجديدة (٢) . ولكن لم يكن منتظراً من أمراء الأيوبيين أن يرتضوا الخضوع للمماليكهم ، لاسيما وأن بنى أيوب ظلوا يعتقدون أنهم أصحاب الحق الشرعى فى حكم مصر والشام بوصفهم سلالة صلاح الدين .

وكان أن بدأت تشتعل نار الثورة فى الشام ضد سلطنة المماليك الوليدة فى مصر ، فأبى ملوك بنى أيوب أن يعترفوا بما تم فى مصر من قيام المماليك فى الحكم وإعلان شجرة الدر سلطنة . وكان المعظم توران شاه - وهو فى طريقه من كيفا إلى مصر - قد عين الأمير جمال الدين بن يغمور نائبا للسلطنة فى دمشق ، فامتنع ذلك الأمير عن الخلف لشجرة الدر (٣) . كذلك وجد بدمشق عندئذ

(١) المقرئزى : السلوك ج ١ ص ٢٦٣ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٧٣ .

(٣) المقرئزى : السلوك ج ١ ص ٣٦٦ .

فئة من المماليك - أطلق عليهم اسم القيمرية<sup>(١)</sup> ، فامتنعوا أيضاً عن الاعتراف بالولاء للنظام الجديد . وهكذا اختلت أوضاع الشام ، فاستولى الملك السعيد حسن بن العزيز عثمان على مال مدينة غزة واتجه نحو الصبيبة فملكها<sup>(٢)</sup> ؛ وثار الطواشي بدر الدين أوأ الصالحى - نائب السكر والشوبك - واتجه إلى الشوبك حيث أخرج الملك المغيث عمر الأيوبى من الحبس ، وملكه السكر والشوبك وأعمالها ، وحلف له الناس ، وقام يدبر أمره لصغر سنه ،<sup>(٣)</sup> .

ولم يلبث أن أخذ ملوك بنى أيوب يتكثرون بالشام الموقوف في وجه المماليك في مصر ، بل لغزو مصر ذاتها واسترداد ملكها للأيوبيين . وكان أن كتب الأمراء القيمرية من دمشق إلى الناصر يوسف الأيوبى صاحب حلب يعرفونه بالامتناع عن الحلف لشجر الدر ، ويطلبون منه الحضور إلى دمشق لتسليمها إليه . وقد استجاب الناصر يوسف لتلك الدعوة وتسلم دمشق في سهولة ، فخلع على الأمراء القيمرية وعلى جمال الدين بن يغمور<sup>(٤)</sup> . وأخيراً أدرك المماليك في مصر أن الأمر ليس بالسهولة التي توقعوها ، وأن موقف الأيوبيين في الشام يهدد بالقضاء على سلطانهم في مصر . وكان ذلك في الوقت الذى أخذ الخليفة العباسى المستعصم بالله يعيب على أهل مصر أنهم اختاروا امرأة لتحكمهم فأرسل إليهم يقول : « إن كانت الرجال قد عدت عندكم فأخبرونا حتى نسير إليكم رجلاً<sup>(٥)</sup> » . ولمواجهة هذه المشأكل بجمعة ، وجد أمراء المماليك بهر أنه من المصلحة أن تزوج شجر الدر

(١) نسبة إلى قلعة قيمر قرب الموصل

(٢) العيني : عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ ورقة ٣١٨ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٦٦ .

(٤) المقرئى : نهاية الأدب ج ٢٧ ورقة ٩٧ ؛ ابن أيبك : كنز الدرر ج ٧ ص ٣٨٦-٣٨٧ .

(٥) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٦٧ .

من الأمير عز الدين أيبك - اتابك العسكر - على أن تترك له السلطنة .  
وكان أن تمت هذه الخطوة ( ٦٤٨ هـ = يوليو ١٢٥٠ م ) ، فخلعت شجر الدر  
نفسها من ملكة مصر ، وتنازلت عن الحكم لايبك ، بعد أن ظلت في السلطنة  
ثمانين يوماً برهنت فيها على « حسن سيرتها و غزير عقلها وجودة تدبيرها » (١)

### السلطان المعز أيبك التركي :

تولى المعز أيبك السلطنة سنة ٦٤٨ هـ = ١٢٥٠ م ليجد نفسه أمام  
مشاكل كثيرة خطيرة ، أولها تهديد الأيوبيين بغزو مصر ذاتها . وقد لجأ  
المماليك إلى العوبة يتحايلون بها على تخدير بني أيوب ، ذاتوا بطفل صغير  
من أبناء البيت الأيوبي اسمه الأشرف موسى وعمره ست سنوات ، وأقاموه  
سلطانا ليكون شريكا للمعز أيبك في الحكم . وبذلك صارت المراسيم تخرج  
باسم الملكين الشريكين الأشرف والمعز ، إلا أن الأشرف ليس له سوى  
الاسم في الشركة لاخير ، وجميع الأمور بيد المعز أيبك ، (٢) .

غير أن هذه الخديعة لم تجز على الأيوبيين في الشام ، فجمعوا قواهم بزعامة  
الناصر يوسف الأيوبي وزحفوا على مصر يريدون حرب المماليك والقضاء  
عليهم . وكانت القوة الرئيسية من المماليك التي خرجت للقاء الجيش الأيوبي  
تتألف من البحرية . وفي سنة ٦٤٨ هـ ( ٢ فبراير سنة ١٢٥١ م ) دارت  
موقعة فاصلة بين الطرفين قرب العباسة بالشرقية ، انهزم فيها الأيوبيون  
وفر الناصر يوسف ورجاله حائدين إلى الشام (٣) . ولا شك في أن هذه  
الموقعة كان لها أثرها وأهميتها في تثبيت أركان دولة المماليك الناشئة ، الأمر  
الذي شجع المعز أيبك بعد ذلك بشهر على إرسال جيش بقيادة فارس الدين .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٣ .

(٢) المقرئزي : السلوك ج ١ ص ٣٦٩ .

(٣) ابن واصل : مفرج السكروب ج ٢ ورقة ٣٧٢ ؛ ابن أيبك : كنز الدرر ج ٨ ورقة ١٧ .

أقطاي - زعيم البحرية - فاستولى على غزة .

وفي تلك المرحلة كان لويس التاسع زعيم الحملة الصليبية السابعة قد أقام بالشام عقب إطلاق سراحه من دار بن لقمان ؛ وظل يرقب الموقف بين الأيوبيين والمماليك دون أن يجاهر بالانضمام إلى جبهة معينة حتى يرى ما تسفر عنه الأحداث . فلما انجلى الموقف بانتصار المماليك وهزيمة الناصر يوسف ، بادر المماليك بتجديد اتفاقية الصلح مع الصليبيين ليضمنوا عدم تأييد الصليبيين للناصر يوسف والايوبيين . وفي سنة ٦٥٠ هـ = ١٢٥٢ م وافق المماليك في الاتفاقية الجديدة على أن يطلقوا سراح بقية أسرى الصليبيين في مصر وعلى إعفاء لويس التاسع من بقية المبلغ المتبقى عليه من الفدية . بل أكثر من هذا تشير بعض المراجع إلى أن المماليك في مصر وعدوا لويس التاسع بإعطائه بيت المقدس إذا هو أيدهم ضد الايوبيين في الشام<sup>(١)</sup> .

على أنه لم يقدر للعداء بين المماليك في مصر والايوبيين في الشام أن يستمر ويزداد عنفاً ، وذلك بسبب ظهور خطر جديد هدد المسلمين جميعاً في الشرق الأدنى بأوخم العواقب ، وتطلب منهم أن يتحدوا لمواجهة ؛ هو خطر المغول . وكان الخليفة العباسي في بغداد أشد إحساساً بخطر المغول ، بحكم تطرف بلاده في الشرق وقربها من دولة هولاكو في فارس ، لذلك بادر الخليفة المستعصم بإرسال رسول إلى الناصر يوسف الايوبي صاحب دمشق يأمره بمصالحه الملك المعز (أيك) وأن يتفقا على حرب التتار<sup>(٢)</sup> . ويبدو أن موجة الرعب التي أثارها أخبار المغول ووحشيتهم جعلت الطرفين يستجيبان في سهولة لدعوة الخليفة المستعصم ، فتم الصلح في أبريل سنة ١٢٥٣ م (٥٦٥١) بين المماليك في مصر والايوبيين في الشام بشرط أن يكون للمماليك مصر حتى

(١) العيني : عقد الجمان ج ١٨ ورقة ٣١٤ .

Grousset : Hist. des Croisades, III, p. 502.

(٢) السبكي : طبقات الشافعية ج ٥ ص ١١٣ .

سر الارزن وللأيوبيين ما وراء ذلك من بلاد الشام ؛ بمعنى أن تستولى سلطنة  
المماليك على غزة والقدس و نابلس و الساحل كله ، فضلا عن مصر<sup>(١)</sup>.

### مقتل السلطان المعز أيبك وشجر الدر :

ولم يكن موقف الايوبيين العدائي بالشام هو المشكلة الوحيدة التي  
واجهت المعز أيبك ، وإنما وجدت مشاكل داخلية أقلقته وهددت سلطانه  
في الفترة القصيرة التي تولى الحكم فيها . وأولى هذه المشاكل جاءت من  
ناحية المماليك البحرية الذين ازداد نفوذهم ازدياداً خطيراً عقب واقعة  
المنصورة من ناحية ، ثم عقب الانتصار على الناصر يوسف الايوبي عند  
العباسة من ناحية أخرى . فجميع هذه الانتصارات كان الفضل فيها لقوة  
المماليك البحرية ، الامر الذي جعلهم يشعرون بنفوذهم وسطوتهم ويتبادون  
في غيهم وإفسادهم . ويبدو أن ازدياد نفوذ البحرية في ذلك الدور لم يهدد  
نفوذ أيبك فحسب ، بل هدد أمن عامة الناس وسلاهم . ففي حوادث سنة  
٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) يقول المقرئزي « وفيها كثر ضرر المماليك البحرية بمصر ،  
ومالوا على الناس وقتلوا ونهبوا الاموال ، وسبوا الحريم وبالغوا في الفساد  
حتى لو ملك الفرنج ما فعلوا فعلهم »<sup>(٢)</sup> . وقد أدرك أيبك مدى خطورة ازدياد  
نفوذ البحرية ، فأقطع زعيمهم الفارس أقطاي ثغر الاسكندرية ، ولكن  
ذلك لم يفلح في الحد من شرهم ، فكثير تمردهم وطغيانهم<sup>(٣)</sup> . ثم يعود  
المقرئزي فيشير في حوادث سنة ٦٥١ هـ (١٢٥٣ م) إلى ازدياد خطر البحرية  
فيقول « وفيها قويت البحرية — وكبيرهم فارس الدين اقطاي — على المعز  
وكثر تعنتهم واستطالتم وتوثبهم على الملك المعز (أيبك) وهموا بقتله<sup>(٤)</sup> » .

(١) المقرئزي : السلوك ج ١ ص ٣٨٥ — ٣٨٦ .

(٢) المقرئزي : السلوك ج ١ ص ٣٨٠ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٨٤ .

(٤) المرجع السابق ص ٣٨٦ .

وعندما أحس أيبك بنية البحرية ، استدرج زعيمهم أقطاي إلى القلعة وقتله ،  
وعندئذ تجمع تحت أسوار القلعة نحو سبعمائة فارس من البحرية ، فألقى  
لهم أيبك رأس أقطاي . وعندئذ خاف البحرية على أنفسهم و فروا إلى الشام  
وعلى رأسهم الامير ركن الدين بيبرس البندقداري وسيف الدين قلاون ،  
حيث دخلوا في خدمه بنى أيوب بالشام<sup>(١)</sup> .

أما المشكاة الداخلية الكبرى التي واجهت المعز أيبك والتي أودت به في  
نهاية الامر فكان سببها شجر الدر . ذلك أنه يبدو من تاريخ هذه المرأة أنها  
كانت من ذلك النوع من النساء الذي يميل إلى السيطرة والتحكم وحب السلطان .  
وقد سبق أن ذاق شجر الدر طعم السلطان وحكمت مصر حكما انفرادياً  
مدة ثمانين يوماً ، مما جعل من الصعب عليها بعد ذلك أن تقبل الانزواء محرومة  
من كل نفوذ وسلطان . ويبدو أن شجر الدر لم تكدر تتنازل عن السلطان  
لزوجها أيبك ، حتى عادت وعز عليها ذلك ، وشعرت بالندم ، فأخذت تفكر  
في وسيلة أو أخرى للتخلص من أيبك . ويروي المؤرخ أبو المحاسن أن  
شجر الدر سيطرت على زوجها المعز أيبك سيطرة تامة بحيث صار في جميع  
أحواله « ليس له معها كلام »<sup>(٢)</sup> . ثم إنها لم تكتم بالاستبداد بأمر المملوك  
بل منعت أيبك من الاجتماع بأمر ابنه علي « وألزمته بطلاقها » . وعندما  
وجدت شجر الدر أن تحقيق نفوذها المطلق يتطلب الخلاص من أيبك  
نهائياً ، اتصلت بالناصر يوسف الايوبي في الشام ، وبعثت إليه بهدية  
« وأعلمته أنها قد عزمت على قتل المعز ( أيبك ) والزواج به وتمليك مصر ،  
ولكن الناصر يوسف خشي أن يكون هذا خديعة ، فلم يجبه بشيء »<sup>(٣)</sup> .

وكانت أبناء مؤامرات شجر الدر تصل أولاً بأول إلى أيبك ، فرأى

(١) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ١٩٨ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٤ .

(٣) المقرئ : السلوك ج ١ ص ٤٠٢ .

أن يحتاط لنفسه ، وعزم على إنزالها من القلعة . وهكذا أمسى الزوجان —  
أيبك وشجر الدر — يتربص كل منهما للآخر . وجاءت الأشاعات إلى شجر  
الدر بأن زوجها أيبك يريد الزواج من ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل  
، فتخيلات منه أنه ربما عزم على إبعادها أو اعدامها لانه سئم من حجرها  
واستطالتها ، فعاجلته وعزمت على الفتك به ، وإقامة غيره في الملك<sup>(١)</sup> .

وكان أن نفذت شجر الدر مؤامرتها في سرعة ، فخرضت جماعة من  
الخدم على قتله بالحمام ، وأسهمت هي في تدبير المؤامرة فأخذت « تضربه  
بالقباب وهو يستغيث ويتضرع إليها إلى أن مات ، . ولكن مالك الممزر  
أيبك لم يغفروا لشجر الدر فعلتها فقتلوا بعد قليل ، وبذلك خلا المسرح  
( سنة ٦٥٥ هـ = ١٢٥٧ م ) من أيبك وشجر الدر جميعاً<sup>(٢)</sup> .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٣٧٥ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٠٣ — ٤٠٤ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٣٧٦ — ٣٧٧ .

## الفصل الثاني

### قطز والمغول

سلطنة علي بن أيبيك :

أحدث موت أيبيك وشجر الدر فراغا ضخما في صفوف المماليك ، حيث أنه فتح الباب على مصراعيه أمام القوى المتنافسة حول الحكم ، وبخاصة من زعماء المماليك . والمعروف أن المماليك لم يؤمنوا مطلقا بمبدأ الوراثة في الحكم . وإنما اعتنقوا مبدأ الحكم الأقوى . وكانت التمثيلية التي تتكرر عادة عقب وفاة كل سلطان من سلاطينهم هي أن يسرع الأمراء إلى تنصيب ابن السلطان المتوفى مكان أبيه ، حتى تهدأ الأمور وتستقر الأوضاع ، وعندئذ لا يجد أقوى الأمراء صعوبة في خلع ذلك الابن وإحلال نفسه محله .

وعندما وجد أمراء المماليك أنفسهم لا يستطيعون الإجماع على أحدهم ليتولى منصب السلطنة ، قر رأيهم على اختيار علي بن أيبيك ، فأعلن سلطانا عقب مقتل أبيه وقبل مقتل شجر الدر ٦٥٥ هـ ( ١٢٥٧ م ) . وقد لقب السلطان الجديد بالمنصور ، وكان في الخامسة عشرة من عمره فاختير أحد الأمراء — وهو سيف الدين قطز — أتابكا له .

ويبدو أن الأمراء البحرية الذين كانوا بالشام أدركوا عندئذ أن فرضتهم قد حانت للعودة إلى مصر ، فاتصلوا بالملك المغيث عمر الايوبي صاحب السكرك وزينوا له غزو مصر . وكان أن استجاب المغيث عمر للبحرية ، وخرجت الحملة قاصدة غزو مصر عن طريق الشرقية ، ولكن قطز استطاع صدقهم وأنزل الهزيمة بهم عند الصالحية .<sup>(١)</sup>

(١) المقریزی : السلوك ج ١ ص ٤٠٢ .



وفي الوقت الذي كان السلطان المنصور على يقضى وقته في اللعب  
وركوب الخمر بالقلعة ، إذا بالأخبار تصل إلى مصر بأن المغول استولوا  
على بغداد سنة ١٢٥٨ م ( صفر ٦٥٦ هـ ) وقتلوا الخليفة المستعصم بالله  
العباسي ، وحرقوا الجوامع والمساجد ، وسفكوا الدماء حتى جرت في  
الطرق . . . (١) وبدلاً من أن يتدبر الناصر يوسف الأيوبي ذلك الخطر  
الذي أصبح على أبواب الشام ، إذا به يرسل ابنه الملك العزيز إلى هولاء  
يطلب مساعدته في الاستيلاء على مصر من المماليك . وكان أن استجاب  
هولاءكو لتلك الدعوة ، وقرر إرسال قوة من عشرين ألف فارس إلى  
الشام . وعندما جاءت أخبار تهديد المغول لبلاد الشام عقد مجلس بالقلعة  
للتشاور في الأمر ، فوجد الأمير سيف الدين قطز فرصته قد حانت ، فأخذ  
ينكر على الملك المنصور على بن أيك سلوكه وقال : لا بد من سلطان قاهر  
يقا تل هذا العدو ، والملك المنصور صبي صغير لا يعرف تدبير المملكة ،  
ثم انتهز قطز فرصة خروج الأمراء للصيد ٦٥٧ هـ ( ١٢٥٩ م ) ، وقبض  
على المنصور على وأخيه وأمهما ؛ وبذلك انتهى حكم المنصور على ، بعد أن  
حكم سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام

#### سلطنة سيف الدين قطز :

رأينا كيف انتهز قطز فرصة غيبة الأمراء في الصيد ليعزل المنصور على  
من السلطنة . فلما عاد الأمراء انكروا عليه عمله ، فخاف غضبهم واعتذر لهم  
بأنه ما فعل ذلك إلا خوفاً من المغول من ناحية والملك الناصر من ناحية  
أخرى . وأنى ما قصدت إلا أن يجتمع على قتال التتر ، ولا يتأتى ذلك  
بغير ملك . فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم أقيموا في السلطنة  
من شئتم . . .

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٥٠ .

وهكذا أخذ قطز يرضى الأمراء «حتى تمكن» ، وعندئذ قبض على زمام الأمور بيد من حديد ، فاعتقل من توهم خطره من الأمراء ، وبدأ يعد العدة لمواجهة الخطر الأكبر الذي هدد الشام ومصر في ذلك الوقت ، وهو خطر المغول .

ذلك أن المغول لم يلبثوا أن زحفوا من العراق على الشام ، فانتقلوا في سرعة مذهلة من ديار بكر إلى آمد يريدون حلب . ولم يوفق المسلمون في الدفاع عن حلب فدخلها المغول وقتلوا ونهبوا وسلبوا ، وفعّلوا تلك الأفعال القبيحة على عادة فعلهم .<sup>(١)</sup>

وهنا أفاق الناصر يوسف لحقيقة خطر المغول ، فأرسل إلى قريبه المغيث عمر صاحب الكرك والمظفر قطز صاحب مصر يطلب منهما النجدة السريعة . على أنه يبدو أن كثيرا من الأمراء بالشام خافوا عاقبة مقاومة المغول ونادوا بأنه لا فائدة من تلك المقاومة ، فأخذ الأمير زين الدين الحافظي يهضم من شأن هولاء كوايد مبدأها الاستسلام له ، واسكن الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري — أحد أمراء المماليك البحرية بالشام — لم يعجبه ذلك القول ، فقام وسبه وضربه ، وقال له « أنتم سبب هلاك المسلمين ! » ولم يرض بيبرس ومن معه من البحرية عن مسلك الناصر يوسف وأمراء الشام ، فساروا إلى غزة ، وأرسل بيبرس إلى السلطان قطز يعرض عليه توحيد جهود المسلمين ضد خطر المغول . وفي الحال استجاب قطز للدعوة ، فأرسل إلى بيبرس يطلب منه القدوم ، واستقبله بدار الوزارة وأقطعته قلوب وأعمالها<sup>(٢)</sup> .

### موقعة عين جالوت :

اضطربت أحوال الشام نتيجة لغزو المغول ؛ إذ لم يمض على استيلاء

(١) أبو المعاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٦ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٦٤ .

هولاكو على حلب ستة عشر يوماً حتى أخذ في الزحف على دمشق ، فدخلها المغول ونهبوها ، ثم ساروا إلى بعلبك واتجهت طائفة منهم إلى غزة ، وخرّبوا بانياس ، واسعروا البلاد حرباً وملاوها قتلًا ونهباً ،<sup>(١)</sup>

ولم يلبث أن وصل إلى قطز بمصر خطاب تهديد من هولاكو ، يطلب منه التسليم ويقول له : « يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال ، أنا نحن جنود الله في أرضه ، خلقنا من سخطه وسلطه على من حل به غضبه . . . فاتعظوا بغيركم . . . فنحن ما نرحم من بكى ولا نرق لمن شكى . . . »<sup>(٢)</sup> ولكن قطز لم يجبن أمام ذلك التهديد ، فقتل رسل المغول وعلق رؤسهم على باب زويلة ، فكانت أول من علق على باب زويلة ، من رؤوس المغول . ولما وجد قطز أن بعض الأمراء مترددون في الخروج لحرب المغول صاح فيهم : « يا أمراء المسلمين ! لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون ؟ أنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبنى ومن لم يختار ذلك يرجع إلى بيته فإن الله مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين في ركاب المتأخرين ! »<sup>(٣)</sup>

وفي الوقت الذي أخذ قطز يعد العدة للقاء المغول ، اختار أن يوفد بيبرس على رأس مقدمة الجيش ليتحسس أخبار المغول . وكان المغول قد وصلوا إلى غزة ، فلما وصل بيبرس انسحبوا من غزة فاحتلها المماليك . وبعد قليل وصل قطز ومعه بقية الجيش ، فزحف المماليك عن طريق الساحل قاصدين بحيرة طبرية . ويبدو أن وصول ذلك الجيش الكبير من المماليك إلى الشام أزعج الصليبيين في عكا ، فخرجوا إلى السلطان قطز وعرضوا عليه المساعدة ، ولكنه شكروهم واستحلفهم أن يكونوا لاله ولا عليه ، وهددهم

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٢٦ .

(٢) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٨ ص ٦٣ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٢٩ .

إذا هم اعتدوا على مؤخرة جيش المسلمين أن يعود إليهم ويقا تلهم قبل أن  
يقا تل المغول .<sup>(١)</sup>

وفي تلك الأثناء كان هولاء كو قد عاد إلى حاضرة المغول في آسيا  
وترك كتبغا نامبا عنه في الشام . وعندما علم كتبغا بوصول قطز على رأس  
الجيش المصرى إلى الشام قر رأيه على منازلة المسلمين ، فاتجه صوب عين  
جالوت قرب بيسان في فلسطين . وفي موقعه عين جالوت التي دارت بين  
المسلمين والمغول سنة ٦٥٨ هـ ( ١٢٦٠ م ) تفوق المغول في أول الأمر ،  
ولسكن قطز ثبت في القتال ، ويقال أنه ألقى خوذته عن رأسه إلى الأرض  
وصاح « وإسلاماه » ، وحمل على المغول حملة صادقة زعزعهم بها ، فقتل  
كتبغا وكثير من رجاله وولى من نجا من المغول الأذبار .

ولا شك في أن موقعة عين جالوت كانت نقطة تحول خطيرة في تاريخ  
الشرق الأدنى . ومهما يقال من أن المغول كانوا بوصولهم إلى عين جالوت  
قد بلغوا نهاية الشوط في حركتهم ، وأنه كان لا بد من أن ينتهى أمر تلك  
الحركة إلى التوقف عند نقطة معينة ، والذي يعيننا هو أن موقعة عين جالوت  
أنقذت مصر والشام من خطر المغول وجعلت دولة مغول فارس تقف  
عند حدود العراق . وإذا كان المغول قد استمروا بعد ذلك يهددون  
الشام ، فإن تهديدهم بعد عين جالوت لم يتخذ شكل غزوات كاسحة كما كان  
الحال من قبل ، وإنما اتخذ صفة إغارات متقطعة تنتهى بالانسحاب السريع  
عندما تخرج لهم الجيوش الإسلامية من مصر .

أما عن الموقف في بلاد الشام عقب عين جالوت ، فيتلخص في قيام  
السلطان قطز بحركة تطهير سريعة للبلاد ، فاسترد دمشق من المغول ، في  
حين قام الأمير بيبرس بمطاردة المغول حتى حلب<sup>(٢)</sup> .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٣٠ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٨١-٨٢ .

## نهاية قطز :

وفي الفترة القصيرة التي قضاها قطز ببلاد الشام بعد عين جالوت ، تمكن من أن ييسط سيطرة دولة المماليك على الشام ، وأن يعيد الحياة إلى مجراها الطبيعي هناك . وإذا كان قطز قد سمح لبعض أمراء بني أيوب بأن يعودوا إلى ولاياتهم في حمص وحماة ، فإن هؤلاء اعترفوا بالتبعية لسلطنة المماليك في مصر وتعهدوا بدفع الجزية للسلطان قطز والدعاء له على المنابر . أما في مصر فقد كان لا انتصار قطز في عين جالوت أجمل الوقع ، فدقت البشائر بالقلعة وأقيمت الزينات بالقاهرة ، وأخذت البلاد تستعد لاستقبال قطز عند عودته . ولكن شامت الظروف ألا يعود قطز مرة أخرى إلى القاهرة ، وأن يقتل غدراً وهو في طريق عودته إليها . ذلك أن قطز كان قد وعد بيبرس بإعطائه ولاية حلب تقديراً لجهوده وبلائه في حرب المغول ، ولكن لم يكده يتم طرد المغول من الشام واسترداد حلب حتى تنسك قطز لوعوده وأعطى حلب للأمير علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ<sup>(١)</sup> . ولا شك في أن قطز أظهر قصر نظر واضح وعدم مرونة خطيرة بتصرفه هذا ، لأنه نسي أن الأمير ركن الدين بيبرس غدا ذا مكانه كبيرة من الأهمية والقوة بعد أحداث المغول بحيث صار خطراً على سلطان قطز في مصر . ولو كان قطز على شيء من الحكمة لآلقى حلب للأمير بيبرس وأطاه بها عن منافسته في مصر ، وبذلك يتمكن قطز من مباشرة سلطانه في مصر دون منافس أو حاقد .

ومهما يكن من أمر فإن قطز بلغه تنسك الأمير بيبرس له وتغيره عليه ، تخافه السلطان وأضمر له سوء . وهكذا احترم كل منهما من الآخر ،

---

(١) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ٢٠٧ .

على قول المقرئى (١) ، واتجه الاثنان فى موكب واحد إلى مصر . ويقال إن بيبرس حدث جماعة من الأمراء فى قتل السلطان المظفر قطز فأقروه وأخذوا يترقبون الفرصة المناسبة لتنفيذ مؤامرتهم . وعندما اقترب الجمع من الصالحية انصرف قطز إلى الصيد - صيد الأراب - فثارت أرنب وجمحت ، وعندئذ نسي قطز أن يحترز على نفسه وتعقب الأرنب حتى ابتعد عن رفاقه . وكان أن استغل المتآمرون الفرصة ، فتبعوا السلطان حتى لم يبق معه غيرهم ، وعندئذ تقدم بيبرس ليطلب من السلطان طلباً فأجابه قطز إلى طلبه (٢) . واستطاع بيبرس أن يسبك الحيلة فتظاهر برغبته فى تقبيل يد السلطان اعترافاً بفضله ، ولما لم يكف قطز يمد يده حتى قبض عليها بيبرس بشدة ليحول بينه وبين الحركة ، فى حين هوى عليه بقية الأمراء بسيوفهم حتى أجهزوا عليه (٣) . وعلى هذا الوجه انتهت حياة بطل عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ (أكتوبر ١٢٦٠ م) .

---

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٣٥ .  
(٢) ذكرت بعض المراجع أن بيبرس طلب من السلطان امرأة من سبى التتار فأنعم بها عليه (المقرئى السلوك ج ١ ص ٤٣٥) .  
وذكرت مراجع أخرى أن بيبرس شفع عند السلطان فى إنسان فاجابه : أبو المحاسن : للنجوم ج ٧ ص ٨٣ - ٨٤ .  
(٣) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ٢٠٧ .

## الفصل الثالث

### بيبرس وتأسيس دولة البحرية

#### سلطنة بيبرس :

من الأمور المألوفة في عصر المماليك أن يحل القاتل في سهولة محل القتيل في دست السلطنة ، مادام القاتل قد أظهر من الشجاعة والقوة ما ضمن له التفوق على زملائه من الأمراء . وفي الوقت الذي كان قطز مازال ملقى على الأرض لم يدفن ولم تجف دماؤه ، تقدم الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب وبايع الأمير بيبرس بالسلطنة ، ثم تبعه بقية الأمراء قرب الصالحية<sup>(١)</sup> . ويروي المقرئ أن الأمراء الذين قتلوا قطز اتجهوا بعد ذلك إلى الدهليز السلطاني بالصالحية — وأيديهم مغمضة بالدماء — فقا بلهم هناك الأمير أقطاي المستعرب وسألهمهم : « من قتله منكم ؟ » ، فقال بيبرس : « أنا قتلته » ؛ فرد عليه أقطاي : « ياخوند ! اجلس في مرتبة السلطنة مكانه » . وبعد أن بايع أقطاي وبقية الأمراء بيبرس بالسلطنة قال له أقطاي : « لا تتم السلطنة إلا بدخولك قلعة الجبل » ، فركب بيبرس وصحبته الأمراء قاصدين القاهرة<sup>(٢)</sup> .

وكانت القاهرة قد تزينت لاستقبال الملك المظفر قطز ، والناس في فرح وسرور بالغ لما حدث من انكسار المغول ونجاة مصر من شرهم ، فإذا بالمنادى يطوف في شوارع القاهرة يصيح : « ترحموا على الملك المظفر » ،

(١) ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ج ٢٠ ورقة ١٨٦ .

(٢) المقرئ : السلوك ج ١ ص ٤٣٦ — ٤٣٧ .

وادعوا اساطانكم الملك القاهر ركن الدين بيبرس ا . . ولا يخفى علينا ما اصاب الناس من غم عند سماع الخبر ، لأن بشرى الانتصار على المغول في عين جالوت جاءتهم مقرونة باسم قطز . هذا إلى أن الناس لم ينسوا عندئذ ظلم البحرية وعسفهم ، فخافوا من عودة دولة المماليك البحرية وسوء ملكتهم وجورهم<sup>(١)</sup> .

أما بيبرس الذي تلقب أول الأمر بلقب الملك القاهر ، فقد قصد القلعة حيث استقبله نائب السلطنة الأمير عز الدين أيدير ؛ وكان قد خرج للقاء قطز ولكن بيبرس أعلمه بما حدث فلم يجد نائب السلطنة وغيره من أمراء القلعة غضاضة في أن يحلفوا للسلطان الجديد ( ٦٥٨ هـ = أكتوبر ١٦٢٠ م ) . وبعد ذلك أشار الوزير زين الدين بن يعقوب على بيبرس بأن يغير لقب القاهر إلى الظاهر ، لأن اللقب الأول « ما تلقب به أحد فأفصح » ؛ فوافق بيبرس ، وغدا لقبه السلطان الظاهر بيبرس<sup>(٢)</sup> . ولم يكف يستقر بيبرس في السلطنة حتى أخذ يتقرب من الخاصة والعامة ، تخفف عن الأهالي عبء الضرائب ، وألغى الأموال التي كان قطز قد فرضها واستحدثها بدعوى محاربة المغول ، كما عفا « عن الجبوس من أصحاب الجرائم » وأفرج عنهم<sup>(٣)</sup> .

ثم أن بيبرس أرسل « إلى الاقطار » بسلطنته ، ليعترف الحكام التابعين للسلطنة المماليكية بسيادة بيبرس . على أن الأمور لم تتم لبيبرس في سهولة ، إذا امتنع بعض الأمراء عن الاعتراف لبيبرس بالولاء مما هدد سلطانه في ذلك الدور الأول من حكمه .

وكان أول هؤلاء الثائرين الأمير علم الدين سنجر الحلبي الذي كان قطز

---

(١) المقرئى : للسلوك ج ١ ص ٤٣٧ .  
(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ٢٠٨ .  
(٣) أبو المصنف : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٠٣ .



قد ولاء على دمشق ، فلما علم بمقتل قطز ثار وأعلن نفسه سلطانا ، كما طلب من أصحاب حماه وحصن الدخول في طاعته ولكنهما امتنعا . ولم يتوان بيبرس في القضاء على هذه الثورة التي هددت نفوذه في الشام ، فأرسل حملة بقيادة الأمير علاء الدين البندقدارى ، نجحت في القبض على الأمير علم الدين سنجر وإحضاره إلى القاهرة ٦٥٩ هـ (يناير ١٢٦١م) (١) .

وقد ولي الظاهر بيبرس علاء الدين البندقدارى على دمشق وكلفه بالقبض على بعض الأمراء الذين تخوف منهم بيبرس . وكان أن فر أحد أولئك الأمراء وهو شمس الدين آقوش البرلى — إلى حلب واستولى عليها بمساعدة أعوانه ، ثم عزم السير إلى مصر لغزوها . ولكن السلطان الظاهر أرسل حملة قضت على جيش البرلى ، وفر البرلى نفسه حتى قبض عليه بيبرس فيها بعد .

ومع ذلك فإن بيبرس ظل يخشى قيام ثورة في الشام ، لاسيما من جانب بنى أيوب . ويبدو أن بيبرس كان يخشى بالذات ثورة المغيث عمر الأيوبي صاحب الكرك ، فتحايل بيبرس حتى استحضره لمقابلته في بيسان وعندئذ قبض عليه رعم الأمان المعطى له واعتقله بالقلعة حتى قتل بعد ذلك (٢) .

ولم تكن جميع الثورات التي واجهت بيبرس في مستهل حكمه في بلاد الشام ، وإنما قامت ثورة شيعية في القاهرة تستهدف إعادة الخلافة الفاطمية ، فاستولى الثوار على مافي دكاكين السيوفيين من أسلحة ، وشقوا القاهرة وهم يصيحون ديال على ، . ولمكن جند بيبرس أحاطوا بهم وقضوا على

(١) المقرئى: السلوك ج ١ ص ٤٤٤ — ٤٥١ .

(٢) مفضل ابن أبي الفضائل: النهج السديد ص ١٠٧ — ٢٠٨ .

حركتهم في سهولة فهدأت الفتنة بعد قليل (١) .

### إحياء الخلافة العباسية :

ويبدو أن هذه الثورات التي اعترضت طريق بيبرس في بداية حكمه جعلته يشعر بأنه في حاجة إلى دعامة كبرى يسند إليها سلطانه ؛ بعد أن نظر إليه المعاصرون من زاوية أنه أغتصب منصب السلطنة من قطز قاهر المغول . هذا إلى أنه لا يخفى علينا أن المماليك بوجه عام شعروا منذ اللحظة الأولى التي ولوا فيها حكم البلاد أنهم انتزعوا لأنفسهم ملك سادتهم بنى أيوب ؛ بدليل تحاييلهم على الموقف بمحاولة إشراك بعض أبناء البيت الأيوبي معهم في الحكم كما سبق أن رأينا . فإذا أضفنا إلى هذا كله تجريح المعاصرين للمماليك بسبب أصلهم خير الحر ؛ أدركنا في النهاية السر في تحمس السلطان الظاهر بيبرس لإحياء الخلافة العباسية في مصر ليتخذ منها سنداً يسند إليه حكم المماليك .

والواقع إن سقوط الخلافة العباسية في بغداد على أيدي المغول سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) خلق موقفاً غريباً في العالم الإسلامي لم يعتاده المسلمون منذ وفاة نبيهم عليه الصلاة والسلام . وفي وسط ذلك الفراغ الكبير الذي أحس به المسلمون ، حاول بعض حكام الولايات الإسلامية إحياء الخلافة في بلده ليكتسب تشرifa عظيماً من ناحية ويجعل بلاطه قبلة بقية حكام العالم الإسلامي من ناحية أخرى . ولكن الظاهر بيبرس كان أسرع هؤلاء جميعاً إلى اتخاذ تلك الخطوة ، فلم يكده يسمع بوصول أحد أبناء البيت العباسي إلى دمشق ، حتى أرسل يسند عليه فوراً مع اتخاذ كافة الاحتياطات لسلامته وراحته . (٢)

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٤٠ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ص ١٨ (مخطوط)

وقد وصل ذلك الأمير العباسي فعلا إلى مصر - وهو أحمد بن الظاهر ابن الناصر العباسي - فاستقبله بيبرس بالجفاوة والإكرام ، ثم عقد السلطان مجلسا بالقلعة دعا إليه القضاة والعلماء والأمراء ليشهدوا باثبات صحة نسب ذلك الإمام . وبعد أن شهد الشهود بذلك بايع السلطان الظاهر الخليفة الجديد - الذي لقب بالمستنصر بالله - وتبعه القضاة والعلماء وسائر الناس . أما الخليفة فقد قام بتقليد الظاهر بيبرس السلطنة وتم ذلك في حفل كبير عقد بعد أيام بجمعة المطرية ، وبذلك تم لبيبرس ما أراد وأصبح يتولى منصبه بتفويض من السلطة الشرعية الكبرى في العالم الإسلامي ، وهي الخلافة<sup>(١)</sup>.

ولكن يبدو أن بعض الناس تشككوا في صحة نسب الخليفة المستنصر بالله، وذلك على الرغم من الاحتياطات التي قام بها الظاهر بيبرس ، وعلى الرغم من شهادة الشهود . ويبدو هذا التشكك واضحا في الطريقة التي أشار بها بعض المؤرخين إلى الخليفة الجديد ، وهي طريقة لا تخلو من الغموض الواضح. مثال ذلك ما يقوله المؤرخ أبو الفدا في حوادث سنة ٦٥٩ هـ وفي هذه السنة قدم إلى مصر جماعة من العرب ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد زعموا أنه ابن الإمام الظاهر بالله بن الإمام الناصر<sup>(٢)</sup> ، ويكرر أبو الفدا أسلوبه في الإشارة إلى الخليفة الجديد فيقول « وبرز الملك الظاهر والخليفة الأسود . . . » . أما مفضل بن أبي الفضائل فقد أطلق على الخليفة الجديد اسم « المستنصر بالله الأسود » .<sup>(٣)</sup> ولعله من الواضح أن هذا الأسلوب ليس الأسلوب الذي تعودناه من المؤرخين المعاصرين، في كلامهم عن الخلافة وشخص الخليفة .

أما السلطان الظاهر بيبرس ، فإنه بعد أن حقق غرضه وحصل على

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٥٣ - ٤٥٧ .

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ٢١٣ .

(٣) مفضل ابن ابى الفضائل : النهج السديد ص ١٠٥ .

تقليد بالسلطنة من الخلافة العباسية ليضفي على نفسه وعلى ملكه صبغة شرعية؛ عاد وأحس بأنه أوجد لنفسه شريكا في الملك . ذلك أن النقود صارت تضرب باسم السلطان والخليفة معا ، كما صار يدعى للخليفة على منابر الجوامع يوم الجمعة قبل الدعاء للسلطان . ولم يغيب عن بيارس أنه إذا حدث صدام بينه وبين الخليفة ، فإن الرأي العام في العالم الإسلامي سيقف إلى جانب الخلافة بوصفها السلطة الشرعية الأولى في حكم المسلمين منذ وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام . لذلك بدأ بيارس يفكر بسرعة في التخلص من الخليفة المستنصر بعد أن قضى وطره من الخلافة وحصل منها على ما كان يطمع فيه من تفويض بالسلطنة . وكان أن أدعى بيارس أنه يرغب في إعادة الخليفة إلى قاعدة العباسيين في بغداد ، فخرج معه إلى دمشق ، وهناك ترك بيارس الخليفة يخرق الصحراء ومعه جماعة من الأعراب والترك قاصدا العراق .<sup>(١)</sup> ومن الواضح أنه لو كان بيارس جادا في استرداد بغداد من المغول وإعادة الخلافة العباسية إلى قاعدتها الأولى؛ لمشى بنفسه صحبة الخليفة المستنصر إلى العراق ، ولأعد الأمر عدته وجمع جيشا كبيرا جديرا بمنازلة المغول . ولكن بيارس - وهو خير من يعرف قوة المغول - ترك الخليفة يذهب لحرب المغول في بضع عشرات أو مئات من الرجال ، مما أدى إلى مقتل الخليفة ومعظم رجاله على أيدي المغول قرب هيت .<sup>(٢)</sup> ولا عبرة هنا بما يردده بعض المؤرخين عن حزن بيارس على الخليفة وعن أسفه لما أنفقه من أموال على تلك الحملة ؛ إذ يكفي دليل على إهمال بيارس في حق الخليفة المستنصر أنه لم يوافق في مشروعه لاسترداد بغداد ، وهو المشروع الذي ابتكره بيارس نفسه ودفع إليه الخليفة الجديد دفعا .

على أن مشكلة الخلافة لم تنته عند ذلك الحد ؛ إذ أحس بيارس عقب

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣١٧ - ٣١٨ .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣١٨ ابن شاكر الكتبي : عميون التواريخ ج ٢٠

ورقة ٤٣٠ .

مقتل الخليفة المستنصر أنه بدأ السير في طريق فعلا ولا بد له من أن يمضي في الطريق . وما دام بيبرس قد أخذ على عاتقه مهمة إحياء الخلافة العباسية في القاهرة ، فإنه أصبح ملتزما أدبيا أمام الرأي العام الإسلامي — وبخاصة داخل دولته — بالاستمرار في مشروعه . لذلك لم يجد بيبرس مفرًا من استدعاء أمير جديد من بني العباسي — هو الأمير أبو العباس أحمد — وبايعه بالخلافة ، كما حصل على تقليد منه بالسلطنة سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٣م) (١) . وفي تلك المرة حرص بيبرس على الحد من نفوذ الخليفة العباسي الجديد — الذي لقب بالحاكم بأمر الله — بحيث لم يترك له فرصة للظهور وتأكيده نفوذه على حساب السلطنة . كذلك استحضر بيبرس بعض أفراد آخرين من بني العباس للتلويح بهم في وجه الخليفة الحاكم إذا حدثته نفسه بالخروج عن النطاق الذي رسمه له السلطان (٢) .

وقد حاكى سلاطين المماليك في مصر الظاهر بيبرس في الحد من نفوذ الخلفاء العباسيين في القاهرة ، فأصبح الوضع طوال العصر المماليكي أن يفوض الخليفة الأمور العامة إلى السلطان ، ويكتب له عنه عهدا بالسلطنة ، ويدعى له قبل السلطان على المنابر ، وفيما عدا ذلك يستبد السلطان بكافة شئون الحكم ، في حين يقنع الخلفاء بالتردد على أبواب السلاطين والأمراء تهنتهم بالشهور والأعياد (٣) . وقد عبر المقرئى تعبيرا صادقا عن الخلافة العباسية في وضعها الجديد بعد إحيائها بالقاهرة ، فقال إن خلافة الخليفة العباسي « ليس فيها أمر ولا نهى وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين » (٤) .

#### بيبرس والصليبيون:

على أن إحياء الخلافة العباسية بمصر ، وتمتع المماليك بها ، وحصولهم

- 
- (١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣١٨
  - (٢) النويري : نهاية الارب ح ٢٨ ص ١٢٩ .
  - (٣) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣٤ ص ٢٧٥ .
  - (٤) المقرئى : المواعظ ج ٣ ص ٣٩٤ .

على تقليد منها بحكم البلاد والعباد ؛ كان لا يكفي وحده لتبرير اغتصاب  
المماليك حقوق بني أيوب في السلطنة . وقد أحس المماليك من أول الأمر  
أنهم مجرحون ، وأن الأهالي قالوا عن السلطان أيك أنه «ملوك وقد  
مسه الرق ، ووصفوا المماليك بأنهم «عبيد خوارج ، (١)

ولا يخفى علينا أن المماليك وجدوا سنداً ومبرراً لقيامهم في الحكم في  
نجاحهم في إنزال الهزيمة بلويس التاسع وجيشه في المنصورة ثم في فارسكور؛  
الأمر الذي تطلب من سلاطين المماليك جهداً متواصلاً في صد الأخطار  
الكبرى التي هددت المسلمين عندئذ في الشرق الأدنى ، وذلك لتبرير حكمهم  
وضرورة بقائهم في الحكم أمام رعاياهم . وكان أكبر خطرين يهددان  
المسلمين في الشرق الأدنى عند قيام دولة المماليك هما الخطر الصليبي وخطر  
المغول . وفي كلتا الحالتين أبدى بيبرس ومن خلفه من سلاطين المماليك  
بطولة نادرة وشجاعة كبيرة في حماية الشام ومصر من تلك الأخطار .

وتبدو مهارة بيبرس السياسية في أنه حرص أثناء حروبه ضد الصليبيين  
والمغول على محالفة بعض القوى الخارجية المعادية لكل من الصليبيين  
والمغول ؛ فخالف الامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجس وعقد معه  
حلفاً دفاعياً ( ٦٦٠ هـ = ١٢٦٢ م ) لعلمه أن الامبراطورية البيزنطية كانت  
دائماً العدو اللدود للصليبيين بالشام . (٢) كذلك حالف بيبرس مغول القفجاق  
أو القبيلة الذهبية عند بحر قزوين وهم الذين اعتنقوا الإسلام واشتدت  
العداوة بينهم وبين مغول فارس الوثنيين . (٣)

وهكذا دخل بيبرس المعركة ضد خصومه من الصليبيين والمغول وبجانبه

(١) المقرئى : البيان والاعراب ص ٩ ، القلقشندي : صبيح الاعشى ج ١ ص ٣٦٣ ،  
ج ٤ ص ٦٧ .

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفسكرة ج ٩ ورقة ٢٦٢

Lane-Poole : A Hist. of Egypt, p. 266.

(٣) المقرئى : الملوك ج ١ ص ٤٦٥ .

حلفاء طيبون يشدون أزره ، إن لم يطمع في مساعدتهم فهو على الأقل يطمئن إلى حيادهم .

أما عن حروب بيبرس ضد الصليبيين فكانت طويلة عنيفة ، امتازت دائما برجحان كفة بيبرس وانتصاره على خصومه . ذلك أنه لم تنقض سنة من السنوات العشر الواقعة بين ٦٥٩ هـ ، ٦٦٩ هـ ( ١٢٦١ م ١٢٧١ م ) دون أن يوجه بيبرس حملة صغيرة أو كبيرة ضد الصليبيين بالشام . وفي كل مرة كان بيبرس يحرز نصرا على الصليبيين ويستولى منهم على بعض المعاقل والمدن ، وقد يعقد معهم صلحا لمدة عشر سنوات ، ولكنه لا يلبث أن يعاود هجومه عليهم بعد قليل .<sup>(١)</sup>

وقد بدأت الحرب بين بيبرس والصليبيين سنة ٦٦١ هـ ( ١٢٦٣ م ) عندما هاجمت جيوش بيبرس الناصرة ، كما هاجم بيبرس بنفسه مدينة عكا ولكنه لم يفلح في الاستيلاء عليها.<sup>(٢)</sup> على أن الحرب الشاملة التي شنها بيبرس على الصليبيين لم تبدأ إلا في عام ٦٦٣ هـ ( ١٢٦٥ م ) عندما استولى بيبرس على قيسارية ويافا وعثليث وأرسوف . وفي العام التالي استولى بيبرس على صفد ثم على هوزين وتبنين ومدينة الرملة<sup>(٣)</sup> .

ولم يغفر بيبرس لمملكة أرمينية الصغرى في قيليقية أو لإمارتي انطاكية وطرابلس تحالفها مع المغول ضد المسلمين ؛ فأخذ يهدد سنة ٦٦٥ هـ ( ١٢٦٦ م ) للقيام بعمل حربي ضد هذه القوى الصليبية ، وأرسل جيشا تحت قيادة الأمير قلاون استولى على بعض القلاع الواقعة شمالي طرابلس لتحقيق ذلك الغرض .<sup>(٤)</sup> وفي صيف سنة ٦٦٥ هـ ( ١٢٦٦ م ) وجه السلطان بيبرس

---

(١) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 432.

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ سنة ٦٦١ ، ٦٦٢ هـ .

(٣) العيني : عقد الجمان سنة ٦٦٤ هـ ، المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥٥٠ .

(٤) Stevenson : The Crusaders, p. 339.

حملة كبرى ضد أرمينية الصغرى أثناء غياب ملكها هيثوم الأول في زيارة لمغول فارس ، ونجح المماليك في إنزال هزيمة كبرى بالأرمن قرب دربساك ( ٢٤ أغسطس ) .

وقد دمرت جيوش بيبرس في تلك الغزوة مدن أرمينية الصغرى وبخاصة أذنه وطرسوس والمصيصة ، كما أشعلوا النار في عاصمتها سيس ، وقتل أحد أبناء الملك هيثوم الأول في الحرب في حين أسر الابن الثاني ؛ وبعد ذلك عاد المماليك إلى الشام محملين بالغنائم ومعهم آلاف الأسرى من الأرمن (١) .

وأخيراً توج بيبرس جهوده ضد الصليبيين بالاستيلاء على أنطاكية في مايو سنة ١٢٦٨ م . وكانت خسارة الصليبيين بسقوط أنطاكية ضخمة ؛ لأنها كانت كبرى إماراتهم بالشام ، وثاني إمارة أسسوها بعد الرها ؛ لذلك جاء سقوطها إيذاناً بانتهاء البناء الصليبي بالشام ، بحيث لم يبق للصليبيين بعد ذلك من المدن الكبرى سوى عكا وطرابلس .

ثم إن حركة الجهاد التي قام بها بيبرس ضد القوى الصليبية في الشرق الأدنى لم تقتصر على أرمينية الصغرى والصليبيين بالشام ، وإنما امتدت إلى جزيرة قبرس . وكانت هذه الجزيرة قد حكمتها أسرة صليبية — هي أسرة لوزجنان — منذ أواخر القرن الثاني عشر ، مما مكنها من القيام بدور بارز نشيط في الحروب الصليبية أواخر العصور الوسطى .

ولم يستطع السلطان الظاهر بيبرس أن يغفر لملك قبرس تهديده لسفن المسلمين في شرق حوض البحر المتوسط ، أو مساعدته للصليبيين ضد المسلمين

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٤٠ ، المقرئى السلوك ج ١ ص ٥٥٢ .  
وسعيد عبد الفتاح عاشور : سلطنة المماليك وملكة أرمينية الصغرى ،  
( بحث نشر في مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية سنة ١٩٦٨ ) .



بالشام ، فأرسل حملة بحرية سنة ٦٦٨ هـ ( ١٢٧٠م ) لغزو قبرس<sup>(١)</sup> . ولكن هذه الحملة أصيبت بالفشل بسبب ريح عاصفة هبت على السفن الاسلامية قرب شاطئ قبرس فتحطم بعضها ، وعاد البعض الآخر دون نتيجة<sup>(٢)</sup> .

وهكذا شن بيبرس على الصليبيين حرباً عنيفة لاهوادة فيها ولا رحمة ، فاستولى سنة ٦٦٩ هـ ( ١٢٧١م ) على صافيتا وحصن الأكراد وحصن عكا والقرين ، وأخذ يستعد لمهاجمة طرابلس ذاتها ، لولا وصول الأمير ادوارد الانجائزى إلى بلاد الشام ومعه بضعة مئات من المحاربين ، مما جعل بيبرس يخشى أن يكون ذلك مقدمة لحملة صليبية كبيرة<sup>(٣)</sup> .

وجدير بالذكر أن حرص بيبرس على تقليم أظافر الصليبيين بالشام دفعه إلى القضاء على نفوذ الباطنية الحشيشية . وكانت هذه الطائفة قد قامت بدور خطير فى تاريخ الحروب الصليبية ، وأسهمت بقسط وافر فى انحلال بلاد الشام فى ذلك العصر . ثم أنهم لم يكتفوا باغتيال كثير من زعماء حركة الجهاد من المسلمين ، وإنما حالفوا الصليبيين ودفعوا لهم الأموال رمزاً للتبعية . لذلك سعى بيبرس للقضاء على نفوذ الباطنية فى بلاد الشام قضاء تاماً ، فعزل مقدمهم نجم الدين الشيرازى ، واستولى على حصونهم حصناً بعد آخر حتى استولى عليها جميعاً وأراح البلاد من شرهم<sup>(٤)</sup> .

### بيبرس ومغول فارس :

وفى الوقت الذى قام بيبرس بمحاربة الصليبيين وانتزاع مدنهم وقلاعهم

(١) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٤٧ — ٤٨

(٢) العيى : عقد الجمان حوادث سنة ٦٦٩ هـ .

(٣) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 343.

(٤) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥٥٧ .

بالشام ؛ حارب أيضاً مغول فارس ودفن شرم عن بلاد الشام ولم يسمح لهم مطلقاً بالتقدم غرباً خارج حدودهم في العراق .

والملاحظ عند دراسة حروب بيبرس أنه يصعب في كثير من الحالات الفصل بين حروبه ضد المغول وحروبه ضد الصليبيين ، بسبب ما كان هناك من تحالف قوى بين المغول والصليبيين ضد المسلمين في مصر والشام . لذلك كثيراً ما كان يحدث أن يحارب بيبرس المغول والصليبيين في وقت واحد ، ويخرج لحرب أحد الخصمين فيحارب الآخر .

والواقع أن العداء بين المماليك والمغول لم ينقطع منذ موقعة عين جالوت ، إذ ظل مغول فارس يتحينون الفرصة للثأر ، ويغيرون بين حين وآخر على أطراف دولة المماليك الشمالية بالعراق والشام . وإذا كان هولاء كو - خان مغول فارس - قد توفي سنة ٦٦٣ هـ ( ١٢٦٥ م ) فإن ابنه وخليفته أبغا واصل سياسة أبيه العدائية تجاه المسلمين من ناحية وسياسته الودية تجاه الصليبيين في الشام وأرمينية الصغرى من ناحية أخرى . ولكن بيبرس وقف دائماً بالمرصاد لمغول فارس وحال بينهم وبين ما يشتهون . من ذلك أن بيبرس لم يكذب يسمع سنة ٦٦٣ هـ ( ١٢٦٥ م ) بإغارة المغول على البيرة - وهي قلعة هامة على الفرات - حتى أرسل حملة سريعة لردهم ، فقر المغول هارين تاركين خلفهم أموالهم وعددهم (١) .

ومن الواضح أن موجة المغول السكاسجة كانت قد انكسرت حدتها عندئذ ، وأصبح مغول فارس أنفسهم في حالة من الاجهاد والمشاكل الداخلية لا تمكنهم من القيام بمحاولة كبرى لغزو الشام في النصف الأخير من القرن الثالث عشر . لذلك فكر أبغا في طلب الصلح من بيبرس ، ولجأ

---

(١) بيبرس الداوار : زبذة الفكرة ج ٩ ورقه ٩٠ .

فى طلبه إلى مزيج من الترغيب والتهديد ، إذا قال « فأنت لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت منا، فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحاً» (١). ولكن بيبرس كان يعلم جيداً أن الصلح مع المغول أمر لا يرضى عنه أى مسلم عندئذ ، بعد أن دمروا بغداد وقتلوا الخليفة المستعصم بالله ، وفعّلوا بالمسلمين فى العراق ما يتنافى مع قواعد الانسانية والرحمة . لذلك رفض بيبرس طلب أبغا للصلح وأعلن أنه إن يكف عن المغول حتى يسترد جميع البلاد التى اغتصبوها من المسلمين (٢) .

ولما يئس أبغا من الصلح أرسل رجاله للإغارة على بلاد الشام سنة ٥٦٦٨ هـ (١٢٦٩م) فهاجموا الساجور ، ولكنهم ارتدوا خائبين عندما رأوا العيوش التى أرسلها السلطان لمنازلتهم . ثم عاد المغول مرة أخرى لمهاجمة عين تاب وعمق الحارم سنة ٦٦٩ هـ (١٢٧١م) ، ولكن إغارتهم كانت محدودة الأثر والأهمية . وفى ذلك الوقت حاول الأمير ادوارد الانجليزى أن يستغل المغول فى مهاجمة المسلمين بالشام ، وأرسل فعلاً سفارة إلى أبغا لذلك الغرض ولكن أبغا لم يقدم للصليبيين أكثر من بضعة وعود ، بل إنه أرسل بعض الرسل للسلطان بيبرس لتجديد الكلام فى الصلح . وفى تلك المرة أحسن بيبرس استقبال رسل المغول فى دمشق وأرسل معهم بعض الهدايا لأبغا (٣) . ومع ذلك فإن بيبرس لم يوافق على مبدأ الصلح مع المغول مما جعلهم يحددون هجماتهم على البيرة ٦٧٠ - ٦٧١ (١٢٧٢ - ١٢٧٣م) .

وعندما وجد بيبرس أن المغول تحالفوا مع سلاجقة الروم بأسباب الصغرى ضده ، أعد حملة كبيرة سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٦م) لغزو سلاجقة

(١) المقرئزى : السلوك ج ١ ص ٥٧٤ .

(٢) العيني : عقد الجمان ج ٢٠ ورقة ٥٤٩ .

(٣) المقرئزى : السلوك ج ١ ص ٦٠٢ .

الروم . وفي موقعه ابلستين حلت الهزيمة ساحقة بالمغول وحلفائهم السلاجقة ، وفر معين الدين سليمان البرواناه زعيم السلاجقة بعد أن قتل عدد ضخم من من رجاله ومن المغول (١) وبعد ذلك دخل بيبرس قيصرية ودعى له على منابرها وقدم له أمراء السلاجقة فروض الولاء والطاعة ثم قفل راجعا إلى بلاد الشام . ويقال أن أبغا عندما سمع بما فعله بيبرس برجاله في أبلستين أسرع الى هناك سنة ٦٧٥ هـ ( ١٢٧٧ م ) فأشقت حنقه عندما وجد آلاف من رجاله المغول صرعى في حين لم ير أحدا من السلاجقة ، ولذلك أمر بقتل مائتي الف من المسلمين السلاجقة ، كما قتل البرواناه نفسه . (٢) ولم يلبث أن شغل أبغا باضطراب أحوال دولته ، مما صرفه عن القيام بعمل انتقامي ضد دولة المماليك .

### أبناء بيبرس :

لم يلبث أن توفي الظاهر بيبرس بدمشق سنة ٦٧٦ هـ ( ١٢٧٧ م ) بعد أن قام بجهود كبيرة في تدعيم دولة المماليك والدفاع عنها ضد أعدائها وبخاصة الصليبيين والمغول . والواقع أن السلطان الظاهر بيبرس يعتبر المؤسس الحقيقي لدولة المماليك ، لأن الفترة الطويلة نسبيا التي قضاها في الحكم مكنته من القيام بكثير من المشاريع الداخلية والخارجية التي أضفت على دولة المماليك الناشئة قدرا من الهيبة كانت أحوج ما تكون إليها .

ثم إن حروب بيبرس الطويلة ضد المغول والصليبيين لم تصرفه عن تأمين حدود مصر الجنوبية ، فأرسل حملة كبيرة إلى عمالة النوبة المسيحية سنة ١٢٧٦ نجحت في إخضاعها وإجبار ملكها على دفع الجزية (٣) هذا بالإضافة

(١) بيبرس الدرادر : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١١٨ .

(٢) رشيد الدين الهمداني : جامع التواريخ ج ٢ ص ٦٢ - ٦٣ ، أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٧٥ هـ .

(٣) مفضل ابن أبي الفضائل : النهج السديد ص ٢٣٤ - ٢٣٨ .

إلى ما قام به بيبرس من تأكيد نفوذه على بلاد الحجاز ، وما قام به في مصر من تحصين الثغور والعناية بالأسطول ، وما استحدثه من وظائف ونظم إدارية ، بحيث أنه يمكن القول بأن دولة المماليك اتخذت في عهد بيبرس طابعها الخاص المميز الذي ظلت عليه حتى أوائل القرن السادس عشر<sup>(١)</sup> . وكان بيبرس بوصفه أحد المماليك لا يحترم مبدأ الوراثة . ومع ذلك فقد غلبت عليه غريزة الأبوة فأراد أن يتحدى طبيعة المماليك ونظامهم ، وأن يورث العرش لابنه البكر سعيد بركة . وقد ظن بيبرس أن تولية ابنه عهد السلطنة في حياته وجعل الأمراء يقسمون يمين الطاعة لذلك الابن ، كفيل بأن يجعل الأمور تستتب على الوجه الذي يريده بعد وفاته . وفعلا أقسم الأمراء يمين الطاعة للملك السعيد بركة ٦٦٠ هـ ( ١٢٦٢ م ) وجعل ابنه نائبا عنه في مصر أثناء انشغاله بحرب الصليبيين والمنغول بعد ذلك . وفي سنة ٦٦٢ هـ ( ١٢٦٤ م ) أقام بيبرس احتفالا كبيرا قرى فيه تفويض عهد السلطنة للملك السعيد على القضاة والفقهاء والأمراء<sup>(٢)</sup> ومع ذلك فإن بيبرس لم يطمئن تماما إلى ما سيفعله الأمراء بابنه ، فحرص وهو على فراش الموت أن يوصي الملك السعيد بأن يأخذ حذره من كبار الأمراء ، فهؤلاء الأمراء الأكابر يرونك بعين الصبي . فمن بلغك عنه ما يشوش عليك ملكك وتحققت ذلك عنه فأضرب عنقه في وقته ولا تعتقله ، ولا تستشر أحدا في هذا ، وافعل ما أمرتك به وإلا ضاعت مصلحتك<sup>(٣)</sup> ،

ولم تكف تمضي على وفاة بيبرس فترة قصيرة حتى تحقق ظنه . ذلك أن

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ص ٤١ وما بعدها .

والظاهر بيبرس : ص ١٢٨ وما بعدها

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٦٨ — ٥١٥ ، للنويرى : نهاية الارب ج ٢٨ ورقة ١٦٠ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٢٤٠

أكابر الامراء تظاهروا في غمرة الاسى التي صحبت وفاة السلطان باحترامهم للعهد ، ونودي بالملك السعيد بركة سلطانا . ولكن امراء المماليك الذين لم يؤمنوا مطلقا بمبدأ الوراثة في الحكم ظلوا ينظرون الى الملك السعيد « بعين الصبي » وأخذوا يسببون له المتاعب في مصر والشام جميعاً .

وكان أن اتهم الامراء السلطان السعيد بركة بدس السم للأمير بدر الدين بيليك نائب السلطنة . وهكذا « اضطربت أمور الملك السعيد » وتعاقب بعض الامراء في نيابة السلطنة ، وكلها تولى واحد منهم ذلك المنصب لجأت بطانة السلطان الى تخويفه منه فيبعده .<sup>(١)</sup> ويروي المقرئ ان الملك السعيد قرب إليه صغار الامراء ، فنفرت منه قلوب كبار الامراء ، « فإنهم كانوا يأنفون من تملك الملك الظاهر عليهم ، ويرون انهم أحق منه بالملك ، فصار ابنه الملك السعيد يضع من اقدارهم ويقدم عليهم المماليك الاصاغر<sup>(٢)</sup> .

وفي سنة ٦٧٧ هـ ( ١٢٧٨ م ) خرج السلطان بركة الى دمشق ، فظن امراء دمشق أنه يريد بهم سوءا وفروا من وجهه . وعبثا حاول السلطان أن يستميلهم ويسترضيهم ليعودوا ولكنهم قالوا « لا سبيل الى مراجعته وقد انصدعت القلوب وجرت بهذه الخطوب »<sup>(٣)</sup> وعندما علم بركة أن هؤلاء الامراء ينوون السير الى مصر لخلعه ، اسرع بالعودة ، ولم يستطع دخول القلعة الا في صعوبة بالغة . على أن الامراء أسرعوا الى حصاره بالقلعة ، وشددوا عليه الحصار حتى ساء موقفه واضطر الى التنازل عن السلطنة بحضور الخليفة والقضاة والامراء ٦٧٨ هـ ( ١٢٧٩ )<sup>(٤)</sup> .

(١) المقرئ : ج ١ ص ٦٤٣ — ٦٤٤

(٢) المرجع السابق ص ٦٤٥

(٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفسكرة ج ٩ ورقة ٦٨

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١١٤ المقرئ : السلوك ج ١ ص ٦٥٥

لم يعد للسلطان بركة المخلوع مقام في مصر ، فخرج الى الكرك ولما  
ينقض على قيامه في منصب السلطنة عامان . وقد عرضت السلطنة عندئذ  
على أقوى الأمراء - وهو الأمير قلاون الاقي - ولكنه كان يدرك أن  
الأمور لم تنضج بعد نضجا كافيا ، فتظاهر بالزهد وقال « أنا لم أخلع  
الملك السعيد شرها الى السلطنة وحرصا على المملكة ولكن حفظا  
للنظام . . . والأولى ألا يخرج الامر من ذرية الملك الظاهر (١) ، وهكذا  
اختير الابن الثاني لبيرس - وهو الأمير بدر الدين سلامش - سلطانا  
٦٧٨ هـ ( ١٢٧٩ م ) في حين أصبح الأمير قلاون أتابكا للسلطان الجديد  
- أي وصيا عليه . وبهذه الطريقة حقق قلاون غرضه لأن السلطان  
كان في السابعة من عمره ، فاستغل قلاون وصايته للاستئثار بالسلطة  
والتخلص من المماليك الظاهرية . وعندما اطمأن قلاون تماما الى أن  
الاهور غدت هبة لا اعتلائه منصب السلطنة أعلن أنه « لا فائدة من بقاء  
ذلك الصبي الصغير ، لانتشار السمعة في البلاد ، وامتهان الحرمه في  
أنفس الحواضر والبوادى » .

وهكذا تم عزل بدر الدين سلامش سنة ٦٧٨ هـ ( ١٢٧٩ م ) قبل أن يمضي  
عليه في السلطنة ثلاثة أشهر ، وحل محله الأمير سيف الدين قلاون . (٢)

---

(١) المقريزي السالك ج ١ ص ٦٥٧ ، بيرس الحدادار : زبدة للمكرة ج ٩ ورقة ٧٤  
(٢) أبو الحمان : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٨٧ - ٢٨٩ ابن اياس : بدائع الزهور  
ج ١ ص ١١٤ .

## الفصل الرابع

### أسرة قلاون

تتمتع أسرة قلاون بأهمية خاصة في تاريخ المماليك . فمع أن المماليك لم يؤمنوا بمبدأ وراثة الملك — كما سبق أن أشرنا — إلا أن بيت قلاون شذ عن هذه القاعدة ، واستطاع أن يحتفظ بمنصب السلطنة في ذرية المنصور سيف الدين قلاون مدة أربعت عن قرن ٦٧٨ — ٧٨٤ هـ ، ( ١٢٧٩ — ١٣٨٢ ) مما يعتبر مثلاً فريداً في دولة المماليك . هذا إلى أن العصر الذي حكمت فيه أسرة قلاون يمثل عصر الازدهار في الدولة المماليكية ، إذ ظهرت في ذلك العصر جميع مميزات تلك الدولة ، واكتملت فيه معالمها مثلما ازدهرت حضارتها ، وذلك بعد أن انتهى الدور التأسيسي الذي نهض به السلطان الظاهر بيبرس ، وبعد أن أثبت المماليك قدرتهم على الحكم وعلى مواجهة الأخطار الكبرى التي هددت مصر والشام في ذلك العصر . وليس هناك من شك في أن الفضل يرجع إلى السلطان المنصور قلاون في إرساء هيبة بيته في النفوس ، وفي إحاطة اسمه واسم أسرته بهالة من المجد والعظمة ، جعلت المعاصرين يتمسكون بأبنائه وأحفاده من بعده ، ويرون في بيت قلاون رمزا للقوة والعظمة والاستقرار في الداخل والأمن في الخارج .

#### الأمير سيف الدين قلاون :

وكان الأمير سيف الدين قلاون أحد المماليك البحرية ، اشتراه الأمير علاء الدين أقسنقر — أحد عماليك العادل أبي بكر الأيوبي — بألف دينار ؛ وهو مبلغ ضئيل يدل على ما فيه من مواهب ، وغالى في قيمته لحسنه وصورته



فعرف بالألفي ، (١) . ولما مات الأمير علاء الدين ، انتقل قلاون إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فأصبح لقبه « الألفي العلائي الصالحى النجمى أبو الناصر محمد ، وسرعان ما أخذ نجم الأمير قلاون يرتقى بسرعة فى الأحداث التى صحبت قيام دولة المماليك ، إذ كان أحد زعماء البحرية البارزين ، فهاجر من مصر فراراً صحبة من فر من المماليك البحرية عقب مقتل زعيمهم فارس الدين أقطاي فى عهد أيبك ، ثم عاد إليها عندما حركت أحداث المغول المماليك نحو الوحدة . وهكذا حتى كانت سلطنة الظاهر بيبرس فبرز الأمير قلاون فى صورة أقوى أمراء الدولة ، وقويت مكانته عند السلطان بيبرس واعتمد عليه فى كثير من أعماله الحربية والسلامية (٢) .

على أنه لا يخفى علينا أن مجتمع المماليك قام إلى حد كبير على أساس الشك والتحاسد ، لأن المماليك اعتبروا أنفسهم زملاء متساوين ، والأمراء اعتقدوا أنه لا فضل لأحدهم على آخر . لذلك يبدو أن قلاون أحس بشعور الغيرة عندما وجد أحد زملائه وهو بيبرس يتولى منصب السلطنة ؛ وإن كان لم يستطع أن يعبر عن ذلك الشعور لقوة بيبرس ودهائه . يدل على ذلك ما يقوله المقرئى من أن كبار الأمراء كانوا يأنفون من تملك الملك الظاهر عليهم ويرون أنهم أحق منه بالملك (٣) ، وفى الوقت نفسه لا بد وأن يكون بيبرس -- وهو الرجل الذكى الذى يعرف جيداً روح المماليك -- قد أحس بازدياد نفوذ الأمير قلاون وعظم مكانته ، وأن هذا النفوذ وتلك المكانة تهدد مشروعات بيبرس المقبلة بخصوص حفظ منصب السلطنة من بعده لإبنه الملك السعيد . لذلك لجأ بيبرس إلى حيلة قوية ظمها تضمن بقاء العرش من بعده لأبنائه ، وهى أنه زوج ابنه الملك السعيد بركة من غازية خاتون

(١) أبو المحاسن : المنهل الصافي ج ٣ ورقة ٢٧

(٢) المقرئى : المواعظ ج ٢ ص ٢٣٨

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٦٤٥

ابنة الأمير قلاون سنة ٦٧٤ هـ ( ١٢٧٥ م ) وبذلك ظن بيبرس أن قلاون لن يطمع في انتزاع الملك من زوج ابنته<sup>(١)</sup> .

ولكن أطماع أمراء المماليك في الملك كانت أقوى بكثير من روابط المصاهرة ، فلم يكفد بيبرس يموت حتى أخذ قلاون يفكر في الملك ، وإن كان حريصاً على عدم كشف مطامعه . ولم يكن قلاون في تفكيره هذا غادراً أو مختصباً أو معتدياً على مالزوج ابنته من حقوق ، وإنما كان — وفق العقلية المماليكية — مطالباً بحق طال السكوت عليه ، ويكفي إنه رضى بالظاهر بيبرس سلطاناً وهو زميله ، فلا داعى بعد ذلك للخضوع لأبناء الظاهر وهم في نظره صبيان صغار .

وكان قلاون على قدر من الذكاء وبعد النظر جعله ينفذ اطماعه بطريقة تدريجية بطيئة ، ذلك أنه لم يعترض سبيل الملك السعيد بركة عندما تولى السلطنة بعد أبيه ، وإنما تركه يمضى في غيه دون أن يحاول اصلاحه أو نصحه . وعندما اشتد حصار الأمراء على السلطان بركة في القلعة سنة ٦٧٨ هـ ( ١٢٧٩ م ) وأرسل الأخير إلى حميه الأمير قلاون يطلب مساعدته ، أرسل الأمير قلاون إلى زوج ابنته ينصحه بترك السلطنة<sup>(٢)</sup> . وكان في وسع قلاون أن يعتلى العرش بعد عزل الملك السعيد بركة مباشرة ، ولكنه أمعن في التظاهر بالزهد ، فوافق على أن يتولى الحكم أخو بركة خان وهو الأمير بدر الدين سلا مش ابن السلطان الظاهر بيبرس ، في حين قنع الأمير سيف الدين قلاون بأن يكون أتابكاً للسلطان الجديد .

وهكذا أخذ قلاون — وهو أكبر أمراء الدولة وأقواهم — يتصرف في حكمة بالغة دون أن يستشير حقد بقية الأمراء . ومن الواضح أنه كان

(١) أبو الفدا : المختصر ج ٤ ص ١٥٥

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٣٧٩

السلطان الفعلي الحاكم للبلاد في عهد سلامش ، لأن الأخير كان طفلا لم يتجاوز السابعة من عمره ، مما جعل الكلمة الأولى والأخيرة في شئون الحكم للآتابك سيف الدين قلاون .

وحسب الأمير قلاون في ذلك الدور أن النقود كانت تسك وعلى أحد وجهيها اسم سلامش وعلى الوجه الآخر اسم قلاون ، كما ذكر اسم قلاون جنبا إلى جنب مع اسم العادل سلامش في خطبة الجمعة .<sup>(١)</sup>

ولم يضع الأمير قلاون تلك المدة القصيرة التي قضاه في الوصاية على السلطان الصغير سدى ، وإنما أخذ يمكن لنفسه في مختلف أنحاء الدولة ، فقبض على نسبة كبيرة من المماليك الظاهرية - وهم مماليك الظاهر بيبرس المخلصين له ولأبنائه - وعزل كثيرا من الولاة والنواب الذين كان الظاهر بيبرس وابنه السعيد بركة قد عينوهم بالولايات ، وأحل محلهم جماعة من انصاره . كذلك تخلص قلاون من بعض الأمراء المنافسين له أو الذين توهم منافستهم له في منصب السلطنة ، وأرسل الأمير شمس الدين سنقر إلى دمشق ليكون نائب السلطنة بالشام . أما زملاؤه من المماليك البحرية الصالحية فقد أحسن اليهم وأغدق عليهم الاقطاعات ليستميلهم إلى جانبه<sup>(٢)</sup> .

وأخيرا أدرك قلاون أن جميع الأمور باتت معدة لتوايه منصب السلطنة ، فدعا الأمراء وتحدث معهم في صغر سن العادل ، وقال لهم : قد علمتم أن المملكة لا تقوم إلا برجل كامل ، فاستقر الرأي على خلع سلامش وتولية الأمير سيف الدين قلاون منصب السلطنة سنة ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م) وهكذا لم يبق سلامش في السلطنة أكثر من ثلاثة شهور ، وأرسله مع أخيه

---

(١) أبوالمحسن : المنهل الصافي ج ٣ ورقة ٣٧  
(٢) بيبرس الحمدوادر : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ٧٤ .

خضر الى قلعة الكرك ؛ منفي أبناء السلاطين المعزولين في عصر المماليك<sup>(١)</sup>.

سلطنة المنصور قلاون ( ٦٧٨ - ٦٨٩ - ٥ - ١٢٧٩ - ١٢٩٠ م ) :

أجمع المؤرخون على وصف السلطان المنصور قلاون بأطيب الصفات وأحلاها . فيبيرس الدوادار قال عنه أنه « كان حلما ، عفيفا في سفك الدماء مقتصدآ في العقاب ، كارها الأذى ، »<sup>(٢)</sup> وابن فضل الله العمرى وصفه بأنه « كان رجلا مهيبآ شجاعآ . »<sup>(٣)</sup> وفي ضوء هذه الصفات الطيبة فسر المؤرخون بقاء الحكم في بيته مدة طويلة لأن الله اكرمه في ذريته وجازاه بالحسنى على طيب أفعاله .

ولم يسكد قلاون يعتلى العرش حتى أخذ يتقرب إلى الناس بطيب أفعاله . وإذا كان بعض المؤرخين قد أخذ عليه حبه لجمع المال<sup>(٤)</sup> ، فإن الاموال التي جمعها قلاون استغلها في إقامة كثير من المنشآت الحيوية التي خلدت ذكره والتي كان أشهرها المدرسة والبيمارستان ، وهي أمور لم يسبقه إلى ذلك فيها أحد قديما ولا حديثا ، شرقا ولا غربا .<sup>(٥)</sup> هذا عدا القلاع التي جددتها بالشام ، والحروب التي قام بها ضد الصليبيين والمغول مما تطلب مزيدآ من المال .

ولم يسلم السلطان المنصور قلاون من الثورات الداخلية التي تعرض لها معظم سلاطين المماليك في بداية حكمهم ، « فلم يبلع ريقه » - على قول

---

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٦٥٨ ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١١٤  
Wiet : L'Egypte Arabe, p. 54.

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ٧٥ - ٧٦

(٣) ابن فضل الله العمرى : مسالك الألبصار ج ١٦ ورقة ٦٥٠

(٤) ابن شاكر السكيتى : فوات الوفيات ج ٢ ص ١٢٤

(٥) ابو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٢٢٧

المؤرخ أبي المحاسن - حتى خرج عليه الأمير شمس الدين سنقر الأشقر نائب الشام . ويبدو أن الأمير سنقر عز عليه أن يتولى منصب السلطنة دونه الأمير قلاون ، وهو زميله ، فدعا أهل الشام الى الخروج عن طاعة قلاون . بل إن سنقر نادى بنفسه سلطاناً وتلقب بالملك الكامل . ولكن الأمير سنقر لم يجد تأييداً من أهل دمشق ، وفي الوقت نفسه بادر قلاون بأرسال جيش قوى أنزل به الهزيمة سنة ٦٧٩ هـ ( ١٢٨٠ م ) ، وعندئذ فر سنقر شرقاً، وحاول أن يتصل بالمغول ويزين لهم غزو بلاد الشام .<sup>(١)</sup> وفي العام التالي تأمر بعض الامراء الظاهريه - من مماليك الظاهر بيبرس - على السلطان قلاون، واتصلوا بالصلبيين سرآ ، فعلم قلاون باسرار المؤامرة وعاقب المتآمرين بالاعدام والسجن .<sup>(٢)</sup>

ويبدو أن احساس قلاون بموقف المماليك الظاهريه منه ، جعله يفكر جدياً في إنشاء عصبية من المماليك لنفسه ، يعتمد عليها في مواجهة الاخطار الداخلية والخارجية التي تواجهه . لذلك أكثر قلاون من شراء المماليك وأنشأ فرقة جديدة منهم ، رباهم بابرأج القلعة ، ولذلك عرفوا بالمماليك البرجية .<sup>(٣)</sup>

وبعد أن تخلص السلطان قلاون من الأخطار الداخلية التي واجهته ، بدأ ينصرف نحو المغول والصلبيين الذين ما فتئوا يهددون بلاد الشام بين فينة وأخرى . وكان الأمير سنقر الأشقر قد استولى على عدة قلاع بالشام أهمها قلعة صمبون ، ومن هناك أرسل يستنجد بالمغول والصلبيين جميعاً ،

---

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٦٧٦ وما بعدها

(٢) مفضل ابن أبى الفضائل : المنهج السديد ج ٢ ص ٣٢٢ ، النويرى : نهاية الأوب ح ١٩ ورقة ٢٧٨ .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١١٥ ، ابن دقماق الجوهري الثمين ورقة ١١٧

ضد خصمه قلاون<sup>(١)</sup>. وقد شجعت هذه الأحداث الداخلية في دولة المماليك المغول ، فأرسل أبغا في سنة ٦٧٩ هـ ( سبتمبر سنة ١٢٨٠ م ) قوة احتلت بعض القلاع في شمال الشام، حتى رحل المغول إلى حلب فدخلوها واحرقوا جوامعها ومدارسها، وقتلوا كثيرا من أهلها . على أنه يبدو أن غزوة المغول للشام سنة ٦٧٩ هـ ( ١٢٨٠ م ) ، كانت من قبيل الأعمال الاستكشافية ، بدليل أنهم أسرعوا بالعودة الى قواعدهم بالعراق عندما علموا أن السلطان قلاون وصل غزة فعلا في طريقه اليهم لمنازلتهم<sup>(٢)</sup> .

على أنه إذا كان المغول قد ارتدوا الى العراق ، إلا أن غزوتهم للشام سنة ٦٧٩ هـ ( ١٢٨٠ م ) نبهت قلاون الى الخطر الذي يحيق به نتيجة لتحاليف أعدائه الثلاثة ، المغول والصليبيين وسنقر الأشقر . فالمغول هاجموا الشام عندئذ بناء على استغاثة الأمير سنقر ، وفي الوقت نفسه استغل الصليبيون فرصة أغارة المغول وحاولوا استرداد حصن الاكراد سنة ٦٧٩ هـ ( اكتوبر سنة ١٢٨٠ م ) ، وإن كانت محاولاتهم هي الأخرى قد باءت بالفشل<sup>(٣)</sup> لذلك أخذ قلاون يتبع سياسة جديدة تستهدف التفرقة بين خصومه وعدم تمكينهم من الاتحاد ضده ليتمكن من منازلة كل منهم على حدة . ويبدو أن قلاون أراد أن ينزل ضربته الأولى بالمغول ، لأنه بدأ بعقد صلح في سنة ٦٨٠ هـ ( مايو سنة ١٢٨١ م ) لمدة عشر سنوات مع القوى الصليبية الرئيسية في بلاد الشام، وهم الداوية والاسبتارية ونوهيموند السابع أمير طرابلس . أما سنقر الأشقر - خصم قلاون العنيد - فقد عفا عنه السلطان فيما بعد سنة ٦٨٦ هـ ( ١٢٨٧ م ) وأجزل له العطاء وعينه حاكما

(١) ابو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٧٩ هـ

(٢) ابو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٢٩٩ . Wiet : L'Egypte Arabe, p. 445.

(٣) King : The Knights Hospitallers in the Holy land, p. 282.

على إقليم انطاكية<sup>(١)</sup> . هذا في الوقت الذي وقف الصليبيون في عكا ،  
بوقف الحياض بين قلاون وخصومه ، بل إن الفضل يرجع اليهم في تنبيه  
قلاون الى المؤامرة التي دبرها الظاهرية ضده ، كما سبق أن اشرنا .

وكان أن خرج أبغا بنفسه إلى الشام على رأس جيش كبير من المغول  
في سنة ٦٨٠ هـ ( سبتمبر سنة ١٢٨١ م ) . وتحالف مع المغول في غزوتهم  
هذه ليو الثالث ملك أرمينية الصغرى . وفي موقعة حمص التي دارت بين  
السلطان قلاون والمغول سنة ٦٨٠ هـ ( ٣٠ أكتوبر سنة ١٢٨١ م ) ، حلت  
الهنزية ساحقة بالمغول وولوا الأدبار إلى العراق بعد أن د هلك منهم خلق  
كثير ، (٢) . وما دام السلطان قلاون قد أحرز هذا النصر على المغول ، فإنه  
رأى أن ينتهن الفرصة لينزل ضربته الثانية بالصليبيين على الرغم من أنه كان  
قد عقد معهم صلحا لمدة عشر سنوات لم تنقض منها سوى أربع سنوات  
فقط . ففي سنة ٦٨٤ هـ ( ١٢٨٥ م ) هاجم قلاون الاسبتارية في حصن المرقب  
- وهو من أخطر الحصون الصليبية بالشام - واستولى عليه فعلا ، مما سبب  
خسارة كبرى للصليبيين<sup>(٣)</sup> .

وفي الوقت الذي كان المهالك يتأهبون للإجهاز نهائيا على الصليبيين بالشام  
لم يتنبه الصليبيون إلى حقيقة الخطر الذي يتهددهم ، واستمروا غارقين في  
منازعاتهم الداخلية ، وهي المنازعات التي ميزت تاريخ الصليبيين بالشام في  
النصف الأخير من القرن الثالث عشر<sup>(٤)</sup> وقد انتهز السلطان قلاون فرصة  
إنشغال الصليبيين بتلك المنازعات وأرسل حملة استولت على اللاذقية سنة ٦٨٦ هـ

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٣٩ ورقة ٣٧٠

(٢) رشيد الدين الهمداني : جامع التواريخ ، ج ٢ ص ٨٣

(٣) المقرئ : السلوك ج ١ ص ٧٢٨ ، أبو الفدا : المختصر ، حوادث ٦٨٤ هـ

(٤) Runciman : History of the Crusades, III, pp. 402-403. (٤)

(ابريل سنة ١٢٨٧م)، وهو آخر بلد كان قد تبقى للصليبيين من إمارة انطاكية .  
وشاء سوء حظ الصليبيين في تلك الظروف أن يموت بوهموند السابع أمير  
طرابلس دون وريث ، فقام في إمارته نزاع داخلي حول وراثة الحكم ،  
واستنجد فريق من المتنازعين بالسلطان قلاون<sup>(١)</sup> .

وهنا أسرع قلاون إلى اقتراض الفرصة ، فتجهز لأخذ طرابلس ،  
وخرج من مصر على رأس جيشه في فبراير ١٢٨٩م . وكان جيش قلاون  
كبيراً - يزيد عن أربعين ألف فارس ومائة ألف من المشاة - فلم تستطع  
طرابلس مقاومة الحصار الذي فرضه عليها السلطان وسقطت في قبضته سنة  
١١٨٨هـ ( أبريل سنة ١٢٨٩ )<sup>(٢)</sup> .

ولم يلبث المسلمون أن استولوا على المراكز التي أخلاها الصليبيون  
قرب طرابلس - مثل بيروت وجبله - ؛ وبذلك لم يبق للصليبيين من  
ملكهم العريض في بلاد الشام سوى عكا وصيدا وصور وعثليث<sup>(٣)</sup> . ومن  
الواضح أن عكا كانت أعظم هذه المدن الصليبية وأمنعها ، وأنها صارت  
المركز الجديد لملكية بيت المقدس الصليبية بعد استيلاء صلاح الدين على  
بيت المقدس ، ومع ذلك فإنه لم يكن في نية السلطان قلاون مهاجمة عكا  
عقب استيلائه على طرابلس مباشرة . ذلك أن قلاون اتجه إلى دمشق ،  
حيث وافق على تجديد الهدنة مع الصليبيين لمدة عشر سنوات<sup>(٤)</sup> .

وبينا الصليبيون في الشام يخطبون ود السلطان قلاون ويسألون الله

(١) أبو المعاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢٠ - ٣٢١

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٤٦ - ٧٤٧

(٣) Grousset : op. cit., III, p. 145.

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٧٧



أن تبقى لهم البقية الباقية من مدنهم بالشام ، إذا ببعض الجوع الصليبية تفد من إيطاليا سنة ٥٦٨٩ ( ١٢٩٠م ) لتفسد الجو بين المسلمين والصليبيين. ذلك أن أولئك الصليبيين الجدد وصلوا عكا وهم يفيضون حماسة، وفي الوقت نفسه ينقصهم النظام والخبرة وضبط النفس ، فاعتدوا على المسلمين خارج أسوار عكا مما أندر بتجدد الحرب بين المسلمين والصليبيين . ويقال أن السلطان قلاون عندما رأى ملابس ضحايا المسلمين مزرجة بالدماء استشاط غضباً وأقسم على أن ينتقم لهم من الصليبيين . وفي الوقت الذي أخذ قلاون يستعد في مصر والشام للقيام بعمل حربي كبير ضد عكا ، إذا بالسلطان يموت فجأة سنة ٥٦٨٩ ( ١٠ نوفمبر سنة ١٢٩٠م )<sup>(١)</sup> .

### السلطان الأشرف خليل والاستيلاء على عكا :

لم يتعظ السلطان المنصور قلاون بما حدث لأبناء الظاهر بيبرس ، فغلبت عليه غريزة الأبوة وأراد أن يخرق شريعة الممالك في الحكم فيعهد بالسلطنة من بعده لأبنة الأكبر .

بل إن المنصور قلاون تمادى ، فلم يكتف بما فعله الظاهر بيبرس من تولية ابنه الأكبر عهد السلطنة ، وإنما أراد قلاون أن يقيم ابنه الأكبر علاء الدين على سلطناً في حياته . وفعلاً تمت هذه الخطوة سنة ٦٧٩ هـ ( ١٢٨٠م ) ، فأقيم حفل بالقلعة قرىء فيه تقليد علاء الدين علي بن قلاون بحضور الأمراء والكبراء ، ولقب السلطان الجديد الملك الصالح<sup>(٢)</sup> .

ولكن شاءت الظروف أن يموت الملك الصالح علي بن قلاون سنة ٦٨٧ هـ ( ١٢٨٨م ) بعد أن قضى ثمان سنوات سلطناً في حياة أبيه . وقد ضاعف

(١) المقرئى : السلوك ح ١ ص ٧٥٤

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ح ٩ ورقة ٨٢-٨٥

من حزن قلاون على ابنه علاء الدين أن الابن الثاني للسلطان — وهو خليل — كان مكروهاً من الأمراء ، لما عرف عنه من قسوة وعدم تمسك بقواعد الدين ؛ بل لقد اتهمه البعض بأنه هو الذى دس السم لأخيه علاء الدين (١) ومن الثابت تاريخياً أن ولاية العهد للأمير خليل كتبت فعلاً فى حياة أبيه وأن السلطان قلاون لم يوقعها . وسواء كان عدم توقيع كتاب ولاية العهد راجعاً إلى عدم ارتياح قلاون لأن يخلفه ابنه خليل فى حكم المسلمين — كما قال بعض المؤرخين — ، أو إلى انشغال قلاون بأمر الصليبيين حتى دهمه الموت فجأة ؛ فالمهم هو أن السلطان المنصور قلاون توفى دون أن يعتمد ولاية العهد لابنه خليل (٢) .

ومهما يكن الأمر ، فإن ما قام به السلطان قلاون فى حياته من إعلان ابنه علاء الدين سلطاناً فى حياته بموافقة الأمراء ، وما أعقب ذلك من كتابة ولاية العهد لابنه الثانى خليل بعد وفاة علاء الدين على ؛ كل ذلك جعل خليل لا يصادف صعوبة فى المناداة به سلطاناً عقب وفاة أبيه سنة ٦٨٩ هـ (١٢٩٠م) ؛ لاسيما وأن الموقف كان يتطلب قيام سلطان جديد بسرعة ليقود الحملة التى كان المنصور قلاون قد أعدّها للنار من الصليبيين فى عكا . وهكذا أقسم الأمراء الايمان للسلطان خليل — الذى لقب بالأشرف — سنة ٦٨٩ هـ (١٢٩٠م) وبدأ السلطان الجديد يتأهب للخروج على رأس الحملة إلى الشام .

على أن الأمور لم تتم للسلطان الجديد فى هدوء تام ودون أن يتعرض للمنافسة التقليدية التى تعرض لها معظم سلاطين المماليك من جانب كبار

---

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٩٢ — ٧٩٣

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٦٨٢ ، ٨٥٠ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٣٢٠  
القلقشندي : صبح الأعشى ج ٢٠ ص ١٦٦ — ١٧٣ ، النويرى نهاية الأرب ج ٢٩  
ورقة ٢٩٣ .

الأمرام . وذلك أن الأمير حسام الدين طر نطاي نائب السلطنة عز عليه  
ألا يفوز هو بالعرش بعد وفاة قلاون ، فدبر مؤامرة للتخلص من الأشرف  
خليل . وفي الوقت الذي تفامل الصليبيون في عكا بسبب ما حدث في داخل  
الدولة المماليكية من وفاة السلطان قلاون وتآمر الأمير حسام الدين ضد  
السلطان الجديد الأشرف خليل ، إذا بالسلطان خليل يكشف المؤامرة في  
سرعة ، فقبض على حسام الدين طر نطاي وقتله بعد أن صادر أملاكه ، كما  
أعطى إقطاعه للأمير بدر الدين بيدرا الذي أصبح نائب السلطنة . (١)

وعندما علم الصليبيون في عكا أن السلطان الأشرف خليل تغلب على  
الصعاب التي واجتهه ، وإنه بصدد الخروج اليهم ، حاولوا ثنيه عن عزمه ،  
فأرسلوا إليه سفارة يسألون العفو ، ولكن السلطان دلم يقبل منهم ما  
اعتذروا به ، (٢) وهكذا اجتمعت الجيوش الإسلامية من مصر وبلاد  
الشام أمام عكا سنة ٦٩٠ هـ (أوائل ابريل سنة ١٢٩١ م) ، فبدأ حصار  
المدينة ورميها بالمجانيق رميا متواصلا . وقد بذل الصليبيون جهداً مستميتاً  
في الدفاع عن عكا ، ولكن جهودهم ذهبت مع الريح ، فاقتحم المسلمون  
المدينة سنة ٦٩٠ هـ (١٨ مايو سنة ١٢٩١ م) وفر من استطاع الفرار من  
الصليبيين في السفن إلى عرض البحر ، حيث غرقت بعض السفن بسبب كثرة  
من تحمله من الفارين (٣) .

ولا شك في أن استيلاء المسلمين على عكا كان بمثابة الضربة الكبرى  
الختامية التي نزلت بالصليبيين في الشام . ولم يصبح للصليبيين بعد ذلك مقام  
في تلك البلاد ، فاستولى المسلمون في سهوله على المراكز القليلة الباقية

(١) بيبس الدوادار : زبدة الفكرة ح ٩ ورقة ١٠٧

(٢) المقریزی : السنوك ح ١ ص ٧٦٢

(٣) أبو المحاسن : النجوم ح ٨ ص ٦ - ٧ أبو الفدا : المختصر سنة ٨٦٩٠ .

بأيديهم مثل صور وصيدا وانطرطوس وعثليث . . (١) وبذلك كان السلطان الأشرف خليل قلاون هو بطل آخر صفحات الحروب الصليبية بأرض الشام .

على أن نجاح السلطان الأشرف خليل في طرد آخر البقايا الصليبية من الشام لم يشفع له لدى كبار الأمراء ، الذين ازداد حنقهم عليه لغدره واستخفافه بهم . ويبدو أن نجاح الأشرف خليل في الاستيلاء على عكا جعله يتمادى في كبريائه وتعاضمه على الأمراء ، حتى ضاقوا به ذرعا وأخذوا يفكرون في التخلص منه . وقد تزعم حركة التآمر على الأشرف خليل الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة الذي ساءت علاقته بشكل خطير بينه وبين السلطان . ذلك أن الوزير شمس الدين بن السلعوس أخذ يوغر صدر السلطان ضد بيدرا ، وأوهمه أن أملاك بيدرا ازدادت بشكل يهدد السلطان نفسه ، فليجأ الأشرف خليل إلى استعادة بعض الأملاك التي كان بيدرا قد استولى عليها (٢) .

وكان أن أحس الأشرف خليل بتغيير بيدرا عليه ، فحاول - بعد فوات الأوان - أن يسترضيه وأرسل إليه مائة ألف دينار ليطيب خاطره بها (٣) . ولكن بيدرا كان قد وضع خطته فعلا بالإشتراك مع بعض كبار الأمراء ، مثل حسام الدين لاجين وشمس الدين قراسنقر وسيف الدين بهادر . وعند خروج الأشرف خليل للصيد سنة ٦٩٣ هـ ( ١٢٩٣ م ) تبعه الأمراء المتآمرون . ولم يلبث أن ضربه بيدرا بالسيف ثم تبعه بقية الأمراء حتى أجهزوا عليه (٤) .

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٨٣ - ١١٨٤ .

(٢) المقرئزي : السلوك ج ١ ص ٧٨٢ - ٧٨٣ .

(٣) مفضل ابن أبي الفضائل : النهج السديد ج ٢ ص ٤٠٣ - ٤٠٤ .

(٤) مفضل ابن أبي الفضائل : النهج السديد ج ٢ ص ٤٠٥ - ٤٠٦ المقرئزي : السلوك ج ١ ص ٧٩٠ .

## السلطان الناصر محمد بن قلاون :

تكررت عقب مقتل الأشرف خليل نفس التمثيلية التي حدثت عقب مقتل السلطان قطز ، إذ اجتمع المتآمرون وقر رأيهم على أن يلي بطل المؤامرة عرش السلطنة . وهكذا حلف الأمراء يمين الولاء للأمير بيدرا وقبلوا له الأرض ولقبوه بالملك الأوحده<sup>(١)</sup> . ولم يبق بعد ذلك سوى أن يغادر السلطان الجديد وشركاؤه مكان الجريمة عند ترووجه بمديرية البحيرة في طريقهم إلى القاهرة ليحتل بيدرا مكانه في القلعة . ولكن مماليك السلطان الأشرف خليل - بزعامه زين الدين كتبغا - لم يتركوه يصل إلى القاهرة ، إذ ما كادوا يسمعون بمقتل أستاذهم حتى أسرعوا في تعقب بيدرا وأنزلوا به الهزيمة في البحيرة ، بل قتلوا بيدرا نفسه . وهكذا خلا المسرح من الأشرف خليل وبيدر الدين بيدرا جميعاً ، وظهر بطل جديد هو الأمير زين الدين كتبغا ، الذى سار صحبة رجاله إلى القاهرة لينادى بنفسه سلطاناً في القلعة . ولكن الأمير علم الدين سنجر الشجاعى - الذى كان السلطان الأشرف خليل قد أنابه عنه في قلعة الجبل قبل خروجه للصيد - حال بين كتبغا وبين دخول القاهرة ، حتى انتهت المفاوضات بين الطرفين باختيار الملك الناصر محمد ابن قلاون سلطاناً<sup>(٢)</sup> .

ومن الواضح أن الناصر محمد بن قلاون كان طفلاً صغيراً لم يتجاوز عمره عندما ولى سلطاناً لأول مرة سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٣ م) تسع سنوات ، فلم يكن اختيار الأمراء له ناجماً عن احترام شخصيته أو رغبة منهم في احترام أحييته في الحكم بوصفه ابن السلطان المنصور قلاون . وإنما اختاره الأمراء

---

(١) وقيل الملك الأجد ، وقيل الملك القاهر ، وقيل الملك الرحيم . ( أبو الفدا : المختصر ج ١ ص ٣٠ ، ابن آياس بدائع الزهور ج ١ ص ١٢٧ المقرئى : المواعظ ج ٢ ص ٣٣٩ تاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ٢٣٨ ) .  
(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٤١ ، مفضل ابن أبي الفضائل : النهج السديد ص ٥٧٥ .

وفقاً لسياستهم التقليدية حسماً للموقف بينهم، إلى أن تظهر شخصية قوية بين صفوفهم تستطيع الإطاحة بذلك الطفل وتولى الحكم . وفعلاً قضى الناصر محمد سنة في الحكم كان شبه محجور عليه بالقلعة ، في حين استبد بأمور الدولة الأمير علم الدين سنجر الشجاعى، ثم الأمير كتبغا المنصورى . ذلك أن كتبغا عندما أدرك ازدياد نفوذ الشجاعى بدرجة تهدده ، صمد له وقاتله حتى تخلص منه بالقتل (١) .

وقد لجأ كتبغا إلى العفو عن بعض الأمراء الذين اشتركوا في قتل الأشرف خليل — مثل الأمير حسام الدين لاجين والأمير قراسنقر — فأثار ذلك المماليك الأشرافية . وكان أن اتخذ حسام الدين لاجين تلك الثورة ذريعة لإيزين الأمير كتبغا عزل الناصر محمد وإعلان نفسه سلطاناً بدله ، وفتى كبر الناصر محمد لا يبقيك البتة . . . والمصلحة خلعه وسلطنتك ، (٢) .

وهكذا جمع الأمير كتبغا الأمراء ، وتشدد بنحس الأسطورة القديمة التي سبق أن ردها قطز وقلاون ، يقال لهم ، لقد فسدت الأحوال لكون السلطان صغير السن وطمع المماليك في حق الرعية ؛ وهن الرأى ان نولى سلطاناً كبيراً يقمع المماليك عن هذه الأفعال (٣) ، وهكذا عزل الناصر محمد الصغير من السلطنة سنة ٥٦٩٤ (١٢٩٤م) وحل محله كتبغا .

### السلطان العادل كتبغا :

أما السلطان العادل كتبغا الذى تولى السلطنة سنة ٥٦٩٤ ( ١٢٩٤ م ) فكان مغولى الاصل ، ويقال أنه من أسرى موقعة حمص . على أن الناس

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٩٧ — ١٠١ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٤٨ — ٤٩ .

(٣) ابن أياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٣٢ .

تشابهوا من كتبغا وحكمه لأنه جاء مصحوباً بانخفاض النيل واشتداد المجاعة وارتفاع الأسعار وانتشار الوباء<sup>(١)</sup>.

ويروى المقرئى أن جميع الناس بالقاهرة ترددت على البيوتهم عبارة واحدة يوم ركوب كتبغا بشعار السلطنة هي « يانهار الشوم ! إن هذا النهار نحس ! »<sup>(٢)</sup>. وزاد من كراهية الناس لكتبغا وحكمه أنه وفد على مصر فى عمده جماعة من بنى جنسه من المغول ، عرفوا باسم العويراتيه أو الأويراتيه — فرحب بهم كتبغا وبالغ فى إكرامهم رغم أن معظمهم كانوا وثنيين. وكانت أعدادهم كبيرة — إذ قاربوا العشرة آلاف — فأدى ترحيب كتبغا بهم إلى استثارة شعور الأهالى وإلى نقيمتهم على السلطان<sup>(٣)</sup>.

وعلى الرغم من أن السلطان كتبغا عفا عن الأمير حسام الدين لاجين الذى شارك فى قتل الأشرف خليل ، كما عين ذلك الأمير نائباً للسلطنة ، إلا أن لاجين لم يلبث أن طمع فى السلطنة مستغلاً عوامل الكراهية التى أخذت تتجمع ضد كتبغا . ويردد بعض المؤرخين أن أمراء الشام غضبوا على كتبغا لأنه عزل الأمير عز الدين أيبك الحموى نائب السلطنة بالشام وولى أحد مماليكه بدله ، فضلاً عن أن كتبغا عندما زار دمشق لأول مرة بعد سلطنته سنة ٦٩٤ هـ ( ١٢٩٥ م ) لم يوزع على الأمراء ما جرت به عادة السلاطين السابقين من منح أو انعامات<sup>(٤)</sup>.

وكان أن دبر لاجين مؤامرة مع الأمراء لقتل كتبغا أثناء عودته من الشام إلى مصر ، واختير موضع قرب طبريه لتنفيذ المؤامرة . غير أن

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٨١٣ — ٨١٤

(٢) المرجع السابق : ج ١ ص ٨٠٧

(٣) أبو الفدا : المختصر ج ٤ ص ٣٣

(٤) مفضل ابن ابى الفضائل : النهج السديد ص ٥٩٢ — ٥٩٤

كتبنا تمكن من الفرار، وعاد إلى دمشق، في حين أعلن حسام الدين لاجين نفسه سلطانا وبايعه الامراء، وأتى إلى القلعة حيث تلقب بالسلطان المنصور<sup>(١)</sup>.

### السلطان المنصور لاجين :

تولى السلطان المنصور حسام الدين لاجين منصب السلطنة سنة ٥٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م)، في حين وجد كتبنا نفسه مغلوباً على أمره فقبل ما عرضه عليه لاجين من التنازل عن الحكم والإقامة في مدينة صرخند من أعمال دمشق<sup>(٢)</sup>.

على أن كتبنا لم يكن العقبة الوحيدة أمام السلطان لاجين وإنما كان الناصر محمد بن قلاوون مازال يقيم في القلعة على مقربة من أهل القاهرة الذين نظروا إليه دائماً على أنه صاحب حق شرعي في السلطنة . لذلك تحايل السلطان لاجين على إبعاد الناصر محمد إلى قلعة الكرك سنة ٥٦٩٦ هـ (١٢٩٦)، بعد أن أوهمه أنه سيعيده إلى عرشه عندما يبلغ سن الرشد ، وإنه يقوم بالوصاية على الملك بدله لصغر سنه<sup>(٣)</sup>.

وكان الأمراء قد اشترطوا على لاجين عند مبايعته سلطاناً — ألا يحابي بمالهم على حسابهم — كما فعل كتبنا — وألا ينفرد برأيه وألا تخول مملوكه منكوتر في التحكم والتدبير فتضل ، وعندئذ تعهد لهم لاجين بكل ذلك وقال لهم : أنا واحد منكم ولا أخير نفسي عنكم ، ولست مولياً عليكم من

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٨٢٢-٨٢٣

(٢) وقد ظل كتبنا هقيماً في صرخند حتى أنعم عليه الناصر محمد — في سلطنته الثانية — بمجماء وأعمالها فزال بها إلى أن توفي سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) أبو الفدا : المختصر ج ٤ ص ٣٤ ، أبو المعاسن : النجوم ج ٨ ص ٦٧ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٣١٥



عالمكي أحدا،<sup>(١)</sup> . ولكن سرعان ما نسي لاجين وعوده بعد أن أستتبت له الأمور، فعزل شمس الدين قراسنقر الذي كان قد عينه أولا نائبا للسلطنة، وعين بدله في منصبه ملوكة منكوتمر ، مما جاء بداية للمتاعب التي واجهت السلطان لاجين . ذلك أن منكوتمر لم يلبث ان أستثار الأمراء بتضييقه عليهم وتشكيكه فيهم واقصائهم عن مناصب الدولة وإحلال غيرهم من بمالك لاجين محلهم . بل إن منكوتمر تسلط على السلطان تسلطا غريبا ، فاستحوذ على عقل مخدومه وأستولى عليه وحجبه عن الخاصة والعامة، ويبدو أن منكوتمر أعد نفسه لأن يخلف لاجين في منصب السلطنة ، لاسيما وأن الأخير لم يكن له ولد يحرص على أن يولي عهد السلطنة ، الامر الذي أثار حنق الامراء وجعلهم يفكرون في التخلص من لاجين ومنكوتمر جميعا<sup>(٢)</sup> . ولم يلبث أن انتهى الأمر بقتل لاجين وهو جالس بالقلعة يلعب الشطرنج سنة ٦٩٨هـ (١٢٩٨م) ثم قتل منكوتمر بعده بقليل<sup>(٣)</sup> .

### عودة السلطان الناصر إني العرش ٦٩٨هـ (١٢٩٨م) :

لم يوجد بين امراء المماليك - عقب مقتل لاجين ومنكوتمر - شخصية كبرى تستطيع أن تسيطر على الموقف وتستأثر بالسلطنة ، فاضطر الامراء وسط ذلك الفراغ إلى التفكير في الناصر محمد بن قلاوون الذي كان يقضى أيامه في الكرك، والذي ظل دائما يبدو في صورة صاحب الحق الشرعي في السلطنة . وكان أن استحضر الناصر محمد إلى مصر ليتولى منصب السلطنة للمرة الثانية (٦٩٨ - ٥٧٠٨ = ١٢٩٨ - ١٢٠٨م) فاستقبل استقبالاً حماسياً رائعاً من

(١) بويرس الدوادار : زبده الفكرة ج ٩ ورقة ١٧٢ ، مفضل ابن أبي الفضائل : النهج

السديد ص ٥٩٦ .

(٢) الزويرى : نهاية الارب ج ٢٩ ورقة ٣١٩ ، ابو الحسن : المنهل الصافي ج ٣ ورقة ٦٧

(٣) مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد ص ٦٠٤ ، ابن ابياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٣٧ - ١٣٨

المماليك وعامة الناس سواء ، وتفاهل الناس بمقدمه وأقاموا الزينات في طريقه حتى صعد إلى القلعة . وهناك في القلعة جددت له البيعة ، وأخذ يباشر سلطانه ، نعين الأمير سيف الدين سلار نائبا للسلطنة والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير استادارا ، كما فرق الخلع على أعيان الدولة ووزع على ممالك أبيه العطايا والهدايا<sup>(١)</sup> .

وكان أهم ما تعرضت له دولة المماليك في ذلك الدور هو تجديد هجمات المغول على بلاد الشام ، إذ اوغلت جيوش غازان في بلاد الشام سنة ٦٩٧هـ (١٢٩٨م) حتى انزلت الهزيمة بالمماليك عند مجمع المروج بين حمص وحماء . ويبدو أن مقاومة المماليك في الشام أنهارت بعد هذه الهزيمة فدخل غازان دمشق وعاث جنوده فيها فسادا . على أن غازان أكتفى بذلك وعاد إلى بلاده بعد أن عين نائبا عنه في دمشق . وكان ذلك في الوقت الذي خرج جيش كبير من المماليك على رأسه السلطان الناصر محمد قاصدا الشام سنة ٦٩٨هـ (١٢٩٩م) وقد استطاع المماليك دخول دمشق ولم يعجبوا بطلب غازان مهادنتهم<sup>(٢)</sup> ، الأمر الذي استثار غازان فخرج من بلاده سنة ٧٠٢هـ (١٣٠٢م) قاصدا غزو الشام من جديد . وفي موقعة مرج الصفر التي دارت قرب دمشق في تلك السنة حلت الهزيمة قاسية بالمغول ، الأمر الذي جعل الناس يفرحون بالناصر محمد رغم صغره سنة ويستقبلونه استقبالا حافلا في دمشق والقاهرة<sup>(٣)</sup> .

غير أنه لا يخفى علينا أن الناصر محمد تولى منصب السلطنة تلك المرة الثانية وهو لا يزال صغيرا ، ولذلك فإنه كان لا يستطيع بأي حال الوقوف في وجه كبار أمراء المماليك الذين اشتدت ضراوتهم ومرنوا للتلاعب بكبير السلاطين

(١) أبو المحاسن : النجوم المزاهرة ج ٨ ص ١١٥ - ١١٦

(٢) الزيرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٣٢١ ، بيبرس النوراني : بحر الجواهر ج ٩ ص ٢٢٦ - ٢٣٠

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٩٣٨ .

فما بالناس سلطان طفل كان لا يزال في الرابعة عشر من عمره . لذلك كانت سلطنة  
الناصر محمد الثانية اسميه ، بعد أن ضيق الأميران سلار وبيبرس الجاشنكير  
الخناق عليه ، وحالا بينه وبين الاتصال بالناس أو التصرف في أموره (١)  
بل لقد بلغ الأمر بالسلطان الناصر محمد عندئذ أنه كان يشتهي نوعا معيناً  
من الطعام فيرسل التماسا برغبته إلى الأمير سلار ويحكي المؤرخون أنه حدث  
أن أرسل الناصر محمد إلى الأمير سلار يبلغه أنه يشتهي تناول بعض الحلوى  
والأوز، فرد الأمير سلار على حامل الطلب قائلاً : وإيش يعمل السلطان  
بالأوز؟ هو الاكل عشرون مرة بالنهار (٢) ؟ .

وأخيراً ضاق السلطان الناصر بذلك الحجر المفروض عليه ، فاستدعى  
الأمير بكتمر الجوكندار لمساعدته في التخلص من الأميرين سلار وبيبرس  
الجاشنكير . ولكن هذين الأميرين عليهما بالموامرة ، فحاصرا القلعة للقيض على  
الناصر محمد ومنعه من الهروب، مما أثار إشتباكا بين المماليك السلطانية وأتباع  
الأميرين . وجدير بالذكر أن الرأي العام في القاهرة كان يعطف على السلطان  
الناصر محمد الصغير عطفاً غريباً ، فلم يكف العامة يعرفون بما تم من محاصرة  
الناصر محمد حتى تجمعوا وهم يهتفون : يا ناصر يا منصور ! . . . الله يخون من  
يخون ابن قلاون . . . (٣) ولأول مرة نسمع عن إرادة الشعب بوضوح  
في عصر المماليك ، فوجد سلار وبيبرس الجاشنكير نفسيهما في مأزق إزاء  
مناصرة الشعب للسلطان الصغير ، واضطرا إلى الانحناء أمام العاصفة فجدا  
الولاء للناصر محمد بعد أن نفى لهما أية نية سيئة تجاههما وأعلن أن أحدا من  
الأمراء لم يحرضه ضد هما (٤) .

(١) أبو الفدا : المختصر ج ٤ ص ٥٤

(٢) العيني : عقد الجيوش حوادث سنة ٧٠٣ هـ ، أبو المحاسن النجوم ج ٨ ص ٢٤٤

(٣) أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ١٧٣

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٤٩ ، أبو الفدا : المختصر ج ٤ ص ٥

ولكن إذا كانت العاصفة قد هدأت ، فإن هدوءها كان في الظاهر لأن  
سلار وبيبرس ظلا يضمران الكراهية للناصر محمد في حين أن الناصر محمد  
نفسه كان غير مرتاح إلى وضعه، ويخشى على نفسه عاقبة غدر هذين الأميرين.  
وأخيراً ضاق السلطان بحياته التي قضاها حبس القلعة، وأدرك أنه لا فائدة  
من التغلب على سلار وبيبرس بعد أن تجاوزا الحد في الانفراد بالأموال  
والأمر والنهي<sup>(١)</sup> . لذلك فكر الناصر محمد في الهروب من السلطنة ،  
فتظاهر برغبته في أداء فريضة الحج وخرج من مصر قاصداً الحجاز عن طريق  
السكر . ولكنه لم يكد يصل إلى السكر سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) حتى أعلن  
مافى نفسه ، فدعا من معه من الأمراء والمماليك وأخبرهم أنه اختار الحياة  
في السكر حراً ، وأنه ترك السلطنة وقيودها ؛ ثم أرسل الناصر كتاباً إلى  
الأمراء في مصر يخبرهم فيه بنيتة<sup>(٢)</sup> .

وقد ارتبك الأمراء في مصر عندما وصلتهم رسالة الناصر محمد لأنهم لم  
يكونوا مستعدين للموقف ، فأرسلوا إليه يسألونه العودة وإلا حرموه من  
السلطنة ومن الإقامة في السكر . ولكن الناصر محمد أصر على رأيه ورد  
عليهم قائلاً « دعوني أنا في هذه القلعة منعزلاً عنكم إلى أن يفرج الله تعالى  
إما بالموت وإما بغيره » . وكان أن عرض الأمراء على سلار منصب السلطنة  
ولكنه كان حريصاً على ألا يتعرض للمصير الذي تعرض له كتبغا ولاجين  
لأسباب وأن أحوال الدولة كانت مرتبكة عندئذ ولا تبشر بخير .

لذلك اعتذر سلار عن قبول المنصب، وأشار إلى زميله بيبرس الجاشنكير  
وقال « والله يا أمراء أنا ما أصلح للملك ، ولا يصلح له إلا أخى هذا » .  
وكان أن بايع الأمراء بيبرس الجاشنكير بالسلطنة<sup>(٣)</sup> .

(١) أبو الفدا : المختصر ج ٤ ص ٥٤

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ١٧٨ - ١٧٩ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٦

## السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير :

تولى منصب السلطنة سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) ، وبأدر فور اعتلائه العرش بكتابة تقليد بمنح الناصر محمد السكرك . على أنه إذا كان السلطان بيبرس الثانى قد ظن أن الأمور قد هدأت له بذلك ، فانصرف إلى تنظيم أمور الدولة وعين الأمير سلار نائبا له ؛ فإن آماله لم تلبث أن انهارت بالسرعة التي قامت بها . ذلك أن الناصر محمد ظل دائما يتمتع بشعبية كبيرة في مصر والشام ، بحيث لم يستطع الناس أن ينسوه بالسهولة التي توهمها المظفر بيبرس . وشامت للظروف أيضا أن يأتي قيام بيبرس الجاشنكير مقرونا بانخفاض النيل وارتفاع الأسعار، مما جعل الناس يفسرون ذلك بسوء طامع السلطان الجديد ، فصاروا يطوفون شوارع القاهرة وهم يصيحون « سلطاننا ركين ( تصغير ركن الدين بيبرس ) ونائبنا دقين ( يقصدون الأمير سلار ، وكان أجردا بذقنه شعيرات قليلة ) ؛ يجينا الماء منين ؟؟ جيبوا لنا الأعرج ( يقصدون الناصر محمد وكان به عرجا خفيفاً ) ، يجي الماء يدحرج<sup>(١)</sup> » .

ثم إن كثيرا من أمراء الشام رفضوا الاعتراف بالسلطان المظفر بيبرس ، وبخاصة نواب حلب وحماه وطرابلس الذين رفضوا أن يتزعزعا عن موقفهم وأعلنوا ولائهم لبیت قلاون ؛ بل لقد بلغ الأمر بهؤلاء الأمراء الثلاثة أنهم اجتمعوا وأرسلوا إلى الناصر محمد بالسكرك يستأذنه في القدوم عليه بالسكرك لمناصرته ، « فإما أن نأخذ له الملك وإما إن نموت على خيولنا<sup>(٢)</sup> » .

أما الناصر محمد نفسه فكان كلما تقدم به الوقت تنبه إلى حقوقه في

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥٥

(٢) أبو المعاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٣٨

الملك وإلى سلطانه المسلوب . نعم صار الناصر محمد سنة ٥٧٠٨ (١٣٠٩م) غيره سنة ٥٦٩٣ (١٢٩٤م) ، إذ فعلت هذه السنوات الخمس عشرة - منذ عزله أول مرة - فعلها في صقله واكسابه قدرا كبيرا من التجربة، وبخاصة في معاملة الأمراء . وكان المظفر بيبرس قد علم بما دار من إتصالات بين الناصر محمد وأمراء الشام ، فأرسل إليه يهدده ويتوعده ، وإلا جرى عليك ماجرى على أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقدارى<sup>(١)</sup> ، بل لقد بلغ الأمر بالسلطان بيبرس الثاني أن أرسل إلى الناصر محمد بالسكرك يطلب منه ماله من خيل وماليك ، وهنا غضب الناصر محمد غضبا شديدا وصاح : أنا خليت ملك مصر والشام لبيبرس ( الثاني ) وما يكفيه حتى ضاقت عينه على فرس عندي أو مملوك لي ، وفي الحال أرسل الناصر محمد إلى حلفائه من أمراء الشام يقول لهم : أنتم ماليك أبي وربيتهموني ، فإما أن تردوه عني وإلا أسير إلى بلاد التتار<sup>(٢)</sup> .

وهكذا أخذ الناصر محمد ينظم صفوفه لاسترداد سلطنته المفقودة ، فترك كثيرا من الأمراء جانب بيبرس الجاشنكير وهربوا إليه . وعندما زار دمشق استقبله أهل دمشق في حفاوة بالغة ، وأقيمت الخطبة باسمه يوم الجمعة ٢٢ شعبان سنة ٥٧٠٩ (١٣٠٩م) . أما المظفر بيبرس ، فقد ساء موقفه وانفض عنه معظم رجاله ، فحاول أن يقوى مركزه بالحصول على بيعة جديدة من الخليفة العباسي في القاهرة - وهو أبو ربيعة سليمان - ولكن كل ذلك لم ينفعه شيئا أمام التفاف الناس حول الناصر محمد وحجهم له . هذا إلى أن الخليفة العباسي في القاهرة كان لا حول له ولا قوة في ذلك العصر حتى أن أحد الأمراء المهايك عندما قرأ العهد الذي منحه الخليفة سليمان

(١) ابن اياس : بدائع الزهور : ج ١ ص ١٥١ .

(٢) المقرئني : السلوك ج ٢ ص ٥٦

للسلطان المظفر بيبرس ووجد أوله إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم،  
رد على الفور قائلاً « وسليمان الريح » (١) .

وأخيراً عول الناصر محمد وحوله رجاله وأنصاره على الحضور إلى مصر،  
فوجد بيبرس الجاشنكير نفسه عندئذ وحيداً، لاشعب يلتف حوله ويعطف  
عليه، ولا جيش يقف إلى جانبه. لذلك اضطر بيبرس إلى دعوة الأمراء  
لمشاورتهم في الأمر، فأشار عليه بعضهم بالنزول عن العرش واستسماح  
الناصر محمد ليعفو عنه. ولم يكن في وسع بيبرس الثاني أن يفعل غير ذلك؛  
فغادر القلعة ليلاً قاصداً أطفيح، والعامّة يطاردونه حتى أوسعوه سبا  
وأوشكوا على الفتك به لولا أن شغلهم بما رماه إليهم من مال (٢). وعلى  
هذا النحو انتهت سلطنة المظفر بيبرس الجاشنكير

سلطنة الناصر محمد الثالثة ( ٥٧٠٩ - ٥٧٤١ = ١٣٠٩ - ١٣٤٠ م )

خرج السلطان الناصر محمد من السكرك قاصداً القاهرة، يرافقه رجاله  
وأتباعه. وكان المؤرخ أبو الفدا يرافق السلطان في رحلته هذه، فوصف لنا  
كيف كان يلتقي السلطان كل يوم أثناء مسيرته بمجموع المماليك والأمراء  
وقد خرجوا لاستقباله وتقديم فروض الولاء والطاعة له (٣). وهكذا حتى  
دخل قلعة الجبل مساء الأربعاء أول أيام عيد الفطر سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م)،  
وأصبح السلطان يوم الخميس جالسا على تخت الملك وسرير السلطنة،  
وحضر الخليفة أبو الربيع والأمراء والقضاة وسائر أهل الدولة للمناء (٤).  
وكان الناصر محمد عندما تولى السلطنة للمرة الثالثة سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م)

(١) أبو المصنف: النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٦٣ .

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ج ١ ص ١٥٣

(٣) أبو الفدا: المختصر ج ٤ ص ٥٦-٥٨

(٤) المقرئ: السناجك ج ٢ ص ٧٣ .

في الخامسة والعشرين من عمره ، أى في سن تمكنه من مباشرة شئون الحكم بنفسه ومن فرض كلمته على الأمراء . وقد بدأ الناصر محمد بالثار لنفسه من الأمراء الذين سبق أن آذوه واستخفوا به ، فقبض على بيبرس الجاشنكير عند غزة وهو يحاول الفرار ، وأعدمه بعد أن عنفه وذكره بمواقفه منه<sup>(١)</sup> . أما سلار فقد ألقى به في السجن حتى مات<sup>(٢)</sup> . وهكذا تذبذبه الناصر في تلك المرة إلى مطامع الأمراء ، فكلمها سمع بتآمر أمير أوشك في تصرفاته تخلص منه في الحال وأقصاه عن الوظائف العامة . وكانت سياسته تجاه كبار رجال الدولة بوجه عام هي أن يقرب الواحد منهم ، حتى إذا ما أحس أن نفوذه زاد عما يجب ، تخلص منه في الحال<sup>(٣)</sup> .

وقد استمر حكم الناصر محمد في تلك المرة الثالثة إحدى وثلاثين سنة ، هي مدة طويلة لم يدانيه فيها سلطان آخر من سلاطين المماليك في مصر . ويمثل ذلك العصر بالذات أعظم عصور التاريخ المصري زمن المماليك ، وأكثرها ازدهارا ورقيا واستقرارا . ذلك أن نفوذ الناصر محمد امتد من المغرب غربا حتى الشام والحجاز شرقا ومن النوبة جنوبا حتى آسيا الصغرى شمالا . وقد أرسل السلطان الناصر حملة إلى النوبة سنة ٧٠٤ هـ (١٣٠٤ - ١٣٠٥ م) في سلطنته الثانية ، ثم حملتين أخرتين سنة ٧١٥ ، ٧١٦ هـ (١٣١٥ ، ١٣١٦ م) في سلطنته الثالثة ، وتمكنت هذه الحملات من إقامة أول ملك مسلم من أهل النوبة على تلك البلاد هو عبد الله بن شنبو . وإذا كانت أحوال مملكة النوبة لم تستقر بعد ذلك مما تتطلب من السلطان الناصر محمد إرسال حملة جديدة سنة ٧٢٣ هـ (١٣٢٣ م) إلا أنه يلاحظ أن بلاد النوبة أخذت منذ ذلك

(١) أبو المعاسن : النجوم ج ٨ ص ٢٧٤ - ٢٧٥ ، المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٨٠ - ٨١ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٥٦ .

(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر ص ٥٢ .



الوقت تفقد صفتها المسيحية تدريجيا لتتخذ طابعا عربيا إسلاميا<sup>(١)</sup> .

أما في الداخل ، فقد كان عهد الناصر محمد عهد رخاء واستقرار ، فأقام الناصر كثيرا من المنشآت مثل المساجد والقناطر والجسور وغيرها<sup>(٢)</sup> . ومن منشآته الشهيرة المدرسة الناصرية والمسجد الذي شيده بالقلعة والخانقاه التي أقامها في سر ياقوس . هذا فضلا عن المنشآت التي جددتها مثل المدارس المنصورية الذي كان والده قد شيده سنة ٦٨٨ هـ ( ١٢٨٩ م ) ولاعجب إذا وصف المقرئى الناصر بأنه « كان محبا للعبارة ... وبلغ مصروف العبارة في كل يوم من أيامه سبعة آلاف درهم فضة »<sup>(٣)</sup> .

وهكذا قضى الناصر محمد عهده الطويل في الإصلاح والإنشاء والتعمير، الأمر الذي جعل المؤرخين والرحالة المعاصرين يشيدون بسيرته وفضله وازدهار حكمه<sup>(٤)</sup> :

#### أولاد الناصر محمد وأحفاده :

من الثابت في التاريخ أن بيت قلاون تمتع بحب الناس وإخلاصهم ، وأن الناصر محمد بن قلاون حظى بشعبية كبيرة عبرت عن نفسها في تمسك رعاياه به وإخلاصهم له . وقد يكون السبب في ذلك أن الناس في عصر سلاطين المماليك سئموا الاضطرابات والفتن والمنازعات بين طوائف المماليك وأمرائهم ، فلا يكاد ينتشر الخبر بمرض سلطان أو وفاته أو مقتله حتى تغلق الحوانيت ويختزن الناس الطعام ، ويستعدون لفترة عصبية

---

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ١٦١ — ١٦٢ ، مصطفى محمد مسعد : الإسلام والنوبة ص ٩٦ وما بعده .

(٢) دكر المؤرخ أبو المحاسن (ج ٩ ص ١٧٨ وما بعده) منشآت الناصر محمد وإصلاحاته بالتفصيل

(٣) المقرئى : المواعظ ج ٢ ص ٣٠٦ .

(٤) أبو المحاسن : المنهل الصافي ج ٣ ورقة ٢٥٠ ، رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٢٣ .

يتزعزع فيها الأمن وتقل المؤن وتضطرب الحياة الاقتصادية . أجل، سئم الناس في عصر المماليك تلك الأوضاع وأرادوا أن يهتئوا بقسط من الاستقرار والهدوء يباشرون في ظله حياتهم العادية دون أن تقلقهم فتنة أو أزمة ، فوجدوا غايتهم في عهد المنصور قلاوون وعهد ابنه الناصر محمد .

ولعل هذه الشعبية الكبيرة التي تمتع بها بيت قلاوون ، هي التي جعلت الناس يتمسكون بسلالة الناصر محمد بعد وفاته سنة ٧٤١ هـ ( ١٣٤٠ م ) ، فظل أولاده وأحفاده يحكمون الدولة حتى سنة ٧٨٤ هـ ( ١٣٨٢ م ) أي طوال أربعين سنة ، رغم أنه كان من هؤلاء الأبناء والأحفاد من لا يستحق الملك لضعفه أو سوء خلقه أو صغر سنه ، ومع ذلك فإن الهبة التي صارت لبيت قلاوون في نفوس الناس جعلتهم يتمسكون به .

ويبدو أن الناصر محمد بن قلاوون كان يحس دائما بشعور القلق نحو مستقبل العرش بعد وفاته، ويخشى أن يتعرض أبنائه من بعده لما تعرض له في مستهل حياته من تلاعب كبار أمراء المماليك بمصالحه وحقوقه . لذلك عهد الناصر محمد سنة ٧٣١ هـ ( ١٣٣١ م ) إلى ابنه الأمير ناصر الدين آنوك بالسلطنة، وعندئذ وافق الأمراء على ذلك ووزعت عليهم وعلى كبار رجال الدولة الخلع، وركب الأمير آنوك بشعار السلطنة . غير أن السلطان الناصر لم يلبث أن غير رأيه فجأة ، وألغى ما أحدثه بالنسبة لآنوك من ولاية العهد ، « ورسم أن يلبس آنوك شعار الأمراء ولا يطلق عليه اسم السلطنة » (١) وتقف المراجع صامتة إزاء هذا الانقلاب المفاجيء في سياسة الناصر محمد تجاه مسألة ولاية العهد ، ولا نستطيع أن نفسر نحن ذلك إلا في ضوء عدم رضی الناصر عن ولده آنوك ، أو أنه رأى أن يرجى . هذا الأمر حتى يكبر

---

(١) المقریزی : السلوك ج ٢ ص ٣٤٣

أبنه ويتجاوز مرحلة الطفولة ، لأن سنه كان عندئذ تسع سنوات فقط .

ومهما يكن من أمر ، فإن آنوك توفي سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) ، وبعدها أحس الناصر محمد بمرض الموت ، فجمع الأمراء حوله وأعرب لهم عن رأيه في أن يخلفه في الحكم ابنه سيف الدين أبو بكر ، فأقر الأمراء ذلك وتعهدوا بتنفيذ رغبة السلطان<sup>(١)</sup> . ولم يلبث أن توفي السلطان الناصر محمد نفسه سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) وسط مظاهر الأسى والحزن البالغ .

والواقع أن وفاة السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) جاءت إيذانا بانتهاء فترة الاستقرار والرخاء اللذين تمتعت بهما مصر في عهد ذلك السلطان . وإذا كان أبناء الناصر محمد وأحفاده قد تمسكوا من البقاء في الحكم أربعين سنة بعد وفاة الناصر نفسه ، فإن ذلك لا يرجع إلى موهبة خاصة ظهرت في أحد أولئك السلاطين ، وإنما كان مرجع ذلك هيبة بيت قلاوون نفسه في قلوب المعاصرين ، وهي الهيبة التي وضع أساسها المنصور قلاوون ، وازدادت نمواً في عهد ولده السلطان الناصر محمد . وبعبارة أخرى فإن أبناء الناصر محمد وأحفاده عاشوا على السمعة الطيبة والمسكنة الراضية والشهرة الواسعة التي تركها الناصر محمد بالذات في قلوب معاصريه<sup>(٢)</sup> .

وليست هناك أهمية خاصة في التاريخ تجعلنا نتكلم عن كل أحد من أبناء الناصر محمد وأحفاده الذين تولوا الحكم من بعده حتى سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) ؛ وإنما تكفي الإشارة إلى أنه في العشرين سنة الأولى التي أعقبت وفاة الناصر محمد (٧٤١ - ٧٦٢ هـ ، ١٣٤١ - ١٣٦١ م) تولى منصب السلطنة ثمانية من أولاده ، وفي العشرين سنة التالية (٧٦٢ - ٧٨٤ هـ ، ١٣٦١ - ١٣٨٢ م) تولى المنصب أربعة من أحفاده . وحسبنا أن نعلم أن بعض

(١) تاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ٣٣ ، أبو المحاسن : النجوم ج ص ١٦٤ .

(٢) Viet : L'Égypte Arabe, p. 499.

هؤلاء الأبناء والأحفاد تولى منصب السلطنة وعمره عام واحد - مثل الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد - ، كما أن بعضهم لم يبق في الحكم إلا شهرين وبضعة أيام ، مثل الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد . ولعل هذه الصورة الموجزة كافية لأن تعطينا فكرة عامة عن مدى ما عانته الدولة بعد وفاة الناصر محمد من اضطراب وعدم استقرار وفوضى ، تركت أثرها واضحا في جميع نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وزاد من أحوال البلاد سوءاً في ذلك الدور انتشار وباء خطير عرف باسم الوباء الأسود سنة ٧٤٩ هـ ( ١٣٤٩ م ) - أي في عهد السلطان الناصر حسن بن السلطان الناصر محمد ، فمات كثير من الناس ، وتأثرت الحياة الاقتصادية أسوأ أثر حتى كادت تتوقف تماما ، وتوقفت الأحوال بالقاهرة ومصر ،<sup>(١)</sup> .

ولا شك في أنه لدينا الآن فكرة واضحة - بعد العرض السابق لتاريخ المماليك - عن مدى استغلال الأمراء لصغر سن السلاطين ، وما كان ينتج عن ذلك من منازعات فيما بينهم وبين بعض من ناحية ، ومن تحكم واستبداد بشؤون الدولة من ناحية أخرى .<sup>(٢)</sup> وهكذا نلمس ظاهرة واضحة عند دراستنا لعصر أبناء الناصر محمد وأحفاده ، هي أن كل سلطان من بني قلاوون كان يقف خلفه أمير أو أكثر من كبار أمراء المماليك ، بحيث طغت شخصية أولئك الأمراء على السلاطين ، وأصبحت أسماء الأمراء - دون السلاطين - هي مدار الأحداث المعاصرة ، وموضع اهتمام المؤرخين المعاصرين وغير المعاصرين . ومن هؤلاء الأمراء لمع في عصر أبناء الناصر محمد الأمير قوصون ويلبغا اليجاوي وأقسنقر السلاري وأرغون العلاني وشيخو وطاز

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٧٧٠ - ٧٨٥ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى في مصر والشام ص ١٢١ وما بعدها .

وهرغتمش. أما عهد احفاد الناصر محمد، فقد ظهرت فيه أسماء الأمير قشتمر المنصوري ويبلغا الخاصكي وبرقوق ...

ويعنيها من أمر هؤلاء الأمراء أن بعضهم كان من المماليك البرجية أو الجراكسة، الأمر الذي يدل على ازدياد نفوذ تلك الطائفة، مما أدى الى تمسكهم من انتزاع الحكم سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) كما سنرى بالتفصيل في الباب الآتي.

### الحملة الصليبية على الاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م)

هذا عن الأحوال الداخلية لدولة المماليك في عصر أبناء الناصر محمد وأحفاده. أما في الخارج فإن اضطراب أحوال مصر الداخلية وعدم وجود رجل قوى مهيب الجانب على رأس دولة المماليك، أفقد تلك الدولة مكانتها وهيبتها التي كانت قد بلغت أوجها على عهد السلطان الناصر محمد. ولم يلبث أن استخف الأعداء بدولة المماليك وطمع الطامعون في أراضيها بل تجرأ الصليبيون على غزو مصر ذاتها سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥).

والمعروف أن الحروب الصليبية لم تنته باستيلاء المسلمين على عكا سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) وبطرد آخر البقايا الصليبية من الشام، وإنما استمرت تلك الحروب في صورة أو أخرى حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي تقريبا، وأتخذت لها أكثر من ميدان في المشرق والمغرب جميعاً.

وفي ذلك الدور الجديد من أدوار الحروب الصليبية، اتخذ ملوك قبرس من آل لوزجنان جزيرتهم قاعدة كبرى لتهديد السفن والمناجر الاسلامية في شرق حوض البحر المتوسط، فضلا عن القيام بغارات جريئة على بعض الموانئ الاسلامية وموانئ دولة المماليك بوجه خاص<sup>(١)</sup>

(١) سعيد عاشور: قبرس والحروب الصليبية ص ٥٢ - ٥٣.

وساعد ملوك قبرس في تنفيذ هذه السياسة أن كثيرا من البقايا الصليبية التي طردت من الشام في أواخر القرن الثالث عشر اتخذت جزيرة قبرس بالذات مستقراً ومقاماً ، مما هب لآل لوزجنان قوة محاربة مرنت حرب المسلمين وتتوق للانتقام مما حل بالصليبيين في الشام .<sup>(١)</sup>

وهكذا حتى اعتلى عرش قبرس سنة ٧٦٠ هـ (١٣٥٩ م) الملك بطرس الأول لوزجنان الذي اشتهر بقوة شخصيته وحماسه الدينية الفذة . حتى أنه اراد منذ ارتقائه العرش ان يجعل من نفسه بطل المسيحية الأول في عصره . وكان أن فكر الملك بطرس في القيام بحملة صليبية كبرى يطعن بها المسلمين طعنة قوية ، ولكنه وجد أن تنفيذ هذا المشروع يحتاج الى استعدادات ضخمة وأموال كثيرة ورجال عديدين ، فاجأ الى القيام برحلة طويلة في غرب أوروبا (٧٦٣ - ٧٦٦ هـ = ١٣٦٢ - ١٣٦٥ م) للحصول على ما يمكنه من مساعدات من البابوية وملوك الغرب الأوربي<sup>(٢)</sup>

وأخيراً جمع بطرس لوزجنان قواته في جزيرة رودس حيث تم الاتفاق على اختيار الاسكندرية بالذات هدفاً للهجوم الصليبي ؛ وذلك للقضاء على دولة المماليك التي تسببت في طرد الصليبيين من الشام من ناحية ، والاستفادة من مركز تلك المدينة الحربي وموقعها التجاري من ناحية أخرى . ولا بد أن يكون الصليبيون والغرب الأوربي قد سمعوا بأخبار الفوضى التي غرقت فيها مصر في عصر أحفاد الناصر محمد ، وكيف كانت الموانئ والمدن المصرية خالية تماماً من وسائل الدفاع .<sup>(٣)</sup>

---

(١) Schlumberger : Prise de Saint Jean d'Acre, p. 35.

(٢) Machaut : La Prise de l'Alexandrie, pp. 21-42.

(٣) النويري : الامام بالإعلام فيما جرت به الأبحاث والأمر المقضية في واقعة الاسكندرية ص ٢٨٦ - ٢٩٤ « مخطوط » .

وعلى الرغم من أن أخبار الحملة الصليبية ووجهتها طارت إلى مصر عن طريق التجار قبل وقوع الهجوم بمدة طويلة إلا أنه لم يكن من الدولة اهتمام ، على حد تعبير المقریزی<sup>(١)</sup> . وكان يحكم دولة المماليك في ذلك الوقت السلطان الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد ، وهو طفل صغير في الحادية عشرة من عمره ، في حين استبد بأمر البلاد الأمر يلبغا الخاصكي الذي اشتهر بعسفه وجوره وكبريائه ، حتى أنه عندما سمع بنية ملك قبرس في مهاجمة الاسكندرية قال « إن القبرسي أقل وأذل من أن يأتي إلى الاسكندرية » ،<sup>(٢)</sup>

واسكن هذه الكبرياء لم تنفع في صد المعتدين الذين نزلوا على شاطئ الاسكندرية صباح الجمعة ١٠ أكتوبر سنة ١٣٦٥ ( ٧٦٧ هـ ) ، وهاجوها فور وصولهم . ولم تفلح الاستعدادات السريعة التي اتخذت لوقف الخطر الصليبي ، فاقترح الصليبيون الاسكندرية وفر العربان الذين استحضروا من البحيرة للدفاع عن الثغر<sup>(٣)</sup> . وهكذا سقطت الاسكندرية في قبضة الصليبيين . فقضوا فيها ستة أيام تعتبر من أحلك الايام في تاريخ الثغر ، إذ انتشر الصليبيون في شوارع المدينة وازقتها ينتقمون من أهلها المسلمين « فاستلبوا الناس بالسيف ، ونهبوا الخوانيت والدور وأحرقوا الخانات والقصور ، وخربوا المساجد والزوايا ، واعتدوا على النساء والبنات<sup>(٤)</sup> » .

وكان قائد الحملة - الملك بطرس لوزجنان - يرى ضرورة الاحتفاظ بالاسكندرية ، والدفاع عنها لا يتخاذها نقطة ارتكاز لغزو مصر بأكملها ، ولكن بعض رجاله أقنعوه بخطورة ذلك المشروع ، فاضطر الصليبيون

---

(١) المقریزی : السلوك ح ٤ ورقة ٤٦ « مخطوط » .

(٢) النويری : الألام ح ١ ص ٥١٥ .

(٣) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٦٣ - ٦٤ .

(٤) المقریزی : السلوك ح ٤ ورقة ٤٧ ، النويری : الألام ح ١ ص ٣٢٦ - ٣٣٥ .

الى الجلاء يوم الخميس ١٦ اكتوبر بعد أن حاولوا في سفنهم آلاف الأسرى  
وشحنوها بالمنهوبات . وأخيراً وصل يلبغا الخاصكى على رأس جيشه الى  
الاسكندرية ليشهد ما حل بها من دمار وخراب على أيدي الصليبيين فأمر  
بدفن جثث القتلى وترميم ما خرب وأحرق (١) .

وإذا كانت دولة المماليك عندئذ تمر بدور من الانحلال والفوضى لم  
يمكنها من الثأر من جزيرة قبرس وملوكها ؛ فإن المسلمين لم يخفروا ما حل  
بالإسكندرية على أيدي الصليبيين سنة ٧٦٧ هـ ( ١٣٦٥ م ) ، حتى تمكنوا  
من الانتقام في عصر دولة المماليك البرجية كما سنرى فيما بعد .

---

(١) سويد عاشور: قبرس والحروب الصليبية ص ٦٨ — ٦٩ .



## الفصل الخامس

### دولة المماليك الجراكسة.

تشأة فرقة المماليك الجراكسة :

أراد السلطان المنصور قلاون أن يكون فرقة جديدة من المماليك يعتمد عليها ضد منافسيه من كبار الأمراء ، وتكون سنداً لأولاده وذريته في الاحتفاظ بالعرش . ولتحقيق هذا الغرض رأى قلاون أن تكون فرقة الجديدة من جنس غير الأجناس التي انتمى إليها مماليك عصره ، فأعرض عن شراء الأتراك والتتار والتركان ، وأقبل على شراء الجراكسة الذين ينتمون إلى بلاد السكرج (جورجيا) ، وهي البلاد الواقعة بين بحر قزوين والبحر الأسود . وساعد على تحقيق رغبة قلاون ، كثرة الجركس في أسواق الرقيق في النصف الأخير من القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) بسبب تعرض بلادهم لغزوات المغول ، حتى أصبحت ميداناً للصراع بين مغول فارس ومغول القفجاق . ويبدو أن كثرة الجركس في أسواق الرقيق في ذلك العصر أدت إلى انخفاض أثمانهم على الرغم مما امتازوا به من جمال الصورة وقوة البدن والشجاعة ، حتى أن متوسط ثمن المملوك الجركسي بلغ مائة وخمسة عشر ديناراً في حين كان متوسط المملوك التركي مائة وثلاثة وخمسين ديناراً<sup>(١)</sup> . وهما يكن الأمر ، فقد أكثر السلطان المنصور قلاون من شراء هؤلاء المماليك الجركس حتى بلغ عددهم في حياته أكثر من ثلاثة آلاف مملوك ؛ وعنى بتربيتهم في أبراج القلعة ، مما جعل اسم «البرجية» يلصق بهم في التاريخ .

---

Heyd : Hist. du Commerce, T. 2, p. 529.

وكان أن نجحت خطة قلاون ، فازدادت أعداد هذه الطائفة الجديدة ،  
وتعمدها أبناء قلاون وأحفاده بالرعاية والعطف ، حتى يقال أن الأشرف  
خليل بن قلاون اشترى أثناء حكمه القصير ألفي مملوك منهم . ومن ناحية أخرى  
فقد حقق المماليك البرجية الغرض المقصود منهم ، فكانوا بمثابة دعامة  
كبرى دافعت عن مصالح أبناء المنصور قلاون . وقد سبق أن أشرنا إلى  
ثورة المماليك الأشرفية - من البرجية - ضد قتلة الأشرف خليل ، ولم  
يهدأ أولئك البرجيه حتى تمكنوا من الانتقام الأشرف خليل فقتلوا بيدرا  
وغيره من الأمراء الذين شاركوا في قتل السلطان خليل بن قلاون .  
وبفضل تأييد البرجية أختير الناصر محمد بن قلاون سلطانا لأول مرة  
سنة ٦٩٣ هـ ( ١٢٩٣ م ) رغم صغر سنه . حقيقة أن تعلق الشعب ببيت  
قلاون كان له اثره في ذلك الاختيار ، ولكن يجب أن نذكر أن الشعب  
المصرى في ذلك العصر كان أعزلا ، ولم تكن لديه قوة حربية تمكنه من  
تنفيذ إرادته ، وأن القوة الحربية الوحيدة التي كانت موجودة في البلاد  
عندئذ كانت قوة المماليك . وهكذا وقف البرجية بالمرصاد لجميع المحاولات  
التي استهدفت عزل السلطان الناصر محمد ؛ وفي كل مرة عاد الناصر محمد إلى  
الحكم بعد عزله نجد أصبح البرجية قويا واضحا<sup>(١)</sup>

### ازدياد نفوذ البرجية :

وسرعان ما ساعد تطور الأحداث الداخلية في مصر عقب وفاة  
السلطان المنصور قلاون إلى ظهور البرجية على مسرح تلك الأحداث  
وازدیاد نفوذهم وأثرهم في توجيهها . والمعروف أن السلطان قلاون  
حاول من أول الأمر أن يفرض نطاقا من العزلة حول المماليك البرجية ،

(١) سويد عبد الفتاح عاشور ؛ الملصق المماليكي في مصر والشام ص ١١١ و ١٠٠ بعدها .

فحال دون اتصالهم بغيرهم من المماليك الترك حتى لا يتأثروا بأوضاعهم وروحهم التي تطرق إليها الفساد ، كما حرص على عدم السماح لهم بمغادرة أبراجهم بالقلعة والنزول إلى القاهرة . ولكن هذه الأوضاع كانت لا يمكن أن تدوم . وإذا كان قلاون قد نجح في أن يفرض تلك القيود على المماليك البرجية في تاريخهم الأول عندما كانت أعدادهم محدودة ، فإن خلفاء قلاون لم يستطيعوا فرضها على البرجية بعد أن ازدادت أعدادهم حتى بلغوا في أوائل عصر الناصر محمد خمسة آلاف مملوك . لذلك نرى السلطان الأشرف خليل يسمح للبرجية بالنزول من القلعة أثناء النهار بشرط العودة إليها قبل المغرب للمبيت فيها ، وبذلك بدأت خبرة البرجية بالحياة العامة تزداد ، فوقفوا على كثير من الاتجاهات والأوضاع الداخلية الخاصة بالبلاد في ذلك الوقت (١) .

ولاشك في أن إصرار السلطان المنصور قلاون في العطف على المماليك الجراكسة الجدد ، وتفرقة في المعاملة بينهم وبين المماليك القدامى من الأتراك ، كان له أثره في إثارة روح البغضاء والتنافر بين الفريقين . ذلك أنه عرف عن المنصور قلاون أنه عني بالبرجية عناية خاصة ، فخصهم بالترقية إلى وظائف السلاحدارية ، وغيرها من الوظائف الكبرى في الدولة (٢) ، وحرص على أن يلبسهم زياً جديداً حسناً ، وأجزل لهم العطاء فيما كانوا يتقاضونه من جوامك ورواتب ، وعنى عناية خاصة بتعليمهم أصول الدين ، فضلاً عن تدريبهم على استخدام الرماح ورمي النشاب . وكان أن تلفت المماليك الأتراك حولهم فوجدوا في الجراكسة منافساً جديداً خطيراً ، فهم يحظون بعطف السلطان ورعايته ، وفي الوقت نفسه يتمتعون إلى عنصر

(١) المقرئى : المواقظ ح ٢ ص ٢١٤ .

(٢) ابن أياس : بدائع الزهور ح ١ ص ١٢٠ .

غير عناصرهم وأصل غير أصولهم . وهكذا أدى التمييز في المعاملة إلى إثارة  
البعضاء العنصرية ، والتعصب الطائفي بين المماليك الجراكسة من ناحية ،  
والأتراك من ناحية أخرى .

هذا إلى أن دفاع الجراكسة عن أبناء المنصور قلاوون وغضبهم لمقتل  
الأشرف خليل ثم ثورتهم لعزل الناصر محمد جعلهم يقفون في جانب ،  
وبقية المماليك الأتراك في جانب آخر . ولعل طول المنازعات التي امتاز بها  
تاريخ المماليك في تلك الحقبة ، جعل الأمر يتطور ويتحول من نزاع بين  
الأمراء بعضهم وبعض ، أو بين أنصار بيت قلاوون وخصومه ، إلى نزاع  
عنصري بين الجراكسة والأتراك . وأدى ذلك إلى أن الجراكسة أتى  
عليهم وقت صاروا لايهتمون في قليل أو كثير ، مستقبل الناصر محمد ،  
بقدر ما يستهدفون القضاء على نفوذ الأتراك الذين طال استبدادهم بالحكم  
وحرصوا دائماً على الاستئثار — دون الجراكسة — بالامتيازات والنفوذ

وفي تلك الأحداث الطويلة ، لم تخل المراجع من إشارات واضحة  
إلى ازدياد نفوذ المماليك البرجية وسطوتهم . فالمقرئ يذكر في حوادث  
سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٩ م) — أي في سلطنة الناصر محمد الثانية — وقويت  
شوكة البرجية بديار مصر وصارت لهم الحمايات الكبيرة . وتردد الناس  
إليهم في الأشغال ،<sup>(١)</sup> كذلك يذكر المؤرخ نفسه في حوادث سنة ٧٠٨ هـ  
(١٣٠٨ م) أن البرجية صار لهم رأى مسموع في اختيار السلاطين ،  
فعندما اختار الأمراء الأمير سلار في تلك السنة ليتولى منصب السلطنة  
« قلق البرجية ولم تبق إلا إقامتهم الفتنة » ؛ حتى إذا ما تنازل سلار عن  
المنصب ورشح له زميله بيبرس الجاشنكير « تسارع البرجية وقالوا  
بأجمعهم : صدق الأمير ، وأخذوا بيد بيبرس وأقاموه كرها ، فصاحوا  
بالجأويشيه فصرخوا باسمه »<sup>(١)</sup> .

(١) المقرئ : السلوك حوادث سنة ٦٩٨ هـ ح ١ ص ٨٧٥ . والمنصوب بالحمايات المكوس  
التي يفرضها الأمراء على الأراضى والمتاجر وغيرها .

وفي عصر السلاطين الصغار -- من أحفاد الناصر محمد بن قلاوون -- برز  
إسم أحد أمراء البرجية أو الجراكسة -- وهو الأمير برقوق -- الذي استطاع  
بفضل طموحه وقوته أن يصل إلى منصب أتاك العسكر سنة ٧٨٠هـ (١٣٧٨م)  
وبذلك أصبح برقوق على جانب كبير من القوة في عهد السلطان علاء الدين  
على (٧٧٨ - ٧٨٣ هـ = ١٣٧٦ - ١٣٨١ م) الذي لم يتجاوز سنه ست  
سنوات (١).

### قيام دولة المماليك الجراكسة :

ظل السلطان علاء الدين على في الحكم حتى وفاته سنة ٧٨٣ هـ (١٣٨١م) ،  
وهو في الثانية عشر من عمره . وكان في استطاعة برقوق أن يولي عرش  
السلطنة عقب وفاة السلطان على مباشرة ، وانتشرت الإشاعات فعلا بذلك ،  
ولكن برقوق كان يدرك أن الأمور لم يتم نضجها بعد . هذا إلى أن برقوق  
كان له معارضون من كبار الأمراء ، وهؤلاء صاحوا -- عندما سمعوا  
الإشاعات التي ترشح برقوق للسلطنة عندئذ -- ، لا نرضى أن يتسلطن علينا  
مملوك كتبتغا (٢) .

لذلك تظاهر برقوق بالزهد في السلطنة ، فجمع الخليفة والقضاة وكبار  
الأمراء بقلعة الجبل ، وأعلن أمامهم جميعا أن المصلحة تتطلب إبقاء وظيفة  
السلطنة في بيت قلاوون . وهكذا استدعى أمير حاجي حفيد الناصر محمد  
وسنة وقتئذ إحدى عشرة سنة ، وأعلن سلطانا سنة ٧٨٣ هـ (١٣٨١م) (٣)

(١) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 510.

(٢) بن المعروف أن برقوق جلب من أحد أسواق الرقيق ببلاد القرم سنة ٧٦٤ هـ «٣-١٣م» ،  
وفي القاهرة اشغراه الأمير يلبغا الخاصكي ، ثم اعتقه يلبغا وصار برقوق « من جملة مماليكه »  
« ابو الحامس : النجوم الزاهرة ح ١١ ص ٢٢٣ » .

(٣) المقرئى : السلوك ح ٣ ص ٣٧٥ « مخطوط » .

ولم يكن منتظرا من السلطان الطفل الجديد أن يقف في وجه الأمير برقوق الذي أخذ في التسكّم في الدولة على عادته من غير معاند . وهكذا أخذ برقوق يمكن لنفسه ، فأختص زملاءه وأنصاره من المماليك اليلبغاروية بالوظائف الرئيسية في الدولة ، في الوقت الذي أخذ يعمل على اكتساب محبة عامة الناس ، فخفض عنهم الضرائب ، وسك نقودا جديدة جيدة لتحل محل الفلوس الزائفة التي كان الأمير جركس قد سكتها من قبل (١) . ولم يسلم برقوق في تلك الأثناء من بعض المؤامرات التي حيكت ضده ، ولكنه اكتشف الخطر قبل وقوعه ، وتخلص من زعماء المؤامرة والمشاركين فيها بالسجن أو النفي ، وبذلك أصبح صاحب السكّمة العليا في الحكم . ولم يبق له معاند ، على قول ابن آياس (٢) .

وأخيراً وجد برقوق أن الأمور باتت مهيأة لإعلان نفسه سلطانا ، فانتحل نفس العذر الذي سبق أن تحجج به الطامعون في الحكم من أمراء المماليك ، وهو صغر سن السلطان القائم ، وحاجة البلاد إلى رجل رشيد يقضي على عوامل الاضطراب في الداخل والخارج . لذلك عقد إجتماعاً كبيراً بالقلعة سنة ٧٨٤ هـ ( ١٣٨٢ م ) حضره الخليفة والقضاة والأمراء ، ونهض كاتب السر القاضي بدر الدين ليعلم أن الوقت قد ضاق ، ومحتاجون إلى إقامة سلطان كبير تجتمع فيه السكّمة ويسكن الاضطراب (٣) .

وكان أن أجمع الحضور على خلع السلطان أمير حاجي بعد حكم دام سنة ونصف ، وأعلن برقوق سلطانا ، فتلقب بلقب الظاهر .

وبعزل أمير حاجي من السلطنة انتهى بيت قلاون ، كما انتهى حكم

(١) ابن حجر : إنباء الغمر ح ١ ص ١٤٩ ، الميني : عقد الجان ح ٢٤ قسم ٢ ص ٢٦

(٢) ابن آياس : بدائع الزهور ح ١ ص ٤٠٥ .

(٣) المقرئزي : السلوك ح ٣ ص ٤٠٥ .

المماليك البحرية . وبقيام الظاهر برقوق في الحكم ٥٧٨٤ (١٣٨٢م) بدأت  
دولة المماليك البرجية أو الجراكسة .

### خصائص عصر السلاطين الجراكسة :

تختلف دولة المماليك الثانية - أو الجراكسة - عن الأولى ،  
أو البحرية ، في عدة نواحي ، أولها أن سلاطين الدولة البرجية أو الثانية  
كانوا جميعا جراكسة الجنس ، ماعدا اثنين يرجعان إلى أصل يوناني  
هما خشمقدم وتمرغا . هذا إلى أن مبدأ الحكم الوراثي الذي حاول بعض  
سلاطين دولة المماليك الأولى تطبيقه في عناد وإصرار والذي نجح بوضوح  
في عصر بيت قلاون ، هذا المبدأ لا نجد له أثرا في عصر دولة المماليك  
الجراكسة . والواقع إن سلاطين دولة المماليك الثانية كانوا أعماء أو أمراء  
كبار أكثر منهم سلاطين . وكان نجاح السلطان في مهمته يتوقف على مدى  
توفيقه في توجيه كبار الأمراء وضرب طوائف المماليك بعضها ببعض .  
فإذا استطاع السلطان الاحتفاظ بمنصبه حتى الوفاة . فإن ابنه كان يخلفه  
عادة . ولكن أعدة أشهر فقط حتى ينجلي الموقف بين كبار الأمراء ويستطيع  
أحدهم أن ينفرد بالغميمة<sup>(١)</sup> .

والمعروف أن دولة المماليك الجراكسة عمرت أكثر من مائة وأربعة  
وثلاثين سنة ( ٧٨٤ - ٥٩٢٢ = ١٣٨٢ - ١٥١٧ م ) ، تعاقب على عرش  
السلطنة خلالها ثلاث وعشرون سلطانا ومن هؤلاء السلاطين تسعة حكموا  
مائة وثلاث سنوات ، في حين حكم الأربعة عشر سلطانا الباقون تسع سنوات  
فقط . أما هؤلاء السلاطين التسعة الذين ارتبط بهم تاريخ دولة المماليك  
الجراكسة هم برقوق وفرج وشيخ وبرزباى وجقمق وأينال وخشمقدم

(١) Lane-Poole : A Hist. of Egypt, p. 325

وقايتباى وقانصوه الغورى . ولا ترجع أهمية هؤلاء السلاطين إلى مهارتهم الحربية ، بقدر ما ترجع إلى مقدرتهم في الوصول إلى أهدافهم عن طريق ضرب خصومهم وطوائف المماليك بعضها ببعض . وكثير من أولئك السلاطين مثل برقوق وشيخ وجقمق وقايتباى عرفوا بحبهم للأدب ومجالس العلم ، كما عرف بعضهم بالتقوى والورع ، الأمر الذى تشهد عليه مؤسساتهم الخيرية من مدارس ومساجد وسبل ومشافى وغيرها . وربما كانت هذه المؤسسات ستارا حاول به بعض هؤلاء السلاطين التكفير عن ذنوبهم وتغطية ما قاموا به من أعمال ضد خصومهم (١) .

ولاشك في أن البلاد قاست كثيرا في عهد المماليك الجراكسة من جراء المنازعات المستمرة بين طوائف المماليك ، وما كان ينتجم عن تلك المنازعات من حوادث وقاتال في الشوارع ، مما أوجد جوا من القلق وعدم الاستقرار في القاهرة بوجه خاص . وزاد من شدة البلاء أن السلاطين عجزوا في ذلك العصر عن كبح جماح مماليكهم مما جعلهم لا يجدون وسيلة للاحتفاظ بمراكزهم سوى ضرب طوائف المماليك بعضها ببعض ، مثلما فعل السلطان خشقدم من ضرب الظاهرية بالاشرفية ، وضرب الناصرية بالمؤيدية ، وبذلك يخلو الجو للسلطان ومماليكه فيعيثون في الارض فسادا .

على أننا نلاحظ على الرغم من كل ذلك أن سلاطين الدولة الجركسية عملوا دائما على حصر تلك المنازعات داخل دائرة داخلية بحتة ، بحيث لم يتمكنوا قوة خارجية من التدخل في شئون البلاد أو الانتقاص من سيادتها . وهكذا استطاعت دولة المماليك في ذلك العصر الصمود في وجه تيمورلنك في وقت اهتزت جميع الدول القائمة في غرب القارة الآسيوية أمام هجماته (٢) .

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك ص ١٤١ ، ١٥٩٠ .

(٢) Wiet : L'Egypte Arabe, pp. 511-513.



## برقوق وفرج وشيخ :

لم يمض على قيام الظاهر برقوق في السلطنة عام واحد حتى حبكت مؤامرة لعزله وأحلال الخليفة العباسي بدله . ولكن برقوق اكتشف المؤامرة وأحبطها ، فعزل الخليفة المتوكل وأحل محله خليفة آخر لقب بالواثق بالله .<sup>(١)</sup> ويبدو أن هذه المؤامرة جعلت الظاهر برقوق يتطرف في اضطهاد من يشك فيهم ، وبخاصة المالكي الأتراك ، فطرد عدد كبير منهم من وظائفهم ، ونفى بعضهم إلى الشام<sup>(٢)</sup> .

على أن هذه الإجراءات التي قام بها الظاهر برقوق لم تنفع في حمايته من المؤامرات المتصلة التي دبرها خصومه ضده ، حتى انتهى الأمر سنة ٧٩١هـ ( ١٣٨٩ م ) بقيام ثورة في شمال الشام تزعمها منطاش نائب ملطية وبلغا الناصري نائب حلب . وقد زحف الثوار ، تؤيدهم جموع غفيرة من التركمان والمغول ، نحو دمشق ، فاستولوا عليها ثم زحفوا على القاهرة حيث ساء موقف برقوق ، فهرب من القلعة حتى قبض عليه ونفي إلى الكرك<sup>(٣)</sup> .

وعندما دخل الثوار القاهرة أعادوا إلى العرش أمير حاجي ابن الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد بن قلاوون ( ٧٩١ - ٧٩٢ ، ١٣٨٩ - ١٣٩٠ م ) ولكن النزاع لم يلبث أن اشتد بين الأُميرين الثائرين منطاش وبلغا ، مما أعطى برقوق فرصة لاسترداد مكانته . وكان برقوق قد تمكن من الفرار من حصن الكرك ، لجمع جيشاً بالشام ، وانزل هزيمة بأعدائه عند صرخد سنة ٧٩٢هـ ( ١٣٩٠ م ) ثم دخل القاهرة ظافراً حيث رحب به الأهالي واستقبلوه استقبالاً حافلاً<sup>(٤)</sup> .

(١) ابن حجر : أنباء الغمرح ١ ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

(٢) العيني : عقد الجمان ح ٢٤ - ٢٨ ص ٢٨٩ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ح ١١ ص ٢٧٥ - ٢٨٩ .

(٤) ابن حجر : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ح ٤ ص ٣٦٥ ، المقرئ : السلوك

وكان مركز الظاهر برقوق قويا في تلك المرة ، إذ التف حوله الناس بعد مارأوه من سوء تدبير منطاش وتعسفه . وقد قضى برقوق العامين التاليين في إخضاع منطاش بالشام ؛ ولم يكده يفرغ من ذلك حتى دهمه خطر جديد هو تيمورلنك والمغول . وكان تيمورلنك قد استولى على بغداد سنة ٧٩٥ هـ (١٣١٣ م) ، واستولت جيوشه على بعض البلاد التابعة لسلطنة المماليك - مثل ماردين - مما جعل الظاهر برقوق يحس بذلك الخطر ويعمل بسرعة على تلافيه . وكان أن استطاع برقوق أن يعمل حلفا سريعا بين القوى التي أحست بخطر تيمورلنك في الشرق الأدنى ، مثل المماليك في مصر وأمير سيواس ومغول القفجاق وسلطنة العثمانيين<sup>(١)</sup> . ولم يلبث تيمورلنك أن أرسل إلى برقوق رسالة مخيفة من نوع تلك التي أرسلها هولوكو إلى قطز سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) ، يطلب منه التسليم السريع ، فالويل كل الويل لمن لم يمثل أمورا ، فإننا قد خربنا البلاد وأهلكنا العباد وأظهرنا في الأرض الفساد...<sup>(٢)</sup> . واسكن برقوق أظهر ثباتا ، ورد على تيمورلنك بنفس أسلوبه ، بل طرد رسول تيمورلنك من القاهرة . وفي العام التالي - أي في سنة ٧٩٧ هـ (١٣٩٥ م) - خرج برقوق على رأس حملة لإعادة أحمد بن أويس - صاحب بغداد الذي كان قد لجأ إلى القاهرة - إلى عاصمته ، ومحاربة تيمورلنك . واسكن برقوق وجد أن تيمورلنك عاد إلى بلاده ، فرجع هو الآخر إلى القاهرة حيث توفي سنة ٨٠١ هـ (١٣٩٩ م) دون أن تتاح له الفرصة لإظهار شجاعته في حرب المغول .

وقد خلف برقوق في الحكم أكبر أبنائه الثلاثة وهو الناصر هرج ، الذي كان في الثالثة عشر من عمره . وكان أن أسرع السلطان الصغير إلى الشام

---

(١) Wiet : L'Égypte Arabe, pp. 518-519.

(٢) ابن عربشاه : عجائب المقدور في أخبار تيمور ، ص ٧٠ .

سنة ٨٠٣هـ (١٤٠٠م) على رأس جيش كبير عندما سمع بعودة تيمورلنك إليها ، وبأنه اجتاح حلب ، وأخذ يهدد دمشق . ولسكن الناصر فرج أدرک حرج موقفه في الشام وخشى على حياته ، فعاد إلى القاهرة تاركاً جيشه يلقى أسوأ مصير على يد تيمورلنك قرب حلب (١) . وهكذا اضطرت دمشق إلى التسليم بشروط معينة ، وإن كان المغول لم يرفعوا شروط الأمان الذي منحوه لأهل دمشق فنهبوا المدينة ودمروها وأشعلوا فيها النيران كما دهموا معظم الأطراف الشمالية لبلاد الشام .

وعندما سمع السلطان فرج بأخبار الانتصارات التي أحرزها تيمورلنك في آسيا الصغرى وبأخبار الهزيمة التي حلت بالسلطان بايزيد العثماني في موقعة أنقره سنة ٨٠٥هـ (١٤٠٣م) رضخ للشروط التي تقدم بها تيمورلنك ، فأطلق سراح من لديه من أسرى ، بل رضى أن يسك العملة باسم تيمورلنك ، وإن كنا لم نعثر فعلا على أية قطعة من النقود المصرية تحمل اسم تيمورلنك . ولم يلبث أن مات تيمورلنك سنة ٨٠٨هـ (١٤٠٥م) دون أن يحقق حلمه في احتلال مصر (٢) .

أما السلطان الناصر فرج فقد خسر مكانته في نفوس المصريين نتيجة لرضوخه لطالبات المغول . وسرعان ما نشب نزاع بين أمراء المماليك في مصر فعمت الفوضى القاهرة ، واضطر السلطان فرج إلى الاختفاء عن المسرح شهرين ، فحل محله في السلطنة أخوه المنصور عبدالعزیز سنة ٨٠٨هـ (١٤٠٥م) . حتى هدأت الأمور وتمكن الأمير يشبک من إعادة الناصر فرج إلى السلطنة

(١) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 526.

(٢) المقریزی : السلوك ح ٣ ورقة ٢٧ ، ابن عربشاه : عجائب المقدر ص ١٠٧ وما بعدها.  
Lane-Poole : A Hist. of Egypt, p. 334.

في نفس العام . وقد قضى الناصر فرج ببقية عهده في إقرار الأوضاع ببلاد الشام التي غدت هي الأخرى مسرحاً للمنافسات بين كبار الأمراء . ولم يستطع الناصر فرج مقاومة الأمير شيخ محمودى ونوروز ، فاضطر إلى التسليم لهما سنة ٨١٥ هـ (١٤١٢ م) بشرط تأمينه على حياته . ولكن على الرغم من ذلك فإن الخليفة والعلماء أفتوا بقتل الناصر فرج لسوء خلقه وإدمانه على شرب الخمر وتنكيله بماليك أبيه ، حتى لقد وصفه المؤرخون ، بكثرة الجهل مع قلة الدين ، فاغتيل بدمشق في نفس العام<sup>(١)</sup> .

وكانت المشكلة التي نشأت بعد مقتل الناصر فرج هي أيهما يلي العرش الأمير شيخ أم الأمير نوروز ؟ وإلى أن يتم الفصل في هذه المشكلة عهد بالسلطنة إلى الخليفة المستعين العباسى سنة ٨١٥ هـ (١٤١٢ م) . ومن الواضح أن سلطنة المستعين التي استمرت خمسة أشهر تقريباً ، كانت اسمية بحته ، إذ لم يلبث أن فاز شيخ في حلبة المنافسة بينه وبين نوروز ، فخلف الخليفة ، وتولى منصب السلطنة بعد أن تلقب بلقب المؤيد<sup>(٢)</sup> ومن الطبيعي ألا يرضى نوروز بذلك الوضع ، فأعلن الثورة في الشام ، ورفض الاعتراف بالسلطان المؤيد شيخ وأن يضرب السكة باسمه ، الأمر الذي دفع السلطان المؤيد شيخ إلى الخروج في العام التالي لتوابعته إلى الشام والتخلص من نوروز بالقتل<sup>(٣)</sup> .

أما أهم الأحداث الخارجية في عهد المؤيد شيخ ، فهي قيامه بحملتين على الأطراف الشمالية لبلاد الشام لإرغام الدويلات التركمانية على الحدود - وهي قرمان وذو الغادر ورمضان - على العودة إلى سابق تبعيتها للدولة المماليكية . ففي سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) خرج السلطان المؤيد شيخ إلى طرسوس حيث

(١) ابن أياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٣٥٣ - ٣٥٥ .

(٢) العمري : السيف المهند تاريخ الملك المؤيد ص ٢٥٩ (تحقيق فهد شلوت) .

(٣) العمري : السيف المهند ، ص ٣٢٦ .

قدم له أمراء التركان فروض الطاعة ، بل إن أمير قرمان رضى أن يسك نقوده باسم السلطان المؤيد . ولكن لم يكده شيخ يرجع إلى مصر ، حتى أخذ التركان ينهضون الشروط التي تعهدوا بها ، ومن ثم أرسل المؤيد ابنه إبراهيم ضدهم سنة ٥٨٢٢ (١٤١٩م) ، فاستولى على قيصريه وقونية ، وسك العملة في بلاد التركان باسم أبيه شيخ . ولم يعد إبراهيم إلى مصر إلا بعد أن عين حاكما على تلك الجهات من الموالين له ، كما ضم إلى دولة المماليك بعض المدن مثل أذنه وطرسوس . وقد استقبل إبراهيم في القاهرة استقبالا حماسياً ، ولكنه لم يلبث أن مات في العام التالي ، ويقال أن أباه حقد عليه لما ناله من تقدير ، فدس له السم<sup>(١)</sup> .

على أن مصر لم تستفد كثيراً من تلك الأعمال في الوقت الذي لم يستطع المؤيد أن يسيطر على مماليكه ، مما سبب أضراراً جسيمة للأهالي الآمنين . وقد خلف المؤيد شيخ ابنه أحمد سنة ٥٨٢٤ (١٤٢١م) تحت وصاية الأمير ططر . ولم يلبث بعد أشهر أن تولى ططر نفسه السلطنة لفترة قصيرة ، خلفه ابنه محمد الذي لبث في الحكم عدة أشهر تحت وصاية برسباي . وفي سنة ٥٨٢٥ (١٤٢٢م) انتزع برسباي السلطنة لنفسه وتلقب بالسلطان الأشرف<sup>(٢)</sup> .

#### برسباي وفتح جزيرة قبرس :

حكم الأشرف برسباي ما يزيد عن ستة عشر عاماً ، وهي مدة طويلة لم يفقه فيها من سلاطين الجراكسه سوى الأشرف قايتباي . وعلى الرغم مما قاساه الناس في عهده من سوء الأحوال الاقتصادية وارتفاع الأسعار

(١) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 548.

(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ، ص ١٦٣ .

بسبب سياسته الاحتكارية إلا أن ذلك العهد اتصف بالاستقرار وقلة الاضطرابات ، مما يمكن برسباى من القيام بمشروع حربى ضخم هو غزو جزيرة قبرس .

وقد سبق أن أشرنا إلى ما قام به ملوك قبرس من آل لوزجنان من جهود صليبية ضد سلطنة المماليك فى مصر ، وبخاصة بعد أن استولى المماليك على عكا سنة ٦٩٠هـ ( ١٢٩١م ) وطردوا آخر البقايا الصليبية من الشام . كذلك ذكرنا أن هجمات قبرس وملوكها على شواطئ دولة المماليك بلغت ذروتها سنة ٧٦٧هـ ( ١٣٦٥م ) عندما هاجم بطرس لوزجنان ملك الجزيرة نجر الاسكندرية وخر به تخريباً لم يغفره له المسلمون .

ولم يستطع سلاطين المماليك عندئذ الثأر من جزيرة قبرس ، نظراً للظروف التى أحاطت بدولة المماليك فى عصر أبناء الناصر محمد بن قلاوون وأحفاده ، ثم للدشاكل التى تعرض لها السلاطين الأوائل من دولة المماليك الجراكسه . ويبدو أن ملوك قبرس ظنوا أن سكوت سلاطين المماليك عنهم معناه عجزهم عن مدافعهم ، فاستمروا فى هجماتهم على شواطئ دولة المماليك كما حدث من إغارتهم على الإسكندرية سنة ١٤٠٣ وعلى طرابلس الشام سنة ١٤٠٤ على عهد الناصر فرج (١) . وأكثر من هذا ، فإن ملوك قبرس حرصوا على طعن دولة المماليك فى أعظم موارد ثروتها وغناها ، فاعتدوا على السفن والمتاجر المماليكية فى عرض البحر ، كما منعوا السفن الأوربية من الوصول إلى الشواطئ المصرية لا بتبايع ما يلزمها من توابل (٢) .

وإذا صبر سلاطين المماليك فى مصر على ذلك العدوان السافر من

---

(١) Lane-Poole : A Hist. of Egypt, p. 335.

(٢) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٨٤ — ٨٥ .

جانب أهل قبرس ، فإن هذا الصبر كان لا يمكن أن يطول . لذلك فكر السلطان برسباي في القيام بعمل حاسم ضد قبرس ، لاسيما بعد أن تكرر العدوان في أوائل حكمه من جانب قراصنتها على الاسكندرية والتجار المسلمين<sup>(١)</sup> . وقد أرسل برسباي ثلاث حملات ضد جزيرة قبرس تعتبر من أعظم الاعمال الحربية التي تمت في عصر دولة المماليك الجراكسة ، ونجحت في ضم الجزيرة واخضاعها لسلطنة المماليك . أما الحملة الأولى فكانت سنة ٨٢٧هـ ( ١٤٢٤م ) ، وهي حملة صغيرة ، لا تعدو أن تكون مجرد حملة استطلاعية ، ومع ذلك فقد نجح رجالها في مهاجمة ثغر ليماسول بجزيرة قبرس وأشعال النار في بعض أحيائها ثم العودة سالمين إلى مصر<sup>(٢)</sup> .

ولم تسكد السفن المصرية تعود من تلك الغزوة سالمة ، حتى تشجع برسباي ، فأمر فوراً بالاستعداد لحملة جديدة ، غادرت مصر في صيف ٨٢٨هـ ( ١٤٢٥م ) قاصدة ميناء قرباص على الشاطئ الشمالي الشرقي لجزيرة قبرس ومنه تحركت جنوباً قاصدة ميناء فاما جوستا . وقد مكث المسلمون أربعة أيام في منطة فاما جوستا ، شنوا فيها الغازات على الضياع القريبة وأوسعوها نهبا وأسرا وتحريقا . وبعد أن أنزل المسلمون الهزيمة بالقوات القبرسية في منطقة الملاحة توجهوا إلى ليماسول واستطاعوا الاستيلاء على حصنها الحصين بعد جهد شاق ، ثم قفلوا راجعين إلى مصر بعد أن سمعوا باستعدادات جانوس ملك الجزيرة<sup>(٣)</sup> .

على أن برسباي لم يقنع بالنتائج التي حققتها الحملتان السابقتان لأنه لم يستهدف مجرد السلب والنهب والعودة ببضع مئات من الأسرى وبعض

---

(١) المقرئزي : السلوك ج ٤ ورقة ٣٥٢ ، أبوالمحسن النجوم ج ٦ ص ٥٦١ (طبعة كاليفورنيا) .

(٢) العيني : عقد الجان ج ٢٥ ق ٣ ص ٥٧٢ .

(٣) ابن حجر : أبناء الغمر ح ٢ ص ١٠٦ ب ، صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٢٢٢

اكوام من الغنائم . لذلك بادر السلطان عقب عودة الحملة الثانية إلى إعداد حملة كبرى تحقق له إخضاع قبرس وملوكها . وبعد أن تمت جميع الترتيبات لتلك الحملة خرجت من مصر سنة ٨٢٩ هـ ( ١٤٢٦ م ) قاصدة قبرس حتى وصلت ميناء ليماسول ، فبدأ المسلمون بمهاجمته والاستيلاء عليه<sup>(١)</sup> . وبعد أن قضى المسلمون في ليماسول ستة أيام ، قرروا الزحف إلى داخلية الجزيرة للإستيلاء على عاصمتها ومنازلة ملكها .

وفي تلك الأثناء كان الملك جانوس — ملك قبرس — قد جمع جيوشه واستعد لمنازلة المسلمين ، ودارت الموقعة الفاصلة بين الطرفين عند خير وكيثا إلى الشمال الشرقي من ليماسول — وفيها حلت الهزيمة ساحقة بالقبارسة ، ووقع ملكهم جانوس نفسه أسيرا في قبضة المماليك . أما المسلمون فقد زحفوا بعد ذلك على نيقوسيا عاصمة قبرس ، وصلوا الجمعة في كنيستها ، ثم غادروها بعد أن أشعلوا النار في أرجاء المدينة<sup>(٢)</sup> .

وأخيرا عادت الحملة المصرية إلى القاهرة ، ومع المسلمين مئات الأسرى من جملتهم جانوس ملك قبرس نفسه ، وكميات ضخمة من الغنائم . وقد أفاضت المراجع المعاصرة في وصف الاستقبال الحافل الذي استقبل به الغزاة في القاهرة . وظل جانوس ملك قبرس أسيرا في مصر حتى سنة ٨٣٠ هـ ( ١٤٢٧ م ) عندما أفرج عنه السلطان برسباي بعد دفع فدية كبيرة وبشرط الاعتراف بالسيادة لسلطنة المماليك . ومنذ ذلك الوقت وجزيرة قبرس تعتبر « من جملة بلاد السلطان » حتى سقوط سلطنة المماليك سنة ٩٢٢ هـ ( ١٥١٧ م )<sup>(٣)</sup> .

---

(١) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ١٠٧ .  
(٢) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٤٣ ، المقرئى : السلوك ج ٤ ص ٣٧١ ب العيني : عقد الجمان ج ٢٥ ق ٣ ص ٥٨٣ .  
(٣) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ١٢١ — ١٢٦ .



## السلطان جقمق وغزو جزيرة رودس :

مات السلطان برسباي سنة ٨٤١ هـ (١٤٣٨ م) غير مأسوف عليه من شعبه بسبب تعسفه في سياسته الاقتصادية وتطرفه في سياسية الاحتكار مما أنزل ضررا بايغا بالعباد . ولم يستطع العزيز يوسف بن برسباي - وكان في الرابعة عشر من عمره - أن يحتفظ بالعرش أمام نفوذ أقوى الأسماء عندئذ وهو جقمق . وكان أن تول جقمق السلطنة بعد قليل .

وكان حكم الظاهر جقمق ( ٨٤٢ - ٨٥٧ هـ = ١٤٣٨ - ١٤٥٣ م ) معتدلا إذا قيس بحكم برسباي ، كما عرف عن جقمق تدينه وورعه ، فخرم المعاصي وشرب الخمر<sup>(١)</sup> .

غير أن السلطان جقمق لم يلبث أن تعرض في أوائل حكمه للثورات التقليدية التي تعرض لها غيره من سلاطين المماليك السابقين واللاحقين ؛ فثار ضده الأمير قرقاش الشعباني أتاك العسكر في مصر ، كما ثار ضده نائب الشام في دمشق . ولكن جقمق نجح في القضاء على هاتين الثورتين ، كما نجح في القضاء على فتنة العبيد في الجزيرة سنة ٨٤٦ هـ (١٤٤٢)<sup>(٢)</sup> .

والواقع أن أهمية عهد جقمق ترجع إلى مامتاز به ذلك العهد من نشاط خارجي ، كانت أبرز معالمه تحسن العلاقات بين المغول ودولة المماليك من ناحية ، وقيام جقمق بغزو جزيرة رودس من ناحية أخرى . ذلك أن وفاة تيمور لنك سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م) أعقبها تصدع امبراطوريته الواسعة ، حتى تمكن ابنه شاه رخ من استرداد سمرقند - مركز قوة أبيه وحكمه - وقد عيم سلطانه وأحياء مجد دولة المغول كما كانت في عهد أبيه . وكان أن بدأ

(١) المقدسي : الانس الجليل ج ٢ ص ٤٤٣ .

(٢) ابراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٣٥ .

شاه رخ صفحة جديدة في العلاقات بين دواته ودولة المماليك ، فأرسل إلى برسباى سنة ٨٣٢ هـ ( ١٤٢٩ م ) يطلب السماح له بكسوة الكعبة فضلا عن تزويده ببعض الكتب التي ألفها علماء عصر المماليك مثل ابن حجر العسقلاني والمقرئى . ولما لم يلق شاه رخ جوابا على طلبه ، أرسل سفارة أخرى إلى القاهرة في نفس العام يكرر طلبه ورغبته في كسوة الكعبة (١) . ومن الواضح أن برسباى والمماليك خشوا أن يكون وراء طلب شاه رخ أطماع يريد تحقيقها في الشام والحجاز ، لاسيما وأن حماية الحرمين كانت من الحقوق التي استأثر بها سلاطين المماليك وأضفت عليهم مكانة خاصة وسط بقية حكام المسلمين .

أما شاه رخ فإنه لم ييأس ، وظل يوالى طلبه ، فأرسل إلى برسباى سنة ٨٣٩ هـ ( ١٤٣٥ م ) يطلب السماح له بزيارة بيت المقدس ، ثم تمادى فأرسل سنة ٨٤٠ هـ ( ١٤٣٦ م ) يطلب من برسباى إقامة الخطبة له وضرب السكة باسمه . ولكن برسباى أساء إلى السفير الموفد إليه من قبل شاه رخ ، مما عكر العلاقة بين الطرفين وجعل شاه رخ يحاول أن يتصل بأمرام التركان وبالسultan العثماني بقصد تأليف حزب ضد الأشرف برسباى (٢) .

وهكذا مات برسباى سنة ٨٤١ هـ ( ١٤٣٨ م ) وتولى الظاهر جقمق عرش السلطنة المماليكية في نفس العام ليجد نفسه أمام مشكلة لا بد من تصفيتها ، هي مشكلة العلاقة مع شاه رخ . وهنا اتبع جقمق سياسة معتدلة متزنة في علاج تلك المشكلة ، لاسيما وأن الظروف الخارجية التي أحاطت به ، وإحساسه بخطر العثمانيين المتزايد من ناحية وبعاقبة نسل حملته الثالثة على رودس من ناحية ثانية — أملت عليه ذلك المسلك المعتدل (٣) .

(١) Wiet : L'Égypte Arabe, pp. 563-564.

(٢) Wiet : op. cit., p. 564-565.

(٣) إبراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص ١٣ .

لذلك أحسن الظاهر جقمق استقبال رسل شاه رخ الذين وفدوا إلى القاهرة آتئينته بالسلطنة ، كما وافق على السماح لشاه رخ بكسوة الكعبة سنة ٨٤٧ هـ ( ١٤٤٣ م ) بشرط أن تكون الكسوة من الداخل فقط أو تحت كسوة السلطان . وقد بادر شاه رخ بإرسال سفارة تحمل كسوته للكعبة فاستقبل أعضاء السفارة استقبالا حسنا ، وإن كان العوام وبعض طوائف المماليك لم يرضوا على ذلك الوضع فاعتدوا على أعضاء البعثة . ومن الواضح أن الرأي العام في العالم الإسلامي لم ينس للمغول ماضيهم الماطخ بالدماء في الاعتداء على المسلمين وعلى الخلافة العباسية ، لذلك استاء المسلمون من فكرة قيام أحد حكام المغول - كائنا من كان - بكسوة الكعبة . وربما أدى إحساس السلطان جقمق بهذا الشعور إلى نزعه كسوة شاه رخ سنة ٨٥٦ هـ ( ١٤٥٢ م ) وبقيت للكعبة كسوة سلطان المماليك وحدها (١) .

هذا عن علاقة السلطان الظاهر جقمق بالدولة النيمورية ، أما عن علاقته بجزيرة رودس ، فيلاحظ أن هذه الجزيرة صارت قاعدة لفرسان الاسبتارية منذ سنة ٧١٠ هـ ( ١٣١٠ م ) وهم الفرسان الذين قاموا في بلاد الشام بدور كبير في خدمة القضية الصليبية ، حتى إذ مادالت دولة الصليبيين بالشام غادروها إلى قبرس ، ومنها إلى رودس ليواصلوا نشاطهم ضد المسلمين في شرق حوض البحر المتوسط .

وقد أحس الاسبتارية في رودس بالخطر عندما قامت قوات السلطان الأشرف برسباي بغزو جزيرة قبرس ، فأسرع مقدم الاسبتارية في رودس وهو دلو فيان إلى محاولة كسب ود السلطان برسباي عن طريق تقديم الهدايا

---

(١) السخاوى : التبر المسبوك ص ٩٦ وما بعدها .

والتعهد بدفع جزية سنوية لسلطنة المماليك في القاهرة . على أنه يبدو أن عهد برسباي لم يتسع للقيام بغزو رودس فتأجل المشروع لعهد الظاهر جقمق .

والواقع أن برسباي استطاع بفتنه . جزيرة قبرس أن يضرب لمن يأتي بعده من سلاطين المماليك مثالا في كيفية حماية دولة المماليك من خطر القواعد البحرية التي ظلت بأيدي الصليبيين في شرق البحر المتوسط . لذلك كانت الخطوة الطبيعية أمام الظاهر جقمق بعد أن استقرت له الأمور هي العمل على غزو رودس . ويقال أن السلطان مراد الثاني العثماني حرص جقمق على غزو رودس ، وكان هدف مراد من ذلك هو أن يشغل فرسان الاستتارية عن الانضمام إلى الحلف المسيحي الذي أوشك أن يتألف بين القوى المديحية الأوروبية . اشتمت حملة صليبية ضد العثمانيين في البلقان<sup>(١)</sup> هذا إلى أن اغارات القراصنة المسيحيين لم تنقطع عن شواطئ مصر ، فأغارت أربع سفن منها في سنة ٨٤٣ هـ ( أغسطس ١٤٣٩ م ) على رشيد وأوغلت في النيل حيث اعتدت على المناطق القريبة . ولما كانت قبرس في ذلك الوقت قد تم إخضاعها لسلطنة المماليك ، فإن الشبهات قوية عند رودس التي لم تبق قاعدة غيرها للصليبيين في شرق البحر المتوسط<sup>(٢)</sup> .

على أن أخبار استعدادات جقمق لغزو رودس وصلت إلى أصحاب الجزيرة من الاستتارية ، فأخذوا يستعدون في سرعة ، كما أرسلوا إلى القوى المسيحية في أوروبا يستنجدون بها خوفا من أن يحل بهم ما حل بأهل قبرس<sup>(٣)</sup> . وإلى هذه الاستعدادات يرجع السبب في فشل جقمق في إخضاع رودس وجعلها تابعة لسلطنة المماليك في مصر تبعية كاملة مثلما حدث لجزيرة قبرس .

(١) محمد مصطفى زيادة : المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس ص ٢٩٧ .

(٢) Wiet : L'Égypte Arabe, p. 582.

(٣) Atiya : The Crusade in the Later Middle age, p. 474.

وكانت الحملات التي أرسلها جقمق ضد رودس ثلاث سنة ٨٤٤، ٨٤٧، ٨٤٨ هـ (١٤٤٠، ١٤٤٣، ١٤٤٤ م) . وبعد أن فشلت الحملتان الأولى والثانية في تحقيق هدف واضح ، اهتم جقمق بإعداد الحملة الثالثة ، وحشد لها عدداً كبيراً من الرجال والسفن . وقد قامت هذه الحملة بحصار مدينة رودس - حاضرة الجزيرة - طوال أربعين يوماً ، واسكن المدينة صمدت للحصار واستعصى على المسلمين اقتحامها . ولم يلبث أن ساء موقف رجال الحملة ، لاسيما بعد أن وصلت بعض الإمدادات الأوربية إلى رودس ، فعادوا فاشين إلى مصر<sup>(١)</sup> .

وعلى الرغم من أنه تم الصلح بين فرسان رودس وسلطنة المماليك بعد قليل ، إلا أن العلاقة بين الطرفين ظلت تتأرجح بين الهدوء حيناً والعداء أحياناً ببقية القرن الخامس عشر . ومن الواضح أن سلطنة المماليك صارت في النصف الأخير من القرن الخامس عشر في حال لا تمكنها من القيام بعمل حربي كبير ضد رودس أو غيرها من القوى المعادية ، فلم يسع سلاطين المماليك سوى أن يردوا على موقف رودس بالقبض على التجار الأوربيين في ثغور مصر ومضايقتهم<sup>(٢)</sup> .

#### السلطان الأشرف قايتباي والتركمان :

توفي السلطان الظاهر جقمق سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م) بعد أن عهد وهو على فراش الموت لابنه عثمان بولاية العهد . ولم يستطع المنصور عثمان البقاء في السلطنة سوى ثلاثة وأربعين يوماً ، إذ عزله الأمير إينال وحل محله بعد أن تلقب بلقب الأشرف . ولعل الظاهرة الواضحة في تاريخ المماليك عندئذ هي إنعدام روح النظام وكثرة المنازعات والفتن والمنافسات بين طوائف المماليك .

Lane-Poole : A Hist. of Egypt, p. 339. (١)

Wiet : op. cit., pp. 621-622. (٢)

ويبدو الفارق واضحا بين ما كان عليه المماليك في أوائل عصرهم من نظام وطاعة ، وبين ما آل إليه أمرهم في القرن التاسع الهجري ( الخامس عشر للميلاد ) من انحلال ، حتى لقد وصفهم المؤرخ أبو المحاسن بقوله : ليس لهم صناعة إلا نهب البضاعة ، يتعدون على الضعيف ويشرّهون حتى في الرغيف<sup>(١)</sup> .

وقد ظل الأشرف إينال في الحكم ثمان سنوات ٨٥٧ - ٨٦٥ هـ ( ١٤٥٣ - ١٤٦١ م ) ثار أثناءها المماليك الجلبان سبع مرات ١ وفيما عدا هذه الفتن والمنازعات والقتال الداخلي ، لا يوجد ما يستحق الذكر في الفترة التالية التي تعاقب فيها على عرش سلطنة المماليك أحمد بن إينال ( ٨٦٥ هـ = ١٤٦١ م ) فالظاهر سيف الدين خشقدم ( ٨٦٥ - ٨٧٢ هـ = ١٤٦١ - ١٤٦٧ م ) فالظاهر سيف الدين يلباي الملقب بالمجنون سنة ٨٧٢ هـ ( ١٤٦٧ م ) فالظاهر تمبرغا الرومي سنة ٨٧٢ هـ ( ديسمبر ١٤٦٧ - يناير ١٤٦٨ م ) وهكذا يبدو لنا كيف تعاقب سلاطين المماليك في سرعة متناهية ، وكيف أن بعضهم لا يتكاد يعتلي العرش أياما حتى يعزل ، مما يشهد على عدم الاستقرار ومدى الاضطراب الذي أصاب سلطنة المماليك في ذلك العصر . بل إن أحد سلاطين المماليك ظل سلطانا مدى ليلة واحدة ، فنسمع أن خيربك اعتلى العرش سنة ٨٧٢ هـ ( ١٤٦٨ هـ ) بعد عزل تمبرغا ، وكان اعتقاله العرش في المساء وعزله في الصباح التالي ، مما جعل المعاصرين يطلقون عليه « سلطان ليلة<sup>(٢)</sup> » . ولم تستقر الأوضاع في سلطنة المماليك بعد تلك الفترة القلقة إلا بقيام السلطان الأشرف قايتباي في منصب السلطنة سنة ٨٧٢ هـ ( ١٤٦٨ م ) .

ذلك أن السلطان الأشرف قايتباي ظل في الحكم قرابة تسعة وعشرين

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢٩ ( طبعة كاليفورنيا ) .

(٢) ابن أبيس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٨٨ - ٨٩ .

سنة ( ٨٧٢ - ٩٠١ هـ = ١٤٦٨ - ١٤٩٦ م ) ، وهي مدة طويلة ، لم يسبقه إليها أحد من سلاطين المماليك عدا السلطان الناصر محمد بن قلاوون . وقد أثبت السلطان قايتباي طوال حكمه أنه من أقدر السلاطين المماليك في ميدان الحرب وأوسعهم خبرة بشئون العالم الخارجى وأكثرهم شجاعة وحكمة (١) .

وعلى الرغم من ثورات الجلبان في عهد قايتباي ، وجشعهم في الحصول على الأموال دون تقدير لظروف البلاد والأخطار التي هددتها في ذلك الوقت ، فإن قايتباي استطاع أن يواجهه في جراه وعزيمة المشاكل الكبرى التي هددت دولته . وكانت المشكلة الأولى التي واجهت دولة المماليك في ذلك العصر من جانب الدول التركمانية التي هددت الأطراف الشمالية لدولة المماليك في شمال الشام والعراق وشرق آسيا الصغرى ؛ وأهم هذه الدول دولة دلاغار ودولة رمضان ودولة قرمان ، ثم دولتي الشاه البيضاء والشاه السوداء (٢) .

وقد رأينا كيف قام السلطان المؤيد شيخ بحملتين سنيتي ٨٢١ ، ٨٢٢ هـ ( ١٤١٨ ، ١٤١٩ ) على الأطراف الشمالية لبلاد الشام لارغام تلك الدويلات التركمانية على الخضوع لسلطنة المماليك . وإذا كانت هاتان الحملتان قد نجحتا في إرهاب التركان ، مما ترتب عليه هدوء العلاقات بينهم وبين سلطنة المماليك ، فإن هذا الهدوء جاء مؤقتاً ، بدليل أن زعيم دولة الشاه البيضاء انتهز فرصة سوء التفاهم بين برسباي وشاه رخ حول مسألة كسوة الكعبة ، وأغار على حدود سلطنة المماليك ببلاد الشام . وقد رد برسباي على ذلك بإرسال حملة خربت الرها - سنة ٨٣٣ هـ ( ١٤٣٠ م ) - وكانت تابعة للشاه البيضاء - ولكنه لم يستطع مع ذلك أن يقوم بعمل حاسم لتأديب التركان . وربما

Lane-Poole : op. cit., pp. 343-344.

(١)

Wiet : L'Egypte Arabe, p. 590.

(٢)

كان اختلال أحوال المماليك وما سببوه من اضطرابات منذ أواخر عهد برسبای دانغا هدهوه الموقف. نسبيا بين التركان من ناحية ، وسلطنة المماليك من ناحية أخرى ، حتى قيام قايتباي في الحكم<sup>(١)</sup> .

على أن ازدياد نفوذ العثمانيين وتدخلهم في شؤون تلك الامارات التركانية على حدود دولة المماليك ، جعل السلطان الأشرف قايتباي يحس بالخطر الجديد ويفكر في وضع حد للتركان حتى لا يكونوا أداة لتغلغل النفوذ العثماني في أطراف دولة المماليك من ناحية الشمال .

ولذلك قام السلطان قايتباي بإرسال عدة حملات ضد شاه سوار أمير دلغادر الذي كان يتمتع بتأييد السلطان محمد الفاتح العثماني . وقد نجحت الحملة الأخيرة التي أرسلها قايتباي بقيادة الأمير يشبك سنة ٨٧٦ هـ ( ١٤٧١ م ) في إنزال الهزيمة بشاه سوار والاستيلاء على قلعة عينتاب وأذنه وطرسوس وأخيراً تم القبض على شاه سوار وأرسل إلى القاهرة ، في حين قام القائد يشبك بتنظيم شؤون إمارة دلغادر ، وعين عليها الأمير بوداق ، وهو أخو شاه سوار ، وكان الأول يعتمد على تأييد سلطنة المماليك في حين اعتمد شاه سوار على تأييد السلطنة العثمانية . ولم تلبث أن عادت حملة يشبك إلى القاهرة سنة ٨٧٧ هـ ( ١٤٧٢ م ) فاستقبلت استقبالا حافلا في حين أمر قايتباي بشنق شاه سوار على باب زويلة<sup>(٢)</sup> .

ولم تقتصر المتاعب التي واجهت سلطنة المماليك من جانب التركان على ما أثاره أمراء دلغادر من فتن واعتداءات ، بل إن قبيلة الشاه البيضاء —

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٩ وما بعدها .

(٢) Wiet : L'Egypte Arabe, pp. 590-594.



وصاحبها حسن الطويل - دأبت على الاغارة على أعمال حلب ، الأثر الذي جعل السلطان قايتباي يرسل حملة بقيادة يشبك سنة ٨٧٧هـ (١٤٧٢م) ضد حسن الطويل<sup>(١)</sup> . وعلى الرغم من أن هذه الحملة أحرزت إنتصارا على التركمان عند البيرة على نهر الفرات ، إلا أن يشبك انتهى فرصة الفوضى التي عمت إمارة الشاه البيضاء عقب وفاة أميرها حسن الطويل سنة ٨٨٣هـ (١٤٧٨م) وقام بحملة جديدة لإخضاع تلك الإمارة سنة ٨٨٥هـ (١٤٨٠م) ولكن حاكم الرها - وهو أحد نواب يعقوب بك بن حسن الطويل - استطاع أن ينزل الهزيمة بالمهايك في تلك السنة ، وأسر يشبك وقتله ، كما قتل كثيراً من أمراء المهايك<sup>(٢)</sup> . ويبدو أن ظروف قايتباي لم تساعد على الإنتقام لشرفه من تلك الكارثة ، ففتح بعقد الصالح مع دولة الشاه البيضاء بعد قليل .

وفي الوقت الذي حرص السلطان قايتباي على تأمين حدود دولته من ناحية الشمال ، لم يهمل شؤون رعاياه ودولته . حقيقة إنه تعسف في جمع الأموال وفرض الضرائب وتطبيق سياسة الاحتكار ، ولكن أعماله تثبت لنا أنه استغل الأموال الطائلة التي جمعها في إقامة المنشآت العديدة أو تجهيز الجيوش . ويعتبر مسجدا قايتباي بالقاهرة والوكالات التي أقامها من أجل المنشآت التي تمتاز بفتحها العربي الأصيل<sup>(٣)</sup> . هذا إلى شغف قايتباي بإصلاح آثار وترميم ومنشآت أسلافه ، كما تثبت ذلك الكتابات والنقوش العديدة المثبتة في سدارس ذلك العصر ومساجده فضلا عن القلعة . وقد عرف عن قايتباي حب التنقل والأسفار ، زطاف بالشام وأعلى الفرات وحصر العليا

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٨٦ (تحقيق محمد مصطفى) .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ١٧١ (محمد مصطفى) .

(٣) زكي محمد حسن : فنون الإسلام ص ٧٧ - ٧٨ ، ٨٢ - ٨٤ .

والدلتا ، بالإضافة إلى الحج وزيارة الأماكن المقدسة بالحجاز وبيت المقدس<sup>(١)</sup>. وأينما ذهب كان يخلد إسمه بإنشاء الطرق والجسور والمساجد والمدارس وغيرها من المنشآت الحيوية . وقد دفع ذلك بعض الباحثين إلى القول بأنه لا يوجد سلطان آخر من سلاطين المماليك – عدا الناصر محمد بن قلاوون – فعل ما فعله قايتباي من عناية بالفنون وخاصة فن العمارة<sup>(٢)</sup>.

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٣٢٩ وما بعدها ( تحقيق محمد مصطفى )  
(٢) Lane-Poole : op. cit., p. 344.

## الفصل السادس

### نهاية دولة المماليك

قانسوه الغورى :

ساعات أحوال مصر في أواخر عصر السلطان قايتباى ، إذ ضاق الناس بكثرة الأعباء المالية الملقاة على عاتقهم ، كما انتشر الطاعون إنتشاراً خطيراً سنة ٨٩٧ هـ ( ١٤٩٣ م ) ، وفتك في الناس فتكا ذريعاً ، على قول ابن اياس ، حتى إنه كان يموت بالقاهرة في اليوم الواحد أكثر من عشرة آلاف نفس . ولم ينج المماليك أنفسهم من ذلك الوباء فماتت أعداد غفيرة منهم ، قدرها المؤرخون بثلاثهم ، وكان من جملة الموتى زوجة السلطان وابنته . وزاد الموقف سوءاً إنعدام الأوقات وانخفاض النيل وانتشار طاعون الجواشي (١) .

وفي وسط تلك الظروف القاسية لم يتورع المماليك عن الوقوع في منازعات مع بعضهم البعض سنة ٩٠٠ هـ ( ١٤٩٥ م ) . أما السلطان قايتباى نفسه فقد استبد به المرض وتقدم به السن حتى جاوز الثمانين من عمره ، فلم يجد بدا من التنازل عن العرش لابنه محمد . ثم توفي بعد ذلك في اليوم التالي مباشرة سنة ٩٠١ هـ ( ١٤٩٦ م ) (٢) .

ومن الواضح أن محمد بن قايتباى الذى تلقب بالناصر كان لا يقوى على

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٢٨٧ .

Wiet : op cit., p. 604.

(٢)

الضمود في وجه كبار الأمراء ، لاسيما وأنه كان صغيرا في الرابعة من عمره .  
وقد اتخذ النزاع بين كبار الأمراء شكلا تنافس حول الوصاية على السلطان  
الصغير ؛ على أساس أن هذه الوصاية تعتبر خطوة تمهيدية للتخلص من  
ذلك الطفل والفوز بمنصب السلطنة . وكان أن خرج الأمير قانصوه  
خمسائه فائزا من تلك الجولة وبذلك تولى منصب الأتابكية واستبد  
بالسلطة (١) .

وإذا كان قانصوه خمسائه قد استطاع عزل محمد بن قايتباي ليعلم نفسه  
سلطانا (سنة ٩٠٢ هـ = ١٤٩٧ م) ، وما كان اغتياه عن هذه السلطنة ، على  
قول ابن إياس ، فإن ضمير قانصوه لم يمسوا أن خلعوه وانتهى أمره  
بالقتل ، في حين أعادوا الناصر محمد بن قايتباي مرة أخرى إلى السلطنة (٢) .  
ولكن الناصر محمد لم يلبث أن استثار نفوز الناس بحماقته وطيشه وميله  
لصفك الدماء ، في الوقت الذي استبد للمهايك الجلبان بالأمور وعاثوا  
فسادا في البلاد والعباد . وأخيرا ضاق الأمراء باستبداد المهايك الجلبان  
وخضوع محمد بن قايتباي لرأيهم ، فقتلوا السلطان محمد سنة ٩٠٤ هـ (١٤٩٨ م)  
واختاروا شريكهم الظاهر قانصوه — وهو خال القليل — ليتولى السلطنة .  
وهكذا تعاقب السلاطين بسرعة في تلك الفترة المضطربة من تاريخ سلطنة  
المهايك ، فعزل الظاهر قانصوه ليتولى بدله الأشرف جانبلاط سنة ٩٠٥ هـ  
(يونيه سنة ١٥٠٠ م) ، ثم عزل وخنق هذا الأخير ليحل محله العادل  
طومان باي (الأول) سنة ٩٠٦ هـ (يناير سنة ١٥٠١ م) ، ولم يبق العادل  
طومان باي في منصب السلطنة سوى بضعة أشهر حتى خنق وحل محله  
الأشرف قانصوه الغوري في أبريل سنة ٩٠٦ هـ (١٥٠١ م) .

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٣٣٥ وما بعدها (محمد مصطفى) .

(٢) المصدر السابق ص ٣٥٤ .

ولعل الميثة الوحشية التي تعرض لها سلاطين المماليك الأواخر عند عزلهم هي التي جعلت قانصوه الغوري يتهرب من منصب السلطنة عندما عرضه عليه الأمراء ، ويمتنع من ذلك ويبكى ، ولكنه قبل أخيراً ذلك المنصب بعد أن اشترط عليهم عدم قتله إذا أرادوا خلعه<sup>(١)</sup> . ولم يكن أصرار الأمراء على اختيار قانصوه الغوري لاعتقادهم في أحقيته نظراً لكبر سنه ، وإنما لاعتقادهم أنه غنييف يمكنهم التلاعب به وفق أهوائهم.

ولكن لم يكف السلطان الأشرف قانصوه الغوري بلى السلطنة حتى أثبت أنه رجل قوى صلب العود ، رغم أنه كان قد تجاوز الستين من عمره . ذلك أنه عمل في سرعة على إعادة الأمن والاستقرار إلى العاصمة وملا مناصب الدولة بمن يشق فيهم من كبار الأمراء<sup>(٢)</sup> . ثم اتجه إلى علاج الأزمة المالية بعد أن أفلست خزانة الدولة . على أنه يؤخذ على السلطان الغوري أنه اتبع سياسة تيسيرية في أشباع خزانة الدولة ، فجمع ضرائب عشرة أشهر مقدماً دفعة واحدة ، ولم يكتف بفرض هذه الضرائب على الأراضي والحوانيت والعقارات وإنما تجاوز ذلك إلى الطواحين والمعديات والسفن ودواب النقل بل حتى الأوقاف الخيرية . هذا إلى أنه تلاعب في العملة لتستفيد الخزنة من الفارق بين العملة الجيدة والعملة الرديئة ، وضاعف المكوس والرسوم الجبركية ، مما أنزل بالتجار على وجه الخصوص أضراراً بالغة<sup>(٣)</sup> . وكانت النتيجة أن حقق الغوري أغراضه وحصل على ما كان يطمع فيه من أموال ولكن على حساب شعب محطم ، أثقلت كاهله الالتزامات والاحتكارات والضرائب ، وأقلقت مضاجعه الفتن والمنازعات بين أمراء

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٤ وما بعدها (محمد مصطفى) .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٣٠ وما بعدها .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٨٩ - ٩٠ (محمد مصطفى) .

المماليك وطوائفهم . ولم يشفع للسلطان الغورى لدى رعاياه أن ذلك السلطان  
شيد مسجداً ومدرسة في الحى الذى نسب إليه فيما بعد ، وهو حى الغورية ؛  
كما عنى بطريق الحج وحفر به بعض الآبار ، فضلاً عن عنايته بحفر الترع  
وتحصين الاسكندرية ورشيد ، وإصلاح القلعة . هذا إلى أنه عرف عن  
السلطان الغورى عنايته بمماليكه فأكثر من أعدادهم عن طريق الشراء ، وصرف  
كثيراً من الأموال على مظاهر بلاطه ونخامته ، وأصبحت بماليكه وخيوله  
وجواهره ومطبخه السلطاني مضرب الأمثال ، كما اشتهرت مجالسه الأدبية  
التي ضمت الشعراء والادباء والعلماء (١) .

### الصدام بين المماليك والبرتغاليين :

ولم تحدث قلاقل ذات خطورة في الفترة الأولى من حكم السلطان  
الغورى ، إذا استثنينا بعض الفتن والثورات من جانب المماليك والعربان ،  
وهذا النوع من الثورات كان مألوفاً في ذلك العصر . ولم يصادف السلطان  
الغورى مشقة في إخمادها . ولكن الخطر الكبير الذى ظهر في ذلك العصر  
والذى هدد مصر في كيانها وفي المورد الأول لثروتها وغناها أتى من ناحية  
الجنوب - أعنى من ناحية المدخل الجنوبي للبحر الاحمر ؛ ثم من ناحية  
الشمال - أى من جانب العثمانيين .

والمعروف أن حركة المغول التوسعية أدت منذ القرن السابع الهجرى  
( الثالث عشر الميلاد ) إلى ضياع أهمية طرق التجارة الرئيسية المألوفة بين  
الشرق والغرب وبخاصة طريق الخليج الفارسي والطريق البرى المار  
بسمرقند ؛ وبذلك لم يبق هناك طريق آمن بعيد عن عبث المغول سوى

---

(١) انظر كتاب ( الكوكب الدرى فى مسائل الغورى ) مخطوط ، وعبد الوهاب عزام :  
مجالس السلطان الغورى .

طريق البحر الأحمر ومصر . وقد استغل سلاطين المماليك تلك الفرصة وفرضوا ضرائب مرتفعة على الغلات الآسيوية التي احتاجت إليها أوروبا وحرصت على استيرادها من الشرق — وبخاصة التوابل . بل إن سلاطين المماليك فرضوا نظاماً احتسكارياً قاسياً حتى أصبحت التوابل تباع للتجار الأوربيين في الإسكندرية ودمياط بثمن يفوق أربعين مرة ثمنها المستوردة به من بلدان الشرق الأقصى<sup>(١)</sup> .

وكان أن ضاق التجار الأوربيون — فضلاً عن المستهلك الأوربي — بذلك الوضع ، فبدأت الجهود لاكتشاف طريق آخر غير طريق مصر والمماليك يمكن الأوربيين من الحصول على متاجر الشرق . ولما كانت البندقية هي العميل الأول لدولة المماليك في تجارة الشرق الأقصى فإنه كان من المنتظر أن تبدأ منافستها جنوة للجهود للبحث عن طريق جديد إلى الشرق . وفعلاً استطاعت جنوة اكتشاف بعض أجزاء الساحل الغربي لأفريقية — في مواجهة جزر كناريا — مما يعتبر مقدمة للجهود التي أدت إلى كشف طريق رأس الرجاء الصالح فيما بعد<sup>(٢)</sup> . وكان أن نجح بارثوليو دياز في كشف طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٢ هـ ( ١٤٨٧ م ) ، وأعقبه فاسكودي جاما الذي تمكن من الوصول إلى الهند عن طريق الطواف حول إفريقيا سنة ١٤٩٨ هـ ( ١٤٩٨ م ) ؛ وبذلك حقق البرتغاليون نصراً عالمياً جديداً ، واستطاعوا أن يوفروا للسوق الأوربية التوابل وغيرها من حاصلات الشرق الأقصى بثمن يبلغ ربع الثمن الذي كانت تباع به في الإسكندرية ودمياط .

وسرعان ما اهتزت سلطنة المماليك لذلك الانقلاب المفاجيء في طرق

---

(١) مركز مصر في التجارة العالمية في أواخر العصور الوسطى — بحث الدكتور سعيد عاشور ، نشر في المجلة المصرية للعلوم السياسية ( ديسمبر ١٩٦٢ ) .  
(٢) سعيد سيد الفتح عاشور : الحصار الاقتصادي على مصر زمن الحروب الصليبية ص ١١٠ ( بحث نشر في المجلة المصرية للعلوم السياسية ، أكتوبر ١٩٦٢ ) .

التجارة العالمية ؛ إذ بدأ الاعراض عن شراء التوابل من السوق المصرية ؛ مما حرم سلاطين المماليك من المورد الأول الذي استمدوا منه أسباب قوتهم وعظمتهم . ولم تكن البندقية أقل تأثراً من سلطنة المماليك بما سببه لها اكتشاف البرتغاليين للطريق الجديد ، لأن معنى ذلك أن يحل البرتغاليون محل البنادقة في الوساطة التجارية بين الشرق والغرب<sup>(١)</sup> . لذلك اتفقت مصالح البندقية مع مصالح سلطنة المماليك ، فخرض السلطان الغوري على إرسال حملة إلى قاليقوط لطردهم البرتغاليين من الهند . هذا في الوقت الذي لجأ الغوري إلى أسلوب آخر هو تحريض الحكام المسلمين بالهند على طرد البرتغاليين ومحاربتهم . أما البندقية فقد دأبت من جانبها على تأليب القوى الأوروبية ضد البرتغاليين وحثها على عدم التعامل معهم . على أن جميع جهود الغوري والبنادقة ذهبت مع الريح ، فلا الحكام المسلمون في الهند تحركوا ضد البرتغاليين ولا الدول الأوروبية قبلت أن تتخلى عن التعامل مع البرتغاليين الذين قاموا بتموين السوق الأوروبية بحاجته من التوابل بسعر أرخص كثيراً من أسعار البنادقة<sup>(٢)</sup> .

ولما وجد الغوري أن الغرب الأوربي لم يعبأ بتهديداته ، وأن جهود البندقية لم تفلح في عرقلة طريق البرتغاليين ، صمم على القيام بعمل حاسم ضد البرتغاليين بعد أن أصبحت المعركة معركة حياة أو موت بالنسبة لسلطنة المماليك . ويمكننا أن ندرك مدى الإنهيار المفاجيء في دخل السلطان بعد أن أصبحت التوابل مكدسة في الثغور المصرية لا تجد من يشتريها من التجار الأوربيين . لذلك أعد الغوري حملة بحرية ، كبيرة وأرسلها في البحر الأحمر سنة ٩١١ هـ ( ١٥٠٥ م ) بقيادة حسين الكردي نائب جدة . وكان أن استطاعت هذه الحملة أن تنزل الهزيمة بالبرتغاليين قرب الشواطئ الغربية للهند سنة ٩١٤ هـ

(١) Heyd . Hist. du Commerce, T. 3, p. 320.

(٢) ابن لياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٨٤ ، ١٤٦ .



( ١٥٠٨ م ) . ولكن البرتغاليين انتقموا بسرعة لأنفسهم فخطمو الأسطول  
المصرى في العام التالي سنة ٩١٥ هـ ( ١٥٠٩ م ) في موقعة ديو البحرية<sup>(١)</sup> .

وإذا كان السلطان الغوري لم ييأس بعد موقعة ديو ، وإنما قام بعدة  
محاولات أخرى للقضاء على النفوذ البرتغالي في الهند ، إلا أنه من الواضح  
أن تلك المحاولات لم يكتب لها النجاح من بدايتها . وهكذا ذبلت تجارة  
مصر مع الشرق الأقصى والغرب الأوربي جميعا ، وبذبول تلك التجارة  
ذبلت الدولة نفسها . وكان ذلك في الوقت الذي بدأ يشتد خطر العثمانيين  
على دولة المماليك في الشام ومصر .

### العثمانيون والمماليك :

شهد القرن الرابع عشر تضخم نفوذ قوة جديدة في الشرق الأدنى ،  
هي قوة الأتراك العثمانيين الذين كانوا يعيشون في بداية القرن السابع الهجري  
( الثالث عشر للميلاد ) في إقليم خراسان ، ثم اضطروا تحت ضغط المغول  
إلى التحرك غربا حتى استقروا في آسيا الصغرى . وقد أتاح انهيار سلطنة  
سلاجقة الروم بقونيه سنة ٧٠٧ هـ ( ١٣٠٧ م ) فرصة طيبة للعثمانيين ،  
فأخذوا يتوسعون بسرعة على حساب الإمارات والقبائل التركية الكبيرة  
التي وجدت بآسيا الصغرى في ذلك الوقت ، وعلى حساب الممتلكات  
والأراضي البيزنطية ، فاستولوا على بروسه سنة ٧٢٦ هـ ( ١٣٢٦ م ) وعلى  
نيقيه سنة ٧٣٠ هـ ( ١٣٣٠ م ) ، ثم عبروا إلى الشاطئ الأوربي واستولوا  
على غالينولي سنة ٧٥٥ هـ ( ١٣٥٤ م )<sup>(٢)</sup> . وهكذا أخذت الدولة العثمانية  
الناشئة تتوسع توسعا آمنا سريعا على حساب الدولة البيزنطية من ناحية  
وعلى حساب القوى الإسلامية في آسيا الصغرى من ناحية أخرى ، دون

Wiet : op. cit., p. 618.

(١)

Gibbons : The Decline and Fall of the Roman Empire,

(٢)

pp. 101-103.

أن يعوق تقدمها عائق حتى نهاية القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد).  
على أن الدولة العثمانية تعرضت لضربة خطيرة كان من الممكن أن تقضى  
عليها قضاء نهائياً في أوائل القرن التاسع الهجري (الخامس عشر للميلاد)،  
عندما اجتاحت تيمور لنگ معظم آسيا الصغرى وأزول هزيمة ساحقة بالجيوش  
العثمانية في موقعة أنقره سنة ٨٠٥ هـ (١٤٠٢ م) ووقع السلطان العثماني  
بايزيد الأول نفسه أسيراً حيث مات في الأسر في العام التالي (١١). وكان  
الأمل ضعيفاً في استطاعة الدولة العثمانية النهوض من تلك السكوبة، ولكنها  
نهضت بسرعة، وتمكن السلطان محمد الأول العثماني من إحياء الدولة وربط  
أجزائها واستئناف سياسة التوسع من جديد. ولم يستطع الغرب الأوربي  
وقف توسع العثمانيين في البلقان، حتى سقطت القسطنطينية في قبضة السلطان  
محمد الفاتح سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م) وبذلك انتهت الدولة البيزنطية من صفحة  
التاريخ وحل سلاطين آل عثمان محل قياصرة الرومان في مدينة الإمبراطور  
قسطنطين العظيم (١٢).

وفي خلال تلك الأحداث التي صحبت نمو الدولة العثمانية واتساعها في  
القرنين الرابع عشر والخامس عشر لم يظهر في الأفق ما يدل على احتمال حدوث  
صدام بين العثمانيين والمماليك في مصر والشام. ولأنكون مبالغين إذا قررنا  
أن دولة المماليك أخذت تنظر بعين الارتياح إلى الانتصارات التي حققها  
العثمانيون المسلمون على حساب القوى الأوروبية المسيحية في البلقان، بل إن  
السلطان إينال أمر بتزيين القاهرة سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م) عندما وصلته  
الأخبار باستيلاء العثمانيين على القسطنطينية (١٣). وهكذا أخذ المماليك ينظرون

(١) Cam. Med. Hist. vol. 4, 682-684.

(٢) سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ٦٨٣.

(٣) محمد مصطفى زيادة: نهاية السلاطين المماليك في مصر ص ١٩٩.

إلى كل نصر يحقيه العثمانيون على أنه نصر الاسلام والمسلمين . وأدرك العثمانيون هذه الحقيقة فدأبوا كلما أحرزوا إنتصارا في موقعة كبرى على إرسال بعض أمرى الأوربيين إلى القاهرة ، ليشاركهم إخوانهم المسلمون في مصر فرحة النصر. وفي الوقت نفسه حرص سلاطين المماليك في القاهرة على إرسال التهانى إلى الدولة العثمانية كلما تولى سلطان جديد أو كلما أحرزت الجيوش العثمانية نصراً جديداً<sup>(١)</sup> .

غير أنه لم تسكد السلطنة تنقل إلى خشقدم سنة ٨٦٥ هـ ( ١٤٦١ م ) حتى أخذت العلاقات بين دولتى المماليك والعثمانيين تتعسكر . ذلك أن الدولة العثمانية كانت قد قنعت عندئذ بما حققته من فتوح في البلقان وأخذت تولى وجهها مرة أخرى صوب ما تبقى خارجا عن السيادة العثمانية من أمارات في آسيا الصغرى . وكانت أهم هذه الإمارات إمارتا قرمان ودلغادر ، وهما إمارتان تركيا نيتان مشمولتان بحماية ساطنة المماليك ، واعتمدت عليهما هذه السلطنة في شئون الأمن والدفاع عن مصالحها في شمال الشام والعراق<sup>(٢)</sup> . والواقع أن الصدام بين المماليك والعثمانيين كان أمرا طبيعيا بين أكبر قوتين تزعمان العالم الإسلامى في الشرق الأدنى واتخذتا الحرب والقتال أداة لسياستهما ، فصار لا بد لاحدى هاتين القوتين من أن تنتصر على منافستها وقستاثر بزعامة المسلمين في تلك المنطقة . لذلك اتخذ التنافس بين سلطان المماليك وسلطان العثمانيين إمارتى قرمان ودلغادر ميداناله ، وظهر ذلك بوضوح عندما توفى أميرا قرمان ودلغادر سنة ٨٦٩ هـ ( ١٤٦٥ م ) إذ قامت الدولة العثمانية بمناصرة أميرين غير من قامت دولة المماليك بتأييدهما .

وإذا كانت العلاقات قد تحسنت بعد عهد خشقدم بين سلطنة المماليك

---

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور سنة ٨٨٥٧ هـ صفحات لم تنشر ، حققها ونشرها محمد

مصطفى ، ص ١٤ .

(٢) Lane-Poole : op. cit., pp. 346-347.

وسلطنة العثمانيين فإن هذا التحسن لم يكن إلا في ظاهر الأمور ، لأن أطماع الدولة العثمانية من ناحية ومخاوف دولة المماليك من ناحية أخرى ظلت قائمة . ولا أدل على ذلك من أن كل طرف من الطرفين حرص على إيواء الأمرام الخارجين على الطرف الآخر ، فرحبت سلطنة المماليك ببعض كبار الأمرام الفارين من القاهرة والشام ، ورحب السلطان قايتباي بأخ للسلطان بايزيد الثاني — اسمه جم — هارب من وجهة (١) . وقد حاول بايزيد الثاني أن يحرم سلطنة المماليك من انفرادها بحماية الحرمين مما يضمني عليها مكانه خاصة لا تتمتع بها دولة إسلامية أخرى ، فطلب السماح له بالقيام ببضعة إصلاحات في مكة ولكن قايتباي رفض طلبه ، مثلما رفض سلاطين المماليك السابقين طلب تيمور لذك لسكوة الكعبة من قبل . وإزاء ذلك لم يسمع بايزيد الثاني سوى أن يتحرش بسلطنة المماليك ، واتخذ إمارة دلغادر — الخارجة عن طاعة المماليك عندئذ — مسرحاً لذلك التحرش (٢) .

على أنه مهما يكن من مصادمات بين المماليك والعثمانيين في ذلك الدور (٣) ، فإن الحرب الفعلية بين الطرفين لم تتخذ شكلاً جدياً خطيراً إلا في عصر السلطان سليم الأول العثماني من ناحية والسلطان قانصوه الغوري من ناحية أخرى .

وقد بدأ السلطان سليم الأول العثماني بمحاربة اسماعيل الصفوي شاه إيران لتصفية ما بين الدولتين العثمانية والصفوية من مشاكل مذهبية وسياسية . وأدى انتصار العثمانيين على الصفويين سنة ٩٢٠ هـ (١٥١٤ م) واستيلاء السلطان سليم الأول على الجزيرة والموصل وغيرها من الجهات ذات

(١) Wiet : L'Égypte Arabe, p. 598.

(٢) زيادة : نهاية السلاطين المماليك ص ٢٠٥ .

(٣) ابن إياس بدائع الزهور سنة ٨٧١ هـ وما بعدها ص ١٧٦ صفحات لم تنشر .

الروابط القديمة بسلطنة مصر منذ أيام الأيوبيين ، إلى تهيئة مزيد من الفرص لوقوع الصدام بين العثمانيين والمماليك . ثم كان أن قضى السلطان سليم سنة ٩٢١ هـ ( ١٥١٥ م ) على إمارة دلغادر المشمولة بحماية سلطنة المماليك ، مما جعل الصدام بين الدولتين أمراً لا مفر منه <sup>(١)</sup> .

ولم يستطع السلطان الغورى أن يظل ساكناً إزاء حوادث الاستفزاز العثماني من ناحية ، والأخبار التي أخذت تتراعى إلى مسامعه عن قرب هجوم العثمانيين على أراضي الدولة المماليكية من ناحية أخرى . لذلك أسرع الغورى إلى استرضاء المماليك الثائرين بسبب تأخر رواتبهم ، ثم أخذ يستعد للمعركة القادمة ، فاستدعى العسكر إلى ديوان الجيش وأعد آلات الحرب ، وأسرع بتحصين قلعة قايتباي في الاسكندرية . وفي ذلك الجو المشحون بروح الحرب وصلت إلى القاهرة رسالة من خاير بك نائب حلب ملخصها أن السلطان مخدوع فيما لديه من أخبار بخصوص نوايا سليم وأن المقصود من الاستعدادات التي قام بها السلطان العثماني محاربة الشاه إسماعيل الصفوى <sup>(٢)</sup> . وأهمية هذه الرسالة ترجع إلى أنها تكشف الستار عن دور الخيانة الذي حرص خاير بك على القيام به منذ ذلك الوقت والذي كان له أبعاد الأثر فيما بعد في الهزيمة التي حلت بالغورى .

ومهما يكن من أمر ، فإن الغورى لم يتخذ بتلك الرسالة ، وإنما عقد مجلساً حربياً لبحث الأمر مع أمرائه ، واستقر رأى الجميع على ضرورة المبادرة بإرسال حملة كبيرة إلى حلب إستعداداً للطوارئ ، على أن يكون السلطان الغورى نفسه على رأس تلك الحملة <sup>(٣)</sup> وهكذا لم ينتصف شهر مايو

---

(١) Wiet : op. cit., pp. 632-633.

وابن إياس ، بدائع الزهور ج ٤ ص ٤٣٥ وما بعدها « محمد مصطفى » .

(٢) زيادة : نهاية السلاطين المماليك ص ٢١٤ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٤٣٥ وما بعدها ، ج ٥ ص ٢٧ — ٣٨ .

سنة ١٥١٦ م ( ٩٢٢ هـ ) إلا وكان الغورى قد تأهب للخروج على رأس جيشه إلى الشام . وفي مرحلة التأهب النهائي بالريدانية ، وصلت إلى الغورى رسالة من خاير بك تصحبها رسالة أخرى من السلطان سليم العثمانى تحوى كثيراً من عبارات الود والمحبة والرغبة فى التعايش السلمى مع سلطنة المماليك . وفي هذه الرسالة يخاطب السلطان سليم الغورى قائلاً : أنت والدى وأسالك الدعاء (١) .

ولكن هذه الخديعة لم تنطل على الغورى ، فخرج على رأس جيشه إلى الشام بعد أن أناب عنه فى السلطنة الأمير طومانباى .

ولم يكن السلطان الغورى مبالغاً فى سوء ظنه بالعثمانيين عندما أرسل إليه السلطان سليم رسولين فى حلب يعرضان الصلح ، إذ أدرك الغورى أن كل هذا حيل وخداع حتى يبطل مهمة السلطان عن القتال ويثنى عزمه عن ذلك ، ، على قول ابن اياس . كذلك لم يكن الغورى مبالغاً فى الحذر عندما استدعى - وهو بحلب - أمراءه جميعاً وحلفهم على القرآن - فى حضرة الخليفة العباسى - بأنهم لن يخونوه فى ساعة الشدة . ذلك أن الأحداث السريعة أثبتت أن الغورى كان على حق فى جميع مخاوفه ، وإذا كان قد رد على رسالة سليم بالحسنى ، فإن السلطان العثمانى أساء استقبال رسول الغورى وصاح فيه : قل لا ستاذك يلاقينا على مرج دابق (٢) .

وكان أن دارت المعركة فعلاً عند مرج دابق ، فخارب المماليك بشجاعة نادرة ، حتى لقد فكر السلطان سليم العثمانى فى التقهقر لاعادة تنظيم صفوفه وفى تلك اللحظة الحرجة كشف خاير بك الخائن النقاب عن وجهه ، فأشاع

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٤٥ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٦٨ .

بين صفوف الجند أن السلطان الغورى يأمرهم بعدم التقدم لحين صدور أوامر أخرى ، ثم لم يلبث خاير بك أن انسحب من الميدان بعد أن أشاع أن السلطان الغورى خر قتيلا . وهكذا تفرقت صفوف المماليك وانهارت مقاومتهم ، وعبثا حاول الغورى — بعد غوات الأوان — أن يوقف تيار الفرار فصاح في جنده المدبرين « يا أغوات الشجاعة ! صبر ساعة (١) » . وكان لهذه الصدمة وقعها في قلب الشيخ ، فطلب الغورى ماء ليشرب « ثم أغشى عليه وسقط ميتا » من فوق فرسه . وقيل أن السلطان سليم قطع رأس الغورى وأرسلها إلى اسطنبول في حين دفنت جثته عند حلب : « والصحيح أنه لم يعلم حاله (١) » .

### طومان باى وسقوط دولة المماليك :

صارت كارثة مرج دابق مزدوجة بوفاة الغورى . ففرت فلول المماليك هاربة نحو دمشق في طريقها إلى القاهرة . أما أهل القاهرة فقد وقع عليهم الخبر وقع الصاعقه لاسيما وأن أخبار هزيمة مرج دابق وصلت مصحوبة بأنباء زحف السلطان سليم العثماني على بلاد الشام في طريقه إلى مصر . وكان الموقف في القاهرة يتطلب إجراء عاجلا سريعا ، فاختير طوماى باى سلطانا سنة ٩٢٢ هـ ( اكتوبر سنة ١٥١٦ م ) وتلقب بلقب الأشرف ، وهو آخر سلاطين المماليك في مصر والشام (٢) .

ومن الواضح أن السلطان الأشرف طومان باى ورث تركة مثقلة ، وتولى السلطنة في ظرف لا يحسد عليه حاكم . وكان أقل ما ينتظره بعد أن

---

(١) ابن زنبيل : ص ٣٠ .

(٢) ابن طولون : مفاتيح كفة الخلان في حوادث الزمان ق ٢ ص ٢٤ « تحقيق محمد مصطفى »

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ح ٥ ص ١٠٢ .

ضحى وقبل منصب الساطنة في تلك الظروف هو أن يجد تعاوننا من أمراء المماليك ، ولكن خاب ظنه لأن المماليك كانوا قد وصلوا في ذلك الدور إلى درجة من الانحلال أعمتهم عن رؤية الخطر المحيط بهم .

من ذلك أن طومان باى فكر في الإسراع إلى بلاد الشام لملاقاة العثمانيين هناك قبل أن يتمكنوا من دخول مصر ، ولكن المماليك تعاملوا بالأتذار وطالبوه بنفقات وأموال باهظة ليجيئوه إلى رغبته . ولما لم يجد طومان باى استجابة من المماليك في تلك اللحظة الحرجة اضطر إلى أن يجمع من استطاع جمعه من الزعر والصبيان والشطار والمغاربة ،<sup>(١)</sup> ؛ وخرج إلى الريدانية في طريقه لمقاتلة العثمانيين .

أما السلطان سليم العثماني فكان قد استولى على حلب في سهولة عقب موقعة مرج دابق ، ثم دخل دمشق بعد مفاوضات قصيرة ، وقضى بها نحو شهرين زحف بعدها تجاه حدود مصر . وفي الوقت الذي استولى السلطان سليم على غزة وبدأ يخرق الصحراء الشرقية في طريقه إلى القاهرة ، أراد طومان باى الخروج لملاقاة العثمانيين في تلك الصحراء وهم متعبون من مشقة الطريق ، ولكن أمراء المماليك رفضوا الأخذ برأيه اعتقاداً منهم أن خنادقهم ستعصمهم من الهزيمة<sup>(٢)</sup> .

وفي معركة الريدانية أظهر طومان باى شجاعة لا تقبل عن شجاعة الغورى في مرج دابق . ولكن فرداً واحداً مهما تبلغ إرادته وشجاعته لا يستطيع أن يتغلب على جيش متماسك كبير ، فحلت الهزيمة بالمماليك وفر طومانباى ليواصل المقاومة بين طرقات القاهرة وأحيائها ، حتى نجح فعلاً في إخراج سليم من القاهرة بعد أن دخلها . وهنا ظهرت عوامل الخيانة مرة أخرى

(١) المصدر السابق ج ٥ ص ١١٩ .

( ) ابن زئيل : ص ٤٧ — ٥٠ .



ليقتضى الله أمراً مفعولاً ، ففوجىء طومانباى أثناء جهوده الجبارة على ضفاف النيل بالجيزة بهجوم البدو والأعراب على مؤخرته ، مما أوقعه بين نارين ، فاضطر إلى التقهقر إلى قرب وردان حيث دارت معركة بين جيشه الصغير والعثمانيين<sup>(١)</sup> . وعندما انتصر عليه العثمانيون ، فر طومانباى إلى أحد مشايخ الأعراب بمديرية البحيرة - واسمه حسن بن مرعى - طالباً حمايته ، ولكن هذا الشيخ فسى ما كان لطمومانباى من فضل سابق عليه - إذ كان قد أخرجته من السجن أيام الغورى - فتسكر له وسلمه للعثمانيين .

ولما وقع طومانباى فى قبضة السلطان سليم ، فرح السلطان العثماني وصاح : « الآن ملكنا مصر ! »<sup>(٢)</sup> .

وتجمع المراجع على شجاعة طومانباى عندما وقف بين يدي السلطان سليم العثماني يقول أنه لم يفعل غير ما أملاه عليه الواجب ، وأن الله تعالى أمر بالدفاع عن النفس ورد المعتدين . ولما عاتبه سليم لأنه لم يطعه من أول الأمر ، رد عليه طومانباى : « الأنفس التي تربت في العز لا تقبل الذل ، وهل سمعت أن الأسد يخضع للذئب ؟ لا أنتم أفرس منا ولا أشجع منا ؛ وليس في عسكريك من يقايسني في حومة الميدان . . . » . وهكذا حتى سيق طومانباى إلى باب زويلة حيث شنق سنة ٥٩٢٣ هـ (٢٣ أبريل سنة ١٥١٧ م) .

وقد وصف المؤرخ المعاصر ابن اياس اللحظات الأخيرة من حياة طومانباى وصفاً رائعاً ، فقال أنه سيق من بولاق إلى باب زويلة فجعل يسلم على الناس بطول الطريق حتى وصل إلى باب زويلة وهو لا يدري ما يصنع به . فلما أتى إلى باب زويلة أنزلوه من على الفرس وأرخوا له الحبال

(١) زيادة : نهاية السلاطين المماليك ص ٢٢٦ .

(٢) ابن زنبيل : آخرة المماليك ص ١٣٢ .

ووقفت حوله العثمانية بالسيوف . فلما تحقق أنه سيشنق ، وقف على أقدامه على باب زويله ، وقال للناس الذين حوله ( أقر والى سورة الفاتحة ثلاث مرات ) . فبسط يده وقرأ سورة الفاتحة ثلاث مرات ، وقرأت الناس معه ثم قال للشاعلي ( أعمل شغلك ) فلما وضعوا الخية في رقبته ورفعوا الجبل فانقطع به فسقط على باب زويله . وقيل انقطع به الجبل مرتين وهو يقع على الأرض ، ثم شنقوه وهو مكشوف الرأس وعلى رأسه شاياه جوخ أحمر وفوقها ملوطه بيضاء بأكام كبار ، وفي رجله لباس جوخ أزرق .

فلما شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة وكثر عليه الحزن والأسف ، فإنه كان شاباً حسن الشكل ، سنه نحو أربع وأربعين سنة ، وكان شجاعاً وبطلاً ، تصدى لقتال ابن عثمان وقتل منهم ما لا يحصى ، وكسبهم ثلاث مرات في نفر قليل من عسكره ، ووقع منه في الحرب أمور ما لا تقع من الأبطال .

هذا هو حكم التاريخ على بطل من أبطاله ، هو آخر سلاطين المماليك في مصر والشام<sup>(١)</sup> .

---

( ) ابن زنبيل ، ص ١٤١ — ١٤٤ ، ابن أبياس ، بدائع الزهور ح ٥ ص ٧٦ .

## الفصل السابع

### أحوال مصر في عصر سلاطين المماليك

#### الحياة الاقتصادية :

أدرك سلاطين المماليك أهمية الزراعة للبلاد ، بوصفها عماد الثروة القومية، لذلك عنوا بها عناية فائقة فأنشأوا الجسور وشقوا الترع لتوفير مياه الري للأراضي التي يتعذر وصول الماء إليها . ومن أهم السلاطين الذين عنوا بهذه الناحية السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي عهد إلى بعض الأمراء بعمارة كافة جسور مصر في الوجهين البحري والقبلي والكشف عليها ، بل إن هذا السلطان أشرف بنفسه على إنشاء بعض الجسور ، فكان يخرج أحيانا مع المهندسين ليوجههم حتى يتم بناء الجسر<sup>(١)</sup> .

وقد قسمت أرض مصر الزراعية إلى أربعة وعشرين قيراطا اختص السلطان منها بأربعة قراريط ، والأمراء بعشرة ، وما تبقى خصص الأجناد . وروعى في ذلك التقسيم أن توزع الأرض على هيئة إقطاعات تتفاوت في مساحتها ، وفي خصوبتها ومقدار ريعها . على أن زمام الأرض فك وعدل أكثر من مرة في عصر المماليك بعد مسح الأراضي الزراعية في البلاد، وهي العملية التي تعرف باسم الروك . وقد اشتهر في تاريخ دولة المماليك الروك الذي تم في عهد السلطان لاجين سنة ٦٩٧ هـ ( ١٢٩٨ م ) والروك الذي تم في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٥ هـ ( ١٣١٥ م )<sup>(٢)</sup> .

(١) النويرى ، نهاية الإرب ، ح ٣٩ ورقة ٩١ (مخطوط) .

(٢) المقرئى : السلوك ح ١ ص ٨٤٢ — ٨٤٤ .

وقام بفلاحة الأرض جمهرة الفلاحين الذين عاشوا في حال من الفقر والحرمان لا يخفى على الباحث في تاريخ ذلك العصر ؛ فالفلاح ظل في ذلك العصر مربوطاً إلى الأرض التي يقضى حياته في خدمتها دون أن يتمتع بنصيب يذكر من خيراتها . وقد تعرض الفلاحون لكثير من العسف من جانب أمراء المماليك من ناحية ومن جانب الأعراب الذين طغوا عليهم من ناحية أخرى ، حتى دُخِرَ معظم القرى لموت أكثر الفلاحين وتشردهم في البلاد<sup>(١)</sup> . وكانت الأرض تزرع مرة واحدة في السنة عقب فيضان النيل ، لأن البلاد لم تعرف في ذلك العصر غير رى الحياض ، كما أن الفلاح لم يعرف من وسائل الزراعة وأدواتها غير الوسائل والأدوات العتيقة التي عرفت منذ أيام الفراعنة .

وعلى ذلك فإنه يبدو أن محصول الأرض الزراعية في مصر ازداد على عصر سلاطين المماليك نتيجة للعناية بمرافق الزراعة من جسور وترع ومقاييس النيل وغيرها<sup>(٢)</sup> .

وفي عصر المماليك ارتقت الصناعة رقياً كبيراً حتى أصبحت مصنوعات ذلك العصر تكون في مجموعها إنتاجاً فنياً رائعاً تزدان به متاحف العالم اليوم . وحسبنا الأقمشة الفاخرة المصنوعة من الحرير والصوف والكتان والقطن التي صنعت منها الخلع السلطانية والفرش والستور والخيام . هذاعد المصنوعات المعدنية التي تتمثل في عدد كبير من الأواني النحاسية والطاسات الدقيقة الصنع ذات النقوش والكتابات الجميلة .

وانتشرت في ذلك العصر صناعة تسكفيت البرونز والنحاس بالذهب والفضة ، وشغف المعاصرون بالنحاس المكفت بحيث لا تسكاد دار تخلو بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفت<sup>(٣)</sup> . أما الزجاج فقد صنعت

(١) المقرئى : لغائة الأمة ص ٣٦ — ٤٠ .

(٢) سعيد عبد الفتاح هاشور : العصر الممالئكى فى مصر والشام ص ٢٧٥ .

(٣) المقرئى : المواعظ ح ٢ ص ١٠٥ ( طبعة بولاق ) .

منه أنواع جميلة بعضها من البللور الصخرى المحبب ، والبعض الآخر من الزجاج الملون المستخدم في النوافذ . وكذلك الخزف الذى صنعت منه أواني متقنة جميلة ، وكان بعضها يصنع بناء على توصية خاصة من السلاطين والأمراء ، ولذلك زينت برنوكهم<sup>(١)</sup> . ولم تكن الصناعات الخشبية أقل تقدما فى عصر المماليك ، إذ مازالت الأبواب والدكك والمشربيات وغيرها من المصنوعات الخشبية الباقية من ذلك العصر تشهد على دقة الصناعة وتقدم وسائلها ، وسنشير إلى ذلك مرة أخرى فيما بعد عند كلامنا عن الفنون فى ذلك العصر .

على أنه مهما يكن للزراعة والصناعة من أهمية فى عصر المماليك ، فإن جميع الشواهد تدل على أن التجارة كان لها المقام الأول فى النشاط الاقتصادى فى ذلك العصر ، وأنها كانت المصدر الأول للثروة الهائلة التى عبرت عن نفسها فى أعمال المماليك وحياتهم وما تركوه من آثار ومنشآت نفيسة . ويرجع السبب فى النشاط التجارى الذى تميزت به مصر فى عصر المماليك إلى انسداد معظم طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب منذ القرن الثالث عشر ، بسبب حركة المغول التوسعية ؛ وبذلك لم يبق آمنا إلا طريق البحر الأحمر ومصر ، مما جعل مصر تقوم فى ذلك العصر بدور الوسيط بين الشرق والغرب . وقد أدرك سلاطين المماليك ما يمكن أن تعود به عليهم التجارة الخارجية من ثروة ، فاهتموا بتنشيطها وتأمين مسالكها وإنشاء المؤسسات اللازمة للتجار كالفنادق والخانات والوكالات والقياسر والأسواق وغيرها . كذلك حرصوا على التودد إلى قوى البحر الأحمر من ناحية ، وإلى التجار الأوربيين المترددين على الاسكندرية ودمياط من ناحية أخرى .

وقد أمر السلطان قلاوون نوابه بالثغور أن يحسنوا معاملة التجار

---

(١) زكي محمد حسن : فنون الإسلام ص ٣١٩ .

ويلاطفونهم ويتوددون إليهم ولا يجبون منهم سوى الحقوق السلطانية<sup>(١)</sup> كذلك كتب السلطان قلاوون منشوراً إلى التجار الذين يقدون إلى مصر من الشرق والغرب يصف لهم محاسن مصر ويغريهم على القدوم إليها بمتاجرهم ويعدهم بحسن المعاملة والإحسان إليهم<sup>(٢)</sup> . ويفهم من المراجع المعاصرة أنه خصصت، لسكل جالية من التجار الأوربيين فنادق خاصة بهم في الثغور والمراكز التجارية الكبرى في مصر ، ورتبت أمور هذه الفنادق بحيث يتمتع التجار الأوربيون النازلين فيها بأكبر قسط من الحرية والتسهيلات<sup>(٣)</sup> .

ولا أدل على النشاط التجاري في عصر سلاطين المماليك من انتعاش ثغور مصر وموانئها ، مثل أسوان بالنسبة لتجارة النوبة ، وعينذاب بالنسبة لتجارة الصين والهند واليمن ، ودمياط والاسكندرية بالنسبة للتجارة مع القوى الأوربية، وخاصة المدن الإيطالية<sup>(٤)</sup> .

وما يقال عن التجارة الخارجية يمكن تطبيقه على التجارة الداخلية ، إذ اشتهرت مدن مصر الكبرى بأسواقها الحافلة بالبضائع ، وأحكام الرقابة عليها من جانب المحتسبين لمنع التلاعب في الأسعار أو الأوزان أو أصناف البضاعة<sup>(٥)</sup> .

على أن الجشع سرعان ما دفع سلاطين دولة المماليك الجراكسة إلى اتباع سياسة احتكارية عنيفة ، فاحتكروا تجارة التوابل والبخور، وبالغوا في تحديد

---

(١) تاريخ ابن الفرات؛ ح ٧ ص ١٩٨ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ح ١٣ ص ٣٤٠ — ٣٤١ .

(٣) Kammerer : Le Régime et le Status des Etrangers en Egypte, pp. 17-20.

(٤) سعيد عيد الفتاح عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ص ٢٩٠ .

(٥) المقرئزي : المواعظ ح ٢ ص ٩٢ ، ابن الأخره : معالم القرية ص ٨ .

أثمانها حتى بلغ ثمن الفلفل مثلاً في الاسكندرية أضعاف ثمنه في الشرق الأقصى  
عشرين مرة . وقد بلغت سياسة الإحتكار هذه أشدها على عهد السلطان الأشرف  
برسباى ( ٨٢٥ - ٨٤١ هـ = ١٤٢٢ - ١٤٣٨ م ) الذى أبطل التعامل بالنقد  
البندي والفلورنسى وسك الدينار الأشرى ليكون أساساً للتعامل مع التجار  
الأوربيين<sup>(١)</sup> . وأخيراً ضاق الأوربيون ذرعاً بسياسة سلاطين المماليك  
واحتساراتهم ، فجدوا في البحث عن طريق آخر يمكنهم من الحصول على  
حاصلات الشرق بثمان معقول ؛ وما زالوا يجدون حتى اكتشفوا طريق  
رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن التاسع الهجرى ( الخامس عشر الميلاد )  
فكان ذلك إيذاناً بتدهور مركز مصر التجارى في التجارة العالمية .

وأخيراً ، فإننا نلاحظ عدم استقرار الحياة الاقتصادية في عصر المماليك  
بسبب تلاعب السلاطين بالعملة<sup>(٢)</sup> ، أو حدوث الفتن والمنازعات بين  
طوائف المماليك<sup>(٣)</sup> . هذا فضلاً عن أن أهل مصر كانوا يعيشون تحت  
رحمة فيضان النيل ، فإذا انخفض الفيضان حدثت أزمة اقتصادية في البلاد  
وارتفعت الأسعار واشتد الجوع وربما انتشر الطاعون في البلاد وسقط  
الموتى في الطرقات دون أن يجدوا من يدفنهم<sup>(٤)</sup> .

### الحياة الاجتماعية :

اتصفت الحياة الاجتماعية في مصر على عصر سلاطين المماليك بأنها  
كانت حياة صاخبة نشطة ، مليئة بالحركة والحياة . والمعروف أن المماليك  
أنفسهم عاشوا طبقة أرستقراطية يحكمون البلاد ويتمتعون بالجزء الأكبر  
من خيراتها دون أن يحاولوا الامتزاج بأهلها . وقد شهد الرحالة الأجانب

(١) Ahmed Darrag : L'Egypte sous le Regne de Barsbay, (١)  
pp. 96-100.

(٢) السخاوى : التبر المسبوك ص ٢٦٠ ، المقرئى : السلوك ح ٢ ص ١٧ ؛ ح ٣ ص ٨٢ .

(٣) ابو المحاسن : النجوم ح ٥ ص ٤٠١ ( طبعة كاليفورنيا ، المقرئى : السلوك ح ٣ ص ١٦٤ ) .

(٤) المقرئى : السلوك ح ١ ص ٥٠٧ - ٥٠٨ .

الذين زاروا مصر في ذلك العصر بعظم ثروة أمراء المماليك وحياسة الترف  
والنعيم التي عاشوا في ظلها<sup>(١)</sup> . أما المصريون فقد استطاعت بعض فئاتهم  
— مثل المعممين والتجار — أن يحتفظوا لأنفسهم بمكانة مرموقة في المجتمع  
ومستوى لائق من المعيشة ، في حين ظل غالب أهل البلاد من العوام  
والفلاحين يحيون حياة أقرب إلى البؤس والحرمان<sup>(٢)</sup> .

وكانت القاهرة والمدن الكبرى تفيض بالنشاط في عصر المماليك ،  
إذ عنى سلاطين المماليك بتجميلها ونظافتها ، وامتازت بأسواقها العديدة  
المليئة بأصناف البضائع والتي خضعت لرقابة المحتسب ، وهو ذورأى  
وصرامة وخشونة في الدين<sup>(٣)</sup> .

كذلك اهتم سلاطين المماليك بإنشاء كثير من المنشآت الاجتماعية  
المتنوعة ، مثل الفنادق والخانات والوكالات والأسبلة والحمامات  
والبيمارستانات وغيرها . وعلى الرغم مما كان يتعرض له أهالى القاهرة  
أحيانا من جراء عدم الاستقرار السياسى والاقتصادى ، إلا أنهم عاشوا  
عيشة مريحة ، فحرصوا على الإقبال على وسائل التسلية، والخروج إلى الحدائق  
العامة ، والرغبة فى سماع الموسيقى ، والغناء ، والتلهى بمشاهدة خيال الظل  
أو مشاهدة نطاح الكباش ومناقرة الديوك<sup>(٤)</sup> .

وفى ذلك النشاط الجافل قامت المرأة بدور أعظم مما يظن البعض ،  
إذ تمتعت بقدر كاف من الاحترام ، مكنها من المشاركة فى الحياة العامة ،

---

(١) Schefer : Le voyage d'outremer, p. X

(٢) سيعد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ٢٧ ، ٤٨ .

(٣) ابن الأخوة : معالم القرية ص ٨ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم ح ٩ ص ٢٣٦ ، ح ٥ ص ٤١ ( طبعة كاليفورنيا )

المقرئزى : الملوك ج ٢ ص ٥٧٤ .



سواء بالخروج إلى الأسواق أو التردد على الحمامات أو طلب العلم بالمساجد<sup>(١)</sup>.

وكذلك امتازت الحياة الاجتماعية في مصر على عصر سلاطين المماليك بكثرة الأعياد الدينية والقومية، والمبالغة في إحياء تلك الأعياد. ففي الأعياد ذات الصبغة الدينية كان الناس يتبادلون التهنئة ويقيمون الولائم ويتصدقون على الفقراء، ويبالغون في اظهار السرور<sup>(٢)</sup>. وربما جاءت هذه الأعياد مصحوبة ببعض المواكب — مثل الاحتفال بدوران المحمل — وعندئذ يخرج الناس من كل مكان للفرجة، ويزين أصحاب الحوانيت والأسواق حوانيتهم بالحرير والحلى.

أما في الاحتفالات القومية مثل الاحتفال بوفاء النيل أو تولية سلطان جديد، فكان السلطان عادة يشق القاهرة في موكب حافل وقد فرشت الشوارع بشقق الحرير، وأقام الأمراء القلاع — وهي أقواس النصر — في طريق السلطان. وتتضاعف مظاهر الفرح والبهجة إذا كان السلطان عائدا منتصرا من ميدان الحرب، إذ يبالغ الأمراء والناس في الزينة؛ ويقوم نائب السلطنة « باحضار سائر مغاني العرب من أعمال مصر كلها<sup>(٣)</sup> ».

### الحياة الدينية:

شهدت مصر في عصر سلاطين المماليك نشاطا دينيا يسترعى الانتباه، وبخاصة بعد أن أصبحت قاعدة الخلافة العباسية ومقصد المسلمين جميعا في المشرق والمغرب، وكانت مصر لا يزال يوجد بها أثر واضح للتشيع في أوائل

(١) سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ١٢٧ — ١٤٠ .

(٢) السخاوى: التبر المسبوك ص ١٣ — ١٤ .

(٣) المقرئى: السلوك ح ١ ص ١٣٨ .

عصر المماليك، على الرغم من الجهود التي بذلها صلاح الدين وخلقناؤه لتدعيم مذهب السنة عقب إسقاط الخلافة الفاطمية . ولكن سلاطين المماليك اتبعوا سياسة واضحة للقضاء على تلك الآثار الشيعية المتخلفة عن العصر الفاطمي في مصر ، حتى خفت آثار التشيع بالبلاد في صورة واضحة في أواخر ذلك العصر<sup>(١)</sup> . من ذلك ما قام به السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧م) من تحريم أى مذهب عدا المذهب السني الأربعة ، بحيث لا تقبل شهادة أحد ولا يرشح لوظائف القضاء أو الخطابة أو الإمارة أو التدريس إلا إذا كان من أتباع أحد المذاهب السنية الأربعة<sup>(٢)</sup> .

وخير ما يدل على إتساع دائرة النشاط الديني في عصر سلاطين المماليك كثرة المنشآت الدينية التي أقيمت في ذلك العصر . وما زالت القاهرة وكثير من المدن في مصر والشام تمتلئ بالجوامع الجميلة الرائعة التي تنسب إلى سلاطين المماليك ، حتى لقد قدر خليل بن شاهين عدد المساجد بمصر والقاهرة على عصر سلاطين المماليك بأكثر من ألف مسجد<sup>(٣)</sup> . وقلبا نجد سلطانا من سلاطين المماليك لم يؤسس مسجداً أو أكثر ، بل يقال أن الناصر محمد وأمرأه شيدوا وحدهم ثمانية وعشرين مسجداً<sup>(٤)</sup> . ولم تستخدم المساجد في ذلك العصر في العبادة فحسب ، بل استخدمت أيضاً كمدارس يقصدها المعلمون والمتعلمون .

على أن أهم ظاهرة اتصفت بها الحياة الدينية في عصر المماليك كانت انتشار التصوف . ومن الثابت أنه وفد على مصر في القرن السابع الهجري

- 
- (١) محمد كامل حسين : التشيع في الشعر المصري في عصر الأيوبيين والمماليك ص ٧٣ - ٧٤
  - (٢) المقرئزي : المواعظ والاعتبار ج ٤ ص ١٦١ .
  - (٣) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٣١ .
  - (٤) زبتر شتين : تاريخ المماليك ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

كثير من مشايخ الصوفية - معظمهم من المغرب والأندلس - مثل أبي الحسن الشاذلي وأبي العباس المرسي وأبي القاسم القباري والسيد أحمد البدوي - وهؤلاء وجدوا في مصر تربة صالحة لنشر تعاليمهم ومذاهبهم<sup>(١)</sup>. ولم يلبث أن انقسم الصوفية إلى فرق، لكل فرقة شيخها وشعارها، فازداد عدد المصريين الذين أقبلوا على هذا اللون الجديد من ألوان الحياة الدينية، وأخذ السلاطين يتقربون إلى الله ببناء الخانقوات ووقف الأوقاف عليها والعطف على الصوفية ومشايخهم. من ذلك ما نسمعه عن السلطان برقوق من أنه رتب للمدرسة التي أنشأها بين القصرين عددا من الصوفية وقرر لهم مرتبات وفيرة<sup>(٢)</sup> أما عامة الشعب المصري في عصر سلاطين المماليك فقد آمنوا بالصوفية إيمانا راسخا، فقصدوهم لمشاركتهم في أذكارهم أو لقضاء حوائجهم، حتى وصفوا الصوفية بأنهم «ملوك الآخرة الذين يدخلون الجنة قبل الأغنياء»<sup>(٣)</sup>.

ولا شك في أن ازدياد تيار التصوف في مصر على عصر سلاطين المماليك كان له أثره الخطير في الحياتين الاجتماعية والفكرية. وينادي بعض المفكرين بأن المتصوفة صبغوا القيم والمثل العليا بصفة الزهد، والرغبة عن الدنيا ومتاعها والإتجاه نحو الآخرة والعمل لها. وترتب على هذه الإتجاهات نشر روح الإستكانة والقناعة بالقليل والتذلل للحكام بين عامة الناس، مما ظلت بقاياها في نفوس الكثيرين أمداً طويلاً.

### الحياة العلمية:

ازدهرت الحركة العلمية في مصر على عصر سلاطين المماليك إزدهاراً

(١) سعيد عاشور: المجتمع المصري ص ١٦٢ - ١٦٣ .

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٦٠٠ (طبعة كاليفورنيا) .

(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام ج ٣٢ ص ٤١ - ٤٢ ، النويري: السكندري: .

الإمام بالأعلام ج ٢ ص ٥١٧ - ٥١٨ .

واسعا ، فعدت البلاد محورا لنشاط علمي متعدد الأطراف . ويرجع السبب في ذلك إلى ما أصاب أنحاء العالم الإسلامي في العراق على أيدي المغول وفي الأندلس على أيدي الصليبيين ، فضلا عما أصاب بلاد الشام من أضرار على أيدي الصليبيين والمغول جميعا . وفي وسط تلك الغمة التي أمت بالوطن العربي منذ القرن السابع الهجري ( الثالث عشر الميلادي ) لم يجد علماء المشرق والمغرب بلدا عربيا آمنا تطيب لهم فيه الحياة سوى مصر التي غدت مركزا للخلافة العباسية ، وصارت محل سكن العلماء ومحط رحال الفضلاء ، (١) .

والغريب أن المماليك — وهم من أصول غير عربية متعددة — كان لهم أثر واضح في ازدهار النشاط العلمي في مصر . من ذلك ما نسمعه عن ولع بعض السلاطين مثل الظاهر بيبرس بسماع التاريخ (٢) ، وحرص البعض الآخر — مثل الغوري — على عقد المجالس العلمية والدينية بالقلعة وحضورها ، بل المشاركة في المسائل العلمية التي تثار في تلك المجالس (٣) . أما أمراء المماليك ، فقد وجد منهم من اشتغل بالتاريخ والفقه والحديث واللغة العربية ، بل تصدى بعضهم لاقراء الطلبة والتدريس لهم (٤) .

وخير ما يدل على ازدهار الحياة العلمية في عصر المماليك ، هو عظم الثروة العلمية التي وصلتنا من ذلك العصر بالذات . وما زالت دور الكتب في جميع أنحاء العالم مشحونة بمئات المخطوطات التي ترجع إلى عصر سلاطين المماليك بمصر ، والتي تناولت معظم ألوان المعرفة : الأدب والتاريخ والجغرافيا والعلوم الدينية والطب والفلاحة والأدب والمعارف العامة . . . وغيرها .

---

(١) السيوطي ؛ حسن المحاضرة ح ٢ ص ٨٦ .

(٢) أبو المحاسن ؛ الذجوم ح ٧ ص ١٨٢ .

(٣) عبد الوهاب عزام ، مجالس الغوري ص ٤٩ .

(٤) سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ١٤٢ .

فإذا أضفنا إلى هذه المخطوطات النسبة الضئيلة التي طبعت من تراث العصر المماليكي ، والكتب التي فقدت ولم نعد نعرف عنها سوى أسماءها وأسماء مؤلفيها ، أدركنا أن مصر شهدت في عصر المماليك نشاطا علميا فائقا لم تشهد مثله في عصر آخر من تاريخها الوسيط .

ففي الأدب عرف عن سلاطين المماليك تقرييهم الأدباء ، هذا وإن كان يؤخذ على الأدب شعرا ونثرا ضعف اللغة الفصحى نتيجة الاختلاط بالأعاجم ، فضلا عن دخول كثير من الألفاظ العامية . وقد اشتهر من شعراء مصر في ذلك العصر البوصيري المصري صاحب السبردة وتعرف باسم « الكواكب الدرية في مدح خير البرية » وهي في ٦٢ بيتا ؛ وقد توفي سنة ٥٦٩٥ هـ ( ١٢٩٦ م )<sup>(١)</sup> . وتوفي في نفس هذه السنة سراج الدين الوراق وكان شاعرا كثير النظم صحيح المعاني عذب التورية عارفا بالبديع<sup>(٢)</sup> . أما شهاب الدين العزازی المتوفى سنة ٥٧١٠ هـ ( ١٣١٠ م ) فكان بزازا يعمل في قيسارية جركس بالقاهرة ، وله ديوان في خمسة أبواب ، وأجاد في الموشحات وأمتاز شعره بالظرف وخفة الروح<sup>(٣)</sup> . وهناك ابن نباته المصري المتوفى سنة ٥٧٦٨ هـ ( ١٣٦٧ م ) وقد نبغ في النظم والنثر ، ومثله ابن أبي حجلة نزيل القاهرة الذي توفي سنة ٥٧٧٦ هـ ( ١٣٧٤ م ) ومن شعراء ذلك العصر من يرجع إلى أصل مماليكي مثل علي بن سودون البشغاوي المتوفى سنة ٥٨٧٨ هـ ( ١٤٧٣ م ) . بل لقد كان السلطان قانصوه الغوري نفسه المتوفى سنة ٩٢٢ هـ ( ١٥١٦ م ) شاعرا ، وله ديوان غير منشور حتى الآن<sup>(٤)</sup> .

أما الأدباء الذين اشتغلوا بالنثر فهم عديدون ، منهم القلقشندي المتوفى

- 
- (١) للسيوطي ؛ حسن المحاضرة ، ح ١ ص ٢٤٥ ، ح ٢ ص ١٤٣ .
  - (٢) السكتبي ، فوات الوفيات ح ٢ ص ١٠٧ ، أبو المحاسن ؛ النجوم ، ح ٨ ص ٨٣ .
  - (٣) السكتبي ، فوات الوفيات ح ٢ ص ٤٨ .
  - (٤) الكواكب السائرة ح ١ ص ٢٩٤ .

سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) وله كتب عديدة أهمها موسوعة صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، وشمس الدين النواجي المتوفى سنة ٨٥٩ هـ (١٤٥٥ م) ، وقد نسب إلى نواج إحدى قرى الغربية ، وله كثير من الآثار الأدبية شعرا ونثرا ، منها حلبة الكميت ، وهو كتاب في الخمر وما قيل فيها والندماء ومجالسهم وآدابهم . . . . . وختمه بفصل في التوبة وذم الخمر<sup>(١)</sup> .

وفي ذلك العصر كثر الاشتغال باللغة وعلومها ، وظهر من علماء اللغة كثيرون على رأسهم ابن منظور المصري المتوفى سنة ٧١١ هـ (١٣١١ م) وله كثير من المؤلفات ، على رأسها لسان العرب ، المعجم الشهير<sup>(٢)</sup> . كذلك اشتهر من علماء اللغة ابن هشام المصري المتوفى سنة ٧٦١ هـ (١٣٦٠ م) والدماميني السكندري المتوفى سنة ٨٢٧ هـ (١٤٢٤ م) .

على أن أبرز العلوم في عصر سلاطين المماليك كان بحق علم التاريخ ، إذ ظهر فيه طائفة كبيرة من المؤرخين تركوا لنا تراثاً ضخماً . منهم من أصحاب السير ابن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٣ م) ، وقد كتب كتابا في سيرة السلطان الظاهر بيبرس وآخر في سيرة الأشرف خليل بن قلاوون . وهناك أيضاً من كتاب السير ابن سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٤ هـ (١٣٣٤ م) والقسطلاني المتوفى سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) وغيرهم كثيرون<sup>(٣)</sup> . ولم يقف الأمر عند حد النشاط في كتابة السير الفردية بل ظهر في عصر المماليك جماعة من المؤرخين وجهوا نشاطهم نحو تأليف كتب الطبقات مثل ابن خلكان صاحب وفيات الأعيان ، وقد توفي سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) ؛ والأدقوي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ م) صاحب كتاب الطالع السعيد

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ، ح ١ ص ٣٣٠ .

(٢) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ح ٢ ص ٢٦٥ .

(٣) جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ح ٣ ص ١٧٠ .

الجامع لأسماء نجباء الصعيد، وابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ (١٤٤٨ م) صاحب كتاب الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة<sup>(١)</sup>، وشمس الدين السخاوي المتوفى سنة ٩٥٢ هـ (١٤٩٧ م) صاحب كتاب الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع، والسبكي صاحب كتاب طبقات الشافعية.

وهناك فريق من مؤرخي ذلك العصر اختاروا أن يؤلفوا كتباً عن بلد معين أو دولة بعينها مثل جمال الدين بن واصل المتوفى سنة ٦٩٧ هـ (١٢٩٨ م) صاحب كتاب مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، وابن دقاق المصري المتوفى سنة ٨٠٩ هـ (١٤٠٦ م) صاحب كتاب نزهة الأنام وكتاب الانتصار بواسطة عقد الأمصار<sup>(٢)</sup>، وتقي الدين المقرئ المتوفى سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) صاحب كتاب المواعظ والاعتبار وكتاب السلوك، وأبو المحاسن يوسف ابن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ (١٤٦٩ م) وهو من أصل ممالىكى ومن كتبه النجوم الزاهرة والمنهل الصافي<sup>(٣)</sup>... وغيرهم كثيرون. أما أصحاب التواريخ العامة فلا يقلون عدداً، منهم بيبرس المنصوري وهو أحد أمراء المماليك توفى سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ م) وله كتاب زبدة الفكرة، وبدر الدين العيني المتوفى سنة ٨٥٥ هـ (١٤٥١ م) وله كتاب عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، وغيرهما خارج مصر كثيرون.

أما في علوم الجغرافيا والسياسية والأدارة فقد كتب شرف الدين بن الجيعان سنة ٧٧٧ هـ (١٣٧٥ م) كتاب التحفة السنوية في أسماء البلاد المصرية ويشتمل على إحصاءات إدارية وخارجية عن أرض مصر. وكذلك كتب نجم الدين أحمد بن الرمفة المصري الشافعي - محتسب القاهرة المتوفى سنة ٧١٠ هـ

(١) السيوطي: حسن المحاضرة ح ١ ص ٢٠٦.

(٢) شذرات الذهب ح ٧ ص ٨٠.

(٣) محمد مصطفى زيادة: المؤرخون المصريون في القرن التاسع الهجري.

( ١٣١٠ م ) كتاب « بذل النصائح الشرعية فيما على السلطان وولاية الأمور وسائر الرعية »<sup>(١)</sup> . وكتب حسن بن عبد الله العباسي كتابا للملك المظفر السلطان بيبرس المنصوري ، واسمى كتابه آثار الأول في تدبير الدول ، رتبته على أربعة أقسام : في الضوابط والأصول وقواعد المملكة ، وفي أحوال الملك في ذاته مع خواصه وخدمه ، وفي الأمور المختصة بالملك وخواصه وحاشيته ، وفي الحروب وشروطها وما يتعلق بها برا وبحرا . ويحوى هذا الكتاب كثيراً من الفوائد السياسية والاجتماعية والإدارية .

وثمة ظاهرة امتازت بها الحياة الفكرية في عصر سلاطين المماليك ، هي الأقبال الشديد على تأليف الموسوعات الضخمة ، التي تحوى الموسوعة الواحدة منها كثيراً من المعلومات المتنوعة المتباينة . وبالإضافة إلى كتاب صبح الأعشى في صناعة الأنشا للقلقشندي وهو الذى سبق أن أشرنا إليه ، هناك كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنويرى المتوفى سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣٢ م) وهو موسوعة كبيرة تقع في نيف وثلاثين مجلداً قسمها مؤلفها إلى خمسة فنون ، الأول في السماء والآثار العلوية ، والثاني في الإنسان وطبائعه ، والثالث في الحيوانات الأخرى ، والرابع في النبات على اختلاف أشكاله ، والخامس — وهو أكبرها وأهمها — في التاريخ<sup>(٢)</sup> . أما ابن فضل الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ م) فقد كتب موسوعته الشهيرة مسالك الأبصار في ممالك الأمصار وتقع في بضعة وعشرين مجلداً تناولت فنون الأدب والتاريخ والجغرافيا والتاريخ الطبيعى وغيرها . هذا فضلاً عما كتبه السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ (١٥٠٥ م) وغيره من عديد المؤلفات التي يضيق البحث عن ذكرها كلها<sup>(٣)</sup> .

(١) السبكي ، طبقات الشافعية ح ٥ ص ١٧٧ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ح ١ ص ٣٢٠ .

(٣) جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ح ٣ ص ٢٤٤ — ٢٥٠ .



وكان للعلوم الإسلامية نصيبها في تلك الحركة الواسعة ، فظهر من كتب في الفقه مثل خليل بن اسحق المالكي المصري المتوفى سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٦م) و تقي الدين السبكي المتوفى سنة ٧٥٦ هـ (١٣٥٥ م) ، كما ظهر من كتب في التصوف مثل تاج الدين بن عطاء الاسكندري المتوفى سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩م)

وأخيراً ، فقد كان للعلوم التطبيقية والطبيعية حظها من كتابات عصر سلاطين المماليك ، فوجد من العلماء من كتب في الهندسة والنجوم والفلك ، مثل شهاب الدين بن طيغنا القاهري المتوفى سنة ٨٠٥ هـ (١٤٠٢ م) ، ووجد من كتب في الزراعة والفلاحة مثل طيغنا الجركسي وهو من أهل القرن الثامن الهجري ( الرابع عشر الميلاد ) ؛ واشتهر بمن كتب في علم الحيوان كمال الدين محمد بن عيسى الدميري المتوفى سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م) صاحب كتاب حياة الحيوان الكبرى ، وقد توسع فيه في وصف كل حيوان وخصائصه ، بالإضافة إلى ما جاء في الحديث والاشعار والأمثال بشأنه ، مما جعل قيمته الأدبية والتاريخية لا تقل عن قيمته العلمية البحتة<sup>(١)</sup> .

وثمة مظهر آخر هام يعبر عن ازدهار الحياة العلمية في عصر سلاطين المماليك ، هو العناية بإنشاء المؤسسات التعليمية من مدارس ومكاتب وغيرها . أما المدارس فسكانت بمثابة معاهد التعليم العالي — أشبه بالجامعات اليوم — يخصص لكل مدرسة منها المدرسون وتلحق بها خزائن كتب كبيرة ، ويؤمها الطلاب لتحصيل العلم والمعرفة<sup>(٢)</sup> . وقد حرص سلاطين المماليك على محاکات سلاطين الأيوبيين في إنشاء عدد كبير من المدارس مثل المدرسة الظاهرية التي أنشأها الظاهر بيبرس والمدرسة الناصرية التي أنشأها الناصر محمد بن قلاوون ، وعينوا لتلك المدارس المدرسين والمعيد

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ، ح ١ ص ٢٠٧ ، الضوء اللامع للسبخاوى ح ١٠ رقم ٢٠٤

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ح ١ ص ٤٦٧ ، ح ١١ ص ٢٤٦ — ٢٤٧

والموظفين ، ووقفوا عليها الأوقاف الغنية لتضمن للطلاب والمدرسين قدراً من الحياة الهادئة تجعلهم ينصرفون إلى الاشتغال بالعلم آمنين مطمئنين<sup>(١)</sup> .

وإذا كان التعليم العالي قد وجد قسطاً كافياً من العناية في المدارس ، فإن التعليم الابتدائي نهضت به المكاتب التي أنشأ عدد كبير منها في عصر سلاطين المماليك . ويبدو أن الغرض الأول من انشاء المكاتب في ذلك العصر كان تعليم الأيتام المسلمين ، الأمر الذي دفع طلاب الثواب إلى انشاء مزيت من المكاتب ، وحبس الأوقاف عليها للعناية بأمر الأيتام وتعليمهم وتوزيع الغذاء والكساء عليهم<sup>(٢)</sup> . وقد خصص لكل مكتب مؤدب يساعده عريف ، ويقوم المؤدب وعريفه بتعليم الصغار الكتابة وتحفيظهم القرآن . ولما كانت مهمة تعليم الصغار وتربيتهم مهمة شاقة عسيرة ، لذلك اشترطت في المؤدب والعريف شروط دقيقة خاصة ، منها العقل والدين وحسن الخلق والبعد عن القسوة والعنف<sup>(٣)</sup> .

### الإدارة ونظم الحكم والقضاء :

تزعّم دولة المماليك سلطان لم يتول الحكم نتيجة لحق شرعى موروث ، وإنما رشحته قوته ومواهبه وكثرة ممالئكه لتولى ذلك المنصب . فإذا توفى السلطان القائم أتاحت الفرصة لأقوى الأمراء أن يخلفه في الحكم . وربما رأى ذلك الأمير أن الظروف غير مواتية وأن هناك من زملائه الأمراء من ينافسه ، فيلجأ في تلك الحالة إلى تعيين ابن السلطان المتوفى مكان أبيه ، لا إعتقاداً من المماليك في أحقية ذلك الابن ، ولكن كحل مؤقت حتى

(١) النويرى : نهاية الآرب ح ٢٠ ص ٣٤١ ب وما بعدها

(٢) المقرئى : المواظ ح ٣ ص ١٦٣

(٣) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ١٥٠ — ١٥٢

ينجلى الموقف ، وعندئذ يسهل على أقوى الأمراء عزله واعتلاء عرش السلطنة بدله .

ومع أن سلطان المماليك تمتع بنفوذ واسع في الدولة ، وبخاصة فيما يتعلق ببعض الأمراء وملا المناصب الكبرى في الدولة وتوزيع الأقطاعات ؛ إلا أنه لم يستغن في أحوال كثيرة عن استشارة كبار رجال الدولة في مهام الأمور ، وبخاصة في المسائل المتعلقة بشن الحرب أو عقد السلم . ولذلك وجد في عصر المماليك مجلس المشورة الذي كان يعقد برئاسة السلطان أو من يقوم بالوصاية عليه ، وعضوية أتابك العسكر والخليفة العباسي والوزير وقضاة المذاهب الأربعة وأمراء المئين وعددهم أربعة وعشرين أميراً . هذا مع ملاحظة أن السلطان لم يكن ملزماً بدعوة مجلس المشورة أو الأخذ برأيه ، وإنما ترك ذلك لرغبة السلطان ومشيبته<sup>(١)</sup> .

وقد وجد إلى جانب سلطان المماليك عدد من كبار الموظفين ، مهمتهم مساعدته في شئون الحكم والإدارة . وعلى رأس هؤلاء الموظفين الكبار يمكننا أن نعدد : —

١ — نواب السلطنة : وجد نائب للسلطان بالقاهرة ، هو مساعد السلطان الأيمن في تصريف شئون الدولة ، ويشترك معه في توزيع الأقطاعات ومنح ألقاب الإمارة . وإذا كان هذا النائب ينوب عن السلطان في حضوره صار لقبه « نائب الحضرة » أما إذا كان لا يجوز له أن ينوب عن السلطان إلا في غيبته ، فيكون لقبه « نائب الغيبة » وهو أقل درجة من الأول .

وقد وجد للسلطان نواب في البلاد الشامية — في دمشق وحلب

---

(١) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٦ ، القلقشندي : صبح الأعشى ح ٤ ص ١٦-١٧

وطرابلس وحماه وصفد والسكر . وأعلى هؤلاء درجة هو نائب دمشق  
الذى أطلق عليه « نائب الشام » (١) .

٢ — الأتابك ؛ وهو القائد العام للجيش المماليكى ، وقد أتاحت له  
وظيفته التمتع بنفوذ كبير فى الدولة .

٣ — الوزير ، وقد تضاعفت وظائفه فى عصر المماليك نتيجة لوجود  
نائب السلطنة ، بحيث لم تتعد اختصاصاته تنفيذ تعليمات السلطان ونائب  
السلطنة والإشراف على شئون الدولة المالية .

أما الإدارة المحلية فى المدن والأقاليم فقد تولى الإشراف عليها عدد  
كبير من الولاة اختيروا دائماً من بين الأمراء . وهناك مدينة واحدة فى مصر  
— وهى مدينة الإسكندرية — عين لها نائب سلطنة سنة ٧٦٧ هـ ( ١٣٦٥ م ) .  
ويبدو أن الخطر الصليبي الذى تمثل فى حملة بطرس لوز جنان ملك قبرس  
على الإسكندرية فى تلك السنة كان له أثر فى ذلك الإجراء الإدارى .  
أما القاهرة فكان لها وال يشرف على شئونها ويتعقب المفسدين فيها ويحوى  
أهلها من الأشرار والعابثين ، وبالجملة فقد كان منصبه يشبه منصب محافظ  
القاهرة اليوم . كذلك وجد فى الوجهين البحرى والقبلى ولاة قاموا بحكم  
الأقاليم والأعمال ، وكان عددهم عشرة فى الوجه البحرى وثمانية فى الوجه  
القبلى . وفى عصر دولة المماليك الجراكسة وجد نائب لكل من الوجهين  
البحرى والقبلى مهمته الإشراف على جميع الولاة والعمال الذين يقومون  
بإدارة شئون الوجه التابع له (٢) .

وقد اعتمد هذا الجهاز الإدارى الضخم على مجموعة من الدواوين الكبيرة .

---

(١) العمرى ، التعريف ص ٦٥ — ٦٦ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ح ٤ ص ١٦ — ١٧ .

(٢) القلقشندى صبح الأعشى ح ٤ ص ٦٤ .

التي ضمت عدداً ضخماً من الموظفين لإدارة مرافق الدولة المتنوعة . وأهم هذه الدواوين هي : -

١ - ديوان الجيش . ومهمته الإشراف على طوائف الجند ، وتوزيع الاقطاعات عليهم .

٢ - ديوان الانشاء ، ومهمته تلقي الرسائل المختلفة التي ترد إلى السلطان وإبلاغها إليه وإعداد الردود عليها ، وكانت تتبع هذا الديوان إدارة البريد ، وهي إدارة ضخمة في عصر المماليك تولت شئون البريد البري والجوي<sup>(١)</sup> .

٣ - ديوان الأحباس ، أي الأوقاف ؛ ويقوم صاحبه برعاية شئون المؤسسات الدينية والخيرية من مساجد ، ومدارس وزوايا . . . كما يشرف على الأراضي والعقارات المحبوس عليها .

٤ - ديوان النظر ، وقد اشتهر بمراقبة حسابات الدولة ، والإشراف على إيراداتها ومصروفاتها وما يتبع ذلك من القيام بصرف مرتبات الموظفين . وكان جانب من هذه المرتبات يصرف نقداً في حين صرف الجانب الآخر عينا من غلات ولحوم وتوابل وسكر وشمع<sup>(٢)</sup> . . .

أما عن شئون القضاء والعدالة ، فقد أولاها سلاطين المماليك جانبا كبيرا من اهتمامهم وعنايتهم . وكان أهم تطور حدث في النظام القضائي في عصر المماليك هو ما قام به السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٥م) من تعيين أربعة من قضاة القضاة يمثلون المذاهب الأربعة ، بعد أن كان الوضع منذ أيام صلاح الدين أن يقتصر ذلك المنصب على قاضي قضاة واحد

(١) القلقشندي ، صبح الأعشى من ٢٠٤ وما بعدها ، ح ١ ص ١١٥  
(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ص ٣٥٢

هو الشافعي<sup>(١)</sup> . وقد قام القضاة في ذلك العصر بدور هام في المجتمع إذ امتدت اختصاصاتهم إلى مختلف أنواع القضايا المدنية والجنائية . وكانت جلسات المحاكم تعقد في دور القضاء ، فإن لم توجد فإنها تعقد عادة في المساجد .

وقد وجدت محكمة عليا تعقد في دار العدل برئاسة السلطان وعرفت باسم محكمة المظالم ، ومهمتها النظر في القضايا التي يختص السلطان بالنظر فيها مباشرة أو التي يستأنفها أصحابها أمام السلطان بعد أن يحكم فيها القضاء العادي ، أو تلك التي تنشأ بين الحكام والمحكومين . أما رجال الجيش ، فكان لهم قضاء العسكر ، وهم مختصون بشئون الجنود وليس لهم ولاية على غيرهم ، كما كانوا يفصلون في القضايا الناشئة بين العسكر والمدنيين ، وقد جرت العادة أن يصحب قضاء العسكر السلطان في أسفاره<sup>(٢)</sup> .

### الجيش والبحرية :

إذا حاول أن يعثر الباحث على صفة بارزة لدولة سلاطين المماليك في مصر فلن يجد خيراً من أن يصف هذه الدولة بأنها دولة إقطاعية حربية . فطبيعة المماليك ونظامهم والرغبة في اقتنائهم نبعت من فكرة أساسية واحدة هي تكوين فئة من المحاربين الأشداء وإعدادهم ليكونوا درعا حاميا لأسانفتهم الذين قاموا بشرايتهم وتعهدوهم بالتربية . ولا يكاد المملوك يدرك سن البلوغ حتى يشرع في تعليمه فنون الحرب ، من الرمي بالنشاب واللعب بالرمح وركوب الخيل وأنواع الفروسية<sup>(٣)</sup> ، وعندما ينتهي المملوك من هذه المرحلة

(١) المقریزی : السلوك ح ١ ص ٥٣٨ — ٥٣٩ .

(٢) القلقشندي : صيغ الأسمى ح ٤ ص ٣٦ .

(٣) المقریزی : السلوك ح ٢ ص ٥٢٤ .

التعليمية ينقل إلى الخدمة ويمر بأدوار هار تبة بعد تبة حتى يصير من الأمراء<sup>(١)</sup>.

وهو في أول الأمر يتقاضى جامكية - أي مصر وفا - يتدرج من ثلاثة دنانير إلى خمسة إلى سبعة إلى عشرة ، ولكنه بعد ذلك ينقل من الجامكيات إلى الاقطاعات وإلى أمرة العشرات ثم إلى الطبايخانات ، ومنهم من ينقل إلى مقدمة الألوف وإمارة المئين . وهو إذا كان مملوكا فإن إقطاعه يتراوح بين زمام قرية وزمام نصف قرية ، أما إذا أصبح أميرا فإن إقطاعه يتراوح بين زمام قرية وعشر قرى<sup>(٢)</sup> .

وتولى السلطان بنفسه توزيع الإقطاعات في معظم الحالات ، فإذا تقدم إليه المملوك ، سأله عن اسمه وأصله وتاريخ قدومه إلى الديار المصرية وأستاذه الذي اشتراه من تاجره ، وصفاته حتى أصبح فارسا<sup>(٣)</sup> . فإذا وقع اختيار السلطان عليه ليمنحه إقطاعا ، أمر ناظر الجيش بأن يكتب له ورقة تسمى المثال تحدد حدود إقطاعه ، ثم تخرج الوثيقة النهائية للإقطاع من ديوان الإنشاء . وعلى هذا فقد كان الإقطاع في عصر المماليك يرتبط ارتباطا قويا متينا بديوان الجيش ، حتى لقد أطلق على هذا الديوان إسم ديوان الإقطاع . وعبر القلقشندي عن ديوان الجيش بأنه « مظنة الإقطاع » أي سجله ومركزه ، فقال ما نصه « أعلم أن مظنة الإقطاعات هو ديوان الجيش دون ديوان الإنشاء ، وما يكتب فيه من ديوان الإنشاء هو فرع ما يكتب من ديوان الجيش<sup>(٤)</sup> » . وهكذا ارتبط الجيش بفكرة الإقطاع في عصر المماليك ، الأمر الذي جعلنا نختار صفة الإقطاع الحربي لنصف بها تلك الدولة .

وإذا كان ديوان الجيش يشرف على شئون الجيش في عصر المماليك ،

---

(١) المقرئى : المواعظ ، ح ٣ ص ٣٤٧ .  
(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ح ٤ ص ٥٠ . Paliak ; Feudalism in Egypt .  
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ح ٩ ص ٥١ - ٥٢ .  
(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ح ١٣ ص ١٥٣ .

فإنه روعى أن يكون على رأس هذا الديوان ناظراً على درجة كبيرة من الكفاية ، يعاونه مجموعة من كبار الموظفين الأكفاء ، أهمهم صاحب ديوان الجيش وينوب عن ناظر الجيش في حالة غيابه ، ومستوفى الجيش ويقوم بتحديد مرتبات الجند وحفظ بيان بها في سجلاته ، في حين يقوم بصرف هذه المرتبات للجند موظف ثالث يطلق عليه لقب مستوفى الرزق . وجميع هؤلاء الموظفين روعى فيهم الكفاية المتناهية ، وأختير لمساعدتهم مجموعة من الكتاب والشهود من ذوى الخبرة<sup>(١)</sup> .

وقد تكون الجيش في عصر سلاطين المماليك من ثلاث فرق أساسية ، الفرقة الأولى عبارة عن طائفة المماليك السلطانية — أى ممالك السلطان القائم بالحكم ، وقد وصفهم القلقشندي بأنهم «أعظم الأجناد شأنا وأرفعهم قدراً وأشدهم قرباً وأوفرهم إقطاعاً ، ومنهم تقوم الأمراء رتبة بعد رتبة»<sup>(٢)</sup> . والفرقة الثانية تشمل طائفة ممالك الأمراء ، أى الذين اشتراهم الأمراء المحيطون بالسلطان ، كل حسب درجته ورتبته ، وتعهدوهم بالرعاية ، ومن هؤلاء كانت تتكون الوحدات الحربية التى ترافق السلطان في حروبه ، وكل وحدة تتألف من أمير على رأس مماليكه . وأخيراً تأتي الفرقة الثالثة وهم طائفة أجناد الحلقة ، وهم ممالك السلاطين والأمراء السابقين وأولادهم الذين احترفوا الجندية وأصبحوا بمثابة جيش ثابت للدولة لا يتغير بتغير السلطان ، ويشرف على كل ألف منهم وقت الحرب أمير مائة مقدم ألف ، أى أمير له الحق فى امتلاك وشراء مائة مملوك لنفسه ويقود فى وقت الحرب ألف جندى من أجناد الحلقة<sup>(٣)</sup> .

وإذا نحن تكلمنا عن الجيش فى عصر سلاطين المماليك ، فإنه ينبغى أن

(١) الخالدي : المقصد الرقيق ، ص ١٣٦ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٥ .

(٣) العمري ، مسالك الأبصار ، ج ٥ ص ١٦٦ ، والمرج السابق .



نتذكر آجد ذلك العصر ، ونضع نصب أعيننا الانتصارات التي حققها الجيوش المماليكية في مختلف الجهات . وحسب الجيش في عصر سلاطين المماليك أنه طرد الصليبيين نهائياً من بلاد الشام ، وأنزل الهزيمة بالتتابع في عين جالوت ، ووقف بالمرصاد لكل محاولة من جانبهم للعدوان على الشام ، ودمر مملكة أرمينية الصغرى في قيليقية ، وغزى بلاد النوبة وأخضع مملكتها . ومن البديهي أن جيشاً من الجيوش لا يستطيع تحقيق هذه المكاسب الضخمة إلا إذا توافر له من الإمكانيات وحسن النظام ودقة التدريب ما ساعده على ذلك .

ونجد فعلاً في المصادر المعاصرة كثيراً من الأوصاف التي تعطي صورة واضحة لدقة تنظيم الجيش المماليكي ، فالسلطان لا يقدم على حرب عادة إلا بعد استشارة مجلس الجيش ، الذي يضم كبار الأمراء فضلاً عن الخليفة وقضاة القضاء الأربعة . فإذا تقررت الحرب جمع الجند وأقسموا على الطاعة والولاء للسلطان ، وعندئذ تفتح السلاح خاتمة أبوابها لتوزيع السلاح على المحاربين . أما عن نظام الجيش وقت المعركة فكان يقوم على أساس ترتيب الجند على هيئة صفوف مترابطة تكون أقسام الجيش الثلاثة - وهي القلب واليمين والميسرة - فضلاً عن المقدمة ، ويكون القائد العام للحملة عادة في قلب الجيش ، وربما في مقدمته ليستثير روح الإقدام والشجاعة في الجند . وكانت الطبول والموسيقى جزءاً أساسياً في الجيش المماليكي ، فكانت تحمل على عشرين بغلاً ، ويعتمد عليها في تنظيم الحركة وإعطاء الإشارات ببدء القتال . . . (١) هذا فضلاً عن الأعلام والرايات التي كانت تتقدم الجيش ويلتف حولها كل قسم من أقسامه .

وأخيراً ، فإنه يلاحظ أن المماليك كانوا فرساناً قبل كل شيء ، واعتمد

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ح ٣ ص ٤٧٥ .

نظامهم بصفة أساسية على الفروسية . لذلك كان الجيش المماليكى يتألف أساساً من الفرسان ، الأمر الذى جعلهم يهتمون بالخيول اهتماماً بالغاً ، ويعينون كبار الموظفين للإشراف عليها وعلى أدواتها وعددها كاللجم والسروج وغيرها ، فضلاً عن الاتفاق بسخاء على الاصطبلات الخاصة بالخيول .

ولكن ليس معنى تغلب صفة الفروسية على المماليك أنهم أهملوا جانب البحر والأسطول . وحسب دولة المماليك أن المؤرخين المعاصرين وصفوها بأنها دولة البرين والبحرين ، بمعنى أنها لمسكت بر مصر وبر الشام ، وأطلت على البحرين الأبيض والأحمر .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن أية دولة تقوم فى أرض مصر لابد وأن ترعى شئون الأسطول لتؤمن نفسها وتحمى شواطئها الطويلة الممتدة شمالاً وشرقاً .

وإذا كان سلاطين بنى أيوب قد أهملوا شأن الأسطول بعد صلاح الدين — كما سبق أن أوضحنا فى الباب السابق — فإن الظروف التى قامت فيها دولة المماليك جاءت نتيجة مباشرة لحملة لويس التاسع على مصر فى أواسط القرن السابع الهجرى ( الثالث عشر للميلاد ) ، وهى حملة بحرية أقت عن طريق البحر ، واعتمدت على البحر فى الاحتفاظ بصلاتها بالقوى المسيحية المظاهرة لها . والمماليك هم أول من أنزل الهزيمة بلويس التاسع وجنوده فى المنصورة ثم فى فارسكور ، الأمر الذى أكسبهم مكانة ساعدتهم فى القضاء على دولة سادتهم بنى أيوب وإقامة دولة تحمل إسمهم فى التاريخ . لذلك كان من الطبيعى أن يدرك سلاطين المماليك الأوائل — وهم الذين شاركوا فى محاربة لويس التاسع أيام أن كانوا مجرد أمراء — خطورة الأسطول بالنسبة لآمن العباد وسلامة البلاد .

وهكذا ما كاد السلطان الظاهر بيبرس يرتقى دست السلطنة حتى « نظر

في أمر الشواني الحربية واستدعى رجال الأسطول... ومنع الناس من التصرف في الأخشاب وتقدم بعمارة الشواني في ثغرى الاسكندرية ودمياط وصار ينزل بنفسه إلى دار الصناعة بمصر ويرتب مايجب ترتيبه من عمل الشواني ومصالحها. واستدعى شواني الثغور إلى مصر، فبلغت زيادة على أربعين قطعة سوى الحراريق والطاراند، فإنها كانت عدة كثيرة... (١)

وسرعان ما صدق ظن بيبرس، إذ أخذت دولة المماليك في مصر والشام تحس إحساساً شديداً بالضغط البحري الذي تمارسه مملكة لوزجنان الصليبية في قبرس، سواء من ناحية مساعدة البقايا الصليبية بالشام أو من ناحية قطع الطريق على السفن الإسلامية في عرض البحر (٢). وما كاد بيبرس يطمأن إلى قوة أسطوله حتى عزم على تأديب قبرس وملوكها، فأرسل إليها حملة عدتها سبع عشرة سفينة كبيرة بقيادة الرئيس البحري ابن حسون. غير أن ريحا عاتية هبت على السفن المماليكية قرب شواطئ قبرس فخطمت منها أحد عشر شينيا. وعندما أرسل ملك قبرس يعيب على بيبرس انكسار سفنه، رد عليه بيبرس برسالة طويلة جاء فيها «أنتم خيولكم المراكب ونحن مراكبنا الخيول»؛ وفي هذه الإشارة إقرار صريح بأن أساس قوة دولة المماليك فرسانها وجيوشها البرية لا أساطيلها البحرية (٣).

ومع ذلك فإن بيبرس لم يهمل شأن الأسطول وإنما عاود الكرة وسعى بسرعة لتعويض الخسارة، فأمر بإنشاء عشرين شينيا «وأحضر خمسة شواني كانت على مدينة قوص من صعيد مصر، ولزم الركوب إلى صناعة العمارة بمصر كل يوم في مدة شهر المحرم سنة سبعين وستائه إلى أن تنجزت..» (٤)

(١) المقرئى : المواءظ ح ٢ ص ١٩٤ .

(٢) سعيد عيد الفتح عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٤٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٩

(٤) المقرئى : المواءظ، ح ٢ ص ١٩٤ .

ولاشك في أن الأسطول المماليكي كان له دور كبير في مساندة القوات البرية التي قامت بتطهير بلاد الشام من آخر البقايا الصليبية ، وخاصة أن هذه البقايا الكبرى - وهي انطاكية وطرابلس وعكا - كانت كلها موانئ بحرية . وإذا كان السلطان الأشرف خليل بن قلاوون هو صاحب الفضل في الاستيلاء على آخر هذه البقايا وهي مدينة عكا سنة ٦٩٠ هـ ( ١٢٩١ م ) ، فإن ذلك جعل الأشرف أكثر إحساساً بأهمية الأسطول لدولته . لذلك لم يكن عجباً أن يهتم السلطان الأشرف خليل اهتماماً خاصاً بأمر الأسطول ، فنزل إلى ( دار ) الصناعة واستدعى الرئيس ، وهياً جميع ما تحتاج إليه الشوانى ، حتى كملت عدتها نحو ستين شونة وشحنها بالعدد وآلات الحرب ورتب بها عدة من المماليك السلطانية وألبسهم السلاح ...<sup>(١)</sup> .

وثمة حقيقة كبرى ، هي أن طرد الصليبيين نهائياً من الشام في أواخر القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلاد) ضاعف من أهمية العامل البحرى فى شرق البحر المتوسط . لأنه جعل الحروب الصليبية تتحول من معارك برية إلى معارك بحرية . ذلك أن البابوية لم تجد وسيلة للإنتقام من سلطنة المماليك سوى تهديدها فى نشاطها التجارى ، فاستغلت موقع جزيرة قبرس فى قطع الطريق على السفن التجارية الإيطالية التى رفض أصحابها الإذعان لتعاليم البابوية واستمروا يواصلون نشاطهم التجارى مع سلطنة المماليك<sup>(٢)</sup> . هذا إلى أن ملك قبرس قام سنة ٧٦٧ هـ ( ١٣٦٥ م ) بحملة صليبية جريئة على الاسكندرية دمر فيها المدينة وأتى من أعمال الوحشية ما استنار نفوس المسلمين جميعاً<sup>(٣)</sup> . وهكذا تحولات الحروب الصليبية فى القرنين الثامن

---

(١) المرجع السابق : ص ١٩٥ .

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ح ٢ ص ١١٩٢ وما بعده .

(٣) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٥٧ وما بعدها .

والناسع للهجرة ( الرابع عشر والخامس عشر للبلاد ) إلى حروب بحرية ، وخاصة بعد أن دخلت رودس في حلبة هذه الحروب ودأب الفرسان الاستبارية برودس على تهديد دولة المماليك وتجارها في البحر (١) .

وهنا قام الأسطول المماليكي بعمل خالد في التاريخ ، إذ أرسل السلطان الأشرف برسباي ثلاث حملات سنة ٨٢٧ ، ٨٢٨ ، ٨٢٩ هـ (١٤٢٤ ، ١٤٢٥ ، ١٤٢٦ م ) لغزو قبرس ، ونجح فعلا في إخضاع الجزيرة في الحملة الأخيرة . وتم أسر ملكها جانوس ، وعاد الأسطول المماليكي بحمل مئات الأسرى وعلى رأسهم الملك نفسه حيث تم استعراضهم في شوارع القاهرة (٢) .

وبعد قبرس جاء دور رودس ، فأرسل السلطان جقمق ثلاث حملات بحرية ضد رودس سنة ٨٤٤ ، ٨٤٧ ، ٨٤٨ هـ ( ١٤٢٠ ، ١٤٤٣ ، ١٤٤٤ م ) . ونجح في تأديبها وإن لم يستطع إخضاعها لسلطنة المماليك كما حدث في حالة قبرس (٣) .

وهكذا ظل الأسطول في عصر سلاطين المماليك يقوم بدوره كاملا في الدفاع عن البلاد ومهاجمة الأعداء حتى نهاية تلك الدولة . وفي أواخر عصر المماليك ظهر خطر البرتغاليين واضحا على الشرق بعد أن وصلوا إلى الهند عن طريق الطواف حول أفريقيا ، الأمر الذي مكنهم من تهديد البلاد الإسلامية في جنوب آسيا وعند مدخل البحر الأحمر ، فضلا عن تهديد سلطنة المماليك في أعز ما تمتلك ، أعنى احتكار التجارة بين الشرق والغرب . وفي المعركة الحتمية بين المماليك والبرتغاليين ، أدرك السلطان قانصوه الغوري

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ح ٢ ص ١٢٣٢ وما بعدها .

(٢) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٨٤ وما بعدها .

(٣) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ص ١٦٩ وما بعدها .

أنها معركة الهباء، ففرع إلى الأسطول يحاول تدعيمه في البحر الأحمر، حيث بنى عشرين سفينة كبيرة زودت بالمسكاحل النحاسية والحديدية وأخذت دار الصناعة في مصر تصنع السفن لتحمل أجزاؤها مفككة على ظهور الإبل حيث يجرى تجميعها وتركيبها على شاطئ البحر الأحمر. وكان ذلك في المحرم سنة ٩٢٠ هـ (١٥١٤ م) عندما قام الغوري بزيارة السويس لمشاهدة هذه السفن واستعراضها، حتى قيل أن نفقات بناء الأسطول في البحر الأحمر تجاوزت أربعمائة ألف دينار. ولكن عوامل الضعف التي أخذت تنخر في عظام دولة المماليك بعدد أجهزتها لم يسلم منها الأسطول، فلم يستطع الأسطول المماليكي الصمود أمام البرتغاليين في موقعة ديو البحرية سنة ٩١٥ هـ (١٥٠٩ م) وحلت به الهزيمة، وعاد أمير البحر حسين الكردي إلى مصر «مع فلول أسطوله»<sup>(١)</sup>.

هذا عن النشاط البحري في عصر سلاطين المماليك، أما أنواع السفن التي استخدمت في العصور الوسطى في الأساطيل الإسلامية فعديدة، كل نوع منها مخصص لغرض معين. ونكتفي بالإشارة السريعة إلى أهم أنواع السفن، وهي الشوانى والحراريق والطرادات والأغربة والبطس والمسطحات.

أما الشوانى ومفردها شينى فكانت أكثر السفن استعمالاً في الأساطيل الإسلامية، وهي عبارة عن سفن حربية كبيرة ذات أبراج وقلاع، تستعمل للدفاع والهجوم، وتجهز أيام الحرب بالسلاح والمقاتلة الذين يبلغ عددهم مائة وخمسين، ويجذف الشينى بمائة مجذاف<sup>(٢)</sup>.

أما الحراريق أو الحراقات ومفردها حراقة، فهي سفن حربية كبيرة ثقيل

(١) حقائق الأخبار عن دولة البحار ج ٢ ص ٣٦.

(٢) المقرئى: المواظح ج ٢ ص ١٩٤ - ١٩٥، عبد الفتاح عبادة: سفن

الأسطول الإسلامى ص ٤

في حجمها عن الشواني ، سميت حراريق لأنه كان بها مراعى النيران مثل النار الأخرقية وغيرها ، وكانت تلقى النار منها على سفن العدو وأهدافه فتحرقها (١) .

وكانت الطرادات ومفردها طراد ، سفن صغيرة سريعة السكر والفر على عباب البحر ، وتستخدم عادة في حمل الخيول فيحمل الطراد الواحد ما يتراوح بين أربعين وثمانين فرسا (٢) .

أما الأخربة ومفردها غراب فسميت كذلك لأن رأسها يشبه رأس الغراب أو الطائر وتمثل في الماء الطير في الهواء . والغراب يحمل الغزاة ويسير بعدد من المجاديف يبلغ مائة وثمانين مجدافا ، ومن خصائصه أنه كان مزودا بجسر من الخشب يهبط على مركب العدو ويمر على ظهره الجند فيقا تلون بالأساليب البرية (٣) .

ثم تأتي البطس ومفردها بطسة ، وهي سفن كبيرة الحجم ، تسير الواحدة بعدد من الأشرعة يبلغ أربعين شراعا ، وهي أشبه بالناقلات الضخمة فتسع الواحدة لعدد من الجند يصل إلى سبعمائة ، فضلا عن المحاربين والأسلحة والذخيرة والغلال والميرة . ولها أسطح عالية وطبقات متعددة (٤) .

أما المسطحات ومفردها مسطح ، فنوع من أكبر سفن الأسطول الإسلامي ، سميت كذلك لأن لها سطح ، وهي كبيرة الحجم تشبه البطسة

---

(١) جويل خانسكي : البحرية المصرية ص ١٣١ .

(٢) ابن ماتي : قوانين الدواوين ص ٣٣٩ .

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٢٠ .

(٤) ساعد ماهر : البحرية في مصر الإسلامية ص ٣٣١ .

كانت تسير وقت الحرب خلف السفن الأخرى خشية أن تصادف السفن الأخرى منطقة ضحلة المياه يصعب فيها العمل فعندئذ يمكن للمستطحات أن تتدارك الأمر لأن غاطسها قليل العمق في الماء<sup>(١)</sup>.

### الفنون :

فإذا انتقلنا إلى الفنون في عصر سلاطين المماليك وجدنا ذلك العصر بمثابة العصر الذهبي لكثير من الفنون في مصر الإسلامية . وليس من الصعب علينا تفسير هذه الحقيقة ، إذ اشتهر عصر سلاطين المماليك بالثروة والمال نتيجة الدور الذي قامت به تلك الدولة في النشاط التجاري بين الشرق والغرب . ومع المال والثروة يكون البذخ والرغبة في التأنق والتفنن واقتناء التحف . هذا إلى أن الفنان لا يقنع بالجهد البسيط في عمله ، وإنما يبالح وهو مطمئن تماماً إلى أنه سيجد من التقدير وحسن الأجر ما يحفز به إلى بذل مزيد من الجهد والعناية .

ففي العمارة تشهد عمائر العصر المماليكي التي تزدان بها القاهرة اليوم من مساجد ومدارس وأضرحة وسبل وحمامات وبيمارستانات وغيرها على الذوق الجميل والرغبة في الإبداع والتفنن . وحسبنا لفته إلى مدرسة (جامع) السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ، بتصميمه العجيب وقبته العظيمة وأبوابه الفخمة وإيواناته العالية وزخارفه الدقيقة . . . حسبنا لفته إلى هذا البناء بالذات لناخذ فكرة عن مدى تقدم فن العمارة في عصر سلاطين المماليك<sup>(٢)</sup>.

وما يقال عن هذه المدرسة يمكن قوله بصورة أو أخرى عن المدافن

---

(١) Dozy : Supp. Dict. Ar

(٢) زكي محمد جبين . فنون الإسلام ، ص ٧٣ .



المماليكية مثل مدفن برقون ومدفن قايتباي بالصحراء الشرقية بالقاهرة  
وجمع قلاون الذي يشمل قبة ومدرسة وبيمارستان ، وحمام بشتاك الذي  
لم يبق منه إلا مدخله المكسو بالرخام الملون ، وقصر قوصون خلف مدرسة  
السلطان الناصر حسن ، ووكالة الأمير قوصون وغيرها من بقايا وآثار  
ذلك العصر . وامتازت العمارة في ذلك العصر بالعناية بواجهات المساجد  
وجمال ورشاقة ما ذنها وزخرفة الأرضيات والوزرات بالرخام الملون ،  
وبالسقوف المذهبة . . . مما أضفى عليها روعة وبهاء .

أما فن النحت ، فقد استطاع الفنانون في العصر المماليكي ابتكار أشكال  
في النحت على الخشب أكثر اتقاناً مما كان عليه الوضع في العصر الأيوبي ،  
فابتكر فنانون عصر المماليك أشكالاً جديدة من المراوح النخيلية ووحدات  
من الزخارف البنائية ، كما شاعت في ذلك العصر الزخارف الهندسية المكونة  
من حشوات صغيرة تتألف غالباً من أشكال سداسية الأضلاع تنتظم حول  
شكل نجمي في الوسط . واستخدمت في الحفر أخشاب مختلفة الألوان ،  
طعمت أحياناً بالأبنوس والعظم<sup>(١)</sup> . ويشهد على رقى فن النحت على الخشب  
في عصر المماليك عديد المنابر الرائعة في مختلف المساجد التي ترجع إلى ذلك  
العصر . كذلك ازدهرت في ذلك العصر صناعة الشبكيات أو المشريبات  
الخاصة بالنوافذ ووجوهات البيوت ، وهي من الخشب المخروط . هذا فضلاً  
عن النحف الدقيقة المصنوعة من الخشب مثل الدكك والكراسي  
والصناديق وغيرها .

ولم يكن النحت على الرخام والجص أقل روعة من النحت على الخشب  
إذ تشهد المنابر الرخامية ، والأفاريز المنقوشة ، والألواح الرخامية في الأسبلة ،  
والشبابيك المصنوعة من الحجر المفرغ ، تشهد كلها بما فيها من نقوش منحوتة

---

(١) ديمانند : الفنون الإسلامية ص ١٢٢ .

على مهارة الفنان في عصر المماليك . وكذلك كان النحت على العاج، إذ تحوى المتاحف العالمية تحفاً عديدة من العاج ترجع إلى عصر سلاطين المماليك ، ومعظمها اقتصرت الزخرفة فيه على الأشكال النباتية والهندسية . هذا وإن كان العاج قد استخدم على وجه الخصوص في التطعيم والترصيع ، ولاسيما حشوات المنابر وفي قطع الأثاث<sup>(١)</sup> .

أما صناعة المعادن ، فقد بلغت شأواً بعيداً في عصر سلاطين المماليك ، وامتازت التحف المعدنية التي ترجع إلى ذلك العصر بصفات خاصة وطابع مميز يجعل من السهل تمييزها . ذلك أنها جمعت بين الزخارف البنائية التقليدية وزخارف جديدة شاع استخدامها في ذلك العصر ، مثل رسم أزواج من الطيور مرتبة داخل معينات ، كما يبدو على أبريق جميل يرجع إلى عصر السلطان الناصر محمد ، ومحفوظ في متحف المتروبوليتان<sup>(٢)</sup> . كذلك يرجع إلى عصر المماليك عدد من الأبواب الجميلة المصفحة بالنحاس في زخارف تولى الأطباق النجمية التي امتاز بها ذلك العصر وازدهرت في عصر سلاطين المماليك صناعة التصفيت ، أي تطعيم النحاس بالذهب والفضة ، فذكر المقرئى أنه لا تسكاد دار تخلو بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفت .

أما صناعة الزجاج المطلي بالميينا فقد بلغت أوجها في مصر والشام على عصر سلاطين المماليك ، إذ شاع استخدام الموضوعات الآدمية والحيوانية والنباتية، فضلاً عن الكتابة على الألوان الزجاجية التي صنعت في ذلك العصر . وما زالت الكؤوس والأباريق والقوارير والمشكيات الباقية من ذلك العصر تعتبر من أجمل ما تزدان به المتاحف العالمية ؛ ومن أمثلتها دورق من الزجاج

---

(١) زكي محمد حسن : فنون الإسلام ص ٥٠٤

(٢) ديمانند : الفنون الإسلامية ص ١٥٥

الممونه بالمينا محفوظ في متحف برلين ، والمينا عليه متعددة الألوان بين أحمر وأخضر وأصفر وأبيض، وعليه تذهيب مازال محتفظاً بريقه ، وعلى رقبتة كتابة بالخط الثلث الجميل (١) .

وما يقال عن الزجاج يمكن تطبيقه على الخزف. ومعظم الأواني الخزفية التي ترجع إلى ذلك العصر من النوع المرسومة زخارفه تحت طلاء شفاف، كما يزين بعض الأواني المماليسكية زخارف من الكتابة العربية على أرضية منقطة ومنتظمة في أشرطة أو داخل فصوص. وتوجد في متحف المتروبوليتان مجموعة من الأواني تمثل الخزف المماليسكي في القرن الرابع عشر ، وتتكون زخرفتها الأساسية من كتابات عربية تتضمن تمنيات طيبة لصاحب التحفة (٢)

وقد وصلت إلينا أسماء بعض الخزفيين الذين عملوا في إنتاج الخزف ذي الزخارف المنقوشة تحت الدهان ، مثل غيبي التوريزي — وهو كما يتضح من اسمه إیرانی الأصل نزع إلى القاهرة ، وغزال ، والأستاذ المصري ، وغيرهم ممن وجدنا أسماءهم على منتجات ذلك العصر . وثمة ملاحظة أخرى هي أن الفخار المطلق بالمينا كان يستعمل بكثرة في بيوت الأمراء ، ولذا امتازت زخارفه بالرنوك أو الشارات التي اتخذها أولئك الأمراء علامة لكل منهم (٣) .

أما صناعة المنسوجات في عصر المماليك فقد احتفظت بمستواها الراقى. وتمتاز الزخارف المطرزة من عصر سلاطين المماليك بخطوطها المتكسرة المتعرجة بسبب الأسلوب الصناعي المتبع في صناعتها ، وهو عبارة عن غرز متتابعة متدرجة كالسلم ، يطلق عليها أحياناً اسم غرزه هلباين . وظلت

١ زكي محمد حسن : فنون الإسلام ص ٦٠١

(٢) ديمانند : الفنون الإسلامية ص ٢٢٠

(٣) زكي محمد حسن : فنون الإسلام ص ٢٢٦

الأقشعة المطبوعة تستخدم في عصر المماليك ، وكانت رسومها السائدة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر هي الأشكال المسننة والتفريعات المزهرة ذات الألوان المتباينة<sup>(١)</sup> . ويوجد في دار الآثار العربية بالقاهرة قطعة من الحرير، قوام زخرفتها شريطان من الكتابة النسخية المماليكية ، تتكرر فيها عبارة «عز مولانا السلطان الملك الناصر» ، وبين هذين الشريطين شريط ثالث فيه رسوم شجيرات مورقة يفصل كل شجيرة منها عن الأخرى رسم فهد يطارده غزالا .

---

(١) ديمانند : الفنون الإسلامية ص ٢٥٧

## الفصل الثامن

بلاد الشام في عصر سلاطين المماليك

استرداد نفوذ المماليك إلى الشام :

رأينا عند كلامنا على قيام دولة المماليك ، كيف أن بنى أيوب لم يرضوا عما فعله المماليك في مصر من قتل توران شاه واغتصاب حكم مصر من أصحابها الشرعيين من بنى أيوب . وقد حاول الملك الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق غزو مصر والقضاء على المماليك سنة ١٢٥٠ ، ولكن أقطاي هزمهم عند غزاه . وعندما تكررت المحاولة في نفس العام ، أنزل أيوب هزيمة كبرى بالجيوش الأيوبية عند العباسية قرب الصالحية<sup>(١)</sup> .

والواقع أنه لم يخفف من حدة الصراع في ذلك الدور بين الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر سوى اشتداد خطر التتار بزعامة هو لاكو على الوطن العربي في الشرق الأدنى . وكانت الخلافة العباسية في بغداد أشد إحساسا بذلك الخطر ، بحكم تطرف العراق نحو الشرق ، فأسرع الخليفة العباسي بإصلاح ذات البين بين الأيوبيين بالشام والمماليك بمصر ، حتى تم الصلح بين الطرفين في إبريل سنة ١٢٥٣ . وبمقتضى ذلك الصلح تم الاتفاق على أن يكون لسلطنة المماليك نهر الأردن بما في ذلك غزة والقدس ونابلس والساحل ، في حين تكون بقية بلاد الشام للأيوبيين<sup>(٢)</sup> .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٧٢ — ٣٧٤

أبو الفدا : المختصر ؛ ج ٣ ص ١٨٤ .

(٢) المقرئى : السلوك ؛ ج ١ ص ٣٨٥ .

وترجع أهمية ذلك الصلح إلى أنه جاء بمثابة اعتراف رسمي من الأيوبيين وعلى رأسهم الملك الناصر يوسف الأيوبي بدولة المماليك . وليس معنى ذلك أن الأيوبيين رضوا عن حقيقة قيام دولة المماليك على حساب جزء من ممتلكات بنى أيوب ؛ بل ظل الأيوبيون رغم صلح سنة ١٢٥٣ في حالة قلق وعدم رضى ، بدليل أنهم انتهزوا فرصة هرب بعض زعماء البحرية إلى الشام عقب مقتل أقبائى وقاموا بمحاولة جديدة لهدم دولة المماليك والاستيلاء على مصر سنة ١٢٥٥<sup>(١)</sup> . ومرة أخرى أسرع الخليفة العباسى إلى التوفيق بين الطرفين ، وتجديد الصلح بين الناصر يوسف والمعز أيبك . هذا وإن كان زعماء البحرية بالشام قد حرضوا الملك المغيث عمر الأيوبي في السكرك على مهاجمة مصر ، ولكن المحاولتين اللتين قام بهما المغيث عمر سنتي ١٢٥٧ ، ١٢٥٨ باءتا بالفشل<sup>(٢)</sup> .

ثم كان أن حدث ما توقعته الخلافة العباسية ، فاجتاح التتار العراق وسقطت بغداد في أيديهم سنة ١٢٥٨ ، وبعد ذلك جاء دور الشام ومصر . وفي تلك الأزمة التي أملت بالوطن العربى في الشرق الأدنى أظهر الأيوبيون تخاذلا واضحا ، فأرسل الناصر يوسف ابنه العزيز إلى هولاء كويطلب منه مساعدته في القضاء على دولة المماليك وفتح مصر . حقيقة إن الناصر يوسف عاد فأحس بخطر التتار على ممتلكاته في بلاد الشام ؛ ولكن ذلك كان بعد فوات الأوان ، فنجح هولاء كوي في امتلاك حلب ودمشق ، وزحف التتار جنوبا في فلسطين صوب مصر<sup>(٣)</sup> .

ومن المعروف أن الوظيفة الأولى لأي حاكم أو أية حكومة هي توفير الأمن

- 
- (١) أبو الفدا : المختصر ؛ ج ٣ ص ١٩٠ .  
(٢) أبو الجاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤٤ .  
(٣) أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٩٩ .  
المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤١٩ .

والسلام والاستقرار للرعايا وحمايتهم من الأخطار الخارجية والداخلية التي قد يمرضون لها . فإذا فشل الحاكم أو فشلت الحكومة في تحقيق ذلك الغرض ، فقدت أهميتها التي قامت من أجلها ، وبدأت في نظر الشعب في صورة غير شرعية ؛ فلاداعي لتقديم الولاء والطاعة لحاكم ليس أهلاً للنهوض بالمهمة الأساسية التي رشحته الأحداث لها . ومعنى ذلك أنه إذا كان ملوك البيت الأيوبي بالشام قد نادوا دائماً بأنهم ورثة صلاح الدين وأنهم هم أصحاب الحق الشرعي في حكم مصر والشام ، فإن هذه الدعوى لم يعد لها سند واضح بعد أن عجز الأيوبيون عن دفع خطر التتار ، فسقطت بلاد الشام مدينة بعد أخرى في قبضة رجال هولاء ؛ بل لقد انضم بعض ملوك بني أيوب إلى صفوف التتار وعاونوهم في زحفهم . وتروى لنا المراجع أن حلب لم تكف تسقط في أيدي التتار حتى أسرع الأشرف موسى الأيوبي صاحب حمص إلى حلب ليقدم فروض الطاعة لهؤلاء ، في حين فر الملك المنصور صاحب حماه إلى مصر ومعه حريمه وأولاده تاركاً حماه وشأنها<sup>(١)</sup> . أما الناصر يوسف فقد فر من دمشق إلى غزة عن طريق نابلس بنية الهروب إلى مصر « وترك دمشق خالية<sup>(٢)</sup> » ! ولكن الناصر يوسف لم يلبث أن وقع في قبضة التتار فعفا عنه هولاء كوووعده بإعطائه حكومة الشام بعد أن يستولى التتار على مصر ، فاستمر الناصر يوسف تابعا لهم « وبقى معهم في ذل وهوان إلى أن قتل<sup>(٣)</sup> » . كذلك وقع الملك السعيد — ابن الملك العزيز عثمان الأيوبي — في قبضة هولاء كوالذي ولاه على الصبيبة وبانياس . ولم ينجل الملك السعيد بعد ذلك من معاونة التتار ومصاحبتهم « فصار معهم وأعلن الفسق

- 
- (١) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٤٢٣ .  
أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ .  
(٢) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٤٢٣ .  
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٧ .

والفجور وسفك دماء المسلمين ... (١) .

ولاشك في أن ذلك السلوك الشائن الذي سلكه ملوك الأيوبيين في الشام جاء بمثابة فصل الختام لدولتهم ، وإعلانا لتنازلهم عن حقوقهم في الملك بعد أن تقاعسوا عن حماية ذلك الملك . وصار منطق الأحداث يحتم أن تدول دولة بني أيوب ليترشم في ملكهم إما القطار وإما المماليك ، حسبما تقرره المعركة المنتظرة بين هاتين القوتين (٢) .

وفي الوقت الذي أثبتت الأحداث ضعف الأيوبيين وعجزهم عن حماية المسلمين في بلاد الشام من خطر التتار ، إذا بالمماليك يظهرون على المسرح لينزلوا بالقتار ضربة كبرى في موقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠ ، وبذلك ظهر المماليك في صورة القوة الكبرى في الشرق الأدنى التي استطاعت أن تحمي كيان أهل مصر والشام من ذلك الخطر الوثني الرهيب . ولاشك في أن فشل الأيوبيين في صد خطر التتار ، ونجاح المماليك في القضاء على ذلك الخطر ، جاء بمثابة فصل الخطاب بين المماليك والأيوبيين ، وخاتمة لحركة التنافس بين هاتين القوتين على مسرح الشام ، بعد أن صار من الواضح أن قوة الأيوبيين المتداعية لن تستطيع بحال الصمود في وجه قهرة التتار .

وكان أن استطاعت جيوش المماليك بعد عين جالوت إجلاء التتار عن دمشق وحماه وحلب ومطاردتهم حتى أطراف بلاد الشام . ومعنى ذلك أن نفوذ المماليك امتد إلى بلاد الشام فجأة بعد عين جالوت ، فأناج السلطان المظفر قطز الأمير سنجر الحجابي في دمشق . وإذا كان المظفر قطز قد أقر بعض ملوك بني أيوب في حكم بلاد الشام — مثل الأشرف موسى صاحب حمص والملك المنصور

(١) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ ٩

القريزي السلوك ج ١ ص ٤٢٠ .

(2) Grousset : Hist des Croisades, III, pp. 586—587.



صاحب حماه . — فإن هؤلاء الملوك الأيوبيين تغير وضعهم وأصبحوا تابعين لسلطان المماليك في مصر<sup>(١)</sup> . ولم يبق من ملوك الأيوبيين بالشام من ظل خارجا عن نفوذ سلطنة المماليك سوى الملك المغيث عمر صاحب الكرك والشوبك ، فأرسل السلطان الظاهر بيبرس سنة ١٢٦١ من نوابه من تسلم الشوبك من الملك المغيث ، كما قبض على الملك المغيث نفسه سنة ١٢٦٣ واعتقله في قلعة الجبل وعين أحد أمرائه نائبا للكرك<sup>(٢)</sup> .

و إذا كان المماليك قد ظهروا في صورة ورثة الأيوبيين في حكم مصر والشام؛ فإن معنى ذلك أن المماليك لم يرثوا الأيوبيين في ملكهم العريض فحسب ، بل أيضا في سياستهم الخاصة بالجهاد . هذا بالإضافة إلى أن للمماليك كانت عندهم عقدة كبيرة من ناحية أصلهم غير الحر ، فضلا عن اغتصابهم الحكم من أصحابه الشرعيين وهم الأيوبيون ، ولذلك حرص المماليك منذ أن استقرت لهم الأوضاع في مصر والشام على أن يظهروا أمام أهل مصر والشام في صورة حماة المسلمين وزعمائهم في حركة الجهاد ضد الصليبيين . ولم يلبث سلاطين المماليك أن استأنفوا سياسته الأيوبيين ، بحيث أنه لم يكذب يمضي على قيام دولة المماليك نحو من أربعين سنة حتى تم طرد الصليبيين نهائيا من بلاد الشام ، وبذلك أصبحت لا توجد قوة تهيمن على بلاد الشام غير قوة المماليك .

ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس استولى على قيسارية سنة ١٢٦٥ ، ثم استولى على أرسوف بمد قليل وعلى صفد في العام التالي<sup>(٣)</sup> . ولم يلبث أن أخذ يتابع انتصاراته في سرعة مذهلة ، فاستولى على طبرية وعلى قلعة ياقا سنة ١٢٦٨ ،

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٢٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٤٧ .

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٤١٣ (مخطوط) .

(٣) ابن أبي الفضائل : النهج السديد ص ١٣٢ ، ١٤٨ .

ثم على الشقيف ، حتى توج انتصاراته على المسلمين بالاستيلاء على أنطاكية  
— كبرى المدن الصليبية في شمال الشام — في ما يو سنة ١٢٦٨ (١) .

ولم يكن خلفاء بيبرس من سلاطين المماليك أقل حماسة لمحاربة الصليبيين ،  
فاستطاع السلطان المنصور قلاوون الاستيلاء على طرابلس سنة ١٢٨٩ ، وبذلك لم  
يبق للصليبيين من مملكتهم العريض ببلاد الشام سوى عكا وصيدا وصور وعثليت .  
وقد استولى السلطان الأشرف خليل بن قلاوون على كاسنة سنة ١٢٩١ ، ولم تك  
تنتهى تلك السنة حتى استسلمت آخر البقايا الصليبية بالشام وبذلك تم طرد  
الصليبيين نهائيا من تلك البلاد (٢) .

وبتطهير بلاد الشام من التتار والصليبيين جميعا ، استقرت الأمور نسبيا  
للمماليك في بلاد الشام كما أن تلك البلاد دخلت دورا جديدا في تاريخها يتناسب  
وأهميتها الجغرافية والسياسية والاقتصادية من ناحية ، فضلا عن أهميتها بوصفها إقليما  
هاما من الإقليمين الكبيرين اللذين تألفت منهما دولة المماليك من ناحية أخرى .

### التقسيم الإداري لبلاد الشام في عصر المماليك :

قسم المماليك بلاد الشام من الناحية الإدارية إلى ستة أقسام تسمى نيابات ؛  
تخضع للحكومة المركزية في القاهرة . أما هذه النيابات فهي نيابة دمشق ونيابة  
حلب ونيابة طرابلس ونيابة حماه ونيابة صند ونيابة السكر . ويبدو أن هذا  
التقسيم في حد ذاته كان ضروريا لأنه يتفق مع طبيعة بلاد الشام الجغرافية حتى  
أن معظم تلك النيابات التي نراها في بلاد الشام على عصر سلاطين المماليك ، إنما  
كانت في حقيقة أمرها أقساما إدارية واضحة في العصور السابقة ، بل لقد وصل

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية - ٢ ص ١١٤٩ .

(٢) أبو الفدا : المختصر ؛ حوادث سنة ٦٩٠ هـ .

بعضها فعلا — قبل عصر المماليك — إلى درجة الدول المستقلة ، مثل طراباس ودمشق وحلب .<sup>(١)</sup> على أنه ينبغي من باب الدقة التاريخية أن نشير إلى أثر عصر الحروب الصليبية بالذات في إبراز أهمية بعض أقاليم الشام ، مما تطلب جعلها نيابات ؛ وذلك مثل نيابة الكرك ذات الموقع الهام على ملتقى الطرق البرية بين مصر والشام والحجاز ، مما جعلها تقوم بدور خطير بالنسبة لمواصلات المساهين على عصر الحروب الصليبية .

وثمة ملحوظة أخرى هي أن تلك النيابات الست لم تنشأ في وقت واحد أو سنة واحدة ، لأن طبيعة انتشار النفوذ المماليكي على بلاد الشام اتصفت بالتدرج ، الأمر الذي جعل ظهور التقسيم الإداري لبلاد الشام في عصر المماليك يأتي على مراحل . من ذلك أن تاريخ إنشاء نيابتي دمشق وحلب يأتي سنة ١٢٦٠ عقب هزيمة التتار في عين جالوت مباشرة . أما حماه — فكما سبق أن ذكرنا — اختار المماليك عقب عين جالوت أن يبقوا على الأيوبيين فيها ، فعفا السلطان قطز عن الملك المنصور الثاني الأيوبي صاحب حماه وأقره على حكمها<sup>(٢)</sup> ؛ وبذلك لم تصبح حماه نيابة في عصر المماليك إلا سنة ١٣٤١ ، أي بعد وفاة المؤيد على آخر ملوكها من بني أيوب . وأما نيابة الكرك فيبدأ تاريخها في عصر المماليك سنة ١٢٦٣ على عهد السلطان بيبرس أيضا ، ومثلها نيابة صفد التي ترجع إلى سنة ١٢٦٦ . أما نيابة طراباس فتتبع نشأتها إلى عهد السلطان قلاوون الذي استولى على تلك المدينة من الصليبيين سنة ١٢٨٩<sup>(٣)</sup> .

(1) Demombynes ; La Syrie a l'époque des Mamelouks, p. 106.

(٢) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٤٣٣ .  
(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٤٧ .  
أبوالحسن : النجوم ج ٧ ص ٣٢١ .

ولما كانت كل من هذه النيابات الشامية لها وضعها الخاص ، وتمتد لتشمل مساحة كبيرة ، ويتبعها من الناحية الإدارية عدد من المدن أو الموانى أو القلاع الهامة ؛ فإنه روعى أن تقسم كل نيابة منها إلى أقسام إدارية صغيرة هي التي أطلق عليها القلقشندي اسم « النيابات الصغار »<sup>(١)</sup> . ولكي تتضح صورة كل نيابة من هذه النيابات في عصر المماليك يحسن تناولها بكلمة موجزة : -

أولا : نيابة دمشق : ، وهي كبرى نيابات الشام في عصر المماليك ، حتى أطلق عليها القلقشندي اسم « نيابة الشام » أو « مملكة الشام » ؛ ووصفها بأنها « أجل نيابات المملكة الشامية وأرفعها في الرتبة »<sup>(٢)</sup> . وقاعدة هذه النيابة مدينة دمشق التي اختصها سلاطين المماليك بعنايتهم وأقاموا فيها كثيرا من المنشآت . من ذلك ما يقال من أن الظاهر بيبرس جدد شرقات قلعة دمشق ورعوس أبراجها التي كان القطار قد هدموها ، وبنى فيها حماما ، كما جدد مشهد زين العابدين رضي الله عنه بجامع دمشق ، وأمر بترخيم الحائط الشمالى وتجديد باب البريد وفرشه بالبلاط . هذا كله عدا القصر الأبلق الذي شيده بيبرس بالميدان في دمشق ، وما حوله من العمار<sup>(٣)</sup> .

وكان يتولى أمر مدينة دمشق والى ينظر في شئون المدينة ويتحدث في أمر الشرطة ، في حين كان يتولى أمر ضواحي دمشق - وهو الإقليم الذي يعرف باسم البر - والى آخر<sup>(٤)</sup> . وكان يتبع نيابة دمشق عدة نيابات صغرى وولايات . أما النيابات الصغرى فأهمها غزة والقدس وصرخد ومجلون وبعلبك وحمص ومصيف والرحبة ؛ مع ملاحظة أن غزة صارت أحيانا نيابة قائمة بنفسها

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٢ ص ٦ .

(٢) المرجع السابق : ج ٤ ص ١٨٠ ، ١٨٤ .

(٣) ابن شاكر السكتي : فوات الوفيات - ترجمة بيبرس .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨٧ .

في القرن الرابع عشر<sup>(١)</sup> . وأما ولايات نيابة دمشق فعديدة أهمها الرملة وبيسان والبقاع وبيروت وصيدا وقارا وغيرها .

ثانياً : نيابة حلب ؛ وكانت تتمتع هي الأخرى بأهمية خاصة في عصر المماليك نظراً لخطورة موقعها على الأطراف الشمالية لدولة المماليك مما جعلها محورا لكثير من أحداث العلاقات المضطربة بين المماليك من ناحية وجيرانهم مثل التتار والتركمان والعثمانيين من ناحية أخرى . لذلك اشتملت نيابة حلب على عدد كبير من النيابات الصغرى ليس له مثيل في بقية نيابات الشام ؛ ومن هذه النيابات الصغرى التابعة لنيابة حلب نيابة قلعة الروم أو قلعة المسلمين غربى الفرات في مواجهة البيرة ، ونيابات السكيتا وكركر و بهسنى وسميساط و عيفنتاب ودر بساك والراوندان و بفراس والقصير والشفر و بكاس . هذا فضلا عن عدد آخر من النيابات الصغرى كانت تقع خارج حدود الشام ولكنها تتبع نيابة حلب بحكم ملكية دولة المماليك لها . ومعظم هذه النيابات الصغرى الأخيرة كانت داخل بلاد الأرمن ، مثل ملطية و دبركي ودرنده والأبلستين وإياس وطر سوس وأذنه وغيرها<sup>(٢)</sup> .

أما ولايات النيابة الحلبية فأهمها بر حلب وكفر طاب وعزاز وتل باشر ومنبج وتيزين والباب و بزعا وأنطاكية<sup>(٣)</sup> .

ثالثاً : نيابة طرابلس ؛ وكانت تشمل من النيابات الصغرى نيابة حصن الأكراد ونيابة حصن عكار ونيابة بلاطنس ونيابة صهيون ونيابة اللاذقية ؛ هذا فضلا عن ست نيابات صغرى أخرى أسماها القلقشندي « نيابات قلاع

(1) Demombynes ; op. cit., p. 174 &

ابن فضل الله العمري : التعريف ص ١٧٧ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ص ٢٢٦ وما بعدها .

(٣) المرجع السابق ج ٤ ص ٢٣٠ .

الدعوة» ؛ أى أنها كانت مراكز جماعة الاسماعيلية الباطنية ، وهى نيابة الرصافة ونيابة الخوارج ونيابة القدموس ونيابة الكهف ، ونيابة المنيقة ونيابة القلعة .

أما الولايات التابعة لنيابة طرابلس فمددها ست هى : أنطوطوس ، وجبة المنيطرة ، والظنين ، وبشرية ؛ وجبله وأنفة<sup>(١)</sup> .

رابعا : نيابة حماه ؛ ومركز هذه الولاية مدينة حماه ، ولا يتبعها نيابات صفرى ، وإنما يتبعها ثلاث ولايات هى : ولاية برحماه ، وولاية بارين ، وولاية المعرة<sup>(٢)</sup> .

خامسا : نيابة صفد ؛ وهى المدينة الحصينة التى ترتفع عن سطح البحر نحو من ألف وستمائة قدم ، والتى جدد بيبرس قلعتها بعد أن استولى عليها من الصليبيين . وليس لهذه النيابة نيابات صفرى — مثل نيابة حماه — وإنما تتبعها إحدى عشرة ولاية هى ولاية برصفد ، وولاية الناصرة وولاية طبرية ، وولاية تبنين وهونين وولاية عثليث وولاية عكا ، وولاية صور وولاية الشاغور وولاية الإقليم ، وولاية الشقيف ، وولاية جينين<sup>(٣)</sup> .

سادسا : نيابة الكرك ، وليس لها نيابات صفرى هى الأخرى وإنما تتبعها أربع ولايات هى ولاية بر الكرك ، وولاية الشوبك ، وولاية زغر ، وولاية ممان<sup>(٤)</sup> .

\* \* \*

- 
- (١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٣٥-٢٣٦ .  
(٢) المرجع السابق ص ٢٣٩ .  
(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٤٠ — ٢٤١ .  
(٤) المرجع السابق ص ٢٤٢ .

وبعد ، فهذا عرض سريع لنيابات الشام في عصر المماليك . أما عن أنظمة الحكم في تلك النيابات ، فأول ما يلاحظ عليها أن كلا منها كانت صورة مصغرة لسلطنة المماليك الكبرى في مصر ، حتى لقد أطلق القلقشندي على تلك النيابات اسم « الممالك الشامية » وقال إن « كل مملكة منها قد صارت نيابة سلطنة مضاهية للملكة المستقلة » .

ولتفصيل ذلك نقول إن كل نائب من حكام النيابات الشامية كان في حقيقة أمره « سلطانا مختصرا » ، مع تبعيته لسلطان مصر ؛ فكان لكل نائب جاشيته ومماليكه وأتباعه ، وأطلق عليه أحيانا اسم « ملك الأمراء » لقيامه مقام السلطان في التصرف وقيام الأمراء على خدمته كخدمة السلطان<sup>(١)</sup> .

وكان لكل نائب من نواب الشام بيوت خدمة مثل بيوت خدمة السلطان ، كالشراب خاناه ، والقراش خاناه ، والزرد خاناه ، والطبلخاناه . . . وغيرها . واحتوت بيوت نواب الشام على وظائف مثل وظائف بيوت السلطان ، مثل رأس نوبة وأمير مجلس وأمير أخور وأمير جاندار . . . وغير ذلك . كذلك كان لكل نيابة من النيابات الشامية وزير يتمتع بما يتمتع به الوزير في مصر ؛ هذا وإن لم يسمح للوزير في نيابات الشام بلقب وزير إلا إذا كانت قد سبقت له ولاية الوزارة بمصر ، أما إذا لم يكن قد سبق له تولى منصب الوزارة في مصر ، فإنه كان يلقب بلقب « ناظر النظار »<sup>(٢)</sup>

كذلك كان في كل نيابة من نيابات الشام أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة ، مثلما كان الحال تماما في مصر منذ أيام الظاهر بيبرس . هذا فضلا عن الوظائف الأخرى المتعددة التي وجدت في كل نيابة من نيابات الشام والتي كان

(١) القلقشندي : صبح الأعشى - ص ٤٥٥ :

(٢) المرجع السابق - ص ٤٦٥ .

بعضها يتعلق بأرباب السيوف والبعض الآخر يتعلق بأرباب القلم ، والقسم الثالث يشمل الوظائف الدينية .

أما الدواوين التي وجدت في كل نيابة من نيابات الشام ، فكان أهمها ديوان الإنشاء وديوان النظر وديوان الجيش . وقد اختص ديوان الإنشاء بجميع المراسلات التي ترد إلى النائب أو تصدر منه . ولقب صاحب ديوان الإنشاء بكاتب السر . ويبدو أن كاتب السر في النيابات الشامية كان يقوم أيضا بمهمة التجسس على النائب لحساب السلطان ، ويطلع الأخير على ما قد يخفيه النائب عنه <sup>(١)</sup> . وأما ديوان النظر فكان يمثل الإدارة المالية في النيابة ، بحيث له الإشراف التام على المصروفات والإيرادات . وأما ديوان الجيش ، فكان يشرف على جيش النيابة وتوزيع الأقطاعات وترتيب الجوامك الخاصة بالمماليك . ومن الثابت أن أراضي الشام قد مسحت وقسمت من جديد سنة ١٣١٣ ؛ وهذا ما يسمى « الروك الناصري ببلاد الشام » نسبة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون . أما عن عدد الجند ببلاد الشام فقد ذكره خليل بن شاهين الظاهري على الوجه التالي : —

أجناد الحلقة بدمشق ومماليك الكافل والأمراء	١٥٠٠٠
أجناد الحلقة بحلب ومماليك الكافل والأمراء	٨٠٠٠
أجناد الحلقة بطرابلس ومماليك الكافل والأمراء	٥٠٠٠
أجناد الحلقة بصفد ومماليك الكافل والأمراء	٢٠٠٠
أجناد الحلقة بحماه ومماليك الكافل والأمراء	١٠٠٠

على أن هذه الأعداد لم تكن ثابتة وإنما تعرضت للتغيير والتبديل في عصر المماليك ، وكذلك عدد الإقطاعات وتوزيعها ببلاد الشام <sup>(٢)</sup> .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ص ٤٠٩ .

(٢) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١٠٣ — ١٠٦ .

ويلاحظ أن خليل بن شاهين أغفل ذكر عدد الأجناد بنبابة الكرك .



وإذا كان هذا هو الوضع بالنسبة لكافة النيابات الشامية في عصر المماليك ؛ فإننا نحب أن نؤكده مرة أخرى أن نائب دمشق بالذات تمتع بأهمية خاصة فاقت أهمية بقية النواب في النيابات الشامية الأخرى ؛ حتى لقد قال القلقشندي عن نائب دمشق إنه « قائم بدمشق مقام السلطان في أكثر الأمور المتعلقة بنيابته ، ويكتب عنه التواريخ الكريمة ، ويكتب عنه للربعات بتعيين إقطاعات الجند ، وتجهز إلى الأبواب الشريفة فيشمها الخط السلطاني الشريف »<sup>(١)</sup>

ومن الواضح أن تلك المكانة الضخمة التي تمتع بها نائب دمشق في عصر المماليك كان من الممكن أن تصبح مصدر خطر على السلطان نفسه ، كما حدث في بعض الحالات . لذلك حرص سلاطين المماليك على فرض رقابة خفية على نوابهم في الشام عامة وفي دمشق خاصة ؛ فكان السلطان يحرص أحيانا على التدخل في شئونهم لإشعارهم بوجوده . وهذا إلى أن السلطان لم يكف بأن يكون صاحب ديوان الإنشاء عينا له على النائب ؛ وإنما كان السلطان أيضا يجعل من نائب القلعة أو الحصن الموجود في الإقليم عينا له على النائب ، ويقاومه إذا حدثته نفسه بالخروج على السلطان<sup>(٢)</sup> . ولهذا السبب كان لنائب القلعة أجنادا مقيمين معه ولا يتصلون بدار النيابة في المدينة<sup>(٣)</sup> .

والواقع أنه على الرغم مما تمتع به نواب النيابات الشامية من سلطان ونفوذ كبير ، إلا أنهم كانوا قبل كل شيء تابعين لسلطنة المماليك في القاهرة ، وبالتالي فإنهم لم يكونوا مطلقا التصرف في كثير من النواحي . من ذلك أن سلطان

(١) القلقشندي : صبح الأعشى - ج ٤ ص ١٨٤ .

(2) Demombynes ; op. cit., p. 108.

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى - ج ٤ ص ١٨٥ .

العمرى : التمرين ، ص ١٤٨ .

الماليك احتفظ بحقه في شغل الوظائف الكبرى بالنيابات الشامية ؛ فكان النواب يعيشون في وظائف أرباب السيوف من إمرة عشرة فما دونها ، في حين كان التعيين في الوظائف من إمرة طبلخاناه فما فوقها من حق السلطان . أما وظائف أرباب القلم فكان النواب لا يعينون إلا صغار الموظفين مثل كتاب الدرج ، في حين كان السلطان يعين كبار الموظفين مثل الوزارة وكتابة السر ونظر الجيش ونظر المال وغيرها . كذلك في الوظائف الدينية كان من حق السلطان وحده أن يعين كبار الموظفين - مثل قضاة القضاة - ؛ في حين ترك للنواب تعيين صغار الموظفين ، كالذين يقومون بالخطابة في الجوامع الصغيرة (١) .

وهكذا ظل سلطان المماليك هو القوة الكبرى التي تسيطر على مصر والشام وتشرف إشرافا تاما على سير الأمور في مختلف أرجاء الدولة المالكية الواسعة .

### الاجتماع السامى فى عصر المماليك :

كان أهل الشام فى عصر المماليك لا يختلفون عن أهل مصر من حيث أنهم مغلوبون على أمرهم ، يخضعون لارستقراطية حاكمة استأثرت بالحكم والوظائف ، وحرمتهم من المشاركة مشاركة ذات قيمة فى أمر من أمور بلادهم . وهكذا كان المماليك فى بلاد الشام هم أصحاب السيادة والطبقة المسيطرة ذات النفوذ والسلطان ، فى حين خضع أصحاب البلاد الأصليين من أهل الشام للأمر الواقع ، ورضوا بما فعله المماليك بهم .

وقد انقسم أهل بلاد الشام الأصليون إلى حضر وبدو ، فالحضر هم أهالى المدن والقرى الشامية ، وقد اشتغلوا بالنشاط الاقتصادى من صناعة وتجارة

(١) القلقشندى : صبح الأعشى - ١٢ ص ٦ - ٧ .

ورراعة ، وكان كل ما يطمعون فيه هو أن يلي أمرهم نائب عادل من الممالك يحسن معاملتهم ولا يحرّمهم حقوقهم . ومن الواضح أن النشاط الاقتصادي الذي نهض به الحضر من أهل الشام تطلب نوعا من الاستقرار والهدوء ، مما جعلهم ينجحون إلى مسالمة الممالك ولا يحاولون الخروج عن طاعتهم أو المشاركة في الثورات التي اعتاد أن يقوم بها بعض نواب الشام بين حين وآخر ، وبخاصة عند قيام سلطان جديد في مصر .

أما البدو ، فقد تألفوا من العشائر المنتشرة في بادية الشام ، وكان لكل عشيرة أفخاذها وبطونها . وعلى رأس تلك العشائر كان « آل فضل » من ربيعة ، الذين امتدت منازلهم من حمص إلى قلعة جعبر إلى الرحبة ، بمعنى أنهم انتشروا بين العراق والشام على جانبي نهر الفرات<sup>(١)</sup> . ومن الواضح أن آل فضل اضطروا - بحكم موقع منازلهم - إلى توزيع ولائهم بين القوى العديدة التي تقاسمت السلطان في شمال العراق والشام . ومن ذلك ما نسمعه عن زعيمهم عيسى بن مهنا الذي دأب على مناصرة التتار حينما والممالك أحيانا ، حتى ضاق السلطان الناصر محمد بن قلاوون ذرعا بآل فضل وطردهم ليحل محلهم إخوتهم من « آل علي » ؛ ولكن الناصر محمد غاد فعقا عن آل فضل وردهم إلى بلادهم واقطاعاتهم<sup>(٢)</sup> .

ويلاحظ أنه إذا كانت عشائر البدو الضاربة على أطراف دولة الممالك بالشام قد لجأت أحيانا إلى الخروج عن سلطان الدولة ؛ فإنه وجد قسم آخر من تلك العشائر انتشرت في داخلية بلاد الشام ، وهذه كانت أكثر ارتباطا بشعور الولاء للدولة وخضوعا لسلطانها . ومن هذه العشائر آل مرة في حوران وآل علي

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٢٠٤ .

(٢) المرجع السابق ، ج ٤ ص ٢٠٦ .

في المرج والغوطة حول دمشق ؛ وغيرهم كثيرون<sup>(١)</sup> . وقد حاول سلاطين المماليك إدخال عشائر البدو ببلاد الشام في النظام الاقطاعي ، فأضفوا على زعماء تلك العشائر ألقاب الإمارة وأقطعوهم الإقطاعات ، وفرضوا عليهم التزامات معينة أهمها الولاء للدولة وحراسة الطرق والدروب الصحراوية وتقديم الرجال وقت الحرب . ولكن عشائر البدو أنفت الخضوع لذلك النوع من التنظيمات الحكومية التي تفقدها كثيرا من حريتها ، فأخذت ما في النظام من مميزات ، وفي الوقت نفسه تخلصت مما فيه من التزامات .

و بالإضافة إلى العصبية النصرانية التي وجدت ببلاد الشام على عصر سلاطين المماليك - مثل الأكراد والتركمان والأرمن - ؛ فإنه وجدت ببلاد الشام في ذلك العصر عصبية جديدة مذهبية ودينية كان لها دور كبير في الأحداث التي شهدتها بلاد الشام . ونستطيع أن نلخص أهم هذه الطوائف أو العصبية فيما يلي : -

أولا : الكسروانيون : وهم أهل جبل (جبال) كسروان وكانوا من النصرانية والعلويين والمتأولة<sup>(٢)</sup> . ويبدو من خلال ما ذكرته المراجع أن الكسروانيين وقفوا موقفاً عدائياً من المماليك ، وبخاصة أثناء الصراع بين هؤلاء الأخيرين والصلبيين بالشام . من ذلك ما حدث أثناء حصار السلطان المنصور قلاوون لمدينة طرابلس سنة ١٢٨٩ ، إذ خف الكسروانيون لنجدة بوهموند السابع أمير طرابلس . وقد أغضب ذلك السلطان قلاوون ، فزحف المماليك على جبل كسروان لتأديب أهله ونجحوا في كسر شوكتهم<sup>(٣)</sup> . وعندما استولى السلطان

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠٨ - ٢١٠ .

(٢) Lammens ; La Syrie, 2, p. 16.

(٣) محمد كرد علي : خطط الشام ج ٢ ص ١٢٦ .

الأشرف خليل على عكا وغيرها من البقايا الصليبية بالشام ، لجأ بعض الصليبيين إلى جبل كسروان وحاولوا استشارة أهله ضد سلطنة المماليك ، فبادر السلطان الأشرف خليل بإرسال حملة في بداية سنة ١٢٩٢ بقيادة الأمير بدر الدين بيدراة ولكن الكسروانيين أنزلوا الهزيمة بالعسكر المماليكي في تلك الواقعة ، الأمر الذي زاد من نفوذ الكسروانيين و بطشهم<sup>(١)</sup> . وفي سنة ١٣٠٠ - أي في سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية - سار أقوش الأفرم من دمشق إلى جبال كسروان لقتال أهلها عقوبة لهم عن موقفهم من دولة المماليك ، بعد أن كان « ضررهم اشتد » . وقد تحصن الكسروانيون بمجملهم المنيع ، واجتمعوا - نحو اثني عشر ألف رام - لقتال المماليك ، فاستمر القتال بينهم وبين المماليك ستة أيام ألقى الكسروانيون بعدها السلاح ونادوا « الأمان » . وكان أن فرض عليهم أقوش ( أقش ) الأفرم مبلغ مائة ألف درهم جبوها بعد أن تمهدوا بالطاعة<sup>(٢)</sup> .

وثمة أهمية أخرى لتلك الحملة هي أن التتوخيين هاونوا جيش الأفرم ، الأمر الذي أثار العداوة بين الكسروانيين والتتوخيين . وقد أرسل الأمير الأفرم نائب دمشق إلى الكسروانيين يأمرهم بأن يصلحوا شئونهم مع التتوخيين ويدخلوا في طاعتهم بوصفهم أصحاب الأراضي والإقطاعات ، ولكن الكسروانيين رفضوا تلك الدعوة . ونتيجة لذلك خرج الأمير أقوش الأفرم في جيش كبير بلغ خمسين ألفا من الرجال سنة ١٣٠٥ ( ٥٧٠٥ ) ، فهاجم الكسروانيين « وخرب ضياعهم وقطع كرومهم ومزقهم بعدما قاتلهم أحد عشر يوما ٠٠٠ ومملك الجبل عنوة ، ووضع فيهم السيف وأسروا ستمائة رجل ، وغنمت العساكر منهم مالا عظيما ٠٠٠ »<sup>(٣)</sup> . وقد ساعد الأفرم في جهوده لإخضاع الكسروانيين

(١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٣٠

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٩٠٢ - ٩٠٣ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ١٥٠

الأمير اسندير نائب طرابلس ، الذي تذكر عنه المراجع مبالغته في التنكيل بالكسروانيين وقتلهم<sup>(١)</sup> . ويبدو أن حملات الأمير أقوش الأفرم على جبال الكسروانيين نجحت في إخضاعهم والقضاء على كياناتهم وعصبيتهم ، فيرى المقرئ أن السلطان الناصر محمد أقطع « جبال كسروان بعد فتحها » لبعض أمراء المماليك ، فذهبوا إليها « فزرعها لهم الجبلية ورفعت أيدي الرفضة عنها »<sup>(٢)</sup> .

ثانياً : التنوخيون ؛ وهم عشائر كثيرة اعتنقت الدرزية وانتشروا في جهات متفرقة من لبنان ، وظلوا يتأرجحون بين الولاء للصليبيين حيناً والمسلمين أحياناً ؛ كما تأرجحوا بين الولاء للمماليك من ناحية وخصوم المماليك من أيوبيين وتتار من ناحية أخرى . وكان من أشهر عشائر التنوخيين جماعة البحتريين ، الذين غضب عليهم السلطان الظاهر بيبرس بسبب تقلبهم ، فاعتقل بعض زعمائهم في مصر ورفض أن يطلق سراحهم حتى ينتهي من حروبه ، حتى إذا ماتم للسلطان بيبرس فتح أنطاكية أطلق سراحهم . ومع ذلك فقد ظل بيبرس يتشكك في ولاء البحتريين ، حتى أرسل ضدهم حملة قوية اجتاحت بلادهم وعاقتهم في عنف<sup>(٣)</sup> . وبعد بيبرس لجأ السلطان قلاون إلى اضطهاد البحتريين ، فصادر إقطاعاتهم ووزعها على حامية طرابلس من المماليك . وسرعان ما أدرك البحتريون عاقبة عنادهم فمادوا إلى الولاء للدولة المماليك ، وعندئذ ردت إليهم الدولة إقطاعاتهم وعهدت إليهم بحراسة بيروت وشواطئها ؛ وكان ذلك سنة ١٢٩١ على عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاون . كذلك ساعد البحتريون المماليك في قتال غازان خان

(١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٣٢ — ٣٣

أبو الفدا : المختصر حوادث سنة ٧٠٥ هـ

(٢) المقرئ : السلوك ج ٢ ص ١٦٠

(٣) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٧٥

تتار فارس ، وذلك على عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون<sup>(١)</sup> .

وثمة فريق آخر من التنوخيين ، هم الارسلانيون ومركزهم قرب بيروت وكانوا موالين لدولة المماليك ؛ واشتهروا بمواقفهم ضد الصليبيين ، الأمر الذي جعلهم يظفرون برضاء سلاطين المماليك<sup>(٢)</sup> .

ثالثا : بنومعن أو المعنيون ؛ وقد بدأ ظهورهم في القرن الثاني عشر ، حين نذبهم أمراء السلاجقة لقتال الصليبيين على الساحل السوري ، فأبلوا في ذلك بلاء حسنا ؛ كوفئوا عليه بمنحهم إقليم الشوف ، وقد حالفوا أقرباءهم التنوخيين في الغرب والشهابيين في وادي التيم<sup>(٣)</sup> .

رابعا : الشهابيون الدروز ؛ وكانت منازلهم في وادي التيم منذ سنة ١١٧٤ واشتركوا بنجاح في قتال الصليبيين ثم التتار ، وبخاصة أثناء إغاراتهم على بلاد الشام في عهد السلطان المنصور قلاوون سنة ١٢٨١ . وقد حالف الشهابيون بني معن وأصهروا إليهم .

خامسا : المتأولة ؛ وهم فرقة من غلاة الشيعة ، كانت زعامتهم في الجهات الشمالية من لبنان لبني حمادة، ويبدو أن التنافس كان قويا بينهم وبين الشهابيين الدروز حول الزعامة على لبنان<sup>(٤)</sup> . وقد حنق المماليك على المتأولة بسبب شذوذهم المذهبي ، مما جعلهم يتعرضون لبعض الاضطهاد في ذلك العصر .

سادسا : النصيرية أو العلويون ؛ وقد عاشوا في شبه عزلة في القسم الشمالي من جبل لبنان تحت زعامة شيوخهم<sup>(٥)</sup> .

(١) أحمد عزت عبد الكريم : التقسيم الإداري لسورية في العصر العثماني ص ١٣٦ .

(٢) الشدياق : أخبار الأعيان في جبل لبنان ص ١٧٤ .

(٣) أحمد عزت عبد الكريم : التقسيم الإداري ص ١٣٦ .

(4) Lammens : op. cit., vol. 2, p. 13.

(5) Demombynes : op. cit., p. 227.

سابعاً : الإسماعيلية؛ وكانوا يعرفون أيضاً باسم الباطنية؛ وكانت لهم قلاع عديدة أهمها مصياف (أو مصياب) والقدموس والكهف والحوابي والمنيقة والرصافة . وقد قام الإسماعيلية الباطنية بدور مشهور في تاريخ بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية<sup>(١)</sup>؛ ولم يتورعوا عن اغتيال كثير من الشخصيات الإسلامية والصليبية سواء . ولم يرض المماليك عن الباطنية بسبب شدوذم المذهب من ناحية، ثم بسبب موقعهم المانع بين الصليبيين والمسلمين من ناحية أخرى . لذلك فرض السلطان الظاهر بيبرس ضرائب باهظة على الهدايا التي اعتاد أن يبعث بها الصليبيون إلى شيخ الباطنية ، وذلك « إفساداً لنواميس الإسماعيلية وتعجيزاً لمن اكتفى شرم بالهدية<sup>(٢)</sup> » . ثم إن السلطان الظاهر بيبرس لاحظ أن طائفة الإسماعيلية لجأت — عندما أخذ نفوذها يضعف في بلاد الشام — إلى دفع الأموال للصليبيين ، وبخاصة الاسبتارية في حصن الأكراد . لذلك انتهز السلطان فرصة الصلح الذي عقده مع الاسبتارية سنة ١٢٦٧ واشترط عليهم الامتناع عن أخذ الجزية التي كان يدفعها لهم الإسماعيلية الباطنية . ويروي المقرئ أن رسل الإسماعيلية وفدوا على السلطان الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٧ ومعهم جملة من الذهب وقالوا « هذا للال الذي كنا نحمله قطيعة للفرنج قد حملناه لبيت المسلمين لينفق في المجاهدين<sup>(٣)</sup> » .

على أنه يبدو أن الإسماعيلية ببلاد الشام لم يلبثوا أن ضاقوا بالجزية التي كانوا يدفعونها للسلطان الظاهر بيبرس ، بدليل أن نجم الدين حسون بن الشعراوى مقدم الإسماعيلية ببلاد الشام أرسل مبعوثاً إلى السلطان سنة ١٢٦٩ يطلب منه إنقاص المال الذي كان يحمله الإسماعيلية إلى بيت المال . وفي ذلك الوقت كانت العلاقة سيئة بين السلطان وأحد زعماء الإسماعيلية — وهو صارم الدين مبارك

(١) سميد عاشور : الحركة الصليبية ج ٩ ص ٥٥٠ وما بعدها .

(٢) العيني : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورده ٥٢٩ .

(٣) المقرئ : السلوك ج ١ ص ٥٥٧ .



ابن الرضى صاحب العليقة - فتوسط صارم الدين للسلطان حتى رضى عنه بيبرس، وعندئذ قلده زعامة الإسماعيلية بدلا من نجم الدين الشعرانى . وكان أن توجه صارم الدين إلى مصياف - المركز الرئيسى للدعوة الإسماعيلية ببلاد الشام - حيث أخذ يباشر مهام منصبه<sup>(١)</sup> .

ويدل ذلك على مدى ما صار لسلطين المماليك من هيمنة على الإسماعيلية ببلاد الشام على عهد بيبرس . بل إن السلطان بيبرس اشترط على الإسماعيلية أن تكون مصياف و بلادها للسلطان، وأرسل صحبة صارم الدين نائبا عن السلطان بمصياف . ولم يكن صعبا على بيبرس بعد ذلك أن يستولى على حصون الإسماعيلية ببلاد الشام واحدا بعد آخر ، حتى استولى عليها جميعا ( ١٢٧٠ - ١٢٧٣ ) ؛ وعندئذ انتهى أمرهم ببلاد الشام ، وأقظهم السلطان بدلا من قلاعهم الشامية بمعض الجهات فى مصر ليعيشوا فيها<sup>(٢)</sup> .

### تورات الشام فى عصر المماليك :

لم تكن الشام فى عصر المماليك مجرد إقليم من أقاليم للدولة ، وإنما كانت أهم من ذلك بكثير . لقد كانت بلاد الشام الجناح الأيمن الذى بدونه يتعذر على دولة المماليك الاحتفاظ بكيانها وتوازنها ، والثبات فى وجه الأخطار الأسيوية الضخمة التى هددت تلك الدولة ، حينما من جانب الأيوبيين والتتار والصلبيين ، وأحيانا من جانب الأرمن والتركمان ثم العثمانيين . وهكذا أدرك سلاطين المماليك منذ أن أقاموا دولتهم فى مصر أنه لا بقاء لهم ولا دولتهم إلا فى ظل وحدة تربط بين الشام ومصر تحت حكمهم ، وتضمن لهم مراقبة التيارات العديدة التى يمكن

(١) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس : ص ٨٢ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٦٠٨ .

أن تؤثر في كياناتهم ، فضلا عن مراقبة الطرق الرئيسية التي سلكها الأعداء في تهديدهم لمصر والشام في العصور الوسطى .

وإذا كان سلاطين المماليك قد نظروا إلى بلاد الشام نظرة خاصة ، فوضعوا لها تقسيما إداريا يشهد على مدى إدراكهم لأهمية تلك البلاد ، فإننا نلاحظ في نفس الوقت أن نواب الشام وأمراء المماليك في تلك البلاد أدركوا أهميتهم ، واستغلوا موقع البلاد من ناحية وبعدها عن مركز السلطنة من ناحية أخرى في محاولة فرض إرادتهم وإملاء كلمتهم على السلاطين . وكثيرا ما أحس أمراء المماليك في الشام بنفوذهم وقوتهم فأعلنوا الثورات في وجه السلاطين في مصر ، بل لقد طالب بعض أمراء الشام بالسلطنة لأنفسهم معتمدين على ما عرف عن المماليك من بغض للنظام الوراثي وإيمان بأن الملك للأقوى . ولم ير بعض أمراء الشام — عندما استفحل النزاع أحيانا بينهم وبين سلاطين المماليك — مانعا من الاتصال بأعداء الدولة من تتر وعثمانيين ، مما عرض دولة المماليك لكثير من الأخطار . هذا كله فضلا عما نامسه في عصر المماليك من فرار كثير من خصوم السلاطين ومناقسيهم من مصر إلى الشام ، حيث يجدون ملاذا ويعملون على تأليب الأعداء وإثارة المتاعب في وجه السلاطين .

ومع قيام سلطنة المماليك عند منتصف القرن الثالث عشر انطلق أول صوت للمعارضة من دمشق ، حيث رفض المماليك الأكراد (القيمرية) أن يقسموا بيمين الولاء للسلطان شجر الدر ، كما امتنع الأمير جمال الدين يغمور — نائب السلطنة بدمشق — عن الاعتراف بشجر الدر . وكان من الطبيعي أن ينضم أولئك المتمردون إلى جانب الملك الناصر يوسف الأيوبي ، مما سبب لسلطنة المماليك في مصر كثيرا من المتاعب في دورها الأول ، ولم يخفف من حدة هذه المتاعب ، سوى الأصوات التي ارتفعت للمطالبة بتوحيد الكلمة في وجه خطر التتار<sup>(١)</sup> .

---

(١) المفريزي : السلوك ج ١ ص ٣٦٦ وما بعدها

على أنه حدث في ذلك الدور — وقبل أن يواجه المماليك خطر التتار — أن انقسم المماليك في مصر على أنفسهم ، فاجأ السلطان أيبك إلى قتل أقطاي زعيم المماليك البحريةية ، مما جعل هؤلاء يفرون إلى الشام وعلى رأسهم من زعمائهم بيبرس وقلاون وسنقر وبيدرى وغيرهم من الأمراء . وقد ظل زعماء البحريةية في الشام ثلاث سنوات ( ١٢٥٤ — ١٢٥٧ ) يسببون للتتابع لسلطنة المماليك في مصر ؛ حتى كان سقوط الخلافة العباسية على يد التتار سنة ١٢٥٨ وظهور خطر التتار في صورة جدية على الشام ومصر ؛ وعندئذ دخل البحريةية في طاعة السلطان قطز ليواجهوا جميعا الخطر الجديد<sup>(١)</sup>

والواقع إن سيادة سلطنة المماليك لم تمتد على بلاد الشام إلا بعد موقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠ كما سبق أن رأينا . ومنذ تلك السنة أصبحت المتاعب التي صادفها سلاطين المماليك في بلاد الشام لا تأتي من جانب الأيوبيين والتتار والصلبيين فحسب ، بل أيضا من جانب أمراء المماليك أنفسهم بالشام . من ذلك أن الأمير علم الدين سنجر الحلبي نائب دمشق ثار في وجه بيبرس سنة ١٢٦٠ ، أي بعد شهر واحد من توليته السلطنة ، بل إن الأمير سنجر طالب لنفسه بمنصب السلطنة ، فتلقب بالملك المجاهد ووضع اسمه على النقود ودعا لنفسه في خطبة الجمعة ، وصار يركب في دمشق بشعار السلطنة<sup>(٢)</sup> . ولكن الظاهر بيبرس أخذ حركة الأمير سنجر عن طريق الحيلة ، وذلك بعد أن حرض أمراء الشام فانفضوا عن سنجر وقاوموه ، ثم قبض عليه بعد ذلك . كذلك ثار الأمير شمس الدين أقوش البرلى ووطد مركزه في حلب ، ولكن السلطان الظاهر أخذ حركته<sup>(٣)</sup> .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٣٩٤ ( مخطوط ) .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٣٩ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ٢٠٩ — ٢١١ .

ولم تكن المتاعب التي صادفها بيمبرس في بلاد الشام في ذلك الدور القاسمى لدولته كلها ناشئة من جانب أمراء المماليك ، وإنما ظل بعض بقايا ملوك بني أيوب يشككون خطرا على سلطان دولة المماليك . من ذلك أن الملك المغيـث عمر الأيوبي صاحب الكرك استعان بمجموع الأكراد الفارين من وجه التتار وأخذ يغير على الشوبك وغيرها من المناطق القريبة التابعة لسلطنة المماليك . ولم يهدأ بيمبرس إلا بعد أن قبض على المغيـث عمر سنة ١٢٦٢ واعتقله بقلعة الجبل إلى أن قتل بعد ذلك (١) .

ولما اعتلى المنصور قلاون دست السلطنة سنة ١٢٧٩ ، خرج عليه شمس الدين سنقر نائب الشام وامتنع عن مبايعته ؛ بل إنه دعا أهل دمشق إلى طاعته وتلقب بالملك الكامل وخطب له في الجامع الأموي . وفي أثناء النزاع بين السلطان قلاون والأمير سنقر لم ير الأخير حرجا في الاتصال بالتتار ، فاتصل بخان مغول فارس — وهو أبغا بن هولاء كور — وحرضه على مهاجمة بلاد الشام ، ثم انتهى الأمر بفرار الأمير سنقر إلى صهيون (٢) . ولم تنته المتاعب التي واجها السلطان قلاون في بلاد الشام عند ذلك الحد ، إذ حدث سنة ١٢٨١ ، والسلطان قلاون مشغول بمحاربة الصليبيين ، أن دير الأمير سيف الدين كوندك وجماعة من الأمراء الظاهرية وبعض التتار مؤامرة لاغتيال السلطان (٣) . ولم يتردد المتآمرون في الاتصال بالصليبيين ، ولكن المنصور قلاون علم بالمؤامرة في الوقت المناسب فأحبطها وأعدم زعماءها وفر عدد كبير من أتباعهم إلى صهيون ليلحقوا بالأمير شمس الدين سنقر الأشقر (٤) .

(١) ابن شاكر الكنتي : عيون التواريخ ج ٢ ورقة ٢٣٠ — ٢٣١ .

(٢) النويري : نهاية الأرب ؛ ج ٢٩ ورقة ١٧٠ ١

(٣) مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد ج ٢ ص ٣٢٢ .

(٤) النويري : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٧٨ ب

والملاحظ أنه لم تحدث اضطرابات في الشام عقب وفاة السلطان قلاون وقيام ابنه الأشرف خليل في السلطنة سنة ١٢٩٠ ، أو عقب مقتل الأشرف خليل وقيام أخيه الناصر محمد بن قلاون في السلطنة سنة ١٢٩٣ . وفي الفترة المضطربة التي أعقبت وفاة المنصور قلاون وامتدت حتى قيام الناصر محمد في السلطنة للمرة الثالثة سنة ١٣٠٩ ، شهدت بلاد الشام بعض الأحداث . من ذلك أن السلطان كتبغا الذي اغتصب السلطنة سنة ١٢٩٤ زار بلاد الشام حيث عزل الأمير عز الدين أيبك الحموي نائب دمشق وعين بدله الأمير سيف الدين أغرلو المعادلي . ولم يكف السلطان كتبغا يعود إلى مصر حتى عزله حسام الدين لاجين وولى السلطنة بدله سنة ١٢٩٦ ، وعندئذ هرب كتبغا إلى دمشق<sup>(١)</sup> .

وقد لجأ السلطان المنصور لاجين إلى تعيين الأمير سيف الدين قبجق نائبا بالشام، كما أرسل السلطان السابق الناصر محمد بن قلاون إلى السكرك ليأمن خطره<sup>(٢)</sup> . غير أن السلطان لاجين أوغر صدور أمراء مصر والشام عليه بسبب سياسته، فخرج عليه الأمير قفجق بالشام ( قبجق ) ، ثم رحل قفجق إلى بلاد التتار حيث رحب بهم غازان محمود<sup>(٣)</sup> .

ولم يلبث أن عاد السلطان الناصر محمد إلى عرشه سنة ١٢٩٨ ليضيق عليه الأميران بيبرس الجاشنكير وسلار، الأمر الذي جعل الناصر محمد يتظاهر بالخروج إلى الحجاز ، حتى إذا بلغ السكرك أعلن تنازله عن السلطنة . وإزاء إصرار الناصر محمد على رغبته ، اختار الأمراء بيبرس الجاشنكير سلطانا سنة ١٣٠٨ . غير أن أمراء الشام لم يرضوا جميعا بحكم السلطان الجديد ، فأقسم بعضهم يمين الولاء

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ٨ س ٦٣ ، ٦٤ .  
المقريزي : السلوك ج ١ س ٨١٩ — ٨٢٢ .  
(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٣١٥ .  
(٣) محمد جمال الدين شرور : دولة بني قلاون في مصر ص ٤٠ .

لبيرس الجاشنكير ، في حين راسل البعض الآخر الناصر محمد وأفهموه أنهم على ولائهم له .

وزاد الموقف في بلاد الشام تعقيدا ، أن بيرس الجاشنكير أخذ يضيق الخناق على الناصر محمد بالكرك ؛ الأمر الذي جعل الأخير يكتب إلى نواب الشام يذكّرهم بأنهم مماليك أبيه وأنه طالما أحسن إليهم ، فلا أقل من أن يساعده في استعادة عرشه وإلا فإنه سيلجأ إلى التتار ويطلب مساعدتهم . وبفضل مساعدة أمراء الشام تمكن الناصر محمد من العمل لاستعادة عرشه ، فسار إلى دمشق حيث استقبله أهلها استقبالا طيبا ، وأقيمت له الخطبة وقدم له أمراء الشام فروض الولاء<sup>(١)</sup> . وبعد ذلك عاد الناصر محمد إلى مصر حيث اعتلى دست السلطنة للمرة الثالثة سنة ١٣٠٩ .

وكان أن عين الناصر محمد الأمير قراسنقر المنصوري نيابة السلطنة بالشام ، فأغضب ذلك المماليك الأشرفية لاتهمهم الأمير قراسنقر هذا بالمشاركة في قتل السلطان الأشرف خليل . وقد أحس الأمير قراسنقر بأن المماليك الأشرفية يوغرون صدر السلطان الناصر ضده ، فاتفق مع بعض أمراء الشام - مثل الأمير أقوش الأفرم نائب طرابلس - إلى بلاد التتار ، حيث رحب بهم أوجاتيو إياخان التتار في فارس<sup>(٢)</sup> .

ولم يلبث أن عين السلطان الناصر الأمير تنكز الحسامي الناصري نيابة الشام سنة ١٣١٢ ، ثم ولاء جميع بلاد الشام وكتب إلى كل من نائب حماه وحمص وطرابلس وصفد بالرجوع إليه . ولم يلبث أن ازداد نفوذ تنكز في الدولة ، وبخاصة بعد أن ارتبط مع السلطان الناصر محمد برباط المصاهرة ؛ ويروي أبو المحاسن أن

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٦٠ - ٢٦٥ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٣١ - ٣٢ .

تنكز طلب من السلطان عزل يابغا نائب حلب فعزله على الفور<sup>(١)</sup> . غير أن  
الناصر محمد لم يلبث أن أوجس خيفة من ازدياد نفوذ تنكز ، فحقد عليه وعزله  
وتخاص منه وأحل محله في نيابة الشام الأمير الطنبغا الصالحى<sup>(٢)</sup> .

وإذا كانت سلطنة الناصر محمد الثالثة قد امتازت بطول المدة الزمنية  
( ١٣٠٩ - ١٣٤١ ) والاستقرار النسبى في أوضاع الدولة الداخلية ، فإن عصر  
أولاد الناصر محمد وأحفاده شهد كثيرا من التقلبات والفتن في مصر والشام جميعاً .  
من ذلك أنه حدث في عهد الملك الصالح صلاح الدين ( ١٣٥١ - ١٣٥٤ ) ، أن  
خرج عن طاعته معظم نواب الشام مثل نائب حلب ونائب طرابلس ونائب حماه  
ونائب صند . وبذلك لم يبق على طاعة السلطان سوى أرغون الكاملى نائب  
دمشق الذى اضطر إلى الهرب إلى غزة ، فاستولى يديغا أرس نائب حلب على  
دمشق ، حتى نجح السلطان في القضاء على الفتنة<sup>(٣)</sup> .

وفي عهد المنصور صلاح الدين محمد بن حاجى ( ١٣٦١ - ١٣٦٣ ) أعلن  
الأمير بيدمر الخوارزمى نائب دمشق العصيان وملك قلعة دمشق وقتل نائب  
القلعة ، وشاركه في حركته جماعة من نواب الشام ؛ فخرج السلطان إلى الشام سنة  
١٣٦١ وقبض على بيدمر وأرسله مقيدا إلى الإسكندرية وعين اثنين من أمرائه  
نوابا على دمشق وحلب ثم رجع إلى القاهرة<sup>(٤)</sup> .

وفي عهد المنصور على بن الأشرف شعبان ( ١٣٧٦ - ١٣٨١ ) خرج الأمير  
بيدمر نائب دمشق عن الطاعة مرة أخرى ولكن نائب قلعه دمشق تمكن  
من القبض عليه<sup>(٥)</sup> .

(١) المرجع السابق ج ٩ ص ١٢٩ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ١٤٥ - ١٤٧ .

(٣) المرجع السابق ج ١٠ ص ٢٧١ - ٢٧٧ .

(٤) ابن لياس : بدائم الزهور ج ١ ص ٣١١ ( بولاق ) .

(٥) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ ص ٥١٣ - ٥١٤ .

وقد استمرت بلاد الشام في عصر دولة المماليك الجراكسة مسرحا لكثير من الثورات والحركات التي قام بها بعض الأمراء ضد السلطنة . ففي الأحداث التي أدت إلى انتقال الحكم من المماليك الترك إلى المماليك الجراكسة ، لسمع كيف ثار الأمير طشتمر الدوادار نائب دمشق الذي سبق لليلبغاوية إبعاده إليها ، وإن كانت الأمور قد هدأت بسرعة في الشام سنة ١٣٧٧ . وفي النزاع الذي دب سنة ١٣٧٧ بين الأميرين برقوق وبركة من ناحية وطشتمر من ناحية أخرى ، لجأ برقوق وبركة إلى العمل على إضعاف شأن طشتمر بنقل أنصاره إلى وظائف النيابة بالشام .

ثم كان نجاح برقوق في القضاء على سلطنة الترك وإقامة دعائم دولة المماليك البرجية سنة ١٣٨٢ ، ليجعل بلاد الشام مسرحا جديداً للنزاع بين الترك والجراكسة ، إذ ثار الطنبغا التركي نائب أبلستين ضد برقوق سنة ١٣٨٢ ، وإن كان نواب الشام لم يؤيدوه في ثورته مما اضطره إلى الفرار إلى بلاد التتار<sup>(١)</sup> . ويفهم من المراجع أن الأمير يلبغا الناصري نائب حلب وقف موقفا عدائيا من برقوق ، فحرص على الاحتفاظ بصداقة سنولي بن دانادر التركماني — وهو أحد أعداء دولة البرجية — مما جعل برقوق يعزل يلبغا نائب حلب سنة ١٣٨٥<sup>(٢)</sup> . غير أن برقوق لم يكف يفرغ من أمر يلبغا حتى سمع بمؤامرة جديدة في دمشق سنة ١٣٨٦<sup>(٣)</sup> . وفي الوقت نفسه أخذ منطاش نائب ملطية يجمع عناصر المقاومة ضد برقوق ، الأمر الذي جعل الأخير يعيد يلبغا الناصري إلى نيابة حلب ليتخذها أداة في محاربة منطاش . على أن يلبغا الناصري لم يقف موقفا حاسما من منطاش ، الأمر الذي دعم نفوذ الأخير وزاد من خطورة حركته<sup>(٤)</sup> .

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ١١ ص ٢٢٩ .

(٢) ابن حجر : إنباء الفرج ج ١ ص ٢٢٤ — ٢٢٥ .

(٣) المقرئ : السلوك ج ٣ ورقة ٤٧٠ .

(٤) العيني : عقد الجمان ج ٢٤ ق ٢ ورقة ٣٢٨ .



ولم يلبث الأمير يلبغا الناصري أن أعلن ثورته علنا على السلطان في حلب ، فاستمال منطاش إليه ، وسيطر على شمال الشام . وفي ذلك الوقت جاءت الأخبار إلى السلطان برقوق من دمشق بأن بعض الأمراء الترك في الشام هاجموا طرابلس وقتلوا من فيها من أمراء موالين لبرقوق<sup>(١)</sup> . وهكذا لم تكد تنتهي سنة ١٣٨٩ حتى كانت معظم مدن الشام - فيما عدا دمشق وبعليك والكرك - قد دخلت في طاعة يلبغا الناصري . وقد بادر السلطان برقوق بإرسال جيش إلى دمشق لمحاربة يلبغا الناصري ، ولكن الهزيمة حلت بجيش السلطان قرب دمشق ، مما مكن يلبغا الناصري من دخول دمشق والاستيلاء على قلعتها<sup>(٢)</sup>

وهكذا غدت بلاد الشام في ذلك الدور مسرحا لنزاع مرير ، هو في حقيقة أمره صراع بين المماليك الترك والمماليك الجراكسة حول السلطنة . أما يلبغا الناصري ، فإنه لم يضع الوقت ، وإنما زحف إلى غزة ومنها دخل أرض مصر إلى الصالحية ، الأمر الذي جعل برقوق مضطرا إلى التنازل عن السلطنة ؛ فنفى إلى الكرك سنة ١٣٨٩<sup>(٣)</sup> .

غير أن برقوق استغل وجوده في بلاد الشام ليجمع الأنصار ، في الوقت الذي اشتد النزاع في مصر بين يلبغا الناصري ومنطاش . ولم يلبث أن خرج برقوق من الكرك إلى دمشق . وقوى مركز برقوق في حصاره لدمشق انضم الأمير كشيغا الحموي نائب حلب إليه ، الأمر الذي جعل برقوق يطمئن إلى جبهته الشمالية ، ويترك حصار دمشق ليتفرغ لمواجهة الجيش الكبير الذي خرج من مصر بقيادة منطاش لمحاربتة . وفي المعركة التي دارت بين الطرفين سنة ١٣٩٠

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٥٩ .

(٢) ابن خلدون : المعبر ج ٥ ص ٤٢٥ .

(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٤٤١ .

تغلب برقوق وإن لم يستطع دخول دمشق ، فزحف على مصر ليدخل القاهرة ويسترد عرشه<sup>(١)</sup> . وسرعان ما استطاع برقوق بعد ذلك توطيد نفوذه بالشام ، وإن كان ذلك لم يتم إلا بعد أن غدت بلاد الشام مسرحاً لصراع مرير بين بليغا الناصري ومنطاش سنة ١٣٩١ ، مما أثر تأثيراً سيئاً في أوضاعها الاقتصادية<sup>(٢)</sup> .

وإذا كانت الأمور قد استقرت نسبياً في بلاد الشام في أواخر عهد برقوق ، فإن ثورة الأمراء لم تلبث أن تجددت بعد وفاته . من ذلك ما سمعه عن ثورة الأمير تم نائب الشام في عهد السلطان فرج بن برقوق سنة ١٤٠٠ ؛ وانضم إليه في ثورته نواب صند وطرابلس وحماه وحلب<sup>(٣)</sup> . وقد استطاع السلطان إخماد هذه الثورة ؛ ولكن ذلك الانتصار لم يكن معناه استقرار الأمور في بلاد الشام ، إذ حدث بعد قليل أن تعرضت بلاد الشام لغزو التتار بزعامة تيمورلنك ، الذي أباد جيش المماليك عند حلب سنة ١٤٠٠ واستولى على حلب ، ثم أنزل الهزيمة بالسلطان فرج عند دمشق في أواخر سنة ١٤٠٠ ودخل دمشق نفسها<sup>(٤)</sup> . والمعروف أن تيمورلنك جمع مهرة صناع وأرباب الحرف في الشام ورحلهم إلى سمرقند ، مما أضر بحضارة الشام ضرراً بليغاً .

واستمرت أحوال بلاد الشام في اضطراب بعد الصلح مع تيمورلنك والمماليك ، إذ ثار نائب غزة ونائب طرابلس ضد السلطان فرج سنة ١٤٠٥ . وفي عهد السلطنة الثانية للسلطان فرج ثار نائب حلب الأمير جكم سنة ١٤٠٧ وأعلن سلطنته وتلقب بالملك العادل ، وضرب السكة باسمه ولم يكده يقتل جكم بعد

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٣٧٨ — ٣٧٩ . ٤ .

المقريزي : السلوك ج ٣ ص ٦٣٤ — ٦٣٥ .

(٢) المقريزي : السلوك ج ٣ ص ٦٦٦ وما بعدها .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٣١٩ — ٣٢٤ ( بولات )

(٤) ابن عربشاه : عجائب المقدور في أخبار تيمور ص ٩٨ وما بعدها

شهرين حتى انضم بوروز نائب الشام إلى شيخ نأب طرابلس واستبدا ببلاد الشام ، بل لقد زحفوا على مصر سنة ١٤٠٨ . وقد حلت الهزيمة بالسلطان فرج قرب دمشق سنة ١٤١٢ ، ثم قبض عليه وقتل بعد قليل<sup>(١)</sup> .

وهكذا ظلت بلاد الشام مسرحا لكثير من الفتن والمؤامرات والثورات لموال عصر المماليك . وقد درس الأستاذ جاستون فييت تراجم أربعة وسبعين نائباً لنيابة دمشق في عصر المماليك ، فتبين له أن تسعة وعشرين منهم خرجوا على السلطنة وأعلنوا الثورة ، واستطاع اثنان منهم — هالاجين وشيخ — أن يصلوا إلى السلطنة ؛ وتمكن اثنان من الهرب إلى خارج الدولة ، وحصل خمسة على عفو السلاطين ، وسجن خمسة ثم أفرج عنهم ، في حين أعدم خمسة عشر<sup>(٢)</sup> . هذا في دمشق فقط . وهي إحدى نيابات الشام !

### أثر نيابات الشام في أموال دولة المماليك :

أما عن نصيب نواب الشام في سياسة دولة المماليك العامة ، فيلاحظ أنهم كانوا قوة يخشاها السلاطين في مصر ؛ حتى أن كل سلطان جديد من سلاطين المماليك كان عليه أن يفكر في مدى إخلاص نواب الشام له . ولعل هذا هو السر فيما لجأ إليه سلاطين المماليك من كثرة تغيير نواب الشام بين حين وآخر وبخاصة في أوائل حكم كل سلطان .

ولا أدل على قوة نواب الشام ومدى إدراك سلاطين المماليك لخطورتهم ، من أن السلطان بيبرس الجاشنكير لم يتمالك نفسه من الفرع عندما حلف له نواب الشام عقب توليته السلطنة سنة ١٣٠٨ وقال ، « الآن تم لي الملك ا »<sup>(٣)</sup>

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ، ص ٣٥٣ — ٣٥٥ .

(2) Hauteceour et Wiet : Les Mosquées du Caire p. 56.

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٤٢ .

ثم إن كل سلطان جديد من سلاطين المماليك كان يحرص بمجرد اعتلائه دست السلطنة ، على أن يرسل خبر سلطنته إلى الشام ليطمئن إلى أن نواب الشام وأمرائها جميعا يؤيدونه .

وهناك أربع حالات في دولة المماليك الترك اشترك فيها أمراء الشام مع بعض أمراء مصر في خلع أربعة سلاطين وتولية غيرهم من الأمراء الموالين لهم . وأول هؤلاء السلاطين هو بركة خان بن بيبرس ، وسبب خلعهم قيام خلاف بينه وبين أمراء الشام ومصر . ويقال إن بركة خان كان بالشام سنة ١٢٧٨ عندما علم بمؤامرة أمراء الشام ضده ، فأرسل إليهم ملتصقا منهم العفو متلطفًا إليهم بأنواع الخضوع<sup>(١)</sup> . ولكن الأمراء لم يهتموا بكلامه وساروا إلى مصر ليعملوا على خلعهم ، وعندئذ رحل بركة خان عن دمشق قاصدا مصر حيث حاصره الأمراء حتى اضطرروه إلى التنازل عن السلطنة . ويقول النويري إن بركة خان أرسل إلى الأمراء أثناء الحصار « وسألهم أن يكون الشام بكامله لهم ، فأبوا ذلك إلا أن يخلع نفسه »<sup>(٢)</sup> .

أما السلطان الثاني الذي خلع عن السلطنة عندما غضب عليه أمراء الشام فهو كنعبا ( ١٢٩٤ — ١٢٩٦ ) ، الذي استثار أمراء الشام عندما عزل الأمير أيبك الحموي نائب دمشق وعين بدله مملوكه أغرلو العادلي ، فضلا عن أنه لم يمنح أمراء الشام الإقطاعات والمهدايا عند زيارته الشام لأول مرة ، كما جرت بذلك عادة السلاطين في عصر المماليك<sup>(٣)</sup> .

وأما السلطان الثالث الذي خلع عن السلطنة بسبب غضب أمراء الشام عليه ، فهو بيبرس الجاشنكير ( ١٣٠٨ — ١٣٠٩ ) الذي لم يرض عنه نواب

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ورقة ٦٨ ( مطبوع )

(٢) النويري نهاية الأرب ج ٢٨ ورقة ٢٦ . ١

(٣) تاريخ ابن الوردي ج ٣ ص ٢٤٠ .

الشام وكاتبوا الناصر محمد في السكرك يخبرونه بتأييدهم له حتى يسترد ملكه<sup>(١)</sup> .  
وكان أن خرج الناصر محمد من السكرك إلى دمشق — كما سبق أن ذكرنا —  
« فخرجت عساكر دمشق إلى طاعته وتلقوه » ؛ وبفضل هذه المعونة تمكن  
الناصر محمد من استعادة عرشه سنة ١٣٠٩<sup>(٢)</sup> .

وأخيرا فإن السلطان الرابع الذي خلع بسبب قيام أمراء الشام ضده هو  
علاء الدين كجك بن الناصر محمد سنة ١٣٤١ ؛ وقد تسلطن بعده أخوه أحمد<sup>(٣)</sup> .

ومهما يكن من أمر ، فإن قيام بعض الحركات في الشام لمساندة سلطان  
أو عزل آخر لا ينبغي أن تجعلنا ننسى إطلاقا المساعدات القيمة التي أمدت بها  
نيابات الشام مصر في أوقات الحرج أثناء حروبها الطويلة ضد الصليبيين والتتار .  
ولا شك في أن الملاحظة الهامة التي يخرج بها الدارس لتاريخ عصر سلاطين  
المماليك في مصر والشام هي أن أمراء المماليك — في مصر والشام — كانوا غالبا  
ما يتناسون ما بينهم من خلافات لمواجهة الأخطار الخارجية ؛ وأن وحدة مصر  
والشام كانت ضرورة حتمية لمواجهة خطر الأعداء الذين هددوا كيان العروبة في  
الشرق الأدنى في ذلك العصر .

---

(١) أبوالمحسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٤١ .  
(٢) أبو الندا : المختصر في أخبار البصر ج ٤ ص ٥٦ — ٥٨ .  
(٣) أبوالمحسن : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٢١ وما بعدها .

## الفصل التاسع

### العلاقات الخارجية

استطاعت دولة المماليك التي قامت في مصر والشام سنة ١٢٥٠ أن تثبت أنها أعظم قوة ممارسة في الوطن العربي من المحيط إلى الخليج؛ فنظر إليها حكام وشعوب الدول الإسلامية والعربية نظرة إكبار وإجلال؛ في حين نظرت إليها القوى الأخرى - خارج المحيطين العربي والإسلامي - نظرة خوف واحترام. وحسب دولة المماليك أنها استطاعت أن تواجه الأخطار الخارجية التي هددت الوطن العربي في الشرق الأدنى في شجاعة وبأس، فحمت الشام ومصر من خطر التتار، وطردت الصليبيين كلية من أرض الشام، بل لاحقهم في مراكزهم القريبة مثل أرمينية الصغرى وقبرس ورودمس. هذا فضلا عن أن نجاح سلاطين المماليك في إحياء الخلافة العباسية في مصر - بعد سقوطها في بغداد - جعل لهم ولدوتهم مكانة مرموقة في العالم الإسلامي أجمع، إذ جعلهم يبدون في صورة الزعماء الحقيقيين للعالم الإسلامي أجمع بوصفهم حماة الخلافة المتمتعين ببيعتهما.

وهكذا غدت القاهرة في عصر سلاطين المماليك قبلة الأصدقاء والأعداء جميعا؛ الأصدقاء يطلبون تأييدها وينشدون مساعدتها، والأعداء يبغون ملاطفتها ومسالمتها، أو مهادنتها اتقاء لبطشها. وبين هذا وذاك من التيارات السياسية ظهر تيار التجارة والمال أشد ما يكون قوة وانطلاقا في ذلك العصر، ليجعل التجار والسفراء يترددون على مصر بين فينة وأخرى، يبغون عقد اتفاقية تجارية أو إلغاء مكس أو تخفيف ضريبة. وبذلك شهدت القاهرة نشاطا دبلوماسيا ضخما في عصر المماليك، وصارت مركزا لشبكة واسعة من العلاقات

الخارجية مع الدول الصديقة وغير الصديقة ، بحيث أننا لا نبالغ إذا قلنا إن ديوان الإنشاء في عصر الماليك غدا يمثل أضخم وزارة خارجية شهدها العالم أجمع في ذلك العصر . ولا أقل من تتبع هذا النشاط بإلقاء نظرة سريعة على العلاقات بين سلطنة الماليك في مصر والشام من ناحية وأهم الدول التي ربطتها بهن العلاقات دبلوماسية من ناحية أخرى<sup>(١)</sup> .

### الماليك ومغول القفجاق :

عندما قسم جنكزخان دولته الواسعة بين أبنائه الأربعة كانت الأجزاء الواقعة قرب بحر قزوين وفي حوض نهر الفولجا من نصيب جوجى ابن جنكزخان ، فأقام هناك دولة عرفت باسم دولة مغول القفجاق أو القبيلة الذهبية نسبة إلى اللون الذهبي الذي اشتهرت به مخيماتها . ولم يلبث الإسلام أن انتشر بين ذلك الفرع من التتار ، وذلك بعد أن اعتنق رئيسهم بركة خان الإسلام ؛ الأمر الذي ترتب عليه ازدياد أواصر التقارب والصداقة بين مغول القفجاق والقوى الإسلامية المجاورة وبخاصة دولة الماليك من ناحية ؛ وازدياد العداء والتنافس بين مغول القفجاق وبقية طوائف المغول الوثنيين وبخاصة مغول فارس من ناحية أخرى . وفي موجة العداء بين سلطنة الماليك في مصر وتتار فارس ، كان طبيعياً أن يزداد التقارب بين الماليك وتتار القفجاق المسلمين من ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس لم يكفد يعلم بإسلام بركة خان حتى كتب إليه « يغريه بقتال هولاء كوا ويرغبه في ذلك »<sup>(٢)</sup> . ثم إن الظاهر بيبرس أخذ يكرم وفود المغول الوافدين على

(١) استبعدنا من هذه الدراسة الدول التي لم تربطها بدولة الماليك سوى علاقات حربية واضحة مثل مغول فارس وأرمينية الصغرى وقبرس ورودس وغيرها ؛ وقد سبق الكلام عما كان بين دولة الماليك وتلك الدول من علاقات يغلب عليها الطابع الحربي .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٦٥ .

ببلاده من القبيلة الذهبية ، وكان بعض هؤلاء خاضعين لهولا كوففروا إلى الشام عندما لمسوا العداء المستحكم بين زعيمهم بركة خان وحاكمهم هولا كوففروا<sup>(١)</sup> .

ولم يلبث أن وفد على مصر سنة ١٢٦٣ رسل بركة خان يحملون رسالة للسلطان بيبرس جاء فيها « فليعلم السلطان أنني حاربت ( هولا كوف ) الذي من لي ودمي لإعلاء كلمة الله العليا تعصبا لدين الإسلام لأنه باغي والباغي كافر بالله ورسوله<sup>(٢)</sup> ... » وكان أن رد الظاهر بيبرس على بركة خان برسالة طويلة جمع فيها « من الترغيب والاستمالة والإغراء على هولا كوف وإظهار الميل إليه... »<sup>(٣)</sup> . ولم يكتب بيبرس بتلك الرسالة ، وإنما أمر بالدعاء لبركة خان - بعد الدعاء للسلطان على منابر مكة والمدينة والقدس والقاهرة ، كما أرسل صحيفة الرسل هدية ثمينة للملك بركة ، من جملتها فيل وزرافة . ويقال إن رسل بيبرس قوبلوا بالحقاوة البالغة في بلاد بركة خان ، وحكوا عند عودتهم إلى مصر أن لسكل أمير وأميرة في بلاط بركة خان إماما ومؤذنا خاصا ، وأن الأطفال كانوا يحفظون القرآن في المدارس<sup>(٤)</sup> .

- (١) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ٢٥٩ .  
المقريزي : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ١١٧ - ١١٨ .  
(٢) العيني : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٤٩٤ .  
(٣) ابن واصل . مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٢٢ ( مخطوط ) .  
(٤) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٦٠ .  
ويلاحظ أن بعض الكتاب ذكروا أن الظاهر بيبرس تزوج من ابنة بركة خان ملك الفجاق ( انظر مثلا جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس في مصر ، ص ١٠٦ ) ؛ وأخذوا هذا الرأي عن :

Lane—Poole : op. cit., p. 266.

ولسكن هذا الرأي يبدو لنا خاطئا ، إذ لا يوجد في المراجع المعاصرة أدنى إشارة إلى ارتباط الظاهر بيبرس بملك الفجاق بركة خان بصلة المصاهرة . وربما كان سبب ذلك الخطأ الذي وقع فيه لين بول ومن أخذ عنه ، أن المراجع عندما ذكرت زوجات الظاهر بيبرس قالت إن أولى زوجاته هي ابنة حسام الدين بركة خان التتري وأنها كانت خوند الكبرى في حريم بيبرس وأم ولده وولي عهده السعيد بركة خان . ولسكن الأمير حسام الدين بركة خان غير بركة خان ملك



ومهما يكن من أمر ، فإن العلاقة بين الظاهر بيبرس في مصر وبركة خان ملك مغول القفجاق لم تكن مجرد علاقة شخصية بين رجلين وإنما كانت علاقة بين دولتين ربطت بينهما روابط روحية قوية وأحستنا. بخطر واحد مشترك هو خطر مغول فارس . وهكذا لم تؤد وفاة بركة خان سنة ١٣٦٧ ، إلى انقطاع صلوات الود بين مغول القفجاق ودولة المماليك ، إذ تبودلت السفارات والكتب بين بيبرس ومنكوتر — خليفة بركة خان — بقصد توجيه القوى ضد مغول فارس وزعيمهم أبغا<sup>(١)</sup> . واستمرت هذه السياسة نافذة بعد بيبرس ، إذ حدث سنة ١٣٠٤ أن أرسل طقطاي ملك القفجاق سفارة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون تحمل هدية ورسالة خلاصتها استعداد له لمشاركته في محاربة غازان ايلخان مغول فارس ؛ فأجابه الناصر محمد بأن الله قد كفاهم شر غازان وأن أخاه أوجلاتيورضى بالصلح<sup>(٢)</sup> .

وقد أراد السلطان الناصر محمد بن قلاوون أن يدعم الصلات بين دولتي المماليك والقفجاق ، فواصل إرسال الرسل والهدايا إلى أزبك خان ؛ بل لقد أرسل سفارة سنة ١٣١٦ إلى أزبك خان ليطلب الزواج من « بعض الجهات الجنكزية » أي أميرة من بيت جنكزخان ، وذلك توثيقاً لصلوات الود بين سلطنة المماليك ومغول القفجاق . ولكن يقال إن رجال أزبك خان تمنعوا في أول الأمر ، واشتطوا « في طلب المهر وطول المدة وكثرة الشروط<sup>(٣)</sup> » ؛ الأمر الذي جعل السلطان الناصر محمد يعدل مؤقتاً عن ذلك المشروع حتى عاد أزبك خان إلى

== القفجاق ، ولا يبدو الأمر مجرد تشابه في الاسم أوجد ذلك الخاط ( المقريزي : السلوك ج ١ ص ٦٤٠ — ٦٤٤ ) .

(١) العيني : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٣٥٧ .

(٢) المقريزي : السلوك ؛ ج ٢ ص ٧٧ .

محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر ص ٢١٨ .

(٣) النويري نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ١٣٧ .

المقريزي : السلوك ؛ ج ٢ ص ٢٠٤ .

تلبية رغبة السلطان الناصر فقال « قد جهزت لأخي السلطان الملك الناصر ما كان قد طلب وعينت له ابنة من البيت الجنكزخاني ». وفي سنة ١٣٢٠ وصلت الأميرة التتارية واسمها دلنبية — ويقال طولونية — إلى الإسكندرية عن طريق البحر فاستقبلت أحسن استقبال ، ودخل بها السلطان الناصر بعد أيام (١) .

وهكذا استمرت العلاقات أقوى ما تكون صفاء بين سلطنة المماليك في مصر ودولة مغول القفجاق . ويفهم مما ذكره القلقشندي أن المراسلات استمرت بين السلطان الحسن ابن الناصر محمد وجاني بك ابن أزيك ، وأن جاني بك كان يخاطب في رسائل المماليك بعبارات التشريف والتقدير والمبالغة في الاحترام (٢) . ويبدو أن انحلال إيلخانية مغول فارس بعد ذلك قلل من احساس كل من مغول القفجاق والمماليك في مصر والشام بذلك الخطر المشترك . هذا إلى أن دولة مغول القفجاق نفسها أخذت في الانحلال والضعف البطيء ، في الوقت الذي شغلت سلطنة المماليك بأعداء جدد مما أضعف صلاتها مع مغول القفجاق .

### المماليك والدول الإسلامية في آسيا :

حرصت مصر في عصر المماليك على بسط نفوذها السياسي والديني على الحجاز ، أسوة بما كان عليه الوضع منذ أيام الطولونيين . وكان شرفاً عظيماً ودعامة كبرى لكل حاكم مسلم أن يظهر أمام المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها في صورة حامى الحرمين والمدافع عن الحجاز وأرضه الطيبة . ومنذ قيام سلطنة المماليك في مصر ، وسلاطين المماليك يبدون اهتماماً خاصاً بالحجاز وعناية كبرى بشئونه . ولم يقتصر ذلك الاهتمام وتلك العناية على رعاية الحرم النبوي وإرسال

(١) الفريزي : السلوك ج ٢ ص ٣٠٤ — ٢٠٥ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٧ ص ٢٩٠ — ٢٩٦ .

الكسوة إلى الحجاز<sup>(١)</sup>؛ وإنما امتدت تلك العناية إلى بسط نفوذ المماليك السياسي على الحجاز . ومن ذلك ما يقال من أن السلطان الظاهر بيبرس إنما قصد بإحياء الخلافة العباسية في مصر ، أن يستغل هذه القوة الجديدة في بسط سيادته على الحجاز مثلما كان الحال أيام الأيوبيين<sup>(٢)</sup> .

والواقع إن الخلافات بين أشرف الحجاز هي التي أتاحت فرصة طيبة لسلطين المماليك لتحقيق أغراضهم . ذلك أنه حدث سنة ١٢٦٦ . أن قدم إلى مصر الشريف بدر الدين مالك بن منيف بن شيحة ليشكو إلى السلطان بيبرس من أن الشريف جواز أمير المدينة حرمه من المشاركة في الإمرة التي كانت مناصفة بين أبيه ووالد جواز . وهكذا وجد السلطان فرصة طيبة للتدخل ، فكتب إلى جواز يطلب منه تسليم بدر الدين نصف الإمرة ، وتسلم الشريف بدر الدين تقليداً بذلك من بيبرس ، « فامتثل جواز » .

ثم حدث سنة ١٢٦٨ أن وقع خلاف في مكة بين الشريف نجم الدين أبي نجي و بين عمه وشريكه في إمارة مكة الشريف بهاء الدين إدريس . وقد انتهز السلطان بيبرس تلك الفرصة لتسوية النزاع بينهما وتأكيده سلطانه عليهما جميعا ، فرتب السلطان لهما عشرين ألف درهم كل سنة كشرط ألا يجتمعوا من أحد مكوسا وألا يمنع أحد من زيارة البيت والأيتعرض لتاجر . وأهم من هذا كله ، فإن السلطان بيبرس اشترط على أميرى مكة أن يخطب باسمه في الحرم والمشاعر ، وأن تضرب السكة باسمه ، مما يضمن له سيادة سياسية فعلية على الحجاز . وبعد أن وافق أميرا مكة على كل ذلك ، كتب لهما بيبرس تقليداً بالإمارة وسلحت لنوابهما أوقاف الحرم التي بمصر والشام<sup>(٣)</sup> .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٤٥ .

(2) Van Berchem ; Titres Califiens pp. 286—292.

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥٦٠ ، ٥٧٩ .

ولم يبق بعد ذلك أمام بيبرس سوى أن يذهب بنفسه إلى الحجاز لتأكيد سلطانه على تلك البلاد من ناحية ولتأدية فريضة الحج من ناحية أخرى . وكان أن نفذ بيبرس عزمه سنة ١٢٦٩ ( ٦٦٧ هـ ) فزار المدينة ، وغسل الكعبة بيديه . وانهز تلك الفرصة ليعين أحد أمرائه — وهو الأمير شمس الدين مروان — نائبا عنه في مكة « ليكون الحل والعقد على يديه »<sup>(١)</sup> . على أنه يتضح من خلال أحداث زيارة بيبرس للحجاز أن العلاقة بينه وبين أشرف الحجاز لم تكن على ما يرام ، بدليل أن أميرى المدينة جواز ومالك رفضا مقابلة السلطان بيبرس « وفرا منه » ؛ مما يشهد على أن أمراء الحجاز أحسوا بثقل وطأة حكم بيبرس عليهم<sup>(٢)</sup> .

ولم تستقر الأوضاع لدولة المماليك في الحجاز بعد عهد بيبرس ، إذ استمرت الخلافات بين الأشرف في مكة والمدينة تثير مشاكل عديدة في وجه دولة المماليك . من ذلك ما حدث في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون من استنجاد الشريف منصور ضد ابن أخيه ماجد بن مقبل الذي انتزع منه إمارة المدينة ؛ فأرسل السلطان الناصر محمد بعضا من جنده لمعاونة الشريف منصور<sup>(٣)</sup> .

أما في مكة فقد علت الشكوى من الأخوين حميضة وأسد الدين رميثة ، مما جعل السلطان الناصر محمد يرسل حملة سنة ١٣١٤ لإحلال أخيهما أبي الفيث محلها في الحكم<sup>(٤)</sup> . ولم يكتف أمراء مكة بالاستعانة بسلطنة المماليك في مصر لفض ما بينهم من منازعات ، بل بلغ الأمر ببعضهم أن فر إلى أوجاتيو إيلخان

(١) العيني : عقد الجمان ج ٢٠ مجلد ٣ ورقة ٥٥١ ( مخطوط ) ٩

التويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ص ٥١ — ٥٢ ( مخطوط ) .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥٨٠ — ٥٨٢ .

(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر ص ١١٨ .

(٤) أبو الفدا : المختصر ج ٤ ص ٧٢ .

المغول في فارس لطالب النجدة منه<sup>(١)</sup> . وهكذا ظلت مكة مسرحاً لمنازعات عديدة الأمر الذي جعل سلاطين المماليك يرسلون بين حين وآخر بعض القوات إلى هناك لإقرار الأمور أو لمناصرة أمير على آخر . هذا إلى أن سلاطين المماليك كثيراً ما قصدوا الحجاز لأداء فريضة الحج ، وعندئذ كانوا يفتنمون فرصة وجودهم هناك لبحث المشاكل التي يعاني منها أهل الحرمين ، وتوزيع القمح والغلال على المحتاجين ، فضلاً عن إقرار الأمن والنظام بالأراضي المقدسة<sup>(٢)</sup> .

أما بلاد اليمن فقد ارتبطت بحكامها من بني رسول بعلاقات الود مع سلاطين المماليك في مصر . ويفهم من المراجع أن عدة سفارات أتت من اليمن تحمل الهدايا إلى السلطان الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٨ ، ١٢٧٠ ، ١٢٧٥ (٦٦٦ هـ ، ٦٦٩ هـ ، ٦٧٤ هـ) ومن هذه الهدايا التحف والفيالة والحيوانات والطيور . وكان السلطان الظاهر بيبرس بحسن استقبال تلك السفارات ويرد على تلك الهدايا بأحسن منها<sup>(٣)</sup> .

ويبدو أن ملوك اليمن من بني رسول كانوا يخشون سطوة سلاطين المماليك في مصر ، لأنه كان من المفروض أن تظل بلاد اليمن تابعة لمصر منذ أن فتحها تورانشاه أخو صلاح الدين الأيوبي سنة ١١٧٣ . هذا إلى أن قيام الخلافة العباسية في مصر جعل لسلاطين المماليك نوعاً من الولاية على بقية ملوك العالم الإسلامي ، وبخاصة البلاد التي ورد ذكرها في التقليد الذي منحه الخليفة المستنصر بالله العباسي للسلطان الظاهر بيبرس ، وهي « الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكرية والحجازية واليمنية والفراتية » . ولعل هذا هو السر في حرص ملوك بني

---

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٨٩ ع

Howorth : Hist. of the Mongols, III, p. 572.

(٢) المقرئزي : السلوك ج ٢ ص ١٩٧ ، ص ٢٣٨ .

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٥٦٣ ، ٥٩٥ ، ٦٢١ .

رسول باليمن على علاقاتهم الودية مع سلاطين المماليك في مصر ، فأرسل المقنفر شمس الدين على سفارة سنة ١٢٨١ إلى السلطان المنصور قلاوون تحمل هدية قيمة من العنبر والعود والصيني وغيرها . وقد ألح ذلك الوفد في الحصول على أمان من السلطان قلاوون لملك اليمن ، فاجب السلطان رغبتهم وأعطاهم أمانا نص فيه على ألا « تناله منّا مضرّة مدى الدهر وأعمارنا ، مادام ملازما لشروط مودتنا . . . » (٢) .

وفي الوقت نفسه حرص سلاطين المماليك في مصر على إرسال الرسل إلى اليمن ليذيعوا على أهلها ما أحرزه سلاطين مصر من انتصارات باهرة رفعت شأن الإسلام والمسلمين . من ذلك أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون أرسل أحد أمرائه إلى اليمن ليبشر بانتصاره على التتار في موقعة مرج الصفر سنة ١٣٠٢ (١) .

على أنه حدث سنة ١٣٠٣ أن تولى ملك اليمن المؤيد هزير الدين داود ، الذي لم يتبع سياسة أسلافه من ملوك اليمن في التودد إلى سلاطين مصر ، بل على العكس ضايق التجار المصريين وامتنع عن إرسال المال المقرر إلى مصر . لذلك أرسل إليه كل من السلطان الناصر محمد والخليفة المستكفي بالله يذرونه ويهددونه؛ بل لقد أخذ الناصر محمد يعد العدة لإرسال قوة حربية لتأديب صاحب اليمن ، لولا اضطراب الأحوال الداخلية في مصر مما حال دون تنفيذ ذلك المشروع (١) .

على أن الأمور لم تلبث أن انتظمت بين سلطنة المماليك من ناحية وملوك اليمن من ناحية أخرى . ومن الثابت أن المنازعات بين أمراء اليمن بعضهم

(١) بيبس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٢٣ (مخطوط) .

(٢) محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر ص ١٣٠ .

(٣) المقرئزي : السلوك ج ٢ ص ٣٣ — ٣٨ .

وبعض من جهة ، أو بين الأمراء والأئمة الزيدية من جهة أخرى ، أتاحت لسلاطين المماليك فرصة دائمة للتدخل بين حين وآخر في شئون اليمن وادعاء هيمنتهم على ملوكها . من ذلك أن الملك المجاهد سيف الدين طلب من السلطان الناصر محمد سنة ١٣٢٥ أن يمدّه بقوة تنصره على ابن عمه عبد الله ابن المنصور الذي سيطر على معظم أنحاء اليمن ، فأمدّه السلطان الناصر محمد بحملة كبيرة تحت قيادة الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب<sup>(١)</sup> . وهكذا ظل ملوك اليمن يعترفون بالولاء لسلاطين المماليك في مصر ويحرصون على إرضائهم مما حقق لأولئك السلاطين سيادة على أهم أجزاء شبه الجزيرة العربية .

وثمة دولة إسلامية أخرى في آسيا ربطتها بسلطنة المماليك علاقات المودة والصداقة ، هي دولة هندستان . وقد نجح محمد بن تغلق ملك هندستان وسلطان دهلي ( ١٣٢٥ — ١٣٥١ ) في توطيد دعائم دولته عن طريق التوسع على حساب الصين وخرسان من جهة ، ومخالفة سلطنة المماليك في مصر بوصفها أكبر دولة إسلامية مناهضة لمغول فارس من جهة أخرى<sup>(٢)</sup> . ولهذا الغرض أرسل محمد بن تغلق في أوائل حكمه سفارة مزودة بالهدايا الثمينة ، وإن كانت هذه السفارة لم تصل إلى مصر بسبب مآذب بين أعضائها من نزاع ، مما مكن الملك المجاهد صاحب اليمن من الاستيلاء على ما معهم من هدايا ، ولما سمع محمد بن تغلق بما حدث لسفارته الأولى ، عاد وأرسل إلى السلطان الناصر محمد بن قلاون سنة ١٣٣١ يطلب معونته ضد المغول<sup>(٣)</sup> .

ثم إن محمد بن تغلق لم يسكتف بالسعي لسكسب تأييد السلطان الناصر

(١) المقرئى : الساوك ؛ ج ٢ ص ٢٥٩ — ٢٦٠ .

(2) Lane—Poole : Med. India under Mohammedan Rule, pp. 116—120.

(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاون ص ١٤٠ — ١٤١ .

محمد ، بل حاول أيضا الحصول على تقليد بولايته على بلاده من الخليفة العباسي بالقاهرة ، فأجابه الخليفة المستكفي بالله العباسي إلى رغبته . وقد حرص فيروز شاه الثالث - الذي خلف محمد بن تغلق في الحكم سنة ١٣٥١ - على اتباع نفس السياسة ، فطلب تعويضا من الخليفة العباسي ، وأرسله له الخليفة المعتضد بالله سنة ١٣٥٦ (١) .

وهكذا يتضح لنا كيف أن سلطنة المماليك أيام ذروة مجدها حققت لنفسها من اتساع النفوذ وهيبة السلطان ما جعل حكام الدول الإسلامية حتى بلاد الهند شرقا يخطبون ودها ويسعون لكسب تأييدها .

### سلطنة المماليك والدول الإسلامية في شمال أفريقيا :

أما الدول الإسلامية بشمال إفريقيا فقد ربطتها بسلطنة المماليك في مصر علاقات قوية أدت إليها رابطة الجوار والإسلام من جهة ، ورابطة الخلافة من جهة ثانية ، ورابطة الخطر المشترك الذي هدد العالم الإسلامي من جانب الغرب الأوربي من جهة ثالثة ، ثم رابطة الحج نظرا لأن مصر تقع على الطريق الرئيسي الذي يوصل حجاج المغرب إلى أرض الحجاز من جهة رابعة .

وكانت مشكلة الخلافة سببا من أسباب فتور العلاقات في وقت ما بين سلطنة المماليك في مصر وبنى حفص في تونس ( ١٢٢٨ - ١٥٧٣ ) . ذلك أن ملوك بنى حفص لم يطلبوا من الخليفة العباسي في بغداد تفويضا بالحكم مثل غيرهم من غالبية الحكام المسلمين ، مما يشير إلى شيء أضمروه في نفوسهم . ولم يلبث أن ظهر ذلك الشيء عندما اتخذ أبو عبد الله محمد الأول الحفصي الملقب بالمنتصر ( ١٢٤٩ - ١٢٧٦ ) لقب الخلافة والإمامة ، وتلقب بلقب « المنتصر بالله

(1) Allan : The Cambridge Shorter Hist. of India, p. 246.



المنصور بفضل الله أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد ابن الأمراء الراشدين»<sup>(١)</sup> .  
وبذلك كان أسبق ملوك شمال أفريقية - بعد الموحديين - إلى اتخاذ لقب أمير  
المؤمنين .

وتشير المراجع إلى أن الذي شجع الحفصيين على الإقدام على تلك الخطوة  
كان شريف مكة أبو نبي بن الحسن ، الذي أسرع بالاعتراف بسيادة الحفصيين  
على مكة<sup>(٢)</sup> . ولم تسكن سفارة أبي نبي هي الوحيدة التي وصلت إلى تونس ،  
وإنما أعقبها أيضا سفارتان إحداها من سلطان بني مرين والأخرى من  
ملك التكرور .

ولم يمض على اتخاذ أبي عبد الله الحفصي لقب الخلافة مدة طويلة حتى قام  
السلطان الظاهر بيبرس بإحياء الخلافة المباسمية في القاهرة سنة ١٢٦٠ ، مما أوجد  
نوعا من الضغينة بين سلطنة المماليك في مصر وملوك الحفصيين في تونس . والواقع  
إن سلطنة المماليك في مصر حاولت دائما أن تقلل من شأن خلافة الحفصيين ،  
بدليل ما ذكره العمري من أن ملك «تونس يخاطب بأمير المؤمنين في بلاده»<sup>(٣)</sup> .  
كذلك شكك القلقشندي في دعوى انتساب الحفصيين لقريش ، وقال إنهم  
ليسوا من العرب في شيء ، وحقر من شأنهم وشأن خلافتهم<sup>(٤)</sup> . أما المؤرخ  
أبو الحاسن فقد بلغ من تحقيره للحفصيين وخلافتهم أن قال ما نصه « وفيها  
( ٦٥٢ هـ ) وصلت الأخبار من الغرب باستيلاء إنسان على إفريقية وادعى أنه  
خليفة وتلقب بالمستنصر ... »<sup>(٥)</sup>

(1) Van Berchem : Titres Califien, p. 292.

(٢) القيرواني : المونس في أخبار إفريقية وتونس ، ص ١٢٨ .

(٣) العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٢ .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٧ ص ٣٧٧ .

(٥) أبو الحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢ .

ويبدو لنا موقف سلطنة المماليك في مصر من الخفصيين في المكاتبات الصادرة عن ديوان الإنشاء ، إذ ليس في هذه المكاتبات ما يشير إلى اعتراف سلاطين المماليك بخلافة الخفصيين . ولم يحاول سلاطين المماليك تلقيب الخفصيين بلقب أمير المؤمنين ، وإنما لقبوهم فقط بلقب « أمير المسلمين » وهو لقب دون الأول في المرتبة ولا يعنى أنه خليفة شرعى على المسلمين ، وإنما هو مجرد حاكم أو أمير من أمراء المسلمين يعمل تحت لواء الخلافة<sup>(١)</sup> . وليس في القلقشندي سوى رسالة واحدة بحث بها الظاهر برقوق إلى أحد ملوك الخفصيين لقبه فيها بلقب « أمير المؤمنين » ؛ وربما كانت عبارة المؤمنين فيها تحريفاً عن المسلمين نتيجة لخطأ النسخ ، أو ربما كان سوء العلاقات بين الخلفاء العباسيين في القاهرة وسلاطين المماليك عندئذ سبباً دفع الظاهر برقوق إلى الاعتراف بالخلافة الخفصية نكايَةً في الخلافة العباسية .

على أن مشكلة الخلافة بين المماليك والخفصيين لم تصل إلى درجة من الحدة تحول دون تسكاتف القوتين لمواجهة الخطر الكبير الذى هدد العالم الإسلامى عندئذ من جانب الصليبيين . من ذلك أن أخبار حملة لويس التاسع على تونس سنة ١٢٧٠ أثارت اهتمام السلطان الظاهر بيبرس ، فأخذ يستعد بسرعة لدفع عادية الصليبيين عن تونس ، بل يقال إن السلطان الظاهر بيبرس بادر بإرسال رسول إلى فرنسا لتحذير لويس التاسع من عاقبة مشروعة ، وذلك بمجرد وصول أخبار استعدادات لويس التاسع إلى مصر<sup>(٢)</sup> . وعند نزول القوات الصليبية في تونس بادر السلطان الظاهر بيبرس بإرسال رسالة إلى ملك الخفصيين يخبره بأنه سيرسل إليه ما يستطيع من عسكر ، كما طلب من عربان برقة المبادرة بمساعدة

---

(١) Van Berchem : Titres Califiens, p. 261.

(٢) ابن خلدون : العبر ؛ ج ٦ ص ٢٩١ .

المستنصر الحفصي . هذا إلى أن بيبرس أمر بحفر الآبار في الصحراء الغربية ليعتمد عليها جنوده في طريقهم لفجدة تونس<sup>(١)</sup> .

على أن السلطان بيبرس لم يكفد يمضى في استعداداته حتى جاءت الأخبار بموت لويس التاسع في تونس وفشل حملته ، الأمر الذى جعل بيبرس يوقف استعداداته الحربية لمساعدة تونس ويرسل البشائر إلى سائر بلدان المسلمين ابتهاجا بالخلاص من ذلك الخطر<sup>(٢)</sup> . ومع ذلك فإن السلطان بيبرس لم يفقه أن يتخذ تلك الحملة الصليبية وسيلة للتشجيع على المستنصر الحفصي والخط من شأنه . ويروى المقرئى أن رسول صاحب تونس قدم إلى مصر سنة ١٢٧١ يحمل هدية وكتابا للسلطان الظاهر بيبرس ، ولكن بيبرس استاء من أسلوب المخاطبة وظن أن صاحب تونس تعمد عدم مخاطبة سلطان مصر بما يستحقه من تقدير . لذلك تعمد السلطان بيبرس من ناحيته أن يفرق هدية صاحب تونس على الأمراء دون أن يحتفظ لنفسه بنصيب منها ، كما رد على ملك الحفصيين مستقبجا تظاهره بالمنكرات واستخدامه الفرنج ، فضلا عن تقاعسه في الجهاد وعدم خروجه لمقاتلة الصليبيين عندما هاجموا بلاده . ويروى المقرئى أن السلطان بيبرس قال للمستنصر الحفصي « مثلك لا يصلح أن يلى أمور المسلمين<sup>(٣)</sup> » .

\* \* \*

هذا عن العلاقة بين سلطنة المماليك ودولة الحفصيين في تونس ؛ أما عن علاقة المماليك ببقية بلاد المغرب الإسلامى - مثل بنى زيان في تلمسان وبنى مرين في فاس - فيلاحظ أنها تأثرت بما كان هناك من صداقة بين سلطنة المماليك وبنى مرين في فاس ، في الوقت الذى ساءت العلاقات بين بنى زيان وبنى مرين .

(١) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٥٩٠

(٢) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ١١٤ .

(٣) المقرئى : السلوك ؛ ج ١ ص ٦٠١ .

والواقع إن الزيانيين تطالعوا في أول الأمر إلى سلاطين المماليك للحصول على تأييدهم ضد أطماع بني مرين ؛ ولسكن سلاطين المماليك في مصر كانوا على درجة من بعد النظر جعلتهم يدركون أن بني مرين هم أضخم قوة في بلاد المغرب، فحرصوا على إظهار الود نحوهم واكتساب صداقتهم ؛ الأمر الذي أدى إلى نفور بني زيان من سلطنة المماليك . وليست هناك بداية محددة لذلك النفور ، وإن كانت المراجع تشير إلى أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون أرسل سفارة سنة ١٣٠٥ إلى أبي يعقوب يوسف المريني ، ومع السفارة هدية جارية . وبعد أن لقيت السفارة من بني مرين كل ترحاب وحقاوة ، تعرضت وهي في طريق عودتها إلى مصر لمدوان الأعراب في تلمسان ، على الرغم من أن أعضاء السفارة كانوا قد طلبوا من بني زيان في تلمسان حمايتهم في أراضيهم<sup>(١)</sup> . وكان أن غضب السلطان الناصر محمد بن قلاوون لما أتاه صاحب تلمسان وهو عندئذ أبو حو موسى (١٣٠٧ - ١٣١٨) - فأرسل يعتب عليه ويؤنبه ، كما بعث له بهدية صغيرة تحقيرا لشأنه . وقد رد التلمساني على السلطان الناصر محمد محتجا ، كما رفض قبول الهدية<sup>(٢)</sup> . وعلى الرغم من أن أبا تاشفين عبد الرحمن بن موسى التلمساني حاول أن يصلح الأمور بعد ذلك مع سلطنة المماليك ، وأرسل إلى السلطان الناصر محمد سنة ١٣٢٥ معبرا عن حسن نواياه ويوضح له أن سبب استياء أسلافه هو « ميلكم إلى غيرنا » (يقصد بني مرين)<sup>(٣)</sup> ؛ فإن دعوته لم تجد ترحيبا من سلطنة المماليك . ولم يلبث بنو مرين أن بسطوا سيادتهم على تلمسان سنة ١٣٣٧ ، وكتب أبو الحسن على المريني رسالة إلى السلطان الناصر محمد يخبره بما تم على يديه من فتوح ، فرد عليه السلطان الناصر مؤيدا ومهنئا<sup>(٤)</sup> .

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢٨ ورقة ٥٠ (مخطوط) .

(٢) ابن خلدون العبر ج ٧ ص ٣٢٧ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٨ ص ٨٦ .

(٤) المرجع السابق ج ٨ ص ٨٧ - ٩٩ ج ٧ ص ٢٩٥ - ٤٠٧ .

وهكذا يبدو لنا كيف نظر سلاطين المماليك في مصر إلى بني مرين نظرة احترام وإجلال ، بوصفهم أكبر قوة في المغرب العربي ، فضلا عن دورهم البارز في حماية الإسلام بالمغرب وجهاد المسيحيين بأسبانيا (١) .

والواقع إن مظاهر العلاقات الوثيقة التي ربطت مصر بالمغرب العربي في أواخر العصور الوسطى بوجه عام وفي عصر سلاطين المماليك بوجه خاص ، عديدة ومتنوعة . ومن هذه المظاهر حرص سلاطين المماليك على إرسال البشائر إلى المغرب كلما أحرزوا انتصارا على أعداء المسلمين في الشرق ، مثل التتار أو الصليبيين . ولا يخفى علينا أن ملوك المغرب كانوا ينظرون إلى سلطنة المماليك نظرة أمل بوصفهم حماة العالم الإسلامي ضد الأخطار التي هددته من جهة المشرق . وهناك في المراجع ما يشير إلى أن ملوك المغرب كانوا يتقنون موقف المتربص عندما دهم خطر التتار المشرق العربي على أيام هولاء كوثم تيمورلنك ، وأنهم كانوا يسارعون إلى تهنئة المماليك عقب كل انتصار أحرزوه على خصومهم (٢)

كذلك كانت مصر في عصر سلاطين المماليك ملجأ لكثير من المغاربة اللاجئين إليها فرارا من حكام بلادهم . ولم يقتصر الأمر على الأمراء المغاربة القادمين من بلادهم ، وإنما تعدى ذلك إلى هجرة بعض أفراد وطوائف من أهل المغرب إلى مصر يلتمسون فيها العلم والرزق . وكان بعض أولئك المغاربة من الفقراء والصوفية ، فتركوا أثرا عميقا في أحوال مصر الاجتماعية نتيجة لما ترتب على مجيئهم من انتشار حركة التصوف فيها . ولا يخفى علينا أن مرور ركب الحجاج المغاربة بمصر في طريقهم إلى الحجاز أو إلى بلادهم بعد إداء فريضة الحج

(١) العمري : التعريف ص ١٦ - ٣٣ .

(٢) الزويري . نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٢٧ ٩

القلقشندي : صبح الأعمى ج ٨ ص ٧٩ - ٨٤ ، ١٠٣ ج ٧ ص ٢٠٧ - ٤١١

كان فرصة طيبة لإطلاع نسبة كبيرة من أهل المغرب على أوضاع مصر : ولا شك في أن تلك العلاقات الطيبة بين مصر والمغرب مهدت لانتعاش التبادل التجاري والثقافي بين الطرفين . أما عن النشاط التجاري فثمة إشارات في المراجع إلى أن مصر كانت تستورد من المغرب الخيول والزيوت وتصدر إليه المنسوجات الحريرية والسكتانية . وقد روى ابن خلدون أنه أتى إلى مصر سنة ١٣٨٤ على ظهر سفينة مصرية كانت قد قصدت تونس للتجارة<sup>(١)</sup> ، كما ذكر في موضع آخر « إن تجار المغاربة إلى المشرق ثروتهم بعيدة لبعده الشقة وغلو أسعار بضائعهم »<sup>(٢)</sup> . وأما عن التبادل الثقافي فالمعروف أن مصر في عصر المماليك « سارت محل سكن العلماء ومخط رحال الفضلاء » كما وصفها السيوطي<sup>(٣)</sup> . لذلك قصدها في ذلك العصر كثير من المغاربة لطلب العلم ، فضلاء العلماء المغاربة الذين حظوا بمطف سلاطين المماليك وسمحوا لهم بالتدريس في الأزهر<sup>(٤)</sup> . وعلى رأس هؤلاء العلماء يذكر التاريخ اسم ابن خلدون الذي أتى إلى مصر لائتداء بها سنة ١٣٨٢ ، وظل يواصل نشاطه العلمي في التأليف والتدريس حتى وفاته في مصر سنة ١٤٠٥ . أما ابن بطوطة - الرحالة المغربي الشهير - فقد وفد على مصر في عهد السلطان الناصر محمد سنة ١٣٢٤ ، وسجل إعجابه بها ووصفه لما شاهده بين ربوعها في رحلته المعروفة .

وهكذا تدل جميع الشواهد على تنوع الصلات وقوتها بين مصر في عصر المماليك والمغرب العربي ، مما ترك أثرا كبيرا في التاريخ ويعتبر شاهدا قويا على وحدة التاريخ العربي :

- 
- (١) ابن خلدون : العبرج ٧ ص ٤٥١ .  
(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٩٤ .  
(٣) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٦ .  
(٤) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٣ ص ٣٦١ - ٣٦٢ ج ٤ ص ٣٢٧ .

## العلاقة بين سلطنة المماليك والسودان الغربي :

أما دول السودان الغربي ، فلم تقم بينها وبين سلطنة المماليك في مصر علاقات سياسية قوية مباشرة وذلك لبعده الشقة بين الطرفين . وليس معنى ذلك انعدام الصلات بين سلطنة المماليك والسودان الغربي ، فقد كانت هناك صلات قوية ، ولكنها كانت أكثر وضوحا في نواحي الحج والتجارة والجوانب الثقافية .

والواقع إن الحج ظل يمثل أقوى الروابط التي ربطت سلطنة المماليك بدول السودان الغربي ، حيث أن سكان تلك النواحي اعتادوا في طريقهم إلى الحجاز أن يسلكوا درب الصحراوي المعروف بطريق غات ، وهو يبدأ من مدينة غات نفسها وينتهي عند الأهرام<sup>(١)</sup> . فإذا وصل حجاج السودان الغربي إلى مصر فإنهم اعتادوا أن يقضوا فيها وقتا حتى يتهيأ ركب الحجاج والحمل إلى مكة . ولاشك في أن تلك المدة التي كانوا يقضونها في مصر أثناء طريقهم إلى الحجاز ، كانت فرصة طيبة يتصلون فيها بالمصريين ويتصل المصريون بهم ويتعرف كل طرف على الآخر .

وأول من مر بمصر في طريقة إلى الحجاز من ملوك مالي والتكرور هو منساولي الذي حج أيام السلطان الظاهر بيبرس<sup>(٢)</sup> . وتخبّرنا المراجع أن ثمة وفداً من الحجاج التكرورة وفد بعد ذلك إلى مصر سنة ١٣٢٣ ، وكان يتألف من عشرة آلاف تسكروري على رأسهم منساموسي<sup>(٣)</sup> . وقد أحاط ذلك الملك نفسه

(١) ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٤٣٤

(٢) القلقشندي : صبح الأعمى ج ٥ ص ٢٩٣ . ويذكر القلقشندي أن منسا معناها السلطان وولي معناها علي .

(٣) ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ٢٢٥ .

بمظاهر الترف ، وأخذ ينفق في مصر عن سعة استرعت نظر المعاصرين ، وقدم هدايا جارية للسلطان الناصر محمد قلاوون من بينها حمل جليل من الذهب المعدني الخام . أما السلطان الناصر محمد فقد أكرمه وبعث إليه وإلى أفراد حاشيته بالخلع والسيوف وغيرها ، كما أمدّه بالخيول والجمال والمؤونة ليتمكن من مواصلة سفره إلى الحجاز<sup>(١)</sup> .

ولم يلبث سلاطين مالى أن أدركوا أهمية الحصول على تقليد من الخلافة العباسية بالقاهرة في ترطيد نفوذهم . من ذلك أن محمد أبو بكر سلطان مالى انتهز فرصة مروره بمصر سنة ١٤٩٤ في طريقه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، ورأى أن يدعم ملكه ويكسبه صبغة شرعية ، فطالب من الخليفة العباسي تقليدا بتفويضه حكم بلاده ، ومنحه الخليفة ما أراد . ويقال إنه عند وصوله إلى مكة ، نادى به شريف مكة « سلطانا وخليفة بأرض التكرور ، وأن كل من خالفه فقد خالف الله ورسوله<sup>(٢)</sup> » .

ويبدو أن نفوذ مصر السياسي صار معترفا به في تلك الجهات منذ أواخر القرن الرابع عشر ، إذ حاول ملوك الكانم الحصول على تأييد شرعي لحكمهم من سلطنة المماليك<sup>(٣)</sup> . هذا مع ملاحظة أن ملوك السودان الغربي ظلوا في نظر سلاطين المماليك في مرتبة أقل من ملوك شمال أفريقيا ، بدليل أن الفريق الأول كانوا يخاطبون في المكاتبات السلطانية الصادرة عن ديوان الإنشاء بلقب « الجناب الكريم العالى » في حين أن الفريق الثانى كانوا يخاطبون بلقب « المقام العالى<sup>(٤)</sup> » .

(١) العمري : مسلك الأبحار ص ٩٤٣ ، ٩٥٤ — ٩٥٥ .

(٢) محمد كمت التنبكي : تاريخ الفناش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ص ١٢

— ١٣ .

(3) Ziada : Foreign Relations, p. 113.

(٤) القلائدى : صبح الأعشى ج ٨ ص ٧ .



والواقع إن المراسلات المتبادلة بين سلاطين المماليك في مصر وملوك السودان الغربي تلقى ضوءاً هاماً على العلاقة بين الطرفين ، وتدل على مدى عناية دولة المماليك بتعرف أحوال تلك البلاد من ناحية ، ومدى اهتمام بلاد السودان الغربي بأخبار دولة المماليك من ناحية أخرى وما تتعرض له من أحداث وبخاصة من جهة التتار ، ويستشف من كلام العمري أنه يأسف لعدم العناية عناية تامة بأحوال التكرور الذين تربطهم بمصر روابط الإسلام ، ويطلب بمزيد من الاهتمام بأخبارهم<sup>(١)</sup>.

ولا شك في أن روابط الإسلام بين مصر ودول غرب إفريقيا أدت إلى نمو الروابط المادية والثقافية بين الطرفين . من ذلك ما يقال من أن السلطان منسا موسى انهز فرصة وجوده في مصر فابتاع جملة من الكتب ليوفر لأهل بلاده جانباً من الثقافة الإسلامية<sup>(٢)</sup>. كذلك يقال إن جامعة تنبكتو الدينية التي أنشئت حوالي سنة ١٣٣٥ حاولت دائماً أن تحتذى أساليب الأزهر في التعليم . ويبدو أن بعض المصريين من العلماء وغيرهم استقروا في السودان الغربي ، بدليل ما يذكره ابن بطوطة من أنه عندما مرض في مدينة مالي لم يسعفه بالعلاج إلا أحد الأطباء المصريين<sup>(٣)</sup>.

ومن جهة أخرى ، فإن بعض طوائف من بلاد التكرور أقامت في مصر لطالب العلم والدراسة على مشايخ العصر المبرزين أمثال ابن جوزي وأبي حيان وغيرهما<sup>(٤)</sup>. وقد نبغ من التكرورة في مصر صبيح بن عبد الله التكروري الملقب بالكلوتاني الذي اشتغل بتدريس الحديث في دمشق حيث مات سنة ١٣٣٠<sup>(٥)</sup>.

(1) Demombynes : Masalik Alabsar, Intr; IX.

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٨٣ .

(٣) رحلة ابن بطوطة ج ٤ ص ٣٩٧ .

(٤) السخاوي : الضوء اللامع ج ٧ ص ٢ .

(٥) ابن حجر الدرر الكامنة ج ٢ ص ٢٠٥ .

كذلك ابتنى تجار التكايرة بمصر مدرسة للمالكية عرفت بمدرسة ابن رشيق<sup>(١)</sup>؛ وأصبحت هذه المدرسة المالكية مركزاً لطلاب العلم الوافدين من بلاد التكرور، حتى أن الخيرين من أهل تلك البلاد اعتادوا أن يبعثوا لتلك المدرسة بالمال والتبرعات<sup>(٢)</sup>. ولا يخفى علينا أن كثيراً من التكايرة في مصر كانوا على درجة شديدة من الفقر، وهؤلاء كان لهم نصيب من عطف سلاطين الماليك، إذ يروى للمقرئى أن السعيد بركة خان ابن الظاهر بيبرس «عمل للتكايرة خوان حضره كثير من أهل الخير»<sup>(٣)</sup>.

وأخيراً، فإنه لا يخفى علينا أن التجارة كانت تمثل رباطاً قوياً دعم العلاقات بين دولة الماليك ودول السودان الغربى. وسنتكلم عن النشاط التجارى بين الجانبين فى مكان آخر من هذا الكتاب، ولذلك نكتفى بالإشارة هنا أن الأمر لم يقتصر فى عصر الماليك على مجيء التجار التكايرة إلى مصر يحملون حاصلات السودان، وإنما تعدى ذلك إلى تردد بعض التجار المصريين على بلاد السكائم والتكرور، الأمر الذى قوى الصلات بين دولة الماليك ودول السودان الغربى.

### العلاقة بين سلطنة الماليك والحبشة:

أما عن العلاقة بين سلطنة الماليك والحبشة فكانت من نوع آخر. ذلك أن الحبشة دولة مسيحية تتبع كنيستها الكندسة المرقسية بالإسكندرية؛ ثم لأنها كانت بعيدة عن مصر لا تربطها بها حدود مباشرة مما حال دون وقوع

---

(١) سميت بهذا الاسم لأن علم الدين ابن رشيق هو الذى أشرف على بنائها قبيل منتصف القرن السابع الهجرى؛ وهو أيضاً أول من درس بها.

(٢) المقرئى المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٣٦٥.

(٣) المقرئى: السلوك ج ١ ص ٦٤٩.

صدام مباشر بين القوتين ، مثلما حدث بين مصر وملكة النوبة المسيحية في عصر الماليك ، أو بين سلطنة الماليك من ناحية والقوى الصليبية القريبة في الشام وأرمينية الصغرى ، وقبرس ورووس من ناحية أخرى .

والواقع أنه منذ أن تأكدت تبعية الكنيسة الحبشية للكنيسة المصرية في أوائل العصور الوسطى ، والعادة جرت بأن تستورد الحبشة مطارنتها من مصر ؛ فإذا خلا منصب مطران الحبشة أرسل ملكها رسالتين أحدهما لحاكم مصر والأخرى لبطرك الإسكندرية طالبا تعيين من يشغل كرسي المطرانية في الحبشة . كذلك جرت العادة أن يرفق ملك الحبشة رسالته بمبلغ ضخم من المال يجمعه على شكل ضريبة من رعاياه <sup>(1)</sup> . وعند وصول هاتين الرسالتين والمال ، يتصل بطرك الاسكندرية بالسلطان أو الحاكم في مصر ويستأذنه في رسامة أحد الرهبان الأكفاء ليشغل كرسي مطران الحبشة .

وهكذا وجد عامل ديني قوى ربط بين الحبشة وسلطنة الماليك ، وحقق قدرا كبيرا من الاتصالات بين الدولتين . ويفهم من المراجع أن السلطان الظاهر بيبرس أرسل سفارة إلى الحبشة ، ولكن هذه السفارة تأخرت في العودة بسبب الحروب الداخلية التي كانت دائرة هناك حول العرش ، الأمر الذي أغضب بيبرس . وقد أحس ملك الحبشة بغضب سلطان مصر ، فلم يجرؤ على طلب مطران منه مباشرة ، وإنما اتصل بسلطان اليمن وطلب وساطته لكي يصدر بيبرس أوامره إلى البطررك غبريال الثالث ليعتد إلى الحبشة «مطارانا رجلا جيدا عالما لا يحب ذهباً ولا فضة» . ونخرج من رسالة ملك الحبشة إلى بيبرس بنتيجتين أولاهما أنه اشترط في المطران أن « لا يحب ذهباً ولا فضة » مما يفهم منه أن بعض المطارنة

(1) Coulbeaux : Hist. Politque et Religieuse de l'Abysinie,  
T. I, p. 179.



المصريين الذين كانوا يوفدون إلى الحبشة أظهروا تسكالباً على المال ؛ وثانيهما أن ملك الحبشة حرص على أن يحشو رسالته لسلطان مصر بعبارات الملق والزلفى ، ومن ذلك قوله « ... وهذه الخلق كلهم يقولون آمين بطول بقاء عمر سلطاننا مالك مصر ، ويهلك الله عدوه ... »<sup>(١)</sup>

ومع ذلك فإنه يبدو أن العلاقة استمرت سيئة بين السلطان الظاهر بيبرس وملك الحبشة ، فامتنع بيبرس عن إرسال المطران المطلوب ، مما دفع الحبشة إلى استحضار مطرانا سوريا من بلاد الشام<sup>(٢)</sup> .

غير أن الأحباش لم يذبحوا نذراً للمطارنة السوريان ، فسكتب ملك الحبشة بجباصيون ( صهيون ) إلى السلطان المنصور قلاوون يعتذر له ويسأله « إنقاذ مطران لإصلاح بلاد الحبشة التي فيها النصراني والمسلمين » . كذلك كتب ملك الحبشة إلى بطرك الاسكندرية يقول له « وهؤلاء السريان المطارنة الذين عندنا من غير مصر بغضناهم وما حبيناهم ، ولأجل محبتنا في بطركية مصر ما خليناهم عندنا أساقفة وطردهناهم »<sup>(٣)</sup> .

وقد تكررت رسائل ملك الحبشة إلى السلطان قلاوون بعد ذلك ، وكلها رسائل مليئة بالتوسلات والتضرعات ، حتى أنه قال في إحدى رسائله « ... اسمع يا سلطان مصر — نصرك الله — : إعطى البطرك الدستور يبعث لى أسقفا ، فنحن وهم أمانتنا واحدة من زمن مرقس وإلى اليوم ... »<sup>(٤)</sup> . وكان أن استجاب السلطان المنصور قلاوون لرجاء ملك الحبشة فسمح بتعيين المطران المطلوب وسفره إلى الحبشة .

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ص ٤٦ ( مخطوط ) .

(2) Coulbeaux : op. cit., T. I, pp. 288—290.

(٣) عبي الدين بن عبد الظاهر : تشرىف الأيام والعصور ص ١٧٠ — ١٧٣ .

(٤) المرجع السابق ص ١٧٣ .

ومن هذا يبدو أن علاقة كنيسة الحبشة بالكنيسة المرقسية بالإسكندرية كانت سببا في اتصالات دائمة بين دولة المماليك والحبشة . وجدير بالذكر أن سلاطين المماليك في مصر كانوا يرتابون أحيانا في العلاقة بين بطارقة الإسكندرية وملوك الحبشة ؛ ولهذا أصرروا أن يكون الاتصال بين الطرفين عن طريق سلطنة المماليك نفسها وليس اتصالا مباشرا . ويدل ذلك على أن بعض سلاطين المماليك أخذوا عهداً على بطرك النصارى بأن « لا يكتب إلى ملك الحبشة بنفسه ولا بوكيله ولا ظاهراً ولا باطناً، ولا يولى أحداً في بلاد الحبشة ولا قسيساً ولا أعلى منه ولا دونه إلا بإذن من السلطان ووقوفه على كتابته ٠٠٠ »<sup>(١)</sup> . كذلك كان سلاطين المماليك يوجهون دائماً النصيح إلى بطرك النصارى في مصر بأن « يتوقى ما يأتيه سرّاً من تلقاء الحبشة »<sup>(٢)</sup> . ولا شك في أن تلك المخاوف التي سادت سلاطين المماليك في مصر من الاتصالات بين بطرك مصر وملوك الحبشة إنما كانت أمراً طبيعياً في عصر الحروب الصليبية ، وهو العصر الذي طفق بروح التعصب الديني من ناحية والذي ظهرت فيه دولة المماليك في صورة القوة الإسلامية الكبرى التي تزعمت حركة الجهاد ضد الصليبيين من ناحية أخرى .

على أن موضوع تعيين مطران للحبشة من قبل بطرك الإسكندرية لم يكن السبب الوحيد للاتصال بين سلطنة المماليك ودولة الحبشة . ذلك أنه ثمة مظهر آخر للعلاقات بين الطرفين ارتبط بمرور الحجاج الأحباش بمصر وهم في طريقهم إلى بيت المقدس . والمعروف أن الأحباش كانت لهم جالية كبيرة مقيمة في بيت المقدس ، كما كان لهم دير كبير في تلك المدينة المقدسة اتخذوه مقراً لهم . وقد اعتاد ملوك الحبشة إرسال الهدايا والهبات إلى رهبان ذلك الدير ، فضلاً عن التماس كرم سلاطين المماليك في رعاية أولئك الرهبان . من ذلك ما جاء في رسالة ملك

(١) السخاوى : التبر المسبوك في دليل السلوك ص ٢١٠ .

(٢) العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ص ٤٨ .

الحبشة يجبا صيون (١٢٨٤ - ١٢٩٣) إلى السلطان المنصور قلاون ؛ من أن ذلك الملك أرسل ثوبا ومائة شمعة « وسأل إنفاذ ذلك للرهبان الحبوش المقيمين بالقدس الشريف، ويوصى عليهم ألا يمنعوا من دخول الهيكل »<sup>(١)</sup>. كذلك أرسل ملك الحبشة المذكور إلى رهبان دير الأحباش في بيت المقدس يقول لهم « سلام عليكم يا رهبان الحبوش الذين صبروا على العبادة والزهد إلى هذه الأيام، وصبرتم على الحر والبرد . وقد سيرت لكم ثوب أحمر ديباج ، ومائة شمعة ، وثيابى وهو زنارى الذى تلبسه السلاطين حتى تلبسونه وقت القران . . فعرفونى بوصول هذا ، واكتبوا أسماءهم ، واذكرونى فى صلواتكم بدعواتكم<sup>(٢)</sup> . . . » .

ويبدو أن جموع الحجاج الأحباش الذين كانوا يمرون بمصر فى طريقهم إلى بيت المقدس بلغوا درجة من الكثرة تطالبت نوعا من دوام الاتصال بين ملوك الحبشة من ناحية وسلاطين مصر من ناحية أخرى ، لإعفاء أولئك الحجاج من رسوم المرور . وقد ذكر ألفارى أنه شاهد قافلة تضم نحو من ثلثمائة من حجاج الأحباش تمر بالأراضى المصرية قرب شواطئ البحر الأحمر فى طريقهم إلى بيت المقدس<sup>(٣)</sup> .

والتواتر فى المراجع أن السلطان صلاح الدين الأيوبى شمل دير الأحباش برعايته عندما استولى على بيت المقدس سنة ١١٨٧ ، ولذلك دأب ملوك الحبشة فى عصر المماليك على إرسال السفارات والكتب لسلاطين المماليك ، راجين أن يشملوا حجاج الأحباش بمطعمهم ولا يمنعهم من زيارة كنيسة القيامة

(١) محي الدين بن عبد الظاهر: تشرىف الأيام والعصور ص ١٧٠

(٢) المرجع السابق ص ١٧٣ .

(3) Alvarez : Portugouse Embassy, pp. 243—244.

## بالمقدس (١) .

والواقع إن وجود جالية كبيرة من الأقباش مقيمة إقامة دائمة في بيت المقدس، ووجود دير لهم في تلك المدينة على اتصال دائم بدولة الحبشة ، أمر له أهميته من حيث إطلاع ملوك الحبشة على أخبار الحروب الصليبية أولا بأول . ولم تغب عن البابوية وأصحاب المشاريع الصليبية في غرب أوروبا فكرة الاستفادة من تلك القوة المسيحية الكبرى — وهي الحبشة — في محاربة المسلمين ، وبخاصة في الدور الأخير من الحروب الصليبية بعد طرد الصليبيين نهائيا من الشام في أواخر القرن الثالث عشر<sup>(٢)</sup> . ومن الثابت أن البابوية أرسلت عدة سفارات في القرن الرابع عشر إلى ملوك الحبشة لحثهم على المشاركة في محاربة المسلمين . وكان أن أفلحت تلك الاتصالات في استثارة ملوك الحبشة ، فيقال أنهم أعدوا حملة كبيرة لمهاجمة مصر من ناحية الجنوب في الوقت الذي هاجمها بطرس لوزجنان ملك قبرس من ناحية الشمال سنة ١٣٦٥ . كذلك فكر اسحق الأول ملك الحبشة (١٤١٤ — ١٤٢٩) في غزو مصر ، وبخاصة عندما سمع بأن المماليك غزوا جزيرة قبرس وأسروا ملكها جانوس سنة ١٤٢٦ . وقد دارت بين ملك الحبشة وملوك غرب أوروبا مباحثات في هذا الشأن ، ولكنها باءت بالفشل<sup>(٣)</sup> . كذلك فشلت محاولات ملوك الحبشة لتحويل مجرى النيل وتجويع مصر ، وهي الفكرة التي ولدت نتيجة لاتصالات طويلة بين ملوك أرغونه والبرتغال من ناحية وملوك الحبشة من ناحية أخرى<sup>(٤)</sup> .

- 
- (١) ابن لياس : بدائم الزهور ج ٥ ص ١٢ .
  - (٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٠٩ .
  - (٣) المقرئزي : الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ص ٤ .
  - أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦٣٧ — ٦٤٠ ( طبعة كاليفورنيا )
  - (٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢١٣ — ١٢١٤ .



## العلاقات بين سلطنة المماليك ودول التركمان :

عاشت على الأطراف الشمالية لدولة المماليك جماعات من شعوب متنوعة مثل الأرمن والكرج والأكراد والتركمان ، وهؤلاء جميعاً ربطتهم بسلطنة المماليك علاقات متقلبة بين الخضوع والتبعية حيناً والثورة والعدوان أحياناً ، وفقاً أملتة الظروف الخاصة والعامّة التي أحاطت بمنطقه الشرق الأدنى وشعوبها منذ منتصف القرن الثالث عشر .

وقد عرف عن التركمان بالذات أنهم ساهموا بنصيب بارز في حركة الجهاد ضد الصليبيين منذ وقت مبكر ، فعملوا جنوداً في جيوش أتابكة السلاجقة ثم في جيوش الأيوبيين فالمماليك . على أنه بصرف النظر عن تلك الأعداد من التركمان الذين عملوا جنداً مرتزقة في جيوش المماليك ، فإن التركمان أقاموا لأنفسهم دولاً أو دويلات على أطراف آسيا الصغرى وبلاد الفهرين ، اشتهرت منها دولة بني دغادر ودولة بني رمضان ودولة بني قرمان ودولة الشاه البيضاء ودولة الشاه السوراء . وكان المفروض أن تكون هذه الدول التركمانية تابعة لسلطنة المماليك في مصر والشام ، ولكن الحاصل فعلاً هو أنها لم تظل على ولائها للمماليك ، وإنما دأبت على استغلال الظروف للخروج على سلطنة المماليك بل ومهاجمة أراضيها ، مما سبب لدولة المماليك كثيراً من المتاعب على حدودها الشمالية .

وقد اشتد تهديد الدول التركمانية لسلطنة المماليك في القرن الخامس عشر ، عندما كثرت القلاقل والفتن داخل دولة المماليك وظهر ضعف هذه الدولة وعجزها عن الاحتفاظ بهيبتها والدفاع عن كيائها ضد الأخطار الخارجية التي هددها ، وبخاصة من جهة تيمورلنك . وكان أن أحس السلطان المؤيد شيخ بخخطر التركمان ورأى ضرورة تأديبهم فقام بحملتين ضدهم سنة ١٤١٥ ، سنة ١٤١٧ ،

ولسكنهم أعلنوا ثورتهم من جديد عقب عودة السلطان ، فأرسل السلطان المؤيد شيخ ابنه إبراهيم على رأس حملة كبرى سنة ١٤١٩ ؛ فوعدت هذه الحملة إلى قونية ، وخرّب إبراهيم بلاد التركمان ثم عاد محملاً بالغنائم.<sup>(١)</sup>

ولم يغفر التركمان لسلطنة المماليك ما حل ببلادهم من تخريب وتدمير ، فقام عثمان قرابلوک زعيم الشاه البيضاء بمهاجمة خرتبرت سنة ١٤٢٩ كما أوغل داخل حدود دولة المماليك . ويبدو أن قرابلوک أقدم على مهاجمة دولة المماليك بتحريض من شاه رخ ابن تيمورلنك ، الأمر الذي جعل السلطان الأشرف برسبای يبادر بإرسال حملة خربت الرها — النابغة للشاه البيضاء — وأسرت حاكمها هايل بن عثمان قرابلوک<sup>(٢)</sup> .

وقد بلغ من استخفاف عثمان قرابلوک زعيم الشاه البيضاء بسلطنة المماليك أنه أرسل إلى السلطان برسبای سنة ١٤٣٣ سفارة تحمل هدية تشمل مرآة وخروف وخلاعة . وكان أن فهم برسبای ما يعنيه قرابلوک من تلك الهدية ، إذ يرمز الخروف إلى السلطان والمرآة إلى أن السلطان وأمرائه كالنساء ، في حين تشير الخلاعة إلى أن برسبای تابع لقرابلوک . ولم يستطع السلطان برسبای أن يخفي غضبه فأمر بذبج الخروف أمام الرسل وألبس الخلاعة لأحد الهزليين فرقص بها في حضرة السلطان وحطم المرآة ، ثم صرف رسل قرابلوک بعد أن أهانهم وقص أذنان خيولهم وقال لهم « قولوا لأستاذكم يلاقيني على الفرات » ؛ فكان ذلك إهلانا للحرب<sup>(٣)</sup> .

ومع أن الحرب التي شنها برسبای ضد قرابلوک سنة ١٤٣٣ انتهت لصالح سريع تمهد فيه زعيم الشاه البيضاء بأن يكون تابما مخلصا لسلطان المماليك ؛ إلا

(1) Wiet : op cit., pp. 546—547.

(2) إبراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص ١٢١ — ١٢٢ .

(3) ابن لباس : بدائم الزهور ج ٢ ص ١٩ — ٢٠ .

أن قرايلوك كان ينفك دائماً بوعوده ، الأمر الذي سبب للسلطان برسباي متاعب كثيرة . ولم يلبث برسباي أن انتهز فرصة استحكام الخلاف بين دولتي الشاه البيضاء والشاه السوداء وأعلن تأييده للأخيرة . وقد انتهى ذلك النزاع بتغلب دولة الشاه السوداء فتمكن زعيمها من هزيمة قرايلوك وقتله ، وعندئذ أرسل رأسه إلى السلطان برسباي سنة ١٤٣٥ فعلقها السلطان على باب زويلة وأمر بإقامة الزينات في القاهرة ابتهاجاً بالخلاص من ألد خصومه<sup>(١)</sup> .

وفي سنة ١٤٣٨ اعتلى دست سلطنة المماليك السلطان جقمق الذي اتصف عهده بهدوء العلاقات مع التركان فصاهر أمراء دغادر ، وتدخل سنة ١٤٤٩ في النزاع بين أبناء عثمان قرايلوك الذين دب فيما بينهم الخلاف ، وفر أحدهم وهو الأمير قاسم إلى السلطان جقمق فنصره وساعده<sup>(٢)</sup> . كذلك يروي السخاوي أن تركان الشاه السوداء خطبوا ود السلطان جقمق وأرسلوا له هدية ثمينة سنة ١٤٥١ ، فقبلها السلطان وأكرم الرسل ورد على الهدية بأحسن منها<sup>(٣)</sup> . وفي العام التالي — أي سنة ١٤٥٢ — أرسل أوزون حسن — أمير الشاه البيضاء — مفاتيح آمد إلى السلطان جقمق بمد أن انتزع تلك المدينة من أخية جهانكير المعادي لسلطنة المماليك ، فشكره جقمق ورد إليه المفاتيح<sup>(٤)</sup> .

على أنه يلاحظ منذ منتصف القرن الخامس عشر ازدياد المتاعب التي سببتها دول التركان لسلطنة المماليك وذلك بسبب ظهور قوة العثمانيين وتدخلهم في شئون الإمارات التركمانية من ناحية وفي العلاقات بينهم وبين سلطنة المماليك من ناحية أخرى . من ذلك أنه حدث سنة ١٤٥٤ أن اعتدى السلطان محمد الفاتح

(1) Wiet : op. cit., p. 565.

(٢) السخاوي : التبر المسبوك ص ٣٠٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٤٤ — ٢٤٥ .

(٤) المرجع السابق ص ٣٨٤ .

العثماني على إمارة دلغادر ، فأرسل أميرها إبراهيم بن قرمان مستنجدا بالسلطان إينال « فما أكثرث السلطان بذلك » بسبب صلة الصداقة بين الدولة العثمانية وسلطنة المماليك عندئذ . ويبدو أن موقف إينال السلبي من أمير قرمان - وهو مشمول بالحماية المماليكية - أثار إبراهيم بن قرمان فخرج على سلطنة المماليك ، الأمر الذي جعل السلطان إينال يبادر بإرسال حملتين ضده حتى تم القضاء على تلك الفتنة<sup>(١)</sup> .

ولم يلبث أن اتخذ التنافس بين سلطنة المماليك من ناحية وسلطنة العثمانيين من ناحية أخرى شكل مناصرة قوة أو أخرى من القوى التركمانية الواقعة على الحدود بين دولتي المماليك والعثمانيين . من ذلك أنه حدث نزاع سنة ١٤٦٦ في إمارة دلغادر بين شاه سوار وأخيه بوداق ، فناصر السلطان محمد الفاتح شاه سوار وناصرت سلطنة المماليك أخاه بوداق . وكان أن انتصر شاه سوار على أخيه فخطب له في العاصمة أبلستين وأخذ يهاجم أطراف دولة المماليك ، الأمر الذي أثار السلطان قايتباي وجعله يرسل حملة سنة ١٤٦٧ لتأديب شاه سوار . ولكن جيش قايتباي « انكسر كسرة شنيعة »<sup>(٢)</sup> . ولم تفجح الحملة التي أرسلها قايتباي في العام التالي ضد سوار ، إذ منيت بنفس المهير من الفشل والهزيمة .

ويبدو أن سوار تمادى في الاستخفاف بدولة المماليك والعبث بحدودها ، فضلا عن أنه اعتدى على الدول التركمانية المخالفة لسلطنة المماليك مثل دولة بني رمضان . لذلك لم يستطع السلطان الأشرف قايتباي السكوت عن ذلك التهديد الخطير لهيبة دولة المماليك ، فأرسل حملة كبرى ضد سوار سنة ١٤٧٠ بقيادة الأمير يشيك الدوادار . وقد زود قايتباي قائد هذه الحملة بسلطات استثنائية واسعة ليوفر

(١) ابن لياس : صفحات لم تنشر ص ٢٣ ، ٤٧ ( نشر محمد مصطفى ) .

(٢) ابن لياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ١٢ ( نشر محمد مصطفى ) .

له إمكانيات النصر، «فقوض إليه السلطان أمور البلاد الشامية والحلبية وغير ذلك من البلاد، وجعل له الولاية والعزل في جميع أحوال المملكة...»<sup>(١)</sup>. وفعلا انتصر الأمير يشبك على شاه سوار واستولى منه على قلعة عينتاب، كما استرد منه أذنه وطرسوس، حتى اضطر سوار إلى الاستسلام سنة ١٤٧١. ولم يلبث أن عاد يشبك إلى مصر منتصرا ومعه سوار مقيدا في الأغلال، وذلك بعد أن عين بوداق أميراً على إمارة دلفادر بدلا من أخيه سوار.

ومع ذلك، فإن سلطنة المماليك استمرت تعاني كثيرا من المتاعب من جانب إمارة دلفادر، لا سيما بعد أن خلف علاء الدولة أخاه بوداق في حكم الإمارة سنة ١٤٨٠. ذلك أن علاء الدولة وقع تحت تأثير العثمانيين وتحريرهم وإن كان تفوق الجيوش المماليكية على الجيوش العثمانية في ذلك الدور قد جعل علاء الدولة يلتزم جانب الحرص في معاملاته مع دولة المماليك ويتودد إليها.

أما أوزون حسن - أو حسن الطويل - زعيم قبيلة الشاه البيضاء، فقد استغل المتاعب التي سببها شاه سوار لدولة المماليك وأغار على إقليم حلب كما وصلت جيوشه إلى الرها؛ وبعد سقوط سوار حاول إثارة أخيه بوداق ضد سلطنة المماليك لذلك بادر السلطان قايتباي بإرسال حملة بقيادة يشبك الدوادار ضد حسن الطويل سنة ١٤٧٢<sup>(٢)</sup>. على أنه رغم الانتصارات الجزئية التي حققها المماليك على حسن الطويل، فإن دولة الشاه البيضاء لم تخضع في سهولة، ولا سيما وأن الأمير خليل الذي خلف أباه حسن الطويل في حكم الشاه البيضاء سنة ١٤٧٨ لم يكن أقل عنادا. وقد حدث في الحروب التي شنّها الأمير يشبك في شمال الشام والعراق في ذلك الدور أن أسر يشبك نفسه وقتل سنة ١٤٨٠. ولما سمع السلطان قايتباي

(١) ابن إياس: بدائم الزهور ج ٣ ص ٥٩ (نشر محمد مصطفى).

(٢) ابن إياس: بدائم الزهور ج ٣ ص ٨٠، ٨٦ (نشر محمد مصطفى).

ذلك الخبر « اضطربت أحواله وماجت القاهرة عن آخرها وكان يوما مهولا »<sup>(١)</sup>.  
وقد بادر السلطان قايتماى بإرسال حملة للانتقام بقيادة الأمير أوزبك ، ولكن  
دولة الشاه البيضاء بادرت بالإعتذار عماسلف ، ومن ثم هدأت العلاقات بين سلطنة  
المماليك وتلك الدولة إلى أن التهم الأتراك العثمانيون دول التركان ودولة  
المماليك جميعا .

### المماليك والعثمانيون :

أما العلاقة بين سلطنة المماليك وسلطنة العثمانيين فقد بدأت أتم ما تكون  
صفاء، لاسيما وأن الدولة العثمانية وجهت جهودها في الدور الأول من حركتها  
التوسعية ضد القوى المسيحية المجاورة ، وبخاصة الدولة البيزنطية ، وهو أمر قوبل  
بالارتياح الكبير من جانب المماليك وغير المماليك من القوى الإسلامية في  
الشرق الأدنى . وزاد من ذلك الشعور الودى المتبادل بين المماليك والعثمانيين  
تعرض الدولتين لخطر واحد مشترك هو خطر تيمورلنك مما حتم ضرورة الاتصال  
والتفاهم بينهما لمواجهة ذلك الخطر .

وثمة إشارة في المراجع إلى أن السلطان مراد الأول العثماني أرسل سنة ١٣٨٨  
سفارة إلى السلطان برقوق تحمل إليه هدية وتحذره من تحركات تيمورلنك من  
تبريز نحو الغرب مما يهدد الدولتين المماليكية والعثمانية<sup>(٢)</sup> . وإذا كان السلطان  
برقوق قد أكرم وفادة رسل السلطان العثماني ، وأظهر استعدادا للتضامن معه  
لصد خطر تيمورلنك ألا أنه لم يستطع أن يخفى مخاوفه من أطماع العثمانيين  
وخطورتهم على مستقبل دولته ، فقال « إني لا أخاف منه ( تيمورلنك ) فإن

(١) ابن لباس : بدائم الزهور ح ٣ ص ١٧٤ ( نشر محمد مصطفي ) :

(٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٦ .

كل أحد يساعدني عليه ، وإنما أخاف من ابن عثمان ! » (١) .

ولم تلبث الأحداث أن أثبتت صدق ظن برقوق إذ أغار بايزيد الأول العثماني على قيصرية سنة ١٣٩١ وقبض على صاحبها الذي كان مشمولاً بحماية دولة المماليك . هذا وإن كان تخوف بايزيد من خطر تيمورلنك الذي أخذ يزداد اقتراباً من حدود دولته قد جعله يسارع إلى إصلاح الأمور مع السلطان برقوق فاعتذر له عما حدث وأرسل له هدية ثمينة (٢) . ويبدو أن بايزيد العثماني لم يجد له حليفاً قوياً يساعده في دفع خطر تيمورلنك سوى دولة المماليك ، فأرسل إلى السلطان برقوق يحذره من ذلك الخطر ويقول إنه وضع تحت تصرفه مائتي ألف فارس ليستعين بهم في محاربة تيمورلنك ؛ فضلاً عن أنه طلب من السلطان برقوق أن يرسل إليه طبيباً « حاذقاً في صنعة الطب » ليداويه . وقد قابل برقوق كل تلك العروض في حذر ، فشكر السلطان العثماني واحتفى برسله وأوفد إليه الطبيب شمس الدين محمد بن صغير ومعه من الأدوية والعقاقير ما يكفي لعلاجه (٣) .

وثمة مظهر آخر من مظاهر تمسح السلاطين العثمانيين في ذلك الدور بدولة المماليك في مصر هو طلب بايزيد العثماني تفويضاً شرعياً بالسلطنة من الخليفة العباسي بالقاهرة سنة ١٣٩٤ . ومع أن سلطنة المماليك وقفت موقف المتحفظ من ذلك الطلب ، إلا أن بايزيد أرسل إلى تيمورلنك حوالى سنة ١٣٩٩ يذكره بأن الخلافة العباسية مازالت قائمة في مصر وبأن هذه القوة الكبيرة

(١) ابن حجر : إنباء الغمر ج ١ ورقة ٣٨٥ .

(٢) ابن قاضي شهبه : ذيل تاريخ الاسلام ورقة ٦٩

(٣) المقرئى : السلوك ، ج ٣ ص ٧٠٨

الخطيب : نزهة النفوس ورقة ٤٥ .

كفيلة برده إذا حاول العدوان<sup>(١)</sup> . ومن جهة أخرى فإن السلطان بايزيد حرص على إرسال سفارة إلى مصر ليبشر المسلمين بانتصاره على الأوربيين في موقعة نيقوبوليس سنة ١٣٩٦ كما أرسل إلى السلطان برقوق هدية من أسرى الفرنج بلغ عددهم مائتي أسير<sup>(٢)</sup> .

على أن تلك العلاقة الطيبة بين سلطنة العثمانيين وسلطنة المماليك أضعفت من شأنها أطماع العثمانيين . وكان ذلك في مطلع عهد السلطان فرج بن برقوق عندما أغار بايزيد العثماني على أطراف دولة المماليك واستولى سنة ١٤٠٠ على ملطية ودارنده<sup>(٣)</sup> . ولا شك في أن ذلك العدوان كان كافيا في حد ذاته لتحذير سلطنة المماليك من نوايا بني عثمان ؛ هذا وإن كان خطر تيمورلنك ظل يدفع العثمانيين دفعا إلى الاحتفاظ بحدود المماليك ، بدليل أن بايزيد عاد بعد قليل يطلب مخالفة السلطان فرج لإقامة جبهة متحدة في وجهه تيمورلنك ؛ ولسكن كسبار الأمراء في مصر رفضوا مخالفة ابن عثمان وأرسلوا إليه يذكرونه بعدوانه على ملطية . وهكذا أتاحت الفرصة لتيمورلنك لسكى يزل ضربته بكل من القوتين الكبيرتين في الشرق الأدنى على انفراد فزحف على دولة المماليك وأنزل الهزيمة بجيوشها قرب دمشق في أواخر سنة ١٤٠٠ ، كما أوقع بالسلطان بايزيد وأنزل به كارثة أنقرة سنة ١٤٠٣ .

على أن وفاة تيمورلنك سنة ١٤٠٥ وتفكك دولته أتاح فرصة لدولتي المماليك والعثمانيين للتخلص من أثر الضربات التي أنزلها بهما تيمورلنك . وكان أن تجددت علاقات الود بين السلطنة العثمانية والسلطنة المماليكية ، فأرسل السلطان

---

(1) D'Ohsson : Tableau de l'Empire Othoman, VI, p. 223 & Arnold : The Caliphate, p. 106.

(٢) ابن قاضي شهبه . ذيل تاريخ الاسلام ج ٣ ورقة ١٢٣ .

ابن حجر : إنباء العمر ج ١ ص ٤١٤ .

(٣) العيني . عقد الجمان ج ٢٥ ورقة ٧٨ .



مراد الثاني العثماني سفارة إلى القاهرة سنة ١٤٢٣ تمهئة السلطان الأشرف برسباي بالسلطنة ، ومعها هدية . وقد رد السلطان على الهدية بأحسن منها ، وإن كانت هدية سلطان المماليك لم تصل إلى السلطان العثماني بسبب وقوعها في أيدي قراصنة البحر من الأوربيين<sup>(١)</sup> . ومع ذلك فإن هذا لم يمنع السلطان مراد الثاني من إرسال سفارة عثمانية أخرى إلى السلطان برسباي سنة ١٤٢٦ ، وقد أقيمت هذه السفارة في القاهرة حين شهدت مجيء ثلاث حملات السلطان برسباي على قبرس سنة ١٤٢٧ ، وهي الحملة التي نجحت في غزو الجزيرة وأسر ملكها جانوس وزجنان . ويبدو أن أخبار هذا النصر الذي أحرزته سلطنة المماليك أثار غيرة السلطان مراد الثاني العثماني ، فبادر في العام التالي - ١٤٢٨ - بإرسال خمسين أسيراً مسيحياً أوربياً هدية للسلطان برسباي<sup>(٢)</sup> .

وعندما ارتقى جقمق دست سلطنة المماليك ( ١٤٣٨ - ١٤٥٣ ) ازدادت أواصر الصداقة بين الدولتين العثمانية والمماليكية ، فتبادلت المراسلات والسفارات والهدايا بين مراد الثاني العثماني وجقمق ، وحرص السلطان مراد الثاني على أن يبعث إلى مصر عدة من أسرى انتصاره على الحلف الأوربي عند فارنا سنة ١٤٤٤ . وقد استمرت هذه السياسة الودية قائمة بين السلطان محمد الثاني والسلطان إينال ، فاحتفلت القاهرة احتفالاً رائعاً لسقوط القسطنطينية في قبضة العثمانيين سنة ١٤٥٣ ، فزينت الأسواق والحارات وأوقدت الشموع في الشوارع والمسآذن ودقت البشائر السلطانية بالقلعة عدة أيام<sup>(٣)</sup> .

غير أنه لم يكفد يتم للعثمانيين الاستيلاء على القسطنطينية والسيطرة على البلقان ، حتى عادوا يوجهون بصرهم تجاه الشرق بغية الاستيلاء على الأجزاء التي ما زالت

(١) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك في مصر ص ٢٠٠ .

(٢) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك ص ٢٠٠ .

(٣) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك ص ٢٠٢ .

خروج قبضتهم في آسيا الصغرى . والمعروف أن الإمارات التركمانية القائمة في آسيا الصغرى وشرقيها - وأهمها إمارة قرمان وإمارة دغاادر - كانت مشمولة بالحماية المالكية ؛ فأنذر نطلع الدولة العثمانية إلى بسط سيطرتها على تلك الإمارات بصدام مقبل بين العثمانيين والماليك . وقد اتخذ الصدام بين العثمانيين والماليك في ذلك الدور الأول شكل قيام كل دولة بمساعدة بعض الأطراف المتنافسة على الحكم في الإمارات التركمانية ، فتساعد سلطنة العثمانيين أميراً منافساً للأمير الذي تؤيده سلطنة الماليك ، مما أوجد حالة من الصدام غير المباشر بين العثمانيين والماليك . وازدادت العلاقة توتراً بين سلطنتي الماليك والعثمانيين عندما رحب السلطان قايتباي بأخ صغير للسلطان بايزيد الثاني العثماني اسمه جم ، وكان هذا الأخ قد هرب من المذبحة التي اعتساد كل سلطان عثماني أن يدبرها للتخلص من منافسيه<sup>(١)</sup> .

ولم يلبث التنافس بين سلطنة الماليك وسلطنة العثمانيين أن اكتسب شكلاً سافراً ، فأخذ السلطان بايزيد يمد يد العون للأمير علاء الدولة أمير دغاادر الخارج على سلطنة الماليك ١٤٨٣ ، وساعده بجنود عثمانية في الإغارة على نيابة ملطية التابعة للماليك في آسيا الصغرى . ولم تفلح جهود السلطان قايتباي في إصلاح العلاقات بين دولتي الماليك والعثمانيين ؛ بل لقد أخذت جموع من العثمانيين تهاجم حدود الشام دون سابق إنذار . وإذا كانت جيوش الماليك قد أحرزت عدة انتصارات في الجبهة الشمالية في أواخر القرن الخامس عشر ، فإن هذه الانتصارات لم يكن لها نتيجة سوى إيفار صدر السلطان العثماني وتحريك الرغبة في الانتقام عنده .

وعندما توفي السلطان قايتباي سنة ١٤٩٦ ، أرسل ابنه محمد - الذي ولي

---

(١) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين ص ٢٠٣ - ٢٠٤

السلطنة بعده - رسولا اسمه خاير بك إلى السلطان بايزيد الثاني ليعلمه بنياً سلطنته .  
وخاير بك هذا هو صاحب دور الخيانة الذي سبقت الإشارة إليه عند الكلام  
عن سقوط دولة المماليك ؛ وربما رجعت الخيوط الأولى لتوأماته وخياناته إلى ذلك  
الوقت الذي أوفده فيه محمد بن قايتباي إلى القسطنطينية . وفي الوقت الذي اضطرت  
أحوال سلطنة المماليك في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر نتيجة  
لثورة المماليك والأمراء وكثرة تغيير السلاطين والتخلص منهم بالقتل أو العزل ؛  
كانت السلطنة العثمانية تستعد استعداداً جدياً للمعركة الفاصلة التي ستحدد مستقبل  
الزعامة السياسية على العالم الإسلامي في الشرق الأدنى . وقد سبق أن رأينا كيف  
استطاع السلطان سليم الأول العثماني إسقاط سلطنة المماليك عقب موقعة مرج دابق  
سنة ١٥١٦ ثم موقعة الريدانية سنة ١٥١٧ .

### المماليك والدولة البيزنطية :

أثبت سلاطين المماليك أنهم على جانب كبير من المهارة السياسية والقدرة على  
اكتساب الحلفاء في الخارج ضد أعدائهم الذين هددوا دولتهم تهديداً مباشراً في  
مصر والشام . وهكذا حالف المماليك مغول القفجاق ليضربوا بهم مغول فارس  
الذين طالما هددوا بلاد الشام . ولكن مغول فارس لم يكونوا الخطر الوحيد الذي  
هدد نفوذ المماليك وأمن دولتهم في بلاد الشام ؛ وإنما كان هناك الخطر الصليبي  
ما زال قائماً عند قيام دولة المماليك ليمثل خطراً حقيقياً لا يستهان به .

وكان طبيعياً أن يحالف المماليك أعداء الصليبيين ، مثلما حالفوا أعداء مغول  
فارس ، فلم تسكد سلطنة المماليك تقف على قدميها في عهد الظاهر بيبرس حتى أخذت  
تسعى للتقارب مع الإمبراطورية البيزنطية ، وهي العدو التقليدي للصليبيين بالشام  
منذ قيام الحروب الصليبية في نهاية القرن الحادي عشر . ولم تلبث أن توطلت

العلاقات بين السلطان الظاهر بيبرس والامبراطور ميخائيل باليولوجس ، فأرسل الإمبراطور إلى سلطان المماليك يطلب منه إيفاد بطرك من المماليكين ليرعى شئون الطائفة المملوكية في دولته . وكان أن استجاب بيبرس لرغبة الامبراطور فأرسل إليه سنة ١٢٦٢ . الرشيد الكحال - وهو أحد رجال المذهب المملوكي - صحبة الأمير فارس الدين أقوش المسعودي . وهناك في القسطنطينية احتفى الامبراطور البيزنطي بالسفارة المماليكية ، وأطلع الأمير أقوش على مسجد المسلمين الذي كان الصليبيون قد هدموه في الحملة الصليبية الرابعة والذي شرع الإمبراطور في تجديده<sup>(١)</sup> . وكان أن أسهم بيبرس في ترميم مسجد القسطنطينية فأرسل إليه « الحصر العبداني والقناديل المذهبة والسطور المرقومة ، والباخر والسجادات والعود والعنبر والمسك وماء الورد<sup>(٢)</sup> » .

ومع أن الأمير أقوش المسعودي عاد من القسطنطينية يحمل هدايا الامبراطور البيزنطي للسلطان الظاهر ؛ إلا أن الأخير استاء عندما علم أن الامبراطور عاق رسله أثناء سفرهم سنة ١٢٦٤ عبر بلاده إلى بركة خان زعيم مغول القفجاق . وقد غضب بيبرس لذلك الأمر وجمع رجال الدين ليشهدهم على أن الامبراطور البيزنطي « خالف الأيمان » . على أن الامبراطور ميخائيل باليولوجس لم يلبث أن استدرك غلطته في سرعة ، فأطلق رسل بيبرس وسمح لهم بالسفر إلى بركة خان وفي الوقت نفسه ، يادر بإرسال الهدايا إلى بيبرس ليسترضيه<sup>(٣)</sup> .

وقد استمرت العلاقات الودية بين سلطنة المماليك والامبراطورية البيزنطية بعد عهد بيبرس ؛ إذ تروى المراجع أن السلطان المنصور قلاوون أرسل إلى

(١) العيني : عقد الجمان المجلد الثالث ورقة ٤٨١ ع

محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس ص ١١٠

(٢) المقرئزي : السلوك ج ١ ص ٤٧١ - ٤٧٢ .

(٣) المقرئزي : السلوك ؛ ج ١ ص ٥١٤ ، ٥٣٧ .

الامبراطور ميخائيل الثامن سفارة على رأسها الأمير ناصر الدين الجزرى و بطرك الأقباط حنا السابع ؛ وحملت تلك السفارة رسالة تفيد الامبراطور باعتلاء السلطان قلاون دست السلطنة ورغبته فى الإبقاء على مودة الامبراطور و صداقته . وكان أن أجاب الامبراطور ميخائيل الثامن على السلطان قلاون مؤكدا حرصه على الصداقة بين الدولتين و يطلب منه أن يبعث إليه يمينا يتمسك بها فأرسل إليه قلاون من خلفه على ذلك اليمين<sup>(١)</sup> .

ولم تتغير سياسة الدولة البيزنطية تجاه سلطنة المماليك فى مصر عندما اعتلى عرش الدولة الامبراطور أندرونيق الثانى سنة ١٢٨٢ ، إذ بادر هذا الامبراطور الجديد بإرسال هدية إلى السلطان قلاون تشتمل حلامن الحرير الأطلس وأربعة أحمال من البسط، فسر قلاون بتلك الهدية سرورا كبيرا وغمر الرسل بالعطايا<sup>(٢)</sup> .

والمعروف أن سلطنة المماليك بلغت أقصى درجات النفوذ والسلطان على عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون . وكان طبيعيا أن يكون للدولة البيزنطية نصيب كبير من النشاط الخارجى الضخم الذى ميز دولة المماليك فى ذلك العصر . ويقال إن الإمبراطور البيزنطى أندرونيق الثانى أرسل سفارة إلى الناصر محمد سنة ١٣٠٥ تحمل هدية له وتسأله إعادة كنيسة المصلبة فى بيت المقدس إلى أصحابها، وكان المسلمون قد حولوا هذه الكنيسة إلى مسجد فى عهد السلطان بيبرس<sup>(٣)</sup> . على أنه يبدو أن الناصر محمد لم يستجب فى سرعة لتلك الرغبة فسكرر الإمبراطور رجاءه بعد ذلك بعدة سنوات ؛ وعندئذ أعاد الناصر محمد تلك الكنيسة إلى المسيحيين بعد أن أفتى علماء المسلمين بأنه لا يجوز اغتصابها ، كما استجاب السلطان الناصر محمد لرغبة الإمبراطور البيزنطى فى التسامح مع أهل الكتاب

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ، ص ١٢٣ — ١٢٤ .

(٢) النورى نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٨٥

(٣) المرجع السابق ج ٣٠ ورقة ٢٨ .

وسمح لهم بإنشاء عدة كنائس في دولته<sup>(١)</sup>. ويبدو أن الإمبراطور البيزنطي ارتاح لاستجابة السلطان الناصر محمد له، فأرسل له هدية ثمينة من الجوخ والأطلس وغير ذلك من التحف الجميلة<sup>(٢)</sup>.

والملاحظ أن الإمبراطور أندرونيق الثاني بالذات أظهر حرصاً شديداً على صداقة دولة المماليك، فاستمر في إرسال الهدايا إلى السلطان الناصر محمد بن حين وآخر. ويبدو أن الإمبراطورية البيزنطية كانت تعمل حساباً في ذلك الدور لزيادة نفوذ الدول التركمانية في آسيا الصغرى مما شكل خطراً جديداً عليها، لذلك سعى الإمبراطور البيزنطي لعمل تحالف مع سلطنة المماليك ضد التركمان<sup>(٣)</sup>. ولأدل على حرص الإمبراطور البيزنطي أندرونيق الثاني على مسالمة سلطنة المماليك، من أنه رفض المشاركة في تنفيذ المشروع الصليبي الذي وضعه أحد دعاة الحروب الصليبية من البغادقة - واسمه مارينو سانودو - وهو المشروع الذي استهدف خنق دولة المماليك اقتصادياً تمهيداً لاحتلالها خريباً ثم الاستيلاء على الأراضي المقدسة بالشام<sup>(٤)</sup>.

وقد استمرت العلاقات الطيبة بين الدولتين المماليكية والبيزنطية قائمة في عصر أولاد السلطان الناصر محمد وأحفاده. من ذلك ما تشير إليه المراجع من أن الإمبراطور حنا الخامس أرسل سفارة إلى مصر سنة ١٣٦٩ لإزالة الأثر السيء الذي تركته حملة بطرس لوزجنان على الاسكندرية سنة ١٣٦٥<sup>(٥)</sup>.

وكان أن قامت دولة المماليك الجراكسة سنة ١٣٨٢، فاستأنفت علاقاتها

(١) مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد ج ٣ ص ١٩٥.

(٢) المرجع السابق: ج ٣ ص ٢٢٩.

(٣) محمد جمال الدين سرور: دولة بني قلاوون في مصر ص ٢٦١.

(٤) سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٩٨-١١٩٩.

(٥) المقرئ: السلوك ج ٣ ورقة ٦٦ (مخطوط).

الخارجية على نفس الأسس التي اتبعتها دولة المماليك البحريةية. ويقال إن الإمبراطور حنا الخامس أرسل سفارة سنة ١٣٨٥ إلى السلطان الظاهر برقوقى تحمل إليه الهدايا وتطلب منه أن يسكون للبيزنطيين قنصل بالاسكندرية أسوة بالبنادقة ؛ فأجاب السلطان الإمبراطور البيزنطى إلى طلبه<sup>(١)</sup> . على أن الملاحظ هو أن الإمبراطورية البيزنطية أخذت تتعرض لضغط شديد من جانب العثمانيين منذ أواخر القرن الرابع عشر ، وعندئذ ضعف نشاطها الخارجى وبات واضعاً أن تلك الدولة تسير فى طريقها إلى الموت البطيء . ولم يكن بوسع الأباطرة البيزنطيين الاعتماد على مساعدة سلطنة المماليك أو تأييدها ضد العثمانيين لأن المسلمين جميعاً — داخل دولة المماليك وخارجها — كانوا ينظرون إلى توسع العثمانيين على حساب القوى المسيحية فى شرق أوربا نظرة ارتياح ويعتبرون الفتوحات العثمانية جزءاً من حركة الجهاد الدينى فى ذلك الدور الأخير من العصور الوسطى . وهكذا حتى جاءت الأخبار إلى القاهرة باستيلاء العثمانيين على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، فاحتفل السلطان إينال بذلك الحدث احتفالاً كبيراً « ودقت البشائر بالقلعة » وزينت القاهرة ابتهاجاً بسقوط عاصمة الروم ، وأرسل إينال إلى محمد الفاتح العثمانى « يهنئه بهذا الفتح العظيم »<sup>(٢)</sup> .

### سلطنة المماليك والقوى الأوروبية :

وأخيراً ، فإن سلطنة المماليك ربطتها صلوات عديدة — تجارية أو عدائية — مع بعض القوى الأوروبية وبخاصة فى حوض البحر المتوسط . ولم يكن منتظراً من سلطنة المماليك — وهى إحدى قوى البحر المتوسط وذات السيطرة

(١) ابن حجر : إنباء التمرج ١ ورقة ٢٢٣ .

(٢) ابن إياس : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص ١٥ ( نشر محمد مصطفى ) .

على أهم طرق التجارة بين الشرق والغرب وصاحبة الدور الرئيسي في الحروب الصليبية في أواخر العصور الوسطى — لم يكن منتظرا من تلك الدولة أن تعيش مقطوعة الصلة بالدول الأوربية ذات المصالح التجارية والسياسية والصليبية في البحر المتوسط .

\* \* \*

والمعروف أن صقلية ربطتها بحكام مصر من بني أيوب علاقات ودية كانت أبرز أركانها الصداقة بين الإمبراطور فردريك الثاني والسلطان الكامل الأيوبي ، وهي الصداقة التي استمرت قائمة بعد الحملة الصليبية السادسة سنة ١٢٢٨ ، واتخذت صورة هدايا وسفارات متبادلة بين الجانبين . ولا أدل على استمرار عرى هذه الصداقة من أن الإمبراطور فردريك الثاني لجأ إلى تحذير السلطان الصالح نجم الدين أيوب عندما علم بخروج لويس التاسع على رأس حملته الصليبية لمهاجمة دمياط سنة ١٢٤٨ — ١٢٤٩<sup>(١)</sup> ، ويبدو أن سقوط دولة الأيوبيين لم يغير من تلك الصداقة بين ملوك صقلية وسلاطين مصر ، إذ حرص مانفرد ابن فردريك الثاني على مصادقة سلاطين المماليك ، كما حرص سلاطين المماليك على الاحتفاظ بعلاقة الود التي ربطت مصر بمملكة الصقليتين . من ذلك ما تشير إليه المراجع من تبادل الهدايا بين مانفرد ملك الصقليتين والسلطان الظاهر بيبرس ؛ حتى أن بيبرس أرسل سنة ١٢٦١ وفدا برئاسة المؤرخ جمال الدين ابن واصل إلى ملك صقلية<sup>(٢)</sup> . وكان وفد بيبرس يحمل هدية جليلة إلى مانفرد منها بعض الزراف وبعض أسرى عين جالوت من التتار . وقد رد مانفرد على تلك السفارة بسفارة مشابهة تحمل الهدايا إلى السلطان بيبرس<sup>(٣)</sup> . وليس هناك ما يشير إلى تغير هذه العلاقة بين ملوك صقلية وسلاطين المماليك بعد عهد

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٥٥ .

(2) Lane—Poole : op. cit., p. 266 & Enc. of Islam.

(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس ص ١١٢ .



ما نفرد وإنما استمرت العلاقات الودية بين الطرفين قائمة في عهد البيت الأنجوى الذى تولى حكم صقلية منذ سنة ١٢٦٦. ويشير المقرئى إلى أن شارل الأنجوى ملك صقلية أرسل إلى الظاهر بيبرس هدية وكتابا على لسان أحد كبار موظفيه يقول فيه « بأن مخدمه أمره أن يكون أمرُ الملك الظاهر نافذاً في بلاده ، وأن أكون نائب الملك الظاهر كما أنا نائبه »<sup>(١)</sup>. ويبدو أن الغرض من هذا الكتاب كان عقد معاهدة تجارية بين دولة سلاطين المماليك وملك صقلية<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

أما الجمهوريات الإيطالية التجارية - وبخاصة البندقية وجنوا - فقد ربطتها بدولة المماليك علاقات تجارية قوية ؛ فكان لكل جمهورية قنصل فى المدن والموانى الكبرى يرعى مصالحها . ولم يكن منتظرا من الجمهوريات الإيطالية أن تضعى بمصالحها التجارية الكبرى مع سلطنة المماليك من أجل التيار الصليبي . العام ، ولذلك نسمع أن البندقية بالذات اهتزت لنبا إغارة بطرس لوزجنان ملك قبرس على الاسكندرية سنة ١٣٦٥ وأرسلت رسالها إلى السلطان شعبان فى إبريل سنة ١٣٦٦ تؤكدله أن السفن التى أغارت على الإسكندرية لانت إلى البندقية بصلاة ، وأن البنادقة لم يساعدوا الملك بطرس ولم يشتركوا معه<sup>(٣)</sup>.

وكان الجنوية لا يقلون عن البنادقة حرصا على مصالحهم التجارية فى مصر واستياء مما فعله ملك قبرس بالإسكندرية ؛ بعد أن تأثرت تجارتهم نتيجة لذلك . مع جميع البلدان الإسلامية . من ذلك مايرويه النويرى السكندرى من أن البنادقة والجنوية قصدوا بلاد العراق براً بعد واقعة الإسكندرية للتجارة كعادتهم ،

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ١٣ .

(2) Lane—Poole : op. cit., p. 266.

(٣) سعيد عبد الفناح عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٧١ .

فمنعهم السلطان أويس من دخول بغداد والمتاجرة بها وقال لهم « أرجعوا أولا إلى سلطان مصر واستدركوا ما أفسدتم في الاسكندرية ، وأتوني بخط ملك مصر بدخولكم تحت طاعته وحينئذ تبيعون ببلى وتبتاعون منه »<sup>(١)</sup>. وهكذا ألح البنادقة والجنوية في الصاح على الملك بطرس لوزجنان من ناحية وعلى سلطان الممالك من ناحية أخرى ؛ وبفضل وساطتهم تم الصلح بين الطرفين في ديسمبر سنة ١٣٧٠ ؛ وعندئذ أخذت التجارة تعود إلى ما كانت عليه بين قبرس والبندقية وجنوا من ناحية ومصر والشام من ناحية أخرى ، وأخذت سفن الفرنجة تفتد إلى الاسكندرية بكثرة « واطمأنت الناس ومافات فات »<sup>(٢)</sup>

والمعروف أن التنافس التجاري بين البندقية وجنوا انتهى في القرن الرابع عشر بتفوق البنادقة الذين احتكروا معظم النشاط التجاري في البحر المتوسط . ولم يرض الجنوية عن ذلك الوضع فأخذوا يغيرون على موانئ وشواطئ دولة الممالك الجراكسة ، وشاركهم في تلك الإغارات بعض قراصنة القطلان والروادسة والقبارسة . ويبدو أن إغارات الجنوية على شواطئ مصر والشام اشتدت في عهدى السلطان برقوق وابنه فرج ، فهاجموا صيدا وبيروت ورشيد ودمياط ، الأمر الذى جعل السلطان برقوق يهتم بتدعيم قوته البحرية في البحر المتوسط . لدفع خطر القراصنة عن شواطئ دولته من ناحية وتأديب الجنوية من ناحية أخرى . وقد حدثت عدة اشتباكات قرب دمياط بين الأسطول المماليكى والسفن الجنوية سنة ١٣٨٥ ، انتهت بهزيمة الجنوية وأسر بعضهم<sup>(٣)</sup> .

---

(١) النويرى : الإلام بالاعلام ج ٢ ورقة ٨٢ ( مخطوط ) .

(٢) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٨٢ &

النويرى : الإلام ج ٢ ورقة ٢٨٣ ب

(٣) ابن حجر : لبناء العمر ج ١ ورقة ٢٢٤ ٩

المقرئى : السلوك ج ٣ ورقة ٤١٦ .

وعلى الرغم من أن الجنوبية أسرعوا إلى مصالحة السلطان برقوق سنة ١٣٨٦، إلا أنهم عادوا بعد قليل إلى أعمال القرصنة والاعتداء على سفن المسلمين في شرق البحر المتوسط. من ذلك أن بعض سفن تابعة للسلطان برقوق كانت قادمة إلى مصر وعليها شحنة من الرقيق الجراكسة، فضلا عن أخت السلطان برقوق نفسه وبعض أقاربه، ولسكن الجنوبية أغاروا على تلك السفن وأسروا من فيها؛ الأمر الذي أغضب برقوق وجعله ينتقم من التجار والقناصل الأجانب في دولته<sup>(١)</sup>. وبمرة أخرى عاد الجنوبية إلى طلب الصلح، فأطلقوا سراح الأسرى وأرسلوا هدية إلى السلطان برقوق سنة ١٣٨٨<sup>(٢)</sup>

وهكذا استمرت العلاقة بين سلطنة المماليك وجمهورية جنوا تتأرجح بين الصلح حينما والعداء والحرب أحيانا. وقد حدث سنة ١٤٠١ — على عهد السلطان فرج بن برقوق — أن أغار بعض القراصنة من الجنوبية على طرابلس واستولوا على سفينتين كانتا في طريقهما إلى مصر تحملان قدرا كبيرا من البضائع<sup>(٣)</sup> وبعد ذلك بعامين أعد حاكم جنوا قوة بحرية كبيرة واعتزم ضرب الاسكندرية، ولكن حملته سنة ١٤٠٣ باءت بالفشل بسبب الاحتياطات التي اتخذها السلطان فرج. ولم يستطع الجنوبية بعد ذلك إعادة العلاقات الصافية بينهم وبين سلطنة المماليك<sup>(٤)</sup>. وزاد من سوء العلاقات بين جنوا ودولة المماليك في أواخر القرن الخامس عشر أن جنوا مدت أطعائها إلى جزيرة قبرس واستولت على ميناء فاما جوستا فعلا في الوقت الذي كانت جزيرة قبرس تخضع لحماية سلطنة المماليك منذ

(١) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك ج ٩ ق ١ ص ٣٣.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر ج ١ ص ٢٦٥ — ٢٧٤.

(٣) ابن قاضي شهاب: ذيل تاريخ الاسلام مجلد ٣ ورقة ١٩٥.

(4) Piloti: L'Egypt au Commencement du Quinzieme Siecle, pp. 89—90.

أن فتحها السلطان برسباى سنة ١٤٢٦<sup>(١)</sup>.

و يبدو أن سوء العلاقات بين سلطنة الممالك و جنوا في ذلك الدور هو الذى دفع الجنوبية بالذات إلى البحث عن طريق آخر — غير طريق دولة الممالك — يوصل إلى الهند . وقد نجح الجنوبية إلى كشف بعض أجزاء الساحل الغربى لإفريقية في مواجهة جزر كناريا ، مما يعتبر مقدمة للجهود التى أدت إلى كشف طريق رأس الرجاء الصالح فيما بعد<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

وإذا كانت الجمهوريات الإيطالية قد اضطرتها ظروفها التجارية وما كان بينها من مشاحنات إلى الدخول في منازعات أحيانا مع دولة الممالك ؛ فإن الوضع اختلف بالنسبة لدول أسبانيا المسيحية مثل أرغونة وقشتاله وأشبيلية . و يبدو أن حرص الدول المسيحية في أسبانيا على عدم وصول نجدات من دولة الممالك للمسلمين في أسبانيا جعل ملوك تلك الدول يسالمون سلاطين الممالك . من ذلك أن جيمس الأول ملك أرغونه تودد إلى السلطان بيبرس وبأدله الهدايا . وقد استمرت هذه العلاقات الطيبة قائمة بين مملكة أرغونة من ناحية ودولة الممالك من ناحية أخرى ؛ فأرسل جيمس الثانى ملك أرغونة ( ١٢٩١ — ١٣٢٧ ) عدة سفارات إلى السلطان الناصر محمد يسأله تسهيل مهمة الحجاج الذين يذهبون لزيارة بيت المقدس ، وكذلك يطلب منه تشجيع التجارة بين البلدين عن طريق رعاية تجار كل بلد في البلد الآخر . وكانت طلبات ملك أرغونة تجاب كلها لدى سلطنة الممالك مما ساعد على بقاء العلاقة طيبة بين الطرفين<sup>(٣)</sup>.

(١) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ١٢٥ — ١٢٦ .

(2) Beazley : Note Book of Middle Ages, p. 156,

(3) Atiya : Egypt and Aragon. pp. 60—62.

كذلك تبودلت الرسل والهدايا بين السلطان المنصور قلاون من ناحية  
والفونس العاشر صاحب قشتاله<sup>(١)</sup>. أما أشبيلية فيروى النويرى أن صاحبها  
ألفونس أرسل رسالة إلى الظاهر بيبرس يطلب صداقته ، فرد عليه بيبرس  
بإرسال سفارة تحمل هدايا جميلة . وقد قوبلت سفارة بيبرس بالحفاوة والإكرام  
في أشبيلية ، وعند انتهاء مهمتها أعد لها صاحب أشبيلية سفينة حملتها إلى  
الاسكندرية<sup>(٢)</sup>

وجدير بالذكر أن القوى الغربية التي طالما ناصبت سلطنة المماليك العداء  
بسبب السياسة الصليبية كانت أحياناً تلجأ إلى مسالمة المماليك رغبة في التخفيف  
عن أهل الذمة في مصر أو طمعاً في تحقيق سياسة الصليبيين في السيطرة على  
الأماكن المقدسة عن طريق مسالمة المماليك وكسب ودهم . من ذلك أن البابا  
حننا الثاني والعشرين اشترك مع ملك فرنسا شارل الرابع في إرسال سفارة إلى  
القاهرة سنة ١٣٢٧ تطلب من السلطان الناصر محمد بن قلاون معاملة المسيحيين  
في دولته برفق ، حتى يمكن أن يلتقي المسلمون نفس المعاملة في غرب أوروبا ؛  
« وأنه مهما عمل مجرم ( مع المسيحيين ) بمصر والشام عاملوا من عندهم من  
المسلمين مثله »<sup>(٣)</sup>. كذلك أرسل فيلب السادس ملك فرنسا سفارة ضخمة تألفت  
من مائة وعشرين رجلاً إلى السلطان الناصر محمد سنة ١٣٢٠ ، ومع السفارة  
كتاب يلتمس فيه ملك فرنسا إعادة بيت المقدس وسواحل الشام إلى الصليبيين .

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفسكرة ج ٩ ورقة ١٢٩ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ق ١ ورقة ٢٢٧ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٢٨٧ .

ولسكن السلطان الناصر غضب لذلك الطلب وأهان سفراء ملك فرنسا وأمر  
بردهم إلى بلادهم<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

وهكذا يبدو كيف اتسع نطاق العلاقات الخارجية لسلطنة المماليك ،  
أن بلاط سلاطين المماليك غدا مقصد الرسل والسفراء من حكام الشرق  
والغرب جميعاً .

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٣١ ورقة ١٠٤ .





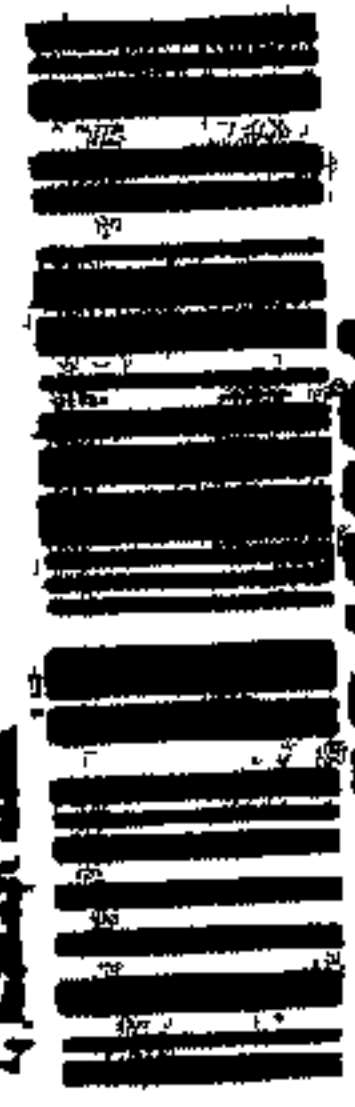








 Bibliotheca Alexandrina



0243624